



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله



كلية العلوم الإنسانية

قسم الفلسفة

مالك بن نبي وفلسفة البناء الحضاري بالبعد التربوي

أطروحة مقدمة للترشح لشهادة دكتوراه علوم في الفلسفة تخصص فلسفة عربية إسلامية

إشراف الأستاذ الدكتور:

لخضر شريط

إعداد الطالبة:

فازية بوثلجة

أعضاء لجنة المناقشة:

- أ.د/جريدة جاري رئيسا (جامعة الجزائر 2)
أ.د/ لخضر شريط مشرفا ومقررا (جامعة الجزائر 2)
أ.د/ أمينة شيكو عضوا مناقشا (المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة)
د/ علي بودريالة عضوا مناقشا (جامعة الجزائر 2)
د/ لخضر حميدي عضوا مناقشا (جامعة محمد بوضياف المسيلة)
د/ رضا شريف عضوا مناقشا (جامعة الجزائر 2)

السنة الجامعية: 2020 /2019

كلمة شكر

بسم الله الرحمن الرحيم

في البداية أشكر الله

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك ولا يطيب النهار إلا بطاعتك .. ولا تطيب اللحظات

إلا بذكرك.. ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك.. ولا تطيب الجنة إلا برؤيتك

لي الشرف العظيم أن يكون الأستاذ والدكتور الاخضر شريطهو المشرف على هذا

العمل حيث أتوجه إليه بكل تشكراتي للتوجيهاتك القيمة والإرشادات النبيلة التي

كانت بالنسبة لي الدرب الذي سأقتدي به طوال مشواري المهني والدرسي

كما أشكر الاساتذة الكرام على يد المساعدة التي قدموها لي بالخصوص الدكتورة

المتألقة حياة بن بوزيد حفظها الله

وفي الأخير أشكر كل الذين أعانوني من قريب أو من بعيد فقد صدق من قال

"فمن علمني حرفا صرت له عبدا"

الإهداء

الى الوالدين حفظهم الله وأطال الله في عمرهم

إلى أرواح اللذين سقطو برصاص الغدر لأنهم ببساطة يمثلون الطبقة
المتقفة والواعية فى الجزائر

زوجي عارف شرفاوي الذي كان لي بمثابة الاخ والاب والزوج حفظه الله
بناتي التي اتمني ان يتخذو مني قدوة مارية سيرين،ريتاج اناييس ،لوجين
اسيل،

والكتكوتة مرام مليسا حفظهم الله جميعا

فايزة بوثلجة

مقدمة

تعددت الجهود الفكرية في الواقع العربي والإسلامي الحديث والمعاصر حول إشكالية الإصلاح والتجديد في العالم العربي والإسلامي -منذ سقوط الحضارة الإسلامية - حيث إهتم الباحثون والمفكرون والمصلحون منذ ما يقارب القرنين ونصف وراحوا يبحثون عن مخرج للإصلاح والتغيير لواقعنا الحضاري، وذلك لإخراجه من وطأة الهزيمة الحضارية التي مُني بها المسلم المعاصر، نتيجة لعوامل داخلية وخارجية لا تخفى تداعياتها على كل راصد ومتابع لمسار المرحلة وما أفرزته من تحديات شكّلت تهديداً مباشراً لكياننا السياسي والحضاري. وقد وجد الفكر العربي الإسلامي نفسه وهو يواجه ضمن واقع عالمي تتسارع وتيرته في التغيير والتقدم في ظل محاولات السيطرة والهيمنة على الشعوب العربية الإسلامية، ضمن مواجهة محورين يبيلور من خلالهما توجهاته الفكرية والإصلاحية تجاه تحديات المرحلة: المحور الأول، يقف عند حدود الاستلاب الفكري الذي سعى إلى الترويج للنمط الحضاري والثقافي الغربي، وتكريس القناعة بالبديل الغربي للنهضة والتقدم. والمحور الآخر هو الذي سعى إلى التمسك بهويته التاريخية والحضارية العربية والإسلامية كتعبير عن الخصوصية الثقافية التي تشكل ضرورة مصيرية لكل مشروع فكري يسعى إلى النهوض واستشراف آفاق مستقبلية ناجحة وفعالة، غير أنّ سيطرت الخلافات المذهبية على كافة التيارات الفكرية التي ظهرت في ساحة الفكر العربي الإسلامي الحديث والمعاصر، والتي يمكن أن تلمسها حتى في إطار التيار الواحد، قد تباينت أطروحاتهم حول كيفية إصلاح واقع العالم الإسلامي.

تباينت إذن وجهات النظر في جوهر المشكلة التي تعاني منها الأمة الإسلامية، فإذا كان البعض يرى في الإصلاح السياسي حلاً للمشكلة، فإن البعض الآخر يعتقد أنّ الخلل الذي أصاب الأمة يكمن في الفهم والتأويل الخاطيء للعقيدة الإسلامية، ولهذا ينبغي أن يبدأ الإصلاح من هذه العقيدة، ويذهب فريق ثالث إلى حد اعتبار المشكلة التي تعانيها الأمة

الإسلامية يكمن في عدم قدرتها على الإصلاح والتجديد بل لا بد لها من إستيعاب النموذج الحضاري الغربي ، فهو وحده الكفيل بإحداث النقلة النوعية لحاضر العالم الإسلامي ، وإخراجه من دائرة التّخلف والإنحطاط. وأمام تباين هذه الأطروحات التي ساهمت بشكل أو بآخر في تأخير عملية الإصلاح والتجديد ، وأمام هذا الخلل في الطرح، والقصور في الفهم ، والإنحراف في الفكر والتّعصب في الدين والرأي ظهر المفكر الجزائري "مالك بن نبي" بتحليلاته وتفسيراته، حيث أراد أن يعالج إشكالية الإصلاح والتجديد من جذورها. ولعلّ أهم ما شغل باله "مالك بن نبي" موقفه من الحراك الإصلاحي الإسلامي في عصره، حيث كان مفكرو النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي اضطلعوا بالدفاع عن الهوية وتحسين صورة الإسلام وشرح تعاليمه في وجه الهجمات التي يتعرض لها باستمرار وفي وجه مساوئ الأيديولوجيات الأخرى الغربية والشرقية، أما فلسفة الحضارة والتاريخ لدى "بن نبي" فقد تجاوزت موضوع الهوية والدفاع عن الدين وانصبت على تحليل الواقع المعيشي بمنهج علمي يركز بالدرجة الأولى على أسئلة الحضارة فهو يرى أنّ الخلل السياسي والعقائدي وجلّ الأمراض التي تعانيها الأمة الإسلامية، إنّما هي مظاهر لأزمة وليست جوهرها، فجوهرها يعود إلى خلل في ثقافة الإنسان واضطراب في منظومته الفكرية ، وقصور في نسقه المعرفي الذي أسهم بشكل أو بآخر في وصول الأمة الإسلامية إلى ما هي عليه الآن. والتي تعود بالدرجة الأولى إلى الخصائص النفسية والفكرية والاجتماعية لإنسان مابعد الموحدين والتي تمثل أهم المعوقات الذاتية التي وقفت في وجه المحاولات النهضوية ومنعتها من تحقيق أهدافها الحضارية والتي تتجسد معوقاته في الجهل المركب الذي يتميز به المثقف العربي والذي يشكل مرضاً مزمناً ومعدياً ومتوارثاً بين الأجيال، وهذا لوقوعه في أسر الغرور وجنون العظمة وبالتالي عدم الاعتراف بأخطائه. وقد أدى هذا الوضع إلى تمزق البناء الاجتماعي للأمة، وسيادة النزعة الفردية في المجتمع وتعارض مصالح الأفراد والجماعات فيما بينها، فحدث الاصطدام الداخلي الذي قضى على العمل التكاملي الجاد

وأدى إلى إهدار الكثير من الطاقات الاجتماعية وصرفها فيما لا جدوى منه. كما أن الجماهير في مجتمعنا لم تعد تؤمن بمشاريع فكرية معينة.

ولهذا فإن عملية الإصلاح والتجديد عند "مالك بن نبي" إنما تتمحور حول بناء العالم الثقافي للإنسان، هذا من جهة، ومن جهة ثانية ينبغي أن نحدّد بدقة جوهر المشكلات الفرعية الذي تتفرع عن الإشكالية الجوهرية وهي إشكالية الأزمة الثقافية حيث يرى "بن نبي" أننا لا يمكن أن نتحدث عن كيفية الإصلاح والتجديد الحضاري، إلا إذا بحثنا عن كيفية سقوط وأقول الحضارة الإسلامية، لأنّ الذي يعجز أو يخطئ في تشخيص العلل والأمراض، سيعجز أو يخطئ ولا شك في وصف علاج هذه العلل ومداواتها، ولهذا فعملية الإصلاح والتجديد لن يتم لها النجاح إلا إذا استطاعت الأمة أن تحدّد بدقة أزمتها الحقيقية، وبالتالي تكون مؤهلة لتقديم العلاج الشافي والكافي لها " إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها.

بعدما تحدث "مالك بن نبي" عن الجذور التاريخية للأزمة التي يعيشها العالم الإسلامي وصل بنا إلى تشخيص الأزمة التي يعيشها العالم الإسلامي بنوع من التحديد والضبط، وكان ذلك من خلال جملة من الأسئلة المحورية، التي تضبط منهجية طرح الإشكال اعتقاداً منه أنّ الكثير من تحليلات العلماء والمفكرين لا تتوفر على آلية ضبط إشكاليات الإصلاح والتجديد، فالبعض منها ينطلق من أعراض الأزمة ويحاول علاجها فيكون جهده كالطبيب الذي يقدم مسكنات المرض ولا يستأصله من الجذور. وانطلاقاً من هذه المقدمة ارتأينا طرح الإشكالية على النحو الآتي:

ما هو النموذج التربوي الذي يجب الاقتداء به من أجل إعادة بناء الإنسان المتفسخ حذارياً؟ وهل بإمكان التربية البنائية أن تبني ذلك العالم الثقافي المفقود في المجتمع الإسلامي، في ظل العولمة والتكنولوجيا؟

إن هذه الأسئلة ذات أبعاد اجتماعية وسياسية وثقافية ذات علاقة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، انصرف عنها رواد الإصلاح في العالم العربي والإسلامي الحديث واكتفوا ببذل الجهد في وصف الوضع القائم ورصد سلبياته وشرح الإسلام ومحاولات التوفيق بينه وبين منتجات الحضارة الغربية الحديثة، وتراوحت اتجاهات الفكر العربي والإسلامي الحديث والمعاصر بين مؤيد للغرب ولحضارته وبين معارض لهما وبين من يقف في الوسط مضطرباً بالتوفيق والتلفيق، ولم تمس صميم مشكلة التخلف وأزمة النهضة. وفي المقابل نجد أنّ البعد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في فكر "مالك بن نبي" وارتباطه بالواقع المعيش وبالمنهج العلمي هو الذي انتهى به إلى إرساء نظرية الحضارة التي تجاوز بها مفكري عصره، واكتشف قصور الفكر الإصلاحي النهضوي المرتبط بالإسلام وفشله في حل مشكلة النهضة التي هي في أصلها مشكلة حضارة وليست مشكلة دينية، ففي الدين عوامل الحضارة وأسباب النهوض والأمر يعود إلى فهم الدين والتعاطي معه، فالتخلف مثل التّحضر يحل بالمسلم وبغير المسلم، والإسلام عامل تحضر إذا تمكّن المسلمون من تحريكه نحو الإقلاع والبناء الحضاري، وإلا كيف نفسر تخلف المسلمين وتقدم غيرهم، فالإسلام ليس مجرد شعارات تُرفع ومناسك تُقام وشروح تُبرز محاسنه وتفند أقاويل ودعاوى خصومه وأعدائه، بل الأمر يتعلق بالمنهج الإسلامي المتبع من طرف المسلمين في التعاطي مع الواقع والحياة عامة ولهذا فقد نجد "مالك بن نبي" - في جميع كتاباته بالفرنسية والعربية تحت عنوان مشكلات الحضارة - حريصاً على تحديد الوضعيات وطرح المشكلات بدقة وتحليل الوقائع باستخدام المنهج العلمي والصرامة المنطقية، ركز على الحضارة وقدم نظريته فيها مستخدماً أوضاع العالم المتخلف بصفة عامة وظروف العالم العربي والإسلامي بصفة

خاصة، انتقل بفكر متميز له خصوصياته المنهجية والعلمية ونجح أيما نجاح في تشخيص الداء وتحديد الدواء لشعوب مريضة بالتخلف والضياع ولا نجد سوى الحضارة والتجديد الحضاري لتتجاوز محنتها. وللتوسيع أكثر في الموضوع وللإجابة عن إشكالية البحث اعتمدنا المنهج التحليلي الاستنتاجي، وذلك بتحليل أهم أفكار "مالك بن نبي" المتعلقة بموضوع البحث، وحاولنا قدر الإمكان استخلاص النتائج المترتبة عن هذا التحليل.

فقمنا بتقسيم البحث إلى ستة فصول مترابطة ومتكاملة يعالج كل منها جانباً هاماً من جوانب فلسفة "بن نبي". حيث تطرقت في **المبحث الأول** إلى أهم المحطات الأساسية من حياته ومجاهداته الفكرية ونشاطاته الثقافية المعرفية، خالصاً إلى تسليط الضوء على جملة اهتماماته الفكرية والفلسفية وهذا من حيث النشأة وأهم العوامل الأساسية التي ساعدته على تكوين شخصيته بما فيها الخصائص الذهنية والعقلية (كإمتيازه بالذكاء الحاد والبعد في النظر والدقة في الملاحظة) وما زاد لشخصيته ثراء تلك المميزات الأخلاقية والسلوكية بما فيها علو الهمة وقوة الطموح، كما كان لأسرته المتدينة دور هام في غرس ثقافة الدين في نفسيته منذ صباه. وقد أبدى إعجاباً بالتجربة الغربية وفلاسفتها -كونه عاش في أوروبا لمدة طويلة- أمثال "روني ديكرت" حيث تأثر به خصوصاً في طريقة تفكيره وكذا دقة منهجه. أما في **المبحث الثاني** فقد خصصته لبوادر التغيير في العالم الإسلامي وأخذت الجزائر كنموذج، لكن قبل تناول هذه الفكرة تطرقت إلى أهم الأسباب الرئيسية التي دفعت بمختلف المنظمات والأحزاب السياسية إلى المطالبة بالتغيير حيث كانت الجزائر في وقت الاحتلال الفرنسي تعاني من أوضاع مزرية وقاسية جدا مما انعكس ذلك بالسلب على جميع الميادين بما في ذلك (التخلف السياسي والاجتماعي والثقافي والسياسي، ونتيجة لهذه الأوضاع المتأزمة ظهرت وتبلورت الفئة المثقفة على شكل أحزاب ومنظمات سياسية ونقابات طالبت ونادت بضرورة التغيير. كما كان للجمعيات دوراً هاماً في العمل على توعية الشعب بما

فيها "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكذا الجمعيات الرياضية والطلابية والكشافة الإسلامية ..

أما الفصل الثاني فقد خصصته للحديث عن حتمية التغيير وهي نتيجة منطقية وواقعية عن تلك الظروف المزرية التي كان يعيشها الشعب إبان فترة الإستعمار، حيث تناولت في **المبحث الأول** حيث قمت بضبط مفهوم التغيير عند "مالك بن نبي" مبرزاً أهم خصائص منهج التغيير (كالعلمية والشمولية والانسانية والمسؤولية والفعالية....) ومدى أهميته في تحقيق عملية التغيير وأنواعه بما فيها التغيير الاجتماعي والنفساني، والثقافي والسياسي وأخيراً التغيير الاقتصادي. أما في **المبحث الثاني** فقد بينت أهم الوسائل اللازمة والضرورية لتحقيق عملية التغيير في المجتمع بما فيها (الانسان، التربية، العقيدة، العنف والثورة) مبرزة أهم الأهداف الأساسية والرئيسية كبناء الانسان وتحقيق الديمقراطية..... إلخ.

أما الفصل الثالث بما فيه المبحث الأول الذي تناولت فيه عملية البناء الحضاري عند "مالك بن نبي"، حيث تناولت فيه مفهوم الحضارة عنده مع أهم المراحل الأساسية التي مرت بها الحضارة الإسلامية وكذا العوامل الأساسية التي تساهم في تكوين الحضارة بما فيها (الانسان والتراب والوقت) غير أنّ هذه الحضارة لا تكتمل إن لم يتوفر العامل الروحي (الفكرة الدينية) نظراً للدور المهم الذي يلعبه -هذا العامل- في خلق التوازن النفسي، وإعادة بعث الروح الإنسانية مع تكوين مجتمع متماسك وموحد وقوي. لقد وجدت أنه قد تعمق في الاطلاع على علم الاجتماع والتاريخ والفلسفة، وأنه قد تأثر أكثر بمفكرين عظيمين جمعاً بين هذه العلوم ينتمي أحدهما إلى الثقافة العربية في عصورها القديمة، وهو "ابن خلدون" وينتمي الآخر إلى الثقافة الغربية وعصورها الحديثة، وهو "أرنولد توينبي". وقد سار "بن نبي" على خطى "ابن خلدون" في التوقف عند الحضارة باعتبارها ظاهرة اجتماعية، بغية فهم السبل التي تؤدي إليها والعوامل التي تؤثر فيها. وهناك أوجه شبه كثيرة بين أفكار الأستاذ والتلميذ؛ فقد قدم الأول نظرية الأجيال الثلاثة التي تتجسد في البداوة والحضارة والترف؛ وقدم الثاني

نظرية المراحل الثلاثة المتمثلة في الروح والعقل والغريزة ونظر لأهمية التحضر ومدى تأثيرها في حياة الفرد والمجتمع فقد عمدت إلى إبراز علاقتها بالفنون الأخرى كالتاريخ والثقافة والدين. **أما المبحث الثاني** فكان حول عملية التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي" لأنه في تحليله لعملية البناء الحضاري لم يكتف بعملية السرد التاريخي للحوادث بل جدد فيها. وتحليل الفكرة قمت أولاً بضبط مفهوم التجديد (لغويًا وإصطلاحاً) ثم أجريت مقارنة بين المفكر "محمد إقبال" و"مالك بن نبي" حول معنى التجديد لنبيين في الأخير أن "مالكا" لم يكن ناقلًا ولا مقلدًا لأصحاب حركة التجديد في الفكر الإسلامي والدليل على ذلك أن التجديد أخضعه لشروط محكمة ومضبوطة بما فيه العدة الدائمة، البناء لا التكريس والتغيير الاجتماعي (وهي شروط لم تتوفر لدي المفكرين السابقين لحركة التجديد. وقد شمل التجديد عند "مالك بن نبي" عدة أبعاد بما فيه البعد التاريخي والنفساني، ومن بين أهم الجوانب الأساسية التي جدد فيها نجد مزجه بين النظرية والتطبيق، الفكرة والواقع والتغيير الاجتماعي معتبراً الانسان هو محور التغيير الحضاري، وأخيراً تطرقت إلى أهمية التجديد الحضاري بما فيه البناء الحضاري وتحقيق التقدم وبناء الانسان .

ونضراً لما يقال حول فكر "مالك بن نبي" ، أنه فيلسوف الحضارة وأنّ الاغلبية من الطلبة وكذا الاساتذة يجهلون أن "مالكا" كان كذلك مربياً بالرغم من انه لم يولف كتب حولها لكنه جعل منها المحور الاساسي في فكره وكذا كتبه لكن لم يعلن ذلك صراحة مثلما هو الحال في (شروط النهضة مثلا أو وجهة العالم الاسلامي) لذلك فضلت أن اقف مطولاً عند هذا الجانب التربوي عند "مالك بن نبي" فعلاً فوجدته أنه فيلسوف ومربي ومصالح اجتماعي وهذا حينما ركز على أهمية التربية الاجتماعية وعلاقتها بالحضارة.

لهذا فقد خصصت **الفصل الرابع** للحديث عن التربية عند "مالك بن نبي"، لكن قبل ذلك فقد تطرقت الى التربية عبر العصور ففي **المبحث الأول** قمنا بعرض نظرة شاملة حول تطور التربية بداية من العصور القديمة وهي التربية التي قامت في الجانب الشمالي

لحوض البحر الأبيض المتوسط ،حيث برزت حضارتان هما اليونانية والتربية الرومانية ومنه تظهر نوعين من التربية وهما : التربية اليونانية وكان هدف التربية من هذه التربية هو توفير الحماية للمدينة فاهتمت بتحقيق القوة الجسدية من أجل تكوين جنود مثاليين أما مواد التعليم فكانت الرياضة البدنية والتدريبات العسكرية،أما في التربية الرومانية فإننا نلاحظ نوعاً من التطور لأنها اهتمت بالناحيتين الجسمية والخلقية، فكان على التلميذ أن يتدرب على ما يحتاجه المحارب ويحفظ التعاليم الدينية وألواح القانون الروماني ويعتبر دراسة الفلسفة والهندسة والموسيقى وسائل جيدة للتربية الخطابية لأنها تقدم للخطيب أفكاراً وترشده إلى وضع هذه الأفكار في حجة رصينة دامغة ومن بين أهم الأفكار التي ركزت عليها التربية الرومانية نجد: التركيز على فنون القتال وتقوية أجسامهم عن طريق الرياضة. ثم تطرقت الى التربية في العصور الوسطى وكان أهم ما كان يميز أوروبا في تلك الفترة هو حالة الجهل العام والضعف الفكري الظاهر، فكانت أفكارهم عبارة عن تطورات وهمية خيالية حول أشخاص عظماء قداماء. ومن حيث العلوم كانت الخرافات هي التي تملأ رؤوسهم، ويرجع ذلك لعدة عوامل منها: احتكار رجال الدين للتربية والتعليم الذين كانوا قاصرين على علوم الدين والقانون الروماني وقانون الكنيسة. وألغيت حرية التفكير والبحث العلمي، وهذا أدى إلى الركود العقلي وقد استمدت التربية في العصور الوسطى مقوماتها من النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القائمة آنذاك، على عكس ما نجده عند التربية الإسلامية التي استمدت روحها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وفي ضوء هذه الفلسفة التربوية الإسلامية، نجد المسلم الصالح تتوازن في تكوينه النفسي الروحي، والأخلاقي وكذلك الجوانب المادية - من صحة بدنية وقدرته على العمل مع الجوانب الروحية - من: عبادة، خلق، ضمير واستقامة، - بحيث لا يطغى فيه الجانب المادي على الجانب الروحي، ولا الجانب الروحي على الجانب المادي، وبعدها نجد التربية في العصر الحديث التي حدثت في أوروبا تزامنا مع ظهور اليقظة الفكرية. "la renaissance" وهذا في

القرنين الخامس عشر والسادس عشر حيث انتقال الثقافة العربية إلى أوروبا بطرق متعددة، منها اسبانية، وصقلية، والحروب الصليبية. ومن أشهر المربين في هذه الفترة نجد "جان جاك روسو" الذي يرى أن تربية الطفل حصيلة عوامل ثلاثة العامل الأول هي الطبيعة، العامل الثاني هم الناس، أو ما يتعلمه الطفل من الآخرين، أما العامل الثالث فهي الأشياء أو ما يكتسبه الطفل من اختباره الأشياء التي حوله. وكذلك "بستا لوزي" الذي يرى أن تربية الطفل عنده تتحدد في نظرتة يشبه الشجرة التي تنمو من الداخل، وما على المرء إلا أن يهيئ الظروف المحيطة التي تجعل هذه الشجرة تنمو نموها الطبيعي الكامل. أما المبحث الثاني فهو يتضمن معاني ودلالات التربية عند "مالك بن نبي" بما فيها مفهوم التربية ودلالاتها عند "مالك بن نبي" لكن قبل ذلك قمنا بمعالجة أزمة الفكر التربوي أولاً لأنه حسب "مالك بن نبي" لا يمكن أن نقدم مسكنات لمرض معين قبل أن نقوم بتشخيص الداء، لهذا فتطرقنا أولاً الى أزمة الفكر التربوي ثم تقديم مختلف التعريفات للتربية كونها وسيلة فعالة لتغيير الانسان، كما أنها كذلك عملية منهجية هادفة وكذا استيعاب للقيم الثقافية ولكون الإنسان هو المحور الاساسي في فكر "بن نبي"، فنجد أن التربية عنده تنصب حول اعداد الفرد نحو تكيفه واندماجه في المجتمع لذا إعتبر أن التربية هي تحضر بحد ذاته ومن بين أنواع التربيّات المجسدة في فكر "مالك بن نبي" نجد : التربية الايديولوجية، التربية العملية، التربية الفنية، التربية الإنمائية، التربية المدنية، التربية الأخلاقية، التربية الاجتماعية، التربية الجمالية، التربية العملية، أخيراً التربية الثقافية وفي الفصل الخامس عالجنا التربية والحضارة عند "مالك بن نبي" حيث ركزنا في المبحث الاول على أسس ووظائف واهداف نظرية "مالك بن نبي" التربوية ومن بين الاسس التي ركز عليه "بن نبي" نجد الفكرة الدينية مع تركيزه على الانسان مبرزاً أهم المصطلحات الاساسية التي تميزه بما فيه الانسان الطبيعي، الفرد الخام، الانسان ما بعد الحضارة الإنسان المتكامل (إنسان الحضارة) وكذا الإدماج والتوجيه "l'orientation"، والفاعلية "l'efficacité" وكذا غياب ثقافة الانتاج

وبعدها استعرضنا أهم الوظائف الأساسية للتربية التي تتضمن بالدرجة الأولى تعليم الفرد كيفية الدفاع عن عقيدته الإسلامية ثم إعداد هذا الإنسان نحو تربية عقلية وجسمية سليمة، ومن بين الفوائد الأساسية للتربية نجد أهميتها على الصعيد الفردي والاجتماعي والاقتصادي، ومن بين الأبعاد الأساسية التي تحققها التربية نجد: البعد الإنساني والبعد الاقتصادي والبعد السياسي والبعد الاجتماعي والبعد التربوي، وأخيراً البعد الحضاري. ومن ناحية الأهداف التي تحققها التربية نجد أن "مالك بن نبي" لم يحدد الأهداف مباشرة بل حددها أولاً بالأهداف القصوى ومن حيث الأهداف الجزئية من حيث الوظيفة والمضمون والوسائل. أما المبحث الثاني ففيه عرض مفصل للتربية الاجتماعية عند "مالك بن نبي" قواعدها وشروطها، من حيث المفهوم، وكذا القواعد الأساسية للتربية الاجتماعية عند "مالك بن نبي" بما فيها الأسرة والمدرسة. أما عن الشروط الأولية للتربية الاجتماعية نجد الشروط النفسية التي تتمثل في إعادة بناء الإنسان وقد تطرقنا فيها إلى فكرة التوجيه بما فيه الثقافي الأخلاقي الجمالي والصناعي، كما نجد كذلك الشروط الاجتماعية وكذا الإشارة إلى الطاقة الحيوية وما تمثلها من دور أساسي في بناء التربية الاجتماعية وأخيراً في الفصل السادس الذي ختمناه بأفاق البناء الحضاري بحيث تطرقت في المبحث الأول إلى التربية الحضارية ودورها في إعداد وتكوين إنسان الحضارة فيها أشرنا إلى التربية الحضارية وأهدافها بما فيها تحويل المبدأ الثقافي إلى برنامج تربوي وكذا بناء الوعي التربوي ثم الإشارة إلى شروط التربية الحضارية التي تتضمن إصلاح نظام الأفكار ومناهج التفكير، تأسيس شبكة اجتماعية متماسكة، إصلاح مناهج التربية والتعليم، تأصيل العلوم الاجتماعية ثم الإشارة إلى مجالات التربية بما فيها المجال الأول التربية الأخلاقية، المجال الثاني التربية الاجتماعية، المجال الثالث التربية الجمالية، المجال الرابع التربية العملية وأخيراً تطرقنا إلى التربية الحضارية ودورها في إعداد وتكوين إنسان الحضارة أما في المبحث الثاني وكنظرة نقدية تطرقت إلى مدى فعالية المعادلة الحضارية والنظرية التربوية لـ"مالك بن نبي" في القرن الحادي والعشرون في ظل

رهانات العصر المعاصر وقد أخذت "ربير بورديو" Pierre Bourdieu " كنموذج في النقد التربوي ونظرية "روجي غارودي" و "كلود لوفي ستروس" "ادغار موران" كنماذج في نقد أسس الحضارة.

ولعل خير ما نختم به نصنا في قوله: "إن من الواجب ألا توقفنا أخطاؤنا عن السير حثيثاً نحو الحضارة الأصيلة. فإن الحياة تدعونا أن نسير دائماً إلى الأمام، وإنما لا يجوز لنا أن يظل سيرنا نحو الحضارة فوضوياً، يستغله الرجل الوحيد، أو يضلله الشيء الوحيد، بل ليكن سيرنا علمياً عقلياً، حتى نرى أن الحضارة ليست أجزاء مبعثرة ملفقة، ولا مظاهر خلابة، وليست الشيء الوحيد، بل هي جوهر ينتظم جميع أشتائها، وقطب يتجه نحوه تاريخ الإنسانية. بالرغم مما قدمه "مالك بن نبي" للأمة من أفكار قد تُشكل مشروعاً نهضوياً متكاملًا، إلا أن جيلنا لا يزال يجهل هذا المشروع ويجهل المكانة الحقيقية لصاحبه في أوساط النخب العلمية ومراكز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. كيف لا والأغلبية الساحقة من الفئة المثقفة في الجزائر لا تعرف من هو الفيلسوف "مالك بن نبي"؟ فما بالك بالطلبة أو المتدربين ولعل سبب هذا التهميش والتجاهل هو الثمن الذي يجب أن يدفعه كل من أراد أن يكون متحرراً من العصبية الحزبية والإيديولوجية لصالح الموضوعية والفكر الحر. كما أنه ضحية أفكار مسبقة عند فريق الأمة، فالسلفيون ينظرون إليه بأنه تغريبي ولا يمتلك تحصيلاً شرعياً ومرجعهم في ذلك اختلافه مع "سيد قطب" حول مفهوم الحضارة، وكذا إشادته بإنجازات الرئيس "جمال عبد الناصر" الذي كان يحارب الإخوان في مصر... إلخ من المبررات الخالية من الموضوعية، أما العلمانيون فيعتبرونه شيخاً في ثوب عصري خصوصاً وأنه جعل من الفكرة الدينية عنصراً مُركِّباً للحضارة، ومقوماً أساسياً من مقومات النهوض، وكذا رفضه لاستيراد النماذج الحضارية الجاهزة. كل هذا كان دافعاً ليكون هذا البحث محاولة لإعادة لفت الانتباه للمفكر "بن نبي".

ف"مالك بن نبي" لم ينل حقه من الاحترام والتقدير والدليل على ذلك التهميش الذي تعرض له في حياته حيث منعت كتبه من النشر ومنع هو شخصياً من السفر.....ولك أن تتصور الكارثة الكبرى التي ألمت به بعد وفاته حيث جنازة بحجم "مالك بن نبي" لم تحضرها الهيئات الرسمية للبلاد.

"مالك بن نبي" الذي غير البلاد وأصلح العباد وبنى حضارة ذات أسس متينة وصلبة، نجد في وطنه الأم الجزائر أسماء لبعض الشوارع الجزائرية تحمل أسماء مجرمين بينما اسم "مالك بن نبي" يكاد يكون منعدماً في كل المؤسسات العمومية أو التربوية ؟

لقد حظى "مالك بن نبي" بالاهتمام الواسع من طرف الطبقة المثقفة العربية والاجنبية أمثال "نورة خالد السعد" من السعودية و"فوزية بريون" من ليبيا و الدكتور "سليمان الخطيب" من سوريا ومن الطبقة المثقفة في الجزائر نجد الدكاترة وهم كثر على غرار "عبد الرزاق قسوم"، "الأخضر شريط"، "علي بودريالة"، "جريدة جاري" ومن جامعة المسيلة نجد "الخضر حميدي" والقائمة طويلة.

فقد اجتمعت أسباب كثيرة دفعتني لاختيار هذا الموضوع ولعل أهمها، الوضع الثقافي والفكري والاجتماعي والسياسي الذي تعيشه المجتمعات الإسلامية، وأزمة اللاوعي التي شكلت في أوساطنا المرض العضال الذي يحتاج لتكثيف الجهود من أجل القضاء عليه. فنحن لا نستطيع أن ننكر أن الاستقلال الذي نالته الشعوب الإسلامية مازال استقلالاً فارغاً من حيث المحتوى والمعنى، لأن الاستعمار مازالت جذوره ضاربة في بنيتنا الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. صحيح أننا تخلصنا من الاستعمار المباشر - العسكري- ولكننا لانزال نعاني من الاستعمار غير المباشر وهو الذي ضرب سياجه على الفكر والثقافة في البلاد الإسلامية، فشخصية الفكر الإسلامي لم تكتمل بعد ولم يظفر بعد بحقه في السيطرة على وجوه الحياة.

ولعلَّ السبب الذي جعلني أتعلَّق أكثر بفلسفة "مالك بن نبي" هو مدى إعجابي وإندهاشي بالقضايا الحساسة والمسائل المصيرية التي تتبأ بها في سنوات الخمسينات والستينات من القرن الماضي والتي نعيشها في الواقع المعاصر حيث تتبأ أن العالم الاسلامي لا بدَّ له من تغيير جذري لأنَّ العالم سوف يخضع لثلاثة أقاليم ألا وهما المراه والدولار واليهود، ولذلك فقد ركز في معظم مؤلفاته على ضرورة التغيير وهو ما يترجمه فعلياً واقع العالم اليوم حيث شهد القرن الماضي ظهور تيارات فكرية وسياسية كثيرة إقتسمت فيها القوى البشرية وأحدثت إنقلاباً جذرياً في شتى الميادين، غيرت مجرى التاريخ وأجبرته أن يعيد تنظيم خريطته السياسية والإقتصادية والإجتماعية على قواعد وأسس جديدة.

أما القول أن هناك دراسات كثيرة أجريت حول فكر "بن نبي" فنجيب عنه بأننا نطمح لتقديم إضافة نوعية لقراءة فكره بمنظار جديد ومختلف، لأنَّ أغلب البحوث والدراسات التي أجريت في الجزائر تراوحت فترة إنجازها بين النصف الثاني من الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضي، الأمر الذي أدى إلى انعكاس خصوصيات هذه المرحلة سلباً على نتائج تلك الدراسات والتي كانت في أغلبها تبريرية لواقع معين، والدليل ذلك أنها لم تفرض نفسها على القارئ والباحث عكس دراسات أخرى تمت خارج الجزائر.

يضاف إلى هذا دافعان آخران فرضا نفسيهما أثناء مسيرة البحث فأما الأول فتلك الخاصية المتمثلة في أنك كلما أعدت قراءة كتاب من مؤلفاته إلاَّ وإتضحت لك أفكار جديدة وكأنك تطالع عليه لأول مرة، فقد دفعني ذلك إلى الإصرار على التكرار الكثير لإعادة القراءة ومازلت أشعر بأنني بحاجة إلى قراءات أخرى.

وهنا إستحضر قول "أبو نواس" حينما قال:

فقل لمن يدعي في العلم فلسفةً حفظت شيئاً ، وغابت عنك أشياء

أما عن العوائق فتتمثل في كون أفكار "مالك بن نبي" نجدها متداولة لدى أغلبية الطلبة والباحثين لكن المشكلة أنه لا يوجد من تعرض إلى أفكاره بالتحليل والنقاش بصفة دقيقة ومفصلة، فلا توجد دراسة خاصة متميزة لموضوع التغيير وكذا التجديد ومنحه حقه وما يستوفيه من تحليل ومناقشة، فالشيء الذي عثرت عليه عبارة عن أشتات من المعارف ففكرة الإصلاح والتجديد مثلاً لم أعثر لها على دراسة خاصة بها من طرف دارسي فكر "مالك بن نبي" بالرغم من أنهم يشكلون المئات "مما جعلني أعقد العزم على تناول هذا الموضوع وبذلت أقصى ما في وسعي في البحث عن عمق أفكاره. ودرسها أينما وجدت وهناك أخرى تتمثل في قلة المراجع المتخصصة في موضوع التجديد والتغيير .

لكن هناك صعوبات أخرى والتي أعتبرها الأصعب حيث كادت تقضي على أملي ومشروعي والتي تتمثل في سلسلة من المشاكل الاجتماعية والأسرية الملقاة على عاتقي مع صعوبة التوفيق بين العمل ومتطلبات الأسرة وتربية الأولاد من جهة وبين البحث من جهة أخرى.

الفصل الأول:

"مالك بن نبي": النشأة والتكوين وبوادر

التغيير

المبحث الأول : النشأة والتكوين

المبحث الثاني: بوادر التغيير

المبحث الأول: النشأة والتكوين

1- النشأة:

ولد "مالك بن نبي" بمدينة قسنطينة شرق الجزائر في الفاتح من شهر جانفي سنة 1905 الموافق ل 1323 من شهر ذي القعدة.¹ وفي سن السابعة انتقل مع أبيه إلى مدينة "تبسة" حيث زاول تعلمه الابتدائي بالمدرسة الفرنسية على الطريقة النظامية، وموازة مع ذلك كان يتردد على المدرسة القرآنية لحفظ القرآن²، وبعد إنتهاء المرحلة الإبتدائية بتفوق إنتقل سنة 1920 إلى "قسنطينة" لإتمام دراسته الثانوية وكان يتلقي دروسه بالفرنسية. لكنه كان يتردد على دروس النحو العربي بالجامع الكبير، كما تعلم الموسيقى على يد عمه "محمود بن نبي" ومن خلال جدّه تعرف على الزاوية العيساوية كإحدى الطرق الصوفية المنتشرة في ذلك الوقت لذلك عرف منذ طفولته بحب القرآن³ وبعد إلتحاقه بالقسم الداخلي بدأ وعي الفتى السياسي والديني يتفتح على فكر جديد. خصوصاً وأنّ فكر الإصلاح والتغيير قد تلقاه على يد أساتذته في التوحيد والسيره مثل "المولود بن الموهوب" وموازة مع ذلك كان متأثراً للكاتب الفرنسي "شاتو بريان" "château Briand" وقرأ له كتابه المشهور *mémoire d'outre tombe* (وقراً للمفكر الحسي الفرنسي "وكندياك" 'Condillac' كما أعجب ببراغماتية الأمريكي "جون ديوي" "John Dewey" ولم تقتصر قرأته على الفرنسية بل قرأ رسالة التوحيد لـ"محمد عبده"، وفي هذه المرحلة كان منشغلاً بمشكلات العالم الإسلامي من خلال قراءته المزدوجة ومشاهدته الشخصية مع ما إمتاز به من دقة الملاحظة مما جعله يحمل همّ المجتمع المتخلف المستعمر، ولشدة ما كان يؤلمه حال أمته الممزقة ووطنه الجريح من طرف عدو أنهكه منذ قرون، في ذلك الوقت وقد إشتغل فيما بعد بمحكمة "تبسة"

¹-استناد إلى نسخة من شهادة الميلاد الصادرة من بلدية قسنطينة تحت رقم 9 محررة في 20/04/2003.

²-مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن (الطفل) دار الفكر الجزائر سنة 1964 ، ط2 ص33.

³-عبد اللطيف عبادة: فقه التغيير في فكر بن نبي (عالم الأفكار) ط2. 2007 ص30.

ثم إنتقل إلى محكمة "افلو" بالاغواط عام 1927. حيث مكث بها سنة، وكان خلال ذلك كان يطالع جريدة (الشهاب) الإصلاحية. وفي مارس 1928 سافر إلى قسنطينة لزيارة أهله وأقاربه وهناك التقى لأول مرة بشيخ الإصلاح عبد الحميد ابن باديس والذي كان شديد الإعجاب به معترفا بفضل الكبير. وبعد انتهاء عطلته في قسنطينة انتقل في العام نفسه إلى مدينة شلغوم العيد (بميلة) للعمل بمحكمتها لكنه سرعان ما إستقال منها¹.

2. رحلته إلى باريس لمتابعة الدراسة الجامعية: نظرا لما لقيه من فشل في بلده. قرر السفر إلى باريس فنزل بها في سبتمبر عام 1930 حيث سارع إلى التسجيل في المشاركة في إمتحان الدخول لمعهد الدراسات الشرقية ولم يكن يشعر بأي رعب تجاه الإمتحان فتوجه بكل إطمئنان وهدوء إلى المعهد. غير أن الصدمة كانت قوية حينما لم ينجح في الإمتحان.² ولشدة تأثره بالحدث نجده يقول (ونودى عليا فدخلنا ولم تبد ولي أية صعوبة في الاختبارات ولكن النتيجة كانت خيبة الأمل....) وليس كل هذا ما في الأمر بل طلب منه مدير المعهد وفي هدوء في مكتبه عدم الإصرار على الدخول لمعهد، ومنه أدرك بن نبي أن الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع بالنسبة لمسلم جزائري لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي وهذا خوفا من بروز المثقفين المسلمين علي غرار المسيحيين. إلا أن السياسة الإستعمارية لم تكن من عزيمة الرجل، فبعد نصيحة تلقاه من صديق له والإرادة القوية التي يمتاز بها قرر الإنتساب إلى مدرسة اللاسلكي، ولم يكن الشيء سهلا حيث أقدم علي قراءة الجبر والهندسة والكهرباء والميكانيكا والطبيعة. التي غيرت جذريا إتجاهه الفكري بل فتح له باب عالم جديد آخر كل شيء خاضع لمقاييس دقيقة. وقد كان يتردد على متحف الصناعات والفنون حيث يعتبر المستودع الذي أودعت فيها الحضارة الأوربية أغلي ما أنتجته عبقريتها العلمية والتكنولوجيا. وفي مدرسة اللاسلكي تعرف على شاب يهودي وكان

¹ - البشير قلاتي: هكذا تكلم مالك بن نبي. منشورات دار إقرأ قسنطينة الجزائر 2005 ص17

2- عبد اللطيف عبادة. فقه التغيير في فكر بن نبي. عالم الأفكار. 2007 ط2. ص20

يذهب معه كل يوم سبت إلى سوق البرغوث¹ حيث يتسكع الباحثون عن خردوات يشترونها بالثمانالرخيص، أما بن نبي وزميله فكانوا يبحثون عن أجهزة اللاسلكي القديمة من أجل تفكيكها وإعادة تركيبها من جديد حتى يتمكنوا في مهنتهم².

3. زواجه ونضاله السياسي: في عام 1931 تعرف على فتاة فرنسية إسمها سيلستي بول فيلي Silisti Paul Phily فتزوج بها بعد أن أسلمت وسمت نفسها خديجة³ وقد وفرت له الجو العائلي الذي يفتقده في ديار الغربية وحصنته أخلاقيا ولعبت دورا هاما في تشكيله الذوقي والجمالي كما وفرت له الجو الملائم والهادئ ليفكر مع أصدقائه في مشكلات العالم الإسلامي. إما داخل بيته أو في الحي اللاتيني⁴. خصوصا وقد وقفت له الإدارة الاستعمارية بالمرصاد حتى قسمته إلى شقين. وبدأت المعركة تدور بين (الوحدويين (والمنشقين) ويضم المنشقين الأغلبية الجزائرية وهم في الواقع أبناء مستعمري الجزائر (الحركة) وكان يمثلهم الطالب عمار نارون الذي كان يعمل بإيغاز (بتواطؤ) مع الإدارة الفرنسية تحت إشراف رئيس المجلس البلدي لمدينة باريس السيد (كوليين) الذي كان علي اتصال بالأوساط الاستعمارية العليا المستعدة لتحقيق رغبات أي منشق. وفي المقابل نجد الوحدويين أمثال بن نبي و.حمودة بن الساعي الصديق الأقرب إلى بن نبي حيث تعرف عليه في الحي اللاتيني وهو جزائري وهو طالب في الفلسفة وكان يعد رسالة دكتورا حول الغزالي. وقد بدأت بوادر الصراع والنضال تظهر على شكل محاضرات ومحاضرات مضادة حيث ألقى بن نبي محاضرة في ديسمبر 1931 تحت عنوان (لماذا نحن مسلمون؟) كما كان

2- البرغوث هكذا كان يسمى بسبب الأشياء القديمة التي تعرض في السوق

2- مالك بن نبي. مذكرات شاهد القرن (الطالب) دار الفكر ط1 بيروت 1970 ص 28./38./39.

3- إستنادا إلى ما كتب في الهامش في شهادة ميلاد بن نبي

4- الحي اللاتيني. Latin Quarter من أشهر الأماكن الفرنسية فيه تتواجد جامعة السوربون. وفي هذا الحي تم تشكيل المنظمة الطلابية المغاربية وهي تضم مجموعة من الطلاب المغاربية، عن الطرف المركشي. محمد الفاسي. ومن تونس صالح بن يوسف سليمان بن سليمان/ومن الجزائر/على بن احمد/بن تشكو/بن الساعي حمودة/عمر العياشي/

لصديقه حمودة بن الساعي محاضرة حول (القرآن والسياسة) اللتين كان لهما صدي طيبة في أوساط الطلبة. لكن ما كان لفريق المنشقين ليتركوا فرصة كهذه تمر دون رد فعل. فعندما إنتهى بن نبي من إلقاء محاضراته إنطلق صوت يقول "لماذا تلتقت إلى الماضي في الوقت الذي يهمننا فيه المستقبل.؟" وكان لنشاط بن نبي أهمية كبيرة إلى درجة أن الشرطة حققت معه وطرحت عليه بعض الأسئلة. وبعد بضعة أيام أخبره صديقه أن البروفيسور لويس مسينيون. Louis Massignon، (المستشار الخبير للحكومة الفرنسية للشؤون الإسلامية) يرغب في رؤيته. غير أن بن نبي رفض الدعوة مما جعل مسينيون ينتقم منه. حيث أمر بنقل والد بن نبي من منصبه (موظف لدي محكمة تبسة) إلى مكان آخر حيث لا يستطيع فيه العمل نظرا لبعده المسافة وهو يقارب الثمانين من عمره ثم ضاعت كل حقوقه كموظف¹ وفي عام 1932 وصل إلى باريس المهاتما غاندي² من أجل علاج مشكلات تتعلق بمصير الهند حيث أعجب بن نبي وبأفكاره التحررية المشبعة بالروح الوطنية خصوصا انه (المهاتما غاندي) كان من دعاة اللاعنف. وفي الحي اللاتيني الذي لا يزال ساحة للعمل والنشاط السياسي. تعرف عليه مصالي الحاج الذي كان رئيس حزب (نجم شمال إفريقيا) بواسطة الدكتور محجوب بن ميلاد (طالب تونسي في قسم الصيدلة) وكان الاجتماع يتم في فندق (الهجار) فلم يحضر حمودة بن الساعي بسبب تحفظه إزاء كل نشاط سياسي وكان النقاش يدور حول مستقبل الحركة الوطنية في الجزائر³ لكن (بن نبي) لم يكن متقفا مع مصالي الحاج لكونه يتميز بالثرثرة وشهوة إلقاء الخطب إلى جانب ما يتميز به من تسلط. بل إن بن نبي كان مقتنعا بان التغيير يأتي من الثورة وليس من التجمعات والخطابات ولذلك نجده منشغلا ببعث روح الوعي في نفوس الطلبة وهو ما يسميه بالفعالية وقد اقتنع بهذه

¹ - مالك بن نبي مذكرات شاهد القرن (الطالب) ترجمة بقلم المؤلف. دار الفكر. ط 1 بيروت 1970 ص. 61

1- المهاتما غاندي (Mohandas Karamchand Gandhi) 1869/ 1948 السياسي البارز والاب الروحي للهند دعا الي استعمال سياسة العصيان المدني اللاعنف ضد الاحتلال البريطاني وفعلا فقد نجحت سياسته

2- مالك بن نبي. مذكرات شاهد القرن (الطالب) ترجمة بقلم المؤلف. دار الفكر ط 1 بيروت 1970 ص 65³

الأفكار من خلال ما عايشه في فرنسا، وكان متحمسا لفكرة الوحدة المغربية حتى أطلق عليه في الحي اللاتيني (زعيم الوحدة المغربية) وكان معه شكيب ارسلان (مناضل مصري) صاحب جريدة الأمة العربية وكذلك فر يد زين الدين (دكتوراه في الحقوق وهو نائب وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة زمن الوحدة بين سوريا ومصر¹ وقد أسس بن نبي بمرسيليا سنة 1938 مدرسة صغيرة لمحو الأمية لدي العمال المغاربة. غير أن السلطات الفرنسية منعت ذلك بخلق مبررات وهمية لكن الأسباب الحقيقية تعود إلي تخوفها (السلطات الفرنسية) من بروز الطبقة المثقفة ضمن أبناء العرب. ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل واصلت إلي حد إتهامه بالعمل لصالح النازية فأودع السجن بشار تر (غرب فرنسا) في أوت 1944 وهو في السجن كتب الظاهرة القرآنية الذي كان له التأثير الواضح علي الكثير من الفرنسيين مما دفع بالسلطات الفرنسية إلي إصدار قرار سحبه من الأسواق. ولما خرج من السجن واصل نشاطه في العمل السياسي والفكري وهذا بإلقاء المحاضرات بنادي المؤتمر الإسلامي. حيث بعث برسالة إلي مصالي الحاج سماه الخطوة الجزائرية. كما أصدر عددا من المقالات تضمنت رؤيته الفكرية لمشاكل العالم الإسلامي التي لخصها في مشكلة كبرى وهي (مشكلة الحضارة) فحدد لها شروط النهضة ورسم لها وجهة العالم الإسلامي ووضع لها فكرة الافرو أسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ ثم توالي إنتاجها الفكري من خلال مقالات منشورة²

4 . سفره إلي القاهرة في عام 1956 سافر إلي مصر من أجل نشر كتابه (الفكرة الإفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر (باندونغ) حيث كانت مصر آنذاك تشكل ملتقى المثقفين من أبناء المستعمرات الراغبين في التحرر. بالإضافة إلي ما حملته ثورة تموز (يوليو) في 23/07/من شعارات التحرر والوحدة خاصة وان الثورة الجزئية في أوجها. وقد كان بن نبي يرغب في

3- عبد السلام الهراس. ذكرياتي مع بن نبي. حاوره الدكتور محمد البنيادي :مجلة الفيصل السعودية. العدد 146 ص 16

2- د/البشير قلاتي. هكذا تكلم بن نبي. مكتبة اقرأ قسنطينة الجزائر سنة 2005 ص 23:

العمل في جبهة القتال كمرض عسكري وكمؤرخ¹ ولعل السبب الآخر الذي جعله يختار مصر يتعلق بإرسال خطابات موجهة إلي غي مولي² رئيس وزراء فرنسا كي يذيع مقالاته مع نشرات الأخبار لجبهة التحرير الوطني بالقاهرة. لكن طلبه كان مرفوضاً. ورغم ذلك فقد نشر عام 1957 مقالا آخر تحت عنوان "النجدة الشعب الجزائري يباد" خصوصاً بعدما كشف الوجه الحقيقي لفرنسا المتمثل في نفي ملك المغرب محمد الخامس إلي مدغشقر ومقتل احد زعماء تونس هادي شاكر مما جعله يقرر إن السلسلة الإجرامية لفرنسا واضحة لا شك فيها إذن لا بد من محاربته.³

وفي مصر أتقن اللغة العربية وصار يكتب بها حيث كتب (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) وقد اطلع أنوار السادات (⁴رئيس مصر) علي كتابه شروط النهضة وأعجب بأفكاره وعينه مستشاراً للمؤتمر الإسلامي بالقاهرة سنة 1958 وكان يساهم في بث التغيير الاجتماعي ضمن إطار مشكلات الحضارة عبر محاضراته وندواته وقد عرف بن نبي بشاسعة نشاطه الفكري حيث إلتف حولها العديد من الطلبة في حي (الدقي) وكان إلي جانبه المحامي اللبناني وصاحب حقوق نشر فكره (عمر كامل مسقاوي) والأستاذ المغربي عبد السلام الهراس. والأستاذ المصري (عبد الصبور شاهين) مترجم كتبه⁵

¹- حوار أجرته جريدة الشروق مع الدكتور عمار طالبي يوم الاربعاء 20/03/2013. الموافق ل 08 جمادي الاول

1443. تحت عنوان "طالب الابراهيمى أقال مالك بن نبي من منصبه وأبعده عن الجامعة" ص 17

²- غي مولي. (1905 /1975) Guy Mollet) سياسي فرنسي لعب دورا قويا خلال الجمهورية الرابعة ينتمي الى

الحزب الاشتراكي. أسس حكومته في 24 / 02 / 1956 / وسقطت في. 08 / 02 / 19583

³- عبد اللطيف عبادة فقه التغيير في فكر مالك بن نبي عالم الأفكار ط 2. سنة 2007 ص 19

⁴- أنور السادات (1918 / 1981) رئيس جمهورية مصر العربية من (28 / 09 / 1970) الى غاية (06 / 10 / 1981)

(وهو يوم اغتياله. ومن أهم أعماله هرقار حرب أكتوبر ومعاهدة السلام مع اسرائيل

⁵- د بشير قلاتي. هكذا تكلم مالك بن نبي ص 24

5 . العودة إلى الوطن :

عاد بن نبي إلى وطنه الجزائر سنة 1963 وكان كله أمل في نشر ورسم معالم بناء مجتمع جديد ومتحضر فعين مديرا للتعليم العالي لكن الظروف الصعبة حالت دون مواصلته للعمل الذي عين فيه¹ إنتقل عام 1967 ليعمل بحرية في نشر الفكر وبث قيم الثقافة ,فكان يعقد في بيته ندوات للتوجيه الفكري من أجل التصدي لمرحلة ما بعد الاستقلال .وكان يؤمن بأن التغيير امرجوهري وضروري وقد خاطب ذات يوما طلبته قائلا "إن وظيفة الفرد إزاء مجتمعه مثل وظيفة المحرك في الآلة فكل واحد له دوره الخاص يجب أن يؤديه "وقد كانت لجهوده أثرا عظيما في المجتمع الجزائري وبالخصوص في الوسط الطلابي وقد أثمرت هذه المجهودات في الحد من هيمنة التيار الشيوعي حيث كان الفضل للمفكر بن نبي في إنقاذ صديقه عبد العزيز الخالدي الذي وقع تحت تأثيرالفكر الشيوعي وإعادته إلى أصالته مستعينا بفكرفريديريك نيتشه (الفيلسوف الألماني).²

في عام 1972 أدى فريضة الحج وفي طريق العودة أقام بدمشق(عاصمة سوريا) وحاضر فيها عن "دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين".وفي عام 1973 أشدت به المرض فأجريت له عملية جراحية في البروستات بباريس غير أن القدر شاء أن يتوفي في يوم الأربعاء 04 شوال 1393 هجري الموافق ل 31/أكتوبر/1973.م رحمة الله عليك يا من سبقت عصرك في الإصلاح والتتوير³

¹-حوار أجرته جريدة الشروق مع الدكتور عمار طالبي ص 17

²-فريديريك نيتشه (1900/1944)neitzche)فيلسوف الماني اشتهر بنظريته النقدية لكل مبادئ المسيحية.اشتهر بكتابه "هكذا تكلم زرادوشث 1883 .العلم المرح ا 1882

³-د/البشير قلاتي.هكذا تكلم بن نبي.مكتبة اقرا.قسنطينة.الجزائر سنة200

ب - التكوين: يمتاز المفكر بن نبي بمجموعة من الخصال التي لعبت دورا هاما في تكوين وتنظيم أفكاره القائمة على منهجية مستقيمة كاستقامة فكره وطريقة تحليله لمختلف الظواهر مما جعل البعض يصفه بالفيلسوف الذي سبق زمانه.

1- ملامح شخصية الفيلسوف :

أولا/. الخصائص الذهنية والعقلية:

التفكير الرياضي.: لقد إمتاز الفيلسوف بن نبي منذ صباه بحب الدقة في التحليل والإستدلال ونجده دائما يدعو إلي ضبط المصطلحات والمفاهيم ولا يقبل التعميم إلا إذ كانت القضية منضبطة ومحددة. وكان مجتهدا في حل المسائل الرياضية التي تأخذ الكثير من وقته وكان يبقي مع حل المسائل إلي غاية ساعة متأخرة من الليل¹.

النكاه الحاد ودقة الملاحظة: يتميز (رحمه الله) بالفطنة والنكاه الشديد والدليل علي ذلك تلك المناقشات التي كان يجريها مع بعض الطلبة وخاصة بكشفه لمكائد اليهود. فقد أرادت سيدة يهودية أن تعجزه أمام الملاء (قاعة المحاضرات) فسألته من هو الله فأجابها على الفور (لأنه أدرك خطتها) الله هو السبب بلا سبب لكل الأسباب. وبذلك افشل خطتها بعد النظر. لقد كان لشدة ملاحظته وتحليله للظواهر الإجتماعية وللأحداث السياسية دور في بعد نظره والتنبؤ بالإحداث التي أثبتت الأيام والتاريخ صحتها. وكان يعرف من خلال أعمال اليهود انه سيأتي يوم يستولون فيه على العالم.. فعلا هو ما نراه ونلمسه اليوم من سيطرة اليهود على أجهزة الإعلام العالمية والاقتصاد الدولي وحتى الاستيلاء على الثقافة والفكر كما حلل آليات الصراع الفكري وتنبؤه بأمركة العالم وتوقعه لسيطرة عالمية لما يسميه ب الاقانيم الثلاثة: المرأة والدولار واليهود².

¹-د/عبد اللطيف عبادة. صفحات مشرقة من فكر بن نبي. دار الشهاب باتنة. سنة 1984. ط 1. ص 18

²-د/البشير قلاتي (هكذا تكلم بن نبي) منشورات دار افراقسطينية الجزائر سنة 2005 ص 31

ثانيا /المميزات الأخلاقية والسلوكية من خلال شهادات من عاشره من أصدقائه وطلبته داخل الوطن وخارجه يمكننا استخلاص بعض ما تميز به المفكر من مميزات.

العاطفة والسماحة.: إمتاز بن نبي بالعاطفة القوية منذ صغره والمشاعر المرهفة فكان يبكي وهو يستمع لذكريات جدته عن الحج كما كان يسارع إلى مساعدة الناس المحتاجين ولو كلفه ذلك التضحية بحاجاته الخاصة فكان ذا نفس كريمة مضيافة وقد كان يقتصد الأموال طول الأسبوع من اجل إنفاقها في يوم واحد (الجمعة)لأنه يوم يلتقي فيه مع أصدقائه فهو إجتماعي ومحب للناس كان بن نبي يكثر في مخالطة الناس ومن جميع طبقات المجتمع حيث يخاطبهم ويستفيد من خبراتهم سواء كانوا مثقفين أو من أصحاب الحرف منهم (التاجر والحداد) فيجلس مع العامة يحدثهم في المقاهي ويستمتع إليهم وله أصدقائه من أسيا وأوروبا ولم يكن من أصحاب الغرور فكان يجتهد في تعليم العمال القراءة والكتابة رغم تدخل السلطة الفرنسية في وقف العمل بذرائع وهمية وكان ينفر من الثرثرة والكسل ويحب العمل والإنتاج (معناه تحويل الكلام إلى عمل مجسد)وفي هذا المعني يقول "مالك بن نبي" (إذا ما قررنا الصعود إلي القمر فعلينا أن نضع من الآن سلما ونبدأ في الصعود)

علو الهمة وقوة الطموح:

كان يتمتع بإرادة قوية وطموح كبيرفكان يريد إقامة مصنع للاسمنت والاصبغة والعمود وفكر في الهجرة إلى أفغانستان والعربية السعودية وكان يطمح مع صديقه حمودة بن الساعي أن يكونا الوارثين لجمعية العلماء المسلمين حيث نجده يقول(فالبرعم من اختلافنا في درجة التفاؤل والتشاؤم كنا من مشرب واحد فيما يخص دور الإسلام في النهوض بالشعوب الإسلامية)

¹-مالك بن نبي مذكرات شاهد القرن (الطالب) ت.بقلم المؤلف دار الفكر بيروت سنة 1970 ط1 ص.65

الالتزام الديني والنزعة الوطنية:

كان رحمه الله ملتزماً بصلاته وتلاوة القرآن شديد الإيمان والسرعة إلى تغيير المنكر ولو بأضعف الإيمان كالدعاء والتضرع إلى الله . ويشهد على ذلك أصدقائه اللذين عاشروه حيث يقول فإذا كانت نافذة غرفته مفتوحة فهو يكتب أو يفكر وإذا كانت مغلقة فهو يصلي ويطلب الله ولم يكن إطلاقاً يرتاد أماكن التسلية أما وطنيته وحبه لبلده فجسدها في رغبته الشديدة في المشاركة في الثورة التحريرية بقلمه ولسانه.

الإعتراف بالخطأ والتراجع عنه:

لم يكن (رحمه الله) صاحب كبرياء ولا عنيدا بل يمارس النقد الذاتي. فكان يسارع إلى الرجوع عن خطئه. وكان موضوعيا في الاعتراف بتقديره لبعض الطلبة اليهود ممن كانوا يجتهدون ويثابرون في العمل والدراسة خلافا لما كان الكثير من الطلبة الإسلاميين من الكسل واللامبالاة

حب النظافة والجمال:

كان بن نبي يحب النظافة منذ صغره حتى معلمته الفرنسية كانت تضرب به المثل لبقية زملائه. فقد كان مثالا للنظافة في الصف بالإضافة إلى دور زوجته التي كانت تحرص على تنظيم وترتيب البيت¹

- ثالثا/ عوامل إثراء ثقافته:

لقد توفرت لدي المفكر بن نبي مجموعة من العوامل الإيجابية التي ساعدته على تكوين شخصيته القوية واستقامة فكره القائم على أساس منهجية محكمة ودقيقة كدقة علمه واختصاصه. (كمهندس كهر وبائي) ومن أهم هذه العوامل.

¹-د/البشير قلاتي. هكذا تكلم بن نبي. منشورات دار اقرأ قسنطينة الجزائر سنة 2005 ص 28.

أسرته المتدينة والمحافظة:

نشأ بن نبي في أسرة متدينة غرست فيه منذ صغره أخلاقا حميدة وقيم ثابتة مبنية علي أساس القران و قد ساهمت أمه وجدته بدور أساسي في زرع حب الوطن فيه والالتزام بقواعد الدين الإسلامي فهو أساس كل تطور¹.

الحركة النهضوية في المشرق :

كان بن نبي من بين المتتبعين للحركات النهضوية في المشرق سواء عن طريق شيوخها او عن طريق الكتب والمطبوعات و المجالات منها المنار.ومن الشخصيات التي اعجب بها بن نبي نجد (جمال الدين الأفغاني)الذي قرا له كتابه"الرد على الدهرين"كما إطلع على كتاب الكواكبي "طبائع الاستبداد"ورسالة التوحيد"لمحمد عبده.كما تأثر بالأمير عبد القادر² وشكيب ارسلان وعبد الكريم الخطابي³ حيث كانت لثورة الخطابي المشهورة أثرها العظيم.كما تأثر بحركة الأمير خالد الذي نشر جريدة "الأقدام"ردا على مورينو Marineau

¹- نفس المرجع السابق ص32.

²-الامير عبد القادر(1808/ 1883) احد مؤسسي الدولة الجزائرية الحديثة.خاض معارك ضد الاحتلال الفرنسي.وبعدها نفي الي دمشق وتوفي هناك ونقل جثمانه إلى الجزائر سنة 1966 وقد ألف كتابا مشهور تحت عنوان "المواقف"وكذلك كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"وهو كتاب موجه إلي السلطات الفرنسية .

³-عبد الكريم الخطابي.(1882/ 1963)قاضي القضاة تخرج من جامعة القرويين بمدينة فاس بعد ان تشبع بالفقه الإسلامي والحديث. كما يعتر مؤسس ورئيس جمهورية الريف ما بين (1921/ 1926) حارب الاحتلال الفرنسي والاسباني لقب ببطل الريف لأنه استطاع توحيد صفوف قبائل ريف شمال المغرب وقد تشبع بالفقه الإسلامي كما اشتغل قاضيا في مليلية المحتلة وقد لقن الأسبان درسا في معركة أنوال (مايو 1921)الشهيرة حيث انهزم الأسبان أمام المقاومة الريفية.وهو أول عربي أشاع استعمال لفظ المغرب العربي: من كتاب Bernard Reich (2002). The Government

رئيس بلدية قسنطينة الذي نشر هو بدوره مقالا في أحد الجرائد الفرنسية يشتم فيها الشعب الجزائري . كما ساهم مع مصالي الحاج في بعث نجم شمال إفريقيا¹.

3- البيئة الإصلاحية: تأثر بن نبي بأساتذته من علماء التيار الإصلاحى وخاصة أساتذة التوحيد والسيره من أمثال الشيخ (المولود بن الموهوب) الذي ركز على إصلاح التعليم وكانت صرخات (بن الموهوب) فى قومه ذات تأثير فعال فى فكر بن نبي خاصة تلك الدروس الحية فى فحص الفكر الخرافى وكذلك جهود الشيخ العلامة (عبد القادر المجاوى) والشيخ (صالح بن مهلة) والدور البارز الذى قام به فى محاربة الخرافة والشعوذة. والتركيز على بعث روح الأمل فى الشعوب. كما تأثر برئيس جمعية العلماء المسلمين (عبد الحميد بن باديس) من خلال الخطب والمحاضرات التى كان يلقيها وهو ما ساهم فى إعادة بعث روح الوعى الوطنى والدينى وإيقاظ النائمى. الواقعى تحت هيمنة التيار الإستعمارى².

4 تأثيره بالحضارة الأوربية: لقد أعجب بن نبي بطباع الحضارة الغربية الذى يخضع كل شيء فيها للقياس الدقيق. حيث تأثر ب الفيلسوف الفرنسى (رونى ديكارت) فى دقته وصرامته ومنهجيته فى التفكير وطريقة استدلاله لمختلف القضايا الرياضية³ ولقد كان إنخراطه فى جمعية (الوحدة المسيحية للشبان البارسين) المجال الأوسع حيث كشف نمطا من العلاقات الاجتماعية التى تتسم بالتسامح وعدم التعصب والتنظيم والتعاون بين الأفراد رغم الفوارق الاجتماعية والثقافية مما جعل بن نبي يندش من هذه المفارقة بين السلوك الفرنسى فى مجتمعه وسلوكه الهمجى داخل الجزائر .

5 الفترة التى قضاها فى مصر: تعتبر مصر البلد الذى وسع فكره وجعله أقرب إلى مصادر الثقافة الإسلامية واتخذها كمنبر عبر من خلالها عن قضايا وطنه والتى تتعلق خصوصا

¹- عبد اللطيف عبادة. فقه التغيير فى فكر بن نبي. عالم الأفكار . طبعة 2 سنة 2007 ص 27 / 28.

²- د/البشير قلاتي. هكذا تكلم بن نبي. منشورات دار اقرا قسنطينة الجزائر سنة 2005 ص 33

³- عبد اللطيف عبادة. فقه التغيير فى فكر بن نبي. عالم الأفكار ط 2 2007 /ص 29

بالثورة التحريرية وهذا من خلال مشاركته في (إذاعة صوت العرب) المشهورة آنذاك كما أعجب به بالرئيس المصري (أنور السادات) مما جعله يحظى بتأييد معنوي أكثر¹.

المبحث الثاني: بوادر التغيير:

لقد كانت الدعوة إلى التخلص من الوجود الإستعماري تظهر خصوصا عندما أوشكت فرنسا على الاحتفال بالذكرى المئوية من التواجد الفرنسي في الجزائر. وقد إمتازت فترة الوجود الإستعماري في الجزائر تقهقر في كل الميادين سواء السياسية، الإجتماعية الثقافية الإقتصادية وحتى العسكرية. فبعدما كانت الجزائر البلد الرائد في تصدير القمح والشعير أصبحت بعد 1830 مضطرة لإستيراد المواد الغذائية البسيطة لتلبية حاجيات السكان. إن مثل هذه المفارقة تعرض علينا طرح أسئلة كثيرة وفي مقدمتها كيف إنقلبت الأوضاع بهذا الشكل الرهيب والمخيف وبهذه السرعة؟

يتضح لنا من خلال تحليلنا لوضعية المجتمع الجزائري ما بين 1931 / 1954. أن فرنسا الإستعمارية رسمت كل مخططاتها في مختلف النواحي (السياسية. الاجتماعية. الاقتصادية والثقافية) هدفها محو المقومات الأساسية و الشخصية القومية للشعب الجزائري حتى تتمكن من إحتواء الجزائر نهائيا في الكيان الفرنسي العام. ولا يزال الشعب يحصد ثمنها الى غاية يومنا هذا ، فلنا الحق اليوم إذن أن نطلق عليك إسم الاستعمار بدلا من الاستعمار ولقد صدق الجنرال لفيتامي العظيم جياب Giáp² حينما قال عن فرنسا "إن الإستعمار تلميذ غبي لا يفهم الدروس.

¹-مالك بن نبي.مذكرات شاهد القرن (الطالب) ت بقلم المؤلف.دار الفكر بيروت سنة 1970 ط1 ص 210 .

²-الجنرال جياب (1911-2013 :هو عسكري وسياسي فيتنامي وضابط سابق في الجيش الشعبي الفيتنامي، يُعد من أهم شخصيات حرب فيتنام، وهو أيضاً صاحب خطة معركة ديان بيان فو التي هزمت فيها فرنسا في 7 يونيو سنة 1954. وكذلك تمكن من هزيمة القوات الأمريكية بعد ذلك وقد تولى بعد ذلك منصب وزير الدفاع في بلاده

أما التخلف الذي سببه الاستعمار من الناحية السياسية فقد عمدت فرنسا إلى إصدار مختلف القوانين بواسطة مناشير والذي يقتضي التجنس بالجنسية الفرنسية. كما عملت على زرع بذور الخلافات والإنشاقات بين الجزائريين حتى ينشغلوا بمحاربة بعضهم البعض كي تتمكن من تنفيذ مخططاتها المتمثلة في القضاء على كيان الثورة والشخصية القومية ذلك عن طريق فرض حكم مباشر على الجزائريين باعتبارها مستعمرة فرنسية لا كيان لها ولا ممثل لها من الناحية الدولية إلا (فرنسا). ولم ينتهي الأمر عند هذا الحد فقد قامت بعزلها عن أشقائها العرب والمشرق كي لا يتأثرو بما يجري في داخل التراب الجزائري أو ينفعلوا بأحداثها وقد زادت في إصدار المراسيم قصد تجديد فترة النوم العميق حيث أصدرت مشروع بلوم فيوليت¹ الهادف إلى حرمان الشعب الجزائري من ممارسة حقوقه السياسية². أما من الناحية الاقتصادية تدهور الوضع بشكل جد رهيب حتى وصفت الجزائر بأنها "مملكة البؤس" وقد إختل الوضع الإقتصادي للجزائريين بسبب إستحواذ الإحتلال على معظم مصادر الثروة. في كل الميادين. ففي الميدان الزراعي عمل الإحتلال على إنتزاع الأراضي الخصبة من سكان الريف حتى أصبحت معظم الأراضي الخصبة بأيدي الأوروبيين مما أضر الجزائريين هجرتهم إلى المناطق الجرداء القاحلة في الجبال والصحراء³ وقد أعلن الجنرال الفرنسي بيجار⁴ بأن نزع ملكيات المواطنين هو الشرط الأول الذي لا مفر منه لتثبيت أقدامنا في الجزائر. أما في الميدان التجاري فقد استولي الاستعمار على البنوك وشركات الاحتكار الكبرى واصبجوا

¹- بلوم فيوليت: نسبة إلى مورييس فيوليت ظهر عام (1936) وهو مشروع يتكون من 08 فصول و 50 مادة يتضمن إصلاحات دستورية بإعطاء حقوق متساوية بين الجزائريين والفرنسيين وإصلاح التعليم وكان من أسباب المشروع كثرة الإضطرابات التي واجهتها الجزائر ما بين 1935 و 1936. من جهة وإنعقاد المؤتمر الإسلامي وتزايد الوعي الوطني

²- تركي رابح. التعليم القومي والشخصية الجزائرية (دراسة تربوية للشخصية الجزائرية). ط 2. ص 80

النصوص الكاملة للثورة الزراعية والمركز الجزائري للإعلام والثقافة. بيروت سنة 1975 ص 80³

⁴- مارسيل بيجار (1916_ 2010) جنرال فرنسي. شارك في معركة ديان بيان فو. وبعد هزيمة فرنسا عاد الي الجزائر وقاد عدة معارك حيث اشرف شخصيا علي قيادة الحرب النفسية ضد خلايا الفدائين في الجزائر العاصمة حيث استباح كل الممارسات القمعية حتي اقترن اسمه بالممارسات الوحشية ومظاهر التعذيب اثناء الثورة التحريرية الكبرى

يسيطرون على التجارة الداخلية والخارجية معا حتي أصبحت الجزائر تمثل سوقا رئيسيا للتجارة الفرنسية وموردا ضخما لجلب المواد الخام التي تحتاج اليها بثمن جد زهيد¹ ومما لا شك فيه أن هدف فرنسا من خلال هذه السياسة هو إبقاء الاقتصاد الجزائري مرتبطا بفرنسا حتي لا تبرز الجزائر بكيانها الاقتصادي وتبقي تتخبط في مشاكلها الاقتصادية وإبقاؤها ضعيفة متأخرة حتى تسهل عليها السيطرة واستغلالها بطريقة تتماشى مع سياسة الإستعمار في الإستحواذ علي ثروات الشعوب². ومن الناحية الاجتماعية فقد إنقسم المجتمع الجزائري إلي مجموعتين. فالمجموعة الأولى تتكون من الجالية الأوربية التي جاءت إلى الجزائر والتي تمكنت من السيطرة على أهم النشاطات الاقتصادية حيث أصبحت تحتل مركزا إجتماعيا ممتازا نظرا لثرائها وحماية دولة الإحتلال لها.

أما المجموعة الثانية فهي تتكون من الشعب الجزائري الذي وصل تعداده في نهاية مرحلة الدراسة إلى أكثر من عشرة ملايين نسمة وهم يحتلون المركز الأدنى من السلم الاجتماعي ويعيشون على هامش الحياة باعتبارهم مجموعة خاضعة للإحتلال. مكروهين ومحقورين من طرف الجالية الأوربية، وإذا كان الوضع الثقافي لأي مجتمع يعتبر انعكاسا لواقعه السياسي وبنائه الاقتصادي وتركيبه الاجتماعي، فلا شك أن حالة الجزائريين من الناحية الثقافية تعتبر أسوأ للغاية نظرا للضغوطات العنيفة التي تعرض لها الشعب الجزائري خلال قرن وثلث قرن من الإحتلال. ولما كانت اللغة العربية هي كيان وأساس الثقافة العربية، فقد ركز عليها لكي يتمكن من القضاء على معالمها. وتماشيا مع هذه السياسة فقد قام بمحاربة اللغة العربية ومطاردة روادها حيث أبعدها عن الإدارة وعوضها بالفرنسية وهي وحدها لغة العمل السياسي وحتى في الجنوب التي يقطنها عدد قليل من الجزائريين فقد قضي على معظم مراكز الثقافة العربية التي تتمثل في المدارس والجوامع والزوايا، فالبعض

¹ -عمار بوحوش. مجلة الثقافة الجزائرية عدد 14 /أفريل سنة 1973 ص 52 .

² -تركي رابح. التعليم القومي والشخصية الجزائرية (دراسة تربوية للشخصية الجزائرية) - ط 2. ص 89.

منهم حولته إلى معاهد للثقافة الفرنسية وبعضها سلمت إلى الهيئات التبشيرية والبعض حولته إلى مراكز التعذيب، أما البقية فهدمته. لقد أصبح المجتمع الجزائري فاقدا لهويته. ففي قسنطينة مثلا قبل دخول الإحتلال كان فيها ثمانون مدرسة وسبعة معاهد وزاوية وبعد الإحتلال لم يبق منها سوى ثلاثون مدرسة.

لقد نهبت فرنسا كل الكتب والوثائق والمخطوطات وباعوها لتجار الكتب الأوروبيون وإلا من أين لفرنسا هذا التراث الهائل من الكتب النادرة؟ فبدون شك فهي كتب أجدادنا التي سرقتها خلال فترة الإحتلال. وهذا فضلا عن المكتبات والكتب التي بعثوها أو احرقوها كما فعلو بمكتبة الأمير عبد القادر بعد أسره كما وقفت في وجه الصحافة والجرائد والمجالات العربية فبمجرد أن تبدأ في الظهور حتي تختفي مثلما فعلته لجريدة المنتقد للشيخ (ابن باديس) فقد صدر الأمر بإغلاقها نهائيا بعد أشهر قلائل من صدورها بحيث لم يصدر منها سوى 18 عددا. بل كانت الجريدة العربية تُغلق قبل أن يعرفها القراء كما وقع لجريدة (ميزاب) للأستاذ (إبراهيم أبو اليقظان) فقد صادرت الإدارة الفرنسية عددها الأول وهو ما يزال في المطبعة ثم قررت تعطيلها نهائيا¹، وفي المقابل فقد هدمت المساجد حتي أصبح 19 % فقط من الجزائريين مثقفين ويدخل في هذه النسبة من يحسن القراءة والكتابة باللغتين العربية والفرنسية وتعتبر فترة 1930-1956 من أصعب الفترات التي عاش فيها الشعب الجزائري تخلفا ثقافيا لان فرنسا أصدرت مرسوما يتعلق بفرنسة التعليم خصوصا الابتدائي. فهدفها من ذلك هو ان لا تتكون لدي الأطفال شخصيات ذات تكوين قومي ووطني منذ الصغر لان الطفل الذي لا يتلقي لغته ينشأ طفلا مفكك الشخصية².

النتيجة: بينما كانت السلطات الاستعمارية تواصل سياسة الإستبداد والإستعباد وتطبيق سياسة الإذلال والإهانة على الشعب مستخدما جميع الوسائل، إقتنع حينئذ الشعب الجزائري

¹-احمد توفيق المدني. كتاب الجزائر، ط2، الجزائر سنة 1963. ص 345.

²-د/رايح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، (دراسة تربوية للشخصية الجزائرية) ط2. ص 133

آن فكرة الإدماج مجرد هذيان وفكرة المساواة ضرب من الخيال وإن فرنسا الخادعة ليست أبدا الجزائر ولن تكون، ثم تولدت فكرة إنشاء حركات وطنية وجمعيات علمية من اجل القضاء على الاستعمار الفرنسي.

2- موقف "مالك بن نبي" من سياسة الإستعمار في الجزائر:

بعد دراسة وتحليل عميقين من طرف المفكر العظيم "مالك بن نبي" والتي جسدها في كتابه الرائع (في مهب المعركة) أدرك "مالك بن نبي" في نهاية الأمر أن الشعب الفرنسي - بفضل خيارات الجزائر- أنه وصل إلى عتبة التطور والرقى و بالمقابل نجد الشعب الجزائري في قافلة المتخلفين بعيدا عن جبهة التطور العالمي. لم يخرج بعد من مرحلة الامية. وحينما نريد ان نعبر عن هذا الواقع بلغة النسبية فإننا نقول أن قرنا من حياة مشتركة لم يخفض من التخلف بين الشعبين، بل زاد فيه كأن الشعب الفرنسي انطلق الى الامام بينما الشعب الجزائري رجع الى الوراء. ولعل هذا التخلف بين الشعبين يبدوا بطبيعة الحال في الحالة الثقافية حيث يمكن توضيح هذه الحالة ببعض الارقام التقريبية. فلنذكر ان عدد الطلبة الجامعيين يبلغ 300 000 طالبا بفرنسا، بينما يبلغ عددهم في الجزائر 300 (على وجه التقريب) وإذا كان لهذا الرقم معني من حيث الكم فإن الواقع يكشف وراءه حقيقة الامر من حيث الكيف كما استنكر "مالك بن نبي" السياسة التي انتهجتها فرنسا اتجاه النشاط البحري الذي وضعته تحت تصرفه تطبيقا لما يسمى ب " احتكار الرأية" بحجة وضع حد لقرصنة الاسطول الجزائري القوي انذاك وهذا الاحتكار قتل في حينه النشاط البحري الجزائري العظيم وبذلك فقد وجد الجزائريين انفسهم مطرودين من الملاحة بقانون احتكار الرأية. وهذه الوضع يظهر على وجه الخصوص في صورة أي مدرسة مهنية في مدينة من مدن الجزائر، فإن المدرس تضم عددا من الاقسام يناسب عدد القاعات الموجودة غالبا في الوطن لكن الطالب الجزائري يوجه الى قسم صناعة الخشب على وجه الخصوص -أي إلى صناعة غير مربحة -لان السوق مكتظ بمن يشتغل في مثل هذه الصناعات. بينما يوجه الطالب

الأوروبي إلى الصناعات الميكانيكية التي لها رواج في المستقبل وبالطبع فإن هذا التوجيه ليس من محض الصدفة بل من أثر التوجيه العام للتعليم الفرنسي لأن هذا التعليم يستهدف تكوين نخبة مثقفة وتشكيل نواة من البرجوازيين الفرنسيين يحملون شهادات علمية¹ وعلى هذا نستنتج أن التخلف الذي يعيش فيه الشعب الجزائري اليوم ما هو إلا نتيجة منطقية وسياسة حتمية للإدارة الفرنسية منذ 1830. بعد أن نأخذ في الحساب الأسباب التي تعود إلى القابلية للإستعمار.²

3- بوادر التغيير السياسي قبل ثورة نوفمبر 1954:

3-1-1 نشأة الأحزاب السياسية:

3-1-1-1 حزب الشعب الجزائري:

تأسس في 11/ 03/ 1937 وهو الوارث لحركة نجم شمال إفريقيا.³ وقد كان الحزب ينادي باستقلال الجزائر التام في نطاق حضارتها العربية الإسلامية. ولذلك لقيت من الاحتلال إضطهادا عنيفا وتعنتا شديدا بلسبب مبادئها الثورية وتمسكها بمقومات الهوية الوطنية للجزائر

3-1-2 حركة إتحاد المنتخبين الجزائريين:

تأسست عام 1930 تدعو إلى المحافظة على الشخصية الإسلامية للجزائريين

3-1-3 - حركة أحباب البيان والحرية: نشأ هذا الحزب في بداية سنة 1945 يضم الفئة المثقفة (جماعة النخبة) وقد بعثت هذه الحركة الأمل في قلوب الجزائريين باعتبارها حركة

¹-مالك بن نبي: في مهبط المعركة (مشكلات الحضارة)، دار الفكر -دمشق- الطبعة 3، سنة 1981.،المقالة تحت عنوان : الجمهورية الجزائرية، في 1954/03/26. ص 34-35-36.

²-نفس المصدر السابق، ص 39.

³-نشأة حزب الشعب كان امتدادا لحركة نجم شمال افريقيا الذي أنشئ سنة 1926

قومية تضم في صفوفها كل الحركات الوطنية الأخرى وبذلك أصبحت كلمة الجزائريين لأول مرة موحدة وراء هدف واحد وهو الحرية والاستقلال ضمن إطار الشخصية الوطنية. وفي عام 1946 وبعد مجازر 05/08 1945 ظهر حزبان جديان حلا محل حركة أحباب البيان والحرية وهم حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري بزعامة فرحات عباس. والحزب الثاني (MTLD) حركة الإنتصار للحريات والديمقراطية بزعامة مصالي الحاج. يتفق هذان الحزبان في مبدأ المحافظة علي الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها الروحية والفكرية واللغوية لكن يختلفان في طريقة الحصول علي الاستقلال للجزائر¹.

3-1-4 - دور المؤتمر الإسلامي:

تأسس عام 1936 وكان أول من فكر في عقده هو الإمام (ابن باديس) وكان الغرض من الدعوة إليه وانعقاده هو محاولة جمع صفوف الأمة على اختلاف مشاربهم السياسية من أجل الإتفاق على الحد الأدنى من المطالب السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقد انعقد في نادي الترقى في السابع من شهر يوليو سنة 1936 وشاركت فيه حركة اتحاد المنتخبين المسلمين الجزائريين. وقد أسفر عن جملة من المطالب المتمثلة في إلغاء القوانين الإستثنائية مثل قانون الأنديجان المسلط على الجزائريين منذ 1874 ومنع حرية التعليم بالغة العربي².

3-1-5 - حزب جبهة التحرير الوطني FLN :

في بداية الخمسينات أمن الشعب الجزائري بأن الكفاح المسلح هو السبيل الوحيد لتحرير الجزائر. وما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بها وهذا بعد فشل كل الأحزاب السياسية في اقناع فرنسا على الخروج بالطريقة السلمية. وهكذا ولدت سنة 1954 منظمة FLN وقد قام

¹-د. رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، (دراسة تربوية للشخصية الجزائرية)، ط2 ص 65/66/67/70.

²- نفس المصدر السابق ص 71.

بتكوينها مجموعة من الرجال الأحرار الذين ألهم ما وصلت اليه حالة الجزائر بعد إحتلال دام اكثر من قرن. وقد ضمت الجبهة في صفوفها الأمامية كل العناصر الحية والثورية وقادوها بنجاح طوال ما يقارب عن 08 سنوات. غير أن فرنسا الخادعة أرادت القضاء على هذا الحزب وعلى رجالها الأكفاء, ففي 22/10/1956. قامت بتحويل الطائرة التي تضم زعماء الثورة التحريرية القادمة من تونس إلى المغرب حيث أجبرتها على الهبوط في الجزائر. وهي اول قرصنة جوية قامت بها فرنسا وكانت الطائرة تضم محمد بوضياف 1992/1921 محمد خيضر (1912 / 1967) حسين ايت احمد (1926) احمد بن بلة 1916 / 2012 (رابح بيطاط (2000/1925) ومصطفى الاشرف (مصور). حيث أودعتهم السلطات الفرنسية في السجن قصد قتل العمل الثوري.¹ إن فرنسا لم ترحم يوما الشعب الجزائري البريء الذي كافأته غالبا في حوادث 08/05/1945/ حينما فتحت شرطة السفاح موريس بابون **Maurice Papon**² النار على المتظاهرين الجزائريين إحتفالا بنهاية الحرب العالمية الثانية وكان الثمن غالبا في ذلك اليوم المشئوم حيث سقط فيها ما يقارب (خمسة وأربعون ألف شهيد) في مناطق عديدة من الوطن منها سطيف. قالمة خراطة. وما زالت قائمة الضحايا عالقة حتي يومنا هذا في مقبرة الشهداء بسطيف

إن التاريخ شاهد على جرائم فرنسا التي أعدمته ونكلت وانتهكت الحرومات في حق شعب هدفه فقط المطالبة بالحرية والاستقلال. واليوم تعود علينا بقناع الديمقراطية والمساواة والحريات وكأن التاريخ بدأ من حيث تشاء ونسيت خداعها وخبثها الذي لطالما لازم سياستها.

¹-فرحات عباس. ليل الاستعمار • La nuit coloniale: (ت:ابو بكر رحال. المغرب -الرباط ص200/2002).

²-موريس بابون:1910-2007. صاحب الشهادات العليا في القانون والحقوق والسياسة، ومجرم حرب فرنسي حيث شارك في القمع الدموي لمظاهرات 17/10/1960. التي نضمتها (جبهة التحرير الوطني) و كان في ذلك الوقت رئيس شرطة باريس (محافظة سين) حيث القي بالآلف الجزائريين في نهر السين والحصيلة خلفت 300. شهيد و400. مفقود. في عام 1998. أدين بتهمة التواطؤ في جرائم ضد الإنسانية وحكم عليه ب 10. سنوات سجنا نافذة

3-2 الجمعيات:

3-2-1-3-جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

لقد كان لظهور علماء السلف ك ابن تيمية وابن القيم الجوزية وظهور حركة الإصلاح الديني في الجزائر أثرا بالغا في تهيئة البلاد لقبول الدعوة الإصلاحية حيث أكد رجال الجمعية في كل مناسبة تأثرهم بدعوة الشيخ محمد عبده.¹ ويقول الشيخ محمد خير الدين وهو من الأعضاء المؤسسين لجمعية علماء المسلمين في مذكراته: (ان الحركات التحررية في بعض بلدان المشرق العربي مدينة لحركة الإصلاح الفكري والديني التي قادها موقظ الشرق "جمال الدين الافغاني" ومن بعده....) وقد أحدث الإمام عبد الحميد ابن باديس في الجزائر ثورة تعليمية بفضل دروسه الحية وتربيته الصحيحة وقد كان كثير الاتصال بالشيخ رشيد رضا بالمراسلة وبطريقة سرية خوفا من السلطات الفرنسية. و نظرا لما آل إليه الشعب من ضعف وتمزق نتيجة الضربات الاستعمارية الموجعة. إجتمع علماء الجزائر في نادي الترقى بالجزائر العاصمة يوم 1931/03/05. وأسسوا جمعية علماء المسلمين في الجزائر وانتخبوا بالإجماع الشيخ ابن باديس رئيسا لها وعملت على إصدار مجلة الشهاب ثم المنتقد² وقد أنشأ باديس فروعاً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في شتى أنحاء الجزائر فخلق طائفة من الدعاة والمرشدين وهم شباب من المدرسة البادسية يحملون أمانة الكلمة. ويكشفوا وجه الحق. وكم كانت طريقة المقاومة أمامهم شاقة ومرهقة، حيث كان الاصطدام عنيفا بين قوم يؤيد الإحتلال ومخازيهم الزائفة وبين جماعة من الفدائيين الأحرار صدقوا ما عاهدوا الله عليه فواصلوا الكفاح تحت راية قائد باسل يرسم الخطة ويهدي إلى الحق. وهذا بفضل اعتمادها على القرآن والسنة عند وضع مبادئها الإصلاحية وأصولها العامة التي سارت على هديها، فالإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به وذلك لأنه

¹ -محمد عبده. 1905/1849. مفكر مصري اشتغل عدة مناصب عليا حيث عين في منصب المفتي العام (1899). ثم عضو

في مجلس الاوقاف 1890. ثم عضو في مجاس الشوري (1890) وقد الف عدة كتب. اهمها رسالة التوحيد

² -بهي الدين سالم :ابن باديس فارس الاصلاح والتتوير، دار الشروق، ص 66/73. 77.

دين يدعو إلى الإخوة بين جميع المسلمين، يسوي بين الأجناس البشرية مهما كانت الأجناس والألوان، كما حرم الظلم بجميع أشكاله ويمجد العقل ويدعو إلى بناء الحياة أساس الفكر ونشر دعوته بالحجة والإقناع¹.

لقد خاضت الجمعية معركة المصير على كافة الجبهات وفي كل الميادين، من صراع ضد السلطات الاستعمارية إلى صراع ضد الانحرافات المذهبية، والرد على أعداء الدين في الخارج. وكان هذا التحول برهانا على إنتصار حركة الإصلاح الإسلامي المبنية على أساس العزيمة القوية وإرادة صلبة وعلم غزير وإيمان عميق بفضل ابن باديس ومن وقف معه في ساحة العسر. أمثال العالم الجليل أملك الميلي. الطيب العقبي. البشير الإبراهيمي. العربي التبسي. أحمد توفيق المدني. المرحوم عبد الرحمان شيبان. إلى غاية الدكتور عبد الرزاق قسوم وقد لقيت الجمعية إستجابة قوية من طرف العلماء والجماهير وكانت أياما مشرقة باسمه، وحدث من أسعد الحوادث وأكثرها نورا وإشراقا عاشها الشعب الجزائري وعلى هذا الأساس وجهت الدعوة لـ 120 عالما اشتهروا بإستقامة ونقاء سيرتهم وإخلاصهم لعقيدهم من أجل إيجاد الطرق الصحيحة لإزالة آثار الإستعمار وإقتلعه من جذوره ومازالت هذه الجمعية تتعامل بهذه المعايير وتنشط بنفس الحماس والإرادة إلى غاية يومنا²، كان ابن باديس دارسا متعمقا للقران والسنة وباحثا له صاحب الرأي المتزن وقد شق طريقه على النهج القويم مستخدما أدوات معاصرة لإبلاغ دعوته وفي مقدمتها الصحافة حيث أصدر مجلة الشهاب الشهرية وجريدة المنتقد سنة 1926. وصحفا أسبوعية أخرى مثل (الصراط. الشريعة والسنة)³.

¹ - بسام العسيلي: ابن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية. دار النفائس، ص 116

² - نفس المرجع السابق. ص 117

³ - د/عمار طالبي، ابن باديس. حياته وأثاره ج 4. ص 37.

وقد ركزت الجمعية على عدة أسس هدفها تقوية الوحدة الوطنية وردع الاستعمار حيث عملت على تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة السلف وإصلاح اللغة العربية حيث نجد عبد الحميد بن باديس يقول "إن فهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الاولى وانه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم" وقد التقى مع الشيخ محمد عبده من اجل تصحيح المفاهيم والعقائد وتطهير العقول من ركाम التقاليد البالية وهتما كلاهما بالتربية والتعليم وإنشاء المدارس للنهوض بالأجيال القادمة. وكانت الجمعية مدرسة الإصلاح الجزائرية وكانت نعمة من الله رافقت الجزائريون في محنه وشدائده مقتبسة مبادئها من نور الإسلام المبين. وهي استجابة واعية للظروف السائدة في البلاد ومعالجة حكيمة لها بهدي الإسلام وإخلاص رجالها.

إن إلقاء الضوء على سيرة الدعاة والمصلحين عبر تاريخ الحركة الإسلامية في مختلف حلقاتها وأزماتها وأماكنها فاءنها أضفت تنويرا وتبصيرا للعالم الإسلامي سواء في الماضي أو الحاضر. تمكنت الجمعية بفضل رجالها المخلصين من بث روح الإيمان في قلوب الجزائريين, تحصلوا على حقوقهم من فرنسا دون أن يتنازلوا عن حالتهم الشخصية , كما تمكنوا من إدخال اللغة العربية بصفة إلزامية إجبارية في كل المناهج وعظمت الوعي الديني في أوساط الجماهير واتجهت نحو فهم الدين فهما حقيقية وهذا بالعودة إلى الكتاب والسنة¹ يقول الله عز وجل في كتابه العزيز (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ²).

3-2-2-الجمعيات الرياضية والطلابية: ظهرت الأنشطة الرياضية والطلابية من أجل لم شمل الطلبة والكشافة والشعب الجزائري وقد ظهرت جمعية الطلبة المسلمين بالجزائر في 06/12/1953/ فكانت التشكيلة على النحو التالي صابر صادق الشريف. رئيسا, مراد

¹ - محمد فتحي عثمان .بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر دار القلم الكويت ص 41

² -سورة آل عمران: الآية 104

على. كاتبا عاما، اسكندر نور الدين. وبلحاج محي الدين. نائبين له وقد اتفقوا على تعيين الرئيس السابق للجمعية وهو عبد السلام بلعيد رئيسا شرفيا. وكان الوعي الوطني والإسلامي منتشرا وكبيرا بين فئة الطلبة المغاربة عموما والجزائريين وكان الهدف من تأسيس هذه الجمعية هو مواجهة المشاكل السياسية. وقد إمتدت نشاط التنظيم الى خارج الوطن وبالضبط في فرنسا وأطلق عليه اسم "الإتحاد الإسلامي للطلبة المغاربة" وكان رئيسها الجديد محمد أمير الذي هو في نفس الوقت رئيس طلبة شمال إفريقيا المسلمين بباريس. لقد كانت هذه الجمعية خطوة متقدمة من أجل تجميع القوي الطلابية لصالح الحركة الوطنية. فقد إمتد نشاط الجمعية إلى تونس حيث تشرف عليه بعثات من شيوخ بني ميزاب. وقد تكونت في تونس جمعيات طلابية التي ترأسها "الشاذلي المكي".

وجاءت هذه البعثات بنتائج جيدة وباهرة اذ تخرج منها عدد هام من الطلبة الذين توجه معظمهم للتعليم في المدارس الحرة. والبعض الآخر توجه إلى السياسة أو الإقتصاد. وقد أصدرت الجمعية مجلة بعنوان (الثمرة الأولى) التي ظهر عليها الطابع الوطني والإسلامي، وقد اشترك في الكتابة فيها: الشيخ أبو يعلي الزواوي. أحمد حماني. محمد الأخضر السائحي (من الجزائر) محمد الشبوكي (من تونس) بينما إعتذر عن الكتابة المبارك الملي. وقد شهد نشاط الجمعية تصعيدا قويا خصوصا بعد مجازر 1945/05/08. حيث أشرف عليها أعضاء ينتمون إلى جمعية العلماء المسلمين أمثال احمد بوروح والمرحوم عبد الرحمان شيبان¹.

3- 2- 3- دور الكشافة الإسلامية: لقد كانت الكشافة الإسلامية نشطيه ولها إنتشار واسع، عبرت عنه من خلال بياناتها وأناشدها الوطنية التي كانت تلقنها لأعضائها، وكانت جريدي المنار والبصائر تتقلان أخبار الكشافة. ينسب تأسيس الكشافة الإسلامية إلي (محمد

¹د/ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 10. دار البصائر الجزائر ص. 25/20

بوراس)¹ الذي إتخذ من الكشافة وسيلة للعمل العسكري والسياسي ضد الاحتلال وحينما اكتشف أمره القي عليه القبض من طرف السلطات الاستعمارية وحكمت عليه بالإعدام سنة 1941. ثم ترأسها فيما بعد السيد (محفوظ قداش) الذي اصدر بلاغا في 28/10/1950. عين فيه المسؤولين في اللجنة المسيرة للكشافة وهم: محفوظ قداش/رئيسا. عمر الأغا/نائبا. حمدان بن عبد الوهاب/أميننا للمال. وقد وسعت الكشافة من نشاطاتها التربوية حيث أصدرت جريدة بعنوان (صوت الشباب) وهي جريدة تربوية إخبارية تهتم بمشاكل الشباب الجزائري. وفي أبريل 1952. أقامت الكشافة حفلا في مدرسة التربية والتعليم التي تديرها جمعية العلماء المسلمين, حيث صادف ذلك ذكرى وفاة العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس فأحيوا الذكرى. وقد تحدث الشيخ "محمد القباطي عن ضرورة التعلق بالوطن وأن الجزائر بخير ما دام لدينا شباب يؤمنون بالروح الوطنية, كما ركز على ضرورة الحفاظ على العروبة والإسلام بإعتبارها أحد الركائز الأساسية للدولة الجزائرية.

وقد تعرضت الجمعية للقمع والاضطهاد من طرف سلطة الإحتلال حيث هاجمت الشرطة الفرنسية مقر الكشافة وفتشت أوراقها وأخذت ألتين راقيتين وناسخة ثم أتلقت البقية. وبعد هذه الحادثة إجتمعت الهيئة العامة للجمعية وأصدرت احتجاجا وتنديدا بإعتبارها أن الجمعية منظمة قانونية تربوية لا علاقة لها بالسياسة. ومع بداية ثورة نوفمبر المجيدة, وسقوط الأقتعة من فرنسا إتخذت الكشافة موقفتشدا ضد الإستعمار حيث نددت بأعمالها الإجرامية وأصدرت بيانا هاما دعت من خلاله جميع العناصر المخلصة من أبناء الشعب الجزائري الأصيل إلى رفض المناورات الخطيرة لفرنسا الكاذبة, كما إستتكر البيان التفرقة بين عناصر الوحدة الوطنية فنبهها بعدم الوقوع تحت الفخ الذي نصبته إياه فرنسا. وما يلفت النظر أن

¹ -ولد محمد بوراس بمدينة مليانة, عام 1908 تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بمسقط رأسه ثم انتقل الى العاصمة واستقر في ضواحي بولوغين شارك. اسس اول فوج للكشافة بالعاصمة سنة 1933. وفي عام 1936 عمل على توسيع الافواج الكشفية. وحينما اكتشفت امره السلطات الفرنسية اتهمته بالعمل لصالح الالمان فاعتقلته ثم اعدم في محاكمة سرية .

الكشافة تدعو وتصر بالتمسك بمبادئ الإسلام ونبذ الإلحاد وإلى التحذير من الانحراف الديني ونشر الأفكار المتطرفة بين عناصر الأمة الواحدة، وإلى غاية يومنا هذا لاتزال الجمعية تنشط بنفس العزيمة وبنفس الإرادة، تهدف إلى نشر أفكار الدين والتسامح وتمجيد الأخلاق والافتداء بسيرة الرسول (ص)¹.

¹ د/ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.10، دار البصائر الجزائر، ص.31

الفصل الثاني: حتمية التغيير

المبحث الأول: مفهوم التغيير ووسائله واهدافه

المبحث الثاني: الحضارة عند مالك بن نبي

المبحث الاول : مفهوم التغيير وخصائصه:

قد تتبادر إلى الذهن أسئلة عديدة حول سبب اختيار موضوع فلسفة الإصلاح في فكر "مالك بن نبي". ولماذا القول بضرورة الإصلاح والتجديد لتحقيق المشروع الإصلاحى التغييرى في المجالات الأخرى ؟ في الحقيقة اجتمعت أسباب كثيرة دفعتني لاختيار هذا الموضوع ولعل أهمها، الوضع الثقافى والفكرى والاجتماعى والسياسى الذى تعيشه المجتمعات الإسلامىة، وأزمة اللاوعى التى شكلت فى أوساطنا المرض العضال الذى يحتاج لتكثيف الجهود من أجل القضاء عليه. لا نستطيع أن ننكر أن الاستقلال الذى نالته الشعوب الإسلامىة مازال استقلالا فارغا من كثير من المحتوى والمعنى، لأن الاستعمار مازالت جذوره ضارية فى بنيتها الثقافىة والاجتماعىة والاقتصادىة والسياسىة. صحيح أنها تخلصت من الاستعمار المباشـر -العسكرى- ولكنها لازالت تعاني من الاستعمار غير المباشـر وهو الذى ضرب سياجه على الفكر والثقافة فى البلاد الإسلامىة، فشخصىة المفكر الإسلامى لم تكتمل بعد" ولم يظفر بعد بحقه فى السيطرة على وجوه الحىاة، وبقىمته الاجتماعىة ولهذا فقد راي "مالك بن نبي" فى التغيير مسألة ضرورىة وغاىة من غاياتها الاساسىة وحتى تكون عملىة التغيير عملىة شاملة - كما يقول ابن نبي- لا بد من تغييرات ثورىة:فأما أن نقوم نحن المسلمين بالتغيير فى مجتمعاتنا، وإما طبقىة العصر تفرض علينا تغييرات من الخارج، لأن هذه هى روح العصر، فالذى يجب أن نؤكد عليه أولا وأن نتذكروه دائما: أننا إذا لم نقم نحن بثورتنا فإن التغيير سوف يأتى من الخارج ويفرض علينا فرضا"نحن نحاول علاج قضىة التغييرالإجتماعى عند "مالك بن نبي" ونحاول توضىح مفهوما حتى يتسنى لنا الوقوف على أرضىة صلبة فى بيان خصائصها وأهدافها ووسائلها ثم نحيط فىما بعد بأبعادها والسياسىة والثقافىة. لأن كل تغيير يطرأ على الجانب الاجتماعى نجده يمس بالضرورة الجوانب الأخرى و لعل السبب الرئىسى الذى أدى ب"مالك بن نبي" إلى التعجيل ب عملىة التغيير هو فشل الحلىن الدخلىن على بلادنا المستوردين من عند غيرنا وهما النظام اللىبرالى

الديمقراطي والنظام الاشتراكي وقد كانت سلبيات كلا النظامين أكبر من إيجابياته. حيث شمل الفشل تقريبا كل الميادين (فشل في المجال الإقتصادي والاخلاقي والعسكري ولهذا فقد تسأل وبحث مالك بن عن أسباب هذا الفشل، وكيف يكمن إحداث التغيير؟ وما هي العوامل التي تساهم في إحداث التغيير؟ .

1-ضبط المفاهيم:

أ- مفهوم المجتمع عند "مالك بن نبي": لا ينحصر مفهوم المجتمع عند بن نبي في مجرد تجمع أفراد على أساس الاشتراك في العادات والتقاليد أو العيش في رقعة جغرافية واحدة والخضوع لقوانين مشتركة. لكنه يمثل الجماعة التي تغير باستمرار خصائصها بإنتاج وسائل التغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه وراء هذا التغيير. ويقوم النظام الإجتماعي بحسب هذا التعريف على أسس هي: الحركة، إنتاج أسباب هذه الحركة (حركة المجتمع) وتحديد اتجاهها، فهذا هو في نهاية الأمر المقياس الأساسي الذي يساعدنا على أن نواجه مشكلة ميلاد المجتمع، حيث تكتسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، أما الجماعات الساكنة فإن لها حياة اجتماعية دون غاية، فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة¹.

ب- مفهوم التغيير:

التغيير في اللغة: معناه التحويل أو التبديل وهو مرتبط بإرادة الكائن الذي يقوم بفعل التغيير وهذا تجسيدا لقوله تعالى "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"² حيث إعتبر التغيير أحد المباحث الهامة في علم الاجتماع، ويقوم على دراسة ما يقع من تغيرات أو تطورات تطرأ على المجتمع في فترة زمنية محددة. يعتبر "مالك بن نبي" ممن إهتموا بهذا

¹-مالك بن نبي: اميلاد مجتمع،ت: ص 20/18.

²-سورة الرعد الاية 11

الموضوع باعتباراه ،من أهم مشكلات العالم الإسلامي ،من خلال شعوره بالقلق إزاء مجتمعه الذي انحرف عن مسار الحضارة واجتمعت حوله الأمراض الذي سلمته جاهزا للإستعمار .وبدون شك فإن مالكا بحث الموضوع بدقة وحلله تحليلا موضوعيا مدفوعا بتوتر شديد إزاء هذا الوضع ولهذا تتبع مسار المجتمع الإسلامي وأسباب تخلفه وحاول علاج قضية التغيير الاجتماعي بوصفها أكثر المشكلات إلحاحا في ذهنه مبرزاً مضارها . محاولا الوقوف على أبعادها ومحللا عناصرها حتى اعتبره بعض الباحثين صاحب نظرية في التغيير الإجتماعي لا تقل أهمية عن نظريات¹ ليفي يريل².

2 . مفهوم التغيير وشروطه عند "مالك بن نبي":

من خلال تعريفه السابق للمجتمع يظهر أن التغيير فعل المجتمع في التاريخ، فالمجتمع يتحدد كمجموعة أفراد يتحركون في إطار زمني محدد .وهي حركة مستمرة من أجل تحقيق هدف واضح مع إنتاجه لوسائل الحركة، و يجب أن يتفق التغيير الإجتماعي مع إنبثاق حضارة معينة لأنه في الحقيقة عبارة عن عملية تحضير، فحينما تبدأ الجماعة في تغيير نفسها لتحقيق أهدافها فسيكون من مستلزمات هذا التغيير استيعاب جميع الميادين الأخرى بما فيها الثقافية والسياسية والإقتصادية مما يعطي لنا في الأخير التغيير الحضاري وهو ما جعل البعض يفضل تسميته التغيير الحضاري بدل التغيير الإجتماعي³، وتظهر بعض الدراسات أن التغيير الإجتماعي سواء أكان سلبيا أو إيجابيا يمس جميع الثقافات مع تفاوت من حيث السرعة، فإذا كان المجتمع بطيئا متخلفا فالتغيير يكون بطيئا وإذا كان

¹ -نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي: دراسة في بناء النظرية الاجتماعية ، ط1: الدار السعودية للنشر والتوزيع. ص 284

² - ليفي يريل: ' Lucien Lévy-Bruhl 1857-1939. فيلسوف وعالم اجتماعي فرنسي من أتباع أوغست كونت ترأس اللجنة الوضعية وساهم في تحرير السياسة الوضعية له مولفات أهمها العقلانية البدائية L'Âme primitive

³ -محي الدين صابر: قضايا التنمية في المجتمع العربي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر بتونس. الطبعة 2 1987. ص68

المجتمع متحضرا فالتغيير يكون أسرع .ويحلل "مالك بن نبي" حركة المجتمع من خلال العوالم الثلاثة للبناء الثقافي. فعالم الأشخاص يحدد غايتها التاريخية وعالم الأفكار يحدد منهجها وعالم الأشياء يوفر وسائلها وأدواتها المادية .ولا يتحقق عمل تاريخي في إطار التغيير إلا بتضافر العوالم الثلاثة¹ ثم يضيف لها عاملا رابعا يقوم عليه المجتمع في بناء حضارته وهو شبكة العلاقات الإجتماعية وهي الرابطة للأفراد (عالم الأشخاص) ،هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم عليه المجتمع ساعة ميلاده وأول خطوة في بناء الإنسان الإجتماعي حيث يتحرر الفرد من فردانيته أي من كونه فردا (individu) ليرتقي إلى رتبة الشخص (personne) وأبرز الأمثلة التي يقدمها بن نبي لهذه الحالة من التطور إجتماع المسلمين خلال صلاة الجمعة²، والتغيير الإجتماعي بما هو تغيير حضاري قد عرف في تاريخه نفس مراحل الدورة الحضارية التي مر بها العالم الإسلامي بإعتبار الحضارة فعل مجتمع تبدأ المرحلة الأولى (مرحلة الروح) ثم المرحلة الثانية (مرحلة العقل) وتنتهي الدورة بمرحلة السقوط والتدهور، وهي مرحلة الغريزة حيث تتحرر الطاقات الحيوية من سلطة الروح والعقل لتخضع لسلطة الغرائز³ ويحدث الإختلال الخطير في التوازن الثقافي بفقدان عالم الأفكار لمكانته المركزية ضمن سلم القيم الإجتماعية ،فتصبح الأفكار تدور حول عالم الأشخاص أي يصبح الشخص مقياس الحق والحقيقة وهذا هو أصل ظهور الاستبداد السياسي، و هو ما تسبب في استبداد فكري جعل الأمة الإسلامية تسقط بين فكي استبدادين خطيرين استبداد سياسي واستبداد فكري. والأخطر من ذلك أن تتمحور هذه العوالم حول الأشياء فيتحول التغيير (كحركة مجتمع) إلى تكديس منتجات الحضارة، مما يولد أزمة ثقافية خطيرة تختل فيها شبكة العلاقات الإجتماعية نتيجة توجيه الطاقة الحيوية نحو الغرائز.

¹-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص 65/67.

²-نفس المصدر السابق ص 31

³-المزيد من التفاصيل طالع المبحث الثالث الفصل الأول (نظرية التعاقب الدوري عند ابن خلدون)

إذن المجتمع عند "مالك بن نبي" وإمكانية تغييره تتوقف على مجموعة من الشروط وفقا للمبدأ الأساسي والقاعدة الأصلية التي تجسدها قواعد القرآن الكريم " ولكن السؤال الذي يجب طرحه هو كيف يمكن توجيه حركة التغيير في المجتمع الإسلامي توجيهها إيجابيا لبناء حضارته مع العلم بأن حركة المجتمع جزء من ماهيته. ومن لا يتحرك للأمام بالتأكيد أنه يتحرك للخلف ومن لا يتحرك تقدما الى الامام يكون النكوص الى الخلف كما هو حال الأمة العربية الإسلامية اليوم.¹ وقد راي "مالك بن نبي" أن تخلف المسلمين اليوم راجع إلى ذواتهم وضمايرهم الميته فقد استقر في نظرهم أن علاج مشكلة التخلف يكمن في استيراد الوسائل الجاهزة التي أنتجتها حضارات أخرى قطعت أشواطا كبرى في مسار العصرية . فالتقدم لا يتم باستيراد ثقافات أخرى أجنبية بل هذه المعادلة تزيد تخلفا حيث نرى تناقضا فادحا في المجتمع الإسلامي يتمثل عدم تناسب طريقة تفكيره مع طريقة أكله ولباسه. ولهذا فإذا أراد أي شعب أن يتطور فلا بد أن تتوفر لديه إرادة التغيير التي يجب أن تنبعث من داخل الإنسان نفسه، وهو ما يلخص لنا وعي الذات لذاتها وبذلك نجده (بن نبي) يدعو إلى ضرورة التميز بين عمليتي (التغيير والتغير) فالتغيير عنده هو عملية إرادية مقصودة يقوم بها الإنسان للانتقال من وضعية مادية ومعنوية غير مرغوب فيها تتسم بالجمود والتخلف إلى وضعية جديدة تتصف بالحركية أما التغير فهو عملية تلقائية خارجة عن إرادة الإنسان . إذن يعتبر التغيير ذلك الفعل الإرادي الذي يمثل نقطة تحول تاريخي تفصل بين مرحلتين زمنييتين متباينتين من حياة المجتمع. ويهدف في نهاية المطاف إلى إقامة حضارة. لكن هذا لا يتم على حساب إدارة الظهر للماضي أو إقصاءه من دائرة الحساب. فالتطور الحقيقي ينطلق أساسا من هذا الماضي مزيلا عنه تلك السلبيات التي لحقت به على مر العصور، وعليه يمكن أن نستخلص بأن التغيير الذي يتجاهل الماضي هو تغيير باطل محكوم عليه بالفشل مسبقا. وهكذا وعلى ضوء هذا الفهم يصبح التغيير عند

¹- نفس المصدر السابق ص104

"مالك بن نبي" عملية إعادة بناء تتأسس على النماذج الأصلية للمجتمع وقيمه المقدسة. وفي هذا المضمار يستشهد بن نبي بالقول المأثور لأنس بن مالك: "لن يصلح اخر الأمة إلا بما صلح به أولها"¹ إن تحقيق التغيير في أي مجتمع يجب أن يتم أولاً داخل النفوس لأنها تمثل الشرط الجوهري في ارتفاع المسلم المعاصر إلى مستوى الحضارة ،وبالتالي يستطيع إنقاذ نفسه وإنقاذ الآخرين وفق مجموعة من الشروط هي :أن يعرف المسلم المعاصر نفسه وأن يعرف الآخرين فلا يتعالى عليهم أو يتجاهل وجودهم، إذ لا يجوز له أن يجهل ما في نفوسهم بل عليه أن يعلم ما في نفوسهم ليتقي شرهم وليخاطب جانب الخير فيهم وتبليغهم رسالة الإسلام.

كما يجب أن يقوم بتعريف الآخرين بنفسه ،بعد أن يكون قد حقق الصورة المحببة عن نفسه وتمكن في القضاء على رواسب التخلف وأشكاله .فإذ إستطاع المسلم المعاصر أن يحقق هذه الشروط فإنه لم يستطيع أن يقوم بإنقاذ الإنسانية من الأزمة الراهنة التي تعاني منها ويستطيع أن يرتفع إلى مستوى الحضارة من جديد .² ولكي يكون التغيير أكثر فعالية لا بد من إخضاعه لمجموعة من الشروط الفعلية والتفتيش في وعينا ومراجعة ذواتنا وقد تناول حسين هيكل هذه المسألة بشجاعة فهو يقول "يجب على كل واحد منا أن يقدم حساباته كما يجب علينا أيضا أن نفهم الدروس.ولعل اهم هذه الشروط الأساسية التي زكز عليها "مالك بن نبي" في كتابه "من أجل التغيير " هو التخطيط والتخطيط الدقيق لمختلف أعمالنا ومشاريعنا لان الدول المتقدمة قد حققت عصر الانجازات الكبرى بفضل المساحات الكبرى المخطط لها، فالسويد مثلا فقد حققت منذ أنتهاء الحرب العالمية الثانية تحولا جذريا في بنيتها الزراعية بالتخطيط المناسب حولت كل اراضيها الصالحة للزراعة الى منتجات الاشجار جعلت من هذا البلد من اوائل المنتجين لمادة (السيليوز) السوق العالمية.فالتخطيط

¹ -د/ نورة خالد السعد، التغيير الإجتماعي في فكر مالك بن نبي:دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، ص 107.

² -محمد عبد السلام الحفائري. مشكلة الحضارة عند مالك بن نبي. الدار العربية للكتاب. ليبيا 1984.ص.200- 221

ضروري في أي بلد لأنه يهدف أساسا إلى تحريك كامل طاقاته وموارده البشرية والمادية مما يؤدي إلى خلق دينا ميكية إجتماعية. وبإبتعاد أحد عناصر هذا التخطيط، مهما كان ضئيلا فإنه يؤثر سلبا على توازن الديناميكية التي يراد خلقها. كما أن التخطيط يفقد معناه إبتداء من اللحظة التي تكون فيها فكرته مستوحاة من الخارج. ومن أجل هذا لكي ننتهي إلى وضع قواعد التخطيط الصحيح علينا أن نواجه الإصلاح الزراعي (لأنه الأهم) من زاوية أخرى. حيث يجب تخصيص الأراضي الزراعية لمهمة الإنتاج وفقا لمعطيات إقتصاد القوت من جهة، وإقتصاد التنمية من ناحية أخرى، كما يجب وضع جهاز فعال يحمي المساحات المنتجة من ظاهرة التصحر التي تهدد جنوب البلاد بأكمله. لان الصحراء الجزائرية تتوسع كل عام على حساب الاراضي المفيدة للتغذية.

بالرغم من أن هذه الظاهرة مشكلة مغاربية تتطلب التعاون الأخوي بين الدول الشقيقة الثلاثة. فنحن نعلم أن هذه المهمة ليست سهلة، لكن بفضل التخطيط المحكم يمكن للصحراء أن يتحول إلى حدائق عامة مثلما حدث لصحراء (كاراكوروم) في جنوب الإتحاد السوفياتي الذي تحول إلى أماكن للترفيه والتسلية. إذن فلا شيء مستحيل فما علينا إلا أن نتجنب التردد في أفعالنا وأقوالنا ونوفر لأنفسنا الطاقة والوقت اللذين يجب عدم إهدارهما.

3- وسائل التغيير وأهدافه.

لقد ظل العالم الإسلامي على هامش التطورات التي حركت التاريخ، كأنه لم يكن له هدف يسعى إليه ولا طموحات يحققها. وقد استسلم المريض للمرض بحيث نجد كل مصلح قد عالج الوضع الراهن تبعا لرأيه أو مزاجه أو مهنته، فقد رأى رجال الدين أن المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ في حين ذهب رجال السياسة إلى أن المشكلة سياسية وبذلك فهي تحل بوسائل سياسية. في حين أن هذا التشخيص لا يتناول في الحقيقة

¹-مالك بن نبي: من أجل التغيير دار الوعي للنشر والتوزيع ط1 2013. روية الجزائر (منشور اصلا من قبل دار الفكر

المرض بل يتحدث عن أعراضه، وكانت الطرق والوسائل التي اتبعناها آنذاك تشبه ذلك الطبيب الذي يواجه حالة مريض بالسل الجرثومي فلا يهتم بمكافحة الجراثيم، وإنما يهتم بإسكات هيجان الحم عند المريض، شأنه إذن شأن العالم الإسلامي الذي يشكو من ألام كثيرة (الإستعمار-الأمية-الكساح العقلي.....) وهو لا يعرف حقيقة مرضه ولم يجد الوسائل الضرورية لتغيير حياته. ومن أجل هذا دعا المفكر "مالك بن نبي" إلى ضرورة إيجاد الوسائل الأساسية من أجل تغيير الواقع المرير الذي تتخبط فيه شعوب العالم الإسلامي منذ زمن بعيد، حيث يعتبر التغيير من السنن الخالدة التي وردت في القرآن الكريم والتي إستخلصها الباحثون في التفسير الإسلامي للتاريخ، ولهذا رأى فيه الأستاذ "مالك بن نبي" مفتاح الحركة التاريخية والحضارية.¹

وقد ركز في كل أبحاثه على ضرورة تجديد الإنسان بالدرجة الأولى وهو ما يسميه بالإنسان المتحضر لأنه العنصر الأول والأساس في معادلة الحضارة وهو محور التغيير من حيث بعده النفسي والزمني ويشكل بعده الديني أساس التأثير الإجتماعي. وتظهر أهمية الإنسان من خلال إستقراءنا للواقع حيث يعود سبب فشل نهضتنا وتقهقرنا إلى عدم قدرة قادتنا على تشخيص أسباب التخلف والانحطاط التي تضرب في أعماق الجذور النفسية في ثقافة إنسان ما بعد الموحدين. كما يعود إلى أسباب فكرية تتمثل في فشل جهود رجال السياسة في إيجاد الوسائل الناجحة التي تناسب حركة التغيير. أي أن المشكلة تكمن في ثقافة المجتمع، وهو ما يقتضي بحثاً في وسائل فكرية لحلها.²

ولأجل ذلك نجده يقول حتى الثورة لا تستطيع الوصول إلى أهدافها، إذا لم يغير الإنسان، بطريقة لا رجعة فيها، سلوكه وأفكاره وكلماته. ولهذا يتبادر إلي أذهاننا هذا السؤال المهم : لماذا ركز بن نبي علي عملية التغيير كخطوة أولى في عملية التجديد الفكري الثقافي والإجتماعي : ماهي الوسائل الضرورية و اللازمة من أجل تحقيق هذه الغاية عنده؟

¹-مالك بن نبي: شروط النهضة:ص 38/39.

²-مالك بن نبي:بين الرشاد والنتيه ص36.

1- وسائل التغيير :

حدد "مالك بن نبي" مجموعة من الوسائل المادية والمعنوية التي بواسطتها يتخلص الإنسان المسلم من عقدة التخلف والإلتحاق بالركب الحضاري مثله مثل باقي الأجناس الأخرى، ومن بين هذه الوسائل نجد بالدرجة الأولى.

أولا- الإنسان :

إن الحديث عن التغيير عند "مالك بن نبي" يجرنا حتماً إلى الحديث عن تغيير الإنسان بالدرجة الأولى لأنه يمثل العنصر الفعال في عملية التغيير، ذلك لأنه (بن نبي) جعل منه المادة الأولية والأساسية الذي يجب أن تتجه كل مجهوداتنا من أجل تغييره، وهو يمثل الأصل الذي تقوم عليه الوسائل الأخرى، وهذا عن طريق التخلص من عقلية ما بعد الموحدين ومن سيطرة الغرائز العمياء . لأننا نجد المسلم اليوم لا يكثر بمعرفة كيف تم إبداع الأشياء، بل نجده يهتم فقط بكيفية الحصول عليها . فالمتقف المسلم عوض أن ينظر إلى الثقافة الغربية في مصانعها ومخازنها ويغوص في أعماقها ، نجده يكتفي بالسطحيات لأنه لم يجرب حياة أوروبا الحقيقية وإنما قرأها فقط أي تعلمها دون أن يتذوقها ولهذا السبب نجده يصر ويلح على ضرورة إعادة تشكيل عالم لأشخاص . ففي نظره لا وجود في المجتمع لعالم الأفكار ولا لعالم الأشياء إلا بوجود عالم الأشخاص لأنه هو الذي أوجد هاذين العالمين وطورهما كما أنه يمثل القاعدة الصلبة التي ينطلق منها كل عمل تاريخي مشترك¹ . و من أجل إعادة بناء هذا العالم يركز بن نبي على عملية تكييف الإنسان المسلم إجتماعياً حتى تصبح كل تصرفاته وإنعكاسته غير منافية لقوانين المجتمع ويتم ذلك عن طريق إحياء سلطة ضمير الإنسان وربطها بالمثل العليا من أجل توجيه عمله نحو غاية سامية تليق بمكانته كإنسان² لأن الذي ينقص أفكار المسلم اليوم هو "الإرادة" و "التركيز" ولهذا كان بن نبي يلح على ضرورة إيجاد أفكار علمية يواجه بها كل جيل ظروفه التاريخية

¹-مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 74/70.

²-مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص 65/49.

الخاصة وذلك من خلال إيجاد المنطق الذي يربط بين عالم الأشياء والأفكار وبين وسائلها وأهدافها. لأن المشكلة التي يعاني منها المسلم اليوم (من الناحية الداخلية) تتضمن في مقابلة كل مشكلة داخلية بحلول ترقية وهو ما يعرف بالعامية ب(سياسة البريكولاج) فالجهل مثلا يعالجونه بتوفير المعلومات وحشوها في أذهان غير قابلة للإستيعاب بينما الفقر يعالجونه بتوفير العمل وتوزيع الثروات.¹ في حين أن المشكلة أصعب مما نتصورها وخطر من ذلك، لأن محاربة الجهل يكون بواسطة التعليم الذي يرتكز على بناء الشخصية الجديدة التي تتفق ومستجدات الإنسان المعاصر القائم على فكرة التوجيه² ومن بين هذه القوى الأساسية التي يتخذها التوجيه قاعدة له نجد التوجيه الأخلاقي، فالأخلاق أساس جوهري في البناء الثقافي فهي أساس التماسك بين أفراد المجتمع لأن مصدرها هو الدين الإسلامي الحنيف الذي يحمل كل معاني التسامح وتقوية الروابط الاجتماعية. والدليل على ذلك ما قام به الرسول عندما أخى بين المهاجرين والانصار، فلا عبرة من الإسلام المجرى الذي يتركه المسلم عند عتبة المسجد بل العبرة بالإسلام العملي المجسد (قيما وسلوكا) فنحن نريد الإسلام المتحرك في أذهاننا المزروع لضمائرننا الميته، الذي يعلم الفرد كيف يعيش مع بقية أفراد المجتمع وهذا بزرع أخلاق البذل والعطاء وفقا لمنطق الواجب ونبذ الأنانية والمصلحة الفردية، لأن الأخلاق ليست فقط مشاعر مجردة أو نظريات جامدة، بل هي قيم اجتماعية نابغة من الإيمان القوي للإنسان³ وللجمال كذلك تأثيره الفعال والكبير على الإنجازات العملية وتغيير الأفكار فتأثيره واضح على نفسية الفرد وإبداعه الفكري والعملية .

أما القبح فهو قرين التخلف والمهانة لهذا يقال "إن الله جميل يحب الجمال" والظاهرة كما هي طهارة البدن والثوب فهي أيضا طهارة النفس والخلق ، وبالذوق الجمالي يجد

¹-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص87.

²-التوجيه عند بن نبي : يعني قوة في الأساس وتوافقا في السير ووحدة في الهدف

³-مالك بن نبي: شروط النهضة ص 89/90.

الإنسان في نفسه نزوعاً إلى الإحسان في العمل ولا يتكامل أي مشروع دون غرس ذوق الجمال في عاداتنا وأدابنا الإجتماعية وأساليب حياتنا. بحيث يحقق في مجتمعنا التناغم والانسجام يمثله الإحسان. وعلاقة الذوق الجمالي بالمبدأ الخلقي وثيقة الصلة حيث تتكون الحضارة الثقافية في نظره حسب المعادلة التالية: [مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = اتجاه الحضارة]. لكن بشرط أولوية الأخلاق على الذوق الجمالي وهو الذي طبع حركة المجتمع الإسلامي. عكس القضية: [تقديم الذوق الجمالي على الأخلاق] كما هو طابع عند الحضارة الغربية اليوم والتي ورثت مقاييس الجمال عند الحضارة الإغريقية حيث يبرز الجمال من خلال الجسد العاري للرجل والمرأة (كما يجسده فن النحت عندهم) وهوما يقود الغرب اليوم إلى مأزق إجتماعية خطيرة¹ وللتوجيه العملي دور في غرس منطق العمل والفعالية في نفسية الفرد حتى لا ينشأ ثثاراً ولا خاملاً، وهو ما يتنافى تماماً مع الجدية والفعالية المطلوبة لمواجهة تحدي ما. فبواسطة المنطق العملي يواجه المسلم مختلف التحديات حيث ينتقل من مرحلة التفكير من أجل الكلام المجرد إلى مرحلة التفكير من أجل العمل المتجسد النافع له ولمجتمعه، وهو من لوازم الفعالية التي يعني إستخراج أقصى فائدة من الإمكانيات المتاحة، ولعل سبب تركيز بن نبي على المنطق العملي هو ما شاهده في المجتمع الغربي حيث إنتشرت الفلسفة البراغماتية النفعية العملية التي كان لها دور فعال في التوجه العملي في المجال التنموي والتوسع في الكشف العلمي² فالعبرة عندهم بالنتائج المهم لذة وكفي وهو المبدأ الذي تتعامل به اليوم الفلسفة البرغماتية الامريكية تحت شعار " ليس لدينا أصدقاء دائمون ولا أعداء دائمون وإنما مصالح دائمة "بالإضافة إلى التوجيه الصناعي الذي نعني به ذلك النشاط الإنتاجي الفعال الذي يدخل في تطبيقات العلوم التقنية.

¹- نفس المرجع السابق ص: 101/102/103

²- مالك بن نبي: شروط النهضة ص97.

وتلعب التربية دورا فعالا في توجيه المجتمع نحو العمل المنتج الذي تحتاجه البلاد في مسارها التنموي. بحيث يعتبر العمل أساس كل نهضة فهو وسيلة للفرد لكسب عيشه وهو أصل ديننا حيث قال الله تعالى (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)¹. فالعمل في الإسلام عبادة وهو واجب شرعي قبل أن يكون واجبا إجتماعيا لذا يحرم الإسلام البطالة الإرادية مع القدرة عن العمل، فكما يقول الرسول (ص) لعن الله العبد الصحيح الفارغ. وفي قوله أيضا (ص) من إكتسب قوته ولم يسأل الناس لا يعذبه الله يوم القيامة "ويقتضي التوجيه في العمل إنسجام الجهود في أعمال مختلفة تتكامل في إطار نسيج إجتماعي حيث تجمع بين جهد الفلاح بجهد الحرفي والإداري والأستاذ.²

ثانيا - الثورة:

الثورة عند بن نبي بمثابة وسيلة التغيير السريع لأوضاع الإنسان الإجتماعية، السياسية والثقافية؛ ولكي تحدث الثورة تغييرا لا بد من وجود شروط أهمها: وجود مضالم إجتماعية وسياسية كافية لإحداث الثورة. (جرائم الإستعمار). بالإضافة إلى انتشار الوعي لدى الشعوب الذي يكون، مصدره دينيا من القرآن الكريم. أو قد يكون عن طريق التوعية وهذا ما لا حظناه خلال ثورة التحرير المجيدة حيث أدرك الشعب الجزائريما فيه الطبقة المثقفة (الأحزاب والمنظمات) أن ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بها ولهذا يستوجب أي عمل مسلح وجود قيادة فنية ذات كفاءة لأن نجاح العمل الثوري أو فشله مرهون إحتقاضها بمحتواها وهي تمثل تطورا تاريخيا مستمرا وإذا حدث أي خلل في هذا النمو وفي هذا التطور فقد تكون النتيجة زهيدة ومخيبة للأمال والنموذج واضح في الثورات العربية التي باء معظمها بالفشل بسبب سوء التخطيط وانتهاج سياسة المنطق المقلوب³ ولا ترتبط الثورة بالعنف إلا في

¹-سورة التوبة الآية 105.

²-نفس المصدر السابق ص 10 (بالتصريف)

³-مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه ص 11/12.

مرحلة ما قبل الأستقلال حيث تقوم على أساس تصفية الإستعمار من النفوس وهو العمل الذي يستمر حتي بعد إخراج الإستعمار من البلاد، إذ أن الاستقلال الجغرافي لا يعني الإستقلال الحضاري وإهمال هذه الحقيقة يبقي الاستقلال شكليا والأرضية مهياة لعودة الإستعمار من المباشر إلى الاستعمار غيرالمباشرعلى نحو ما يعكسه الواقع عندنا. حيث يجب وضع الثورة في إطارها الحضاري لأن إهمال ذلك من شأنه أن يوقع الثورة في فتن وثورات داخلية¹ ويوجه "مالك بن نبي" أنظار هؤلاء الساسة إلى صياغة فكرة الواجب ضمن مشروع تربوي تغرسه في ضمير كل مواطن وكل زعيم ونلمس من حديث "مالك بن نبي" أن كلامه الموجه لقادة الثورة الجزائرية مدفوع بروح المشفق على مصيرها الخائف من مغبة انحرافها عن المبادئ التي انطلقت منها ثورة نوفمبر² ولهذا دعا إلى ضرورة تحصين الثورة من خطط الاستعمار وهذا بتدعيم الحاسة النقدية و تشجيع النقد الذاتي لمعالجة أي خلل قد يظهر في البنية الداخلية مع دراسة أليات الصراع الفكري الخفية.وعلى هذا الأساس إنتقد بن نبي بكل شجاعة بعض الشخصيات التاريخية الجزائرية لأن الإستعمار نجح في تصنيع زعماء بما يحرف الطاقات الثورية.³

رابعا-التربية:

تتخذ التربية من التغيير موضوعا وهدفا لها ،ويتخذ التغيير من التربية وسيلة و منهاجا له وتبرز التربية كوسيلة وكمناهج للتغيير من خلال الممارسة التربوية التي تتطلب اختيار الوسائل الأكثر نجاعة وانتهاج أفضل الطرق لإحداث الأثر (التغيير) المرتقب.⁴ حيث تقتضي طبيعة المشكلة التي تعانيها المجتمعات الإسلامية ،والتي تبرز الخلل في

¹ نفس المرجع السابق ص: 46/43/29.

² مالك بن نبي: من أجل التغيير، ط1، دمشق: دار الفكر، بيروت. دار الفكر المعاصر 1978، ص 84

³ حصة شاهد علي العصر من إعداد أحمد منصور في تاريخ 2003/01/08. إستضافت الرئيس الاسبق أحمد بن بلة

حيث تطرق إلى مذهب إليه مالك بن نبي عن الشهيد عبان رمضان وا مصالي الحاج

⁴ مالك بن نبي: شروط النهضة ص 89

ثقافتها تحديد وسيلة التغيير الممكنة وهي التربية الإجتماعية كما حددها "مالك بن نبي" لأنها شرط إعادة البناء الثقافي. ولا يعطينا "مالك بن نبي" تعريفا مخصصا للتربية ، وإن لمسناها من خلال ملامح مستقاة من أطروحات فكرية مختلفة تعالج مسألة التحضر ومشروع إعادة البناء وفكرة التوجيه في الثقافة التي تناولها سابقا. فالتربية لا تقتصر على تعليم التلميذ وتربيته بقدر ما تعبر عن تغيير ثقافي شامل أي تغيير الإطار العام الذي يعيش فيه الفرد بما يحقق تحضر الإنسان وهو يعني "أن يتعلم الإنسان كيف يعيش في جماعة. بحيث يمكننا أن نعتبر التربية من خلال إستقراء ما سبق بأنها ذلك الجهد المنهجي المنظم الهادف إلى بناء إنسان متحضر من خلال توجيه أخلاقي بما يحقق التلاحم الإجتماعي، وتوجيه جمالي بما يحقق الإحسان والتناغم ،وتوجيه عملي بما يحقق الفعالية وتوجيه صناعي بما يحقق التنمية المستدامة. والوسائل لا تقتصر على المدرسة بأركانها المعروفة (التلميذ المتعلم والمنهج المدرسي) وحدها، بل تسبقها في الأهمية الأسرة (كما أشار "مالك بن نبي" في السابق)، والتي تعمل منذ ولادة الطفل على غرس القيم والمبادئ الخلقية وتوفير شروط الصحة النفسية والبدنية. كما تلعب وسائل الإعلام وخاصة التلفزيون دورا هاما قد يراه البعض أهم من دور المدرسة نفسها.¹ ولهذا يتأكد لدينا خطأ حصر المنظومة التربوية في التعليم المدرسي وحده غافلين عن تأثير وسائل الإعلام والوسط الإجتماعي ولا يمكن أن ينجح الجهد التربوي إذا كانت حركة التوجيه المدرسي تسير عكس حركة التوجيه الإعلامي مثلا، فالتربية الاجتماعية تساهم فيها جميع مؤسسات التأثير الثقافي، الأسرة المدرسة ،وسائل الإعلام والمسجد. ولا يتحقق أي تغيير خارجي بإنجاح مشاريع التنمية والتقدم إلا بتغيير داخلي يمس الشروط النفسية والاجتماعية أي تغيير شامل للأفكار والمفاهيم والسلوك. وليس

¹-مالك بن نبي :ميلاد مجتمع ص:94.

هناك منهج لفعل ذلك غير التربية الإجتماعية، فلا جرم إذن أن يعتبر البعض التربية أعظم أداة استعملها الإنسان لتحقيق تقدمه.¹

ولهذا تعتبر التربية عملية استثمار اجتماعي لبناء الحضارة، يتجاوز الإنسان بها تحقيق التنمية الاقتصادية إلى ما يحقق تنمية اجتماعية شاملة شرط أن تراعي أسس ثقافة المجتمع وحقائقها وخاصة قيمه الدينية، وإلا فإنها تتعرض لأضرار كبيرة² ولهذا كان تأكيد مالك بن نبي على حاجة مجتمعنا إلى الاستثمار الاجتماعي (بناء الإنسان المتحضر)³ ولا يمكن أن يتكامل أي بناء لنظام تربوي - كما يرى "مالك بن نبي" ما لم تكن لدينا أفكار واضحة عن العلاقات والانعكسات التي تنظم الطاقة الحيوية على مستوى الفرد والمجتمع وقد ركز بن نبي على التربية الاجتماعية لأنها وسيلة التغيير وتمثل بناء الإنسان من خلال إعادة توجيه عناصر ثقافته حيث يتعلم كيف يتحضر، لأن التربية الحقيقية ليست مجموعة من القواعد أو المفاهيم النظرية المجردة المنفصلة عن العوالم الثقافية للمجتمع (عالم الأفكار وعالم الأشياء) كما كان يظن بعض الحرفيين (وهم الذين يضعون أنفسهم ضمن المثقفين لمجرد حملهم لشهادات مدرسية) بل إن التربية ذات علاقة عضوية بالثقافة كوسيلة فعالة لتغيير سلوك وأخلاق الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، فالتربية عند بن نبي تستلهم قواعدها من علوم التاريخ وعلم النفس، فلا معنى للتربية إن لم تنتقل من مفهوم مجرد إلى واقع ملموس مطبق يعمل على تغيير الإنسان وبذلك يظهر المفهوم الوظيفي للتربية عند بن نبي في ربط المفاهيم بوظائفها⁴ وبذلك فقد حرص على تحويل البرنامج التربوي مما هو مجرد إلى

¹ - محمد لبيب النجحي: دور التربية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية للدول النامية ط2 دار النهضة العربية بيروت 1981. ص 13.

² - نفس المرجع السابق ص 88. 124

³ - مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه ت/ عبد الصبور شاهين ط/ 1 دار الفكر دمشق 1978 ص 34.

⁴ - مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص 100/99/78

ماهو واقعي وبذلك طرح فكرة التوجيه (أي توجيه عناصر الثقافة بما يحقق الفعالية اللازمة للحصول على أحسن النتائج الممكنة، فالتوجيه مهم في التربية وهو ما يقتضيه مشروع نهضتنا حيث ترتبط بالدراسة والتخطيط العلمي لتحديد الأهداف والوسائل الضرورية التي تحققها باختصار الوقت والجهد حتى لا نقع في ظواهر الإسراف والتكديس، ففي عالم الأفكار مثلا لا يكفي إنتاج أفكار جديدة إذ لم نوجهها طبقا لوظيفتها الإجتماعية التي تعمل على ترقيتنا وتحضير مجتمعا¹.

ولعل الهدف الأساسي الذي يصبو إليه بن نبي من خلال تركيزه على ضرورة نقل الطابع التربوي مما هو مجرد إلى ما هو تطبيقي هو حرصه على ضرورة تشييد حضارة ذات أسس متينة تعمل على توليد أليات تتحرك باستمرار حفاظا على مركزها من جهة وتجسيذا لحضورها العالمي وتكريسه من جهة أخرى وذلك بارتقائها إلى مستوى امال وتطلعات الإنسانية، الذي يتم عن طريق التغيير الثقافي والإجتماعي و هذا البديل هدفه خلق مجتمع لميوجد بعد² أي مجتمع تتجسد فيه سمات التحضر ويجد فيه كل فرد من أفراد الضمانات الضرورية، المادية والمعنوية لنموه في كل طور من أطوار حياته هذه الضمانات التي تمكن كافة الفعاليات في المجتمع من التعبير عن قدراتها وإرادتها. فبالنسبة ل"مالك بن نبي" إن المجتمع الذي لا يسعى لأن يكون "مجتمع حضارة فهو معرض للحرمان من هذه الضمانات وأن تحقيق الحضارة يعني تحقيق جميع شروط الحياة³، إن العمل على خلق مجتمع غير موجود أصلا يتضمن عند بن نبي، تقييمه للوضع السلبي الذي أصبح يميز الواقع الثقافي والإجتماعي العام للمجتمع المسلم في مرحلته التاريخية الحالية. وهو السبب الذي جعل من فكرة التغيير عنده هدفه الأول الذي لا بد من تحقيقه . ومن أجل ذلك يرى بن نبي أن ضرورة تجديد الأوضاع الحالية تقتضي إنتاج طريقين متعاكسين تعبيرا ومتكاملين

¹-مالك بن نبي :مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص68

²-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص 38.

³-مالك بن نبي: تأملات ص 16.

مقصدا: ففي المرحلة الأولى ينبغي القيام بتصفية عادتنا وتقاليدنا¹. أي بطريقة تفصلنا عن رواسب الماضي".

وهذا ما يعرف عنه "بالتجديد السلبي" وفي مرحلة لاحقة ينبغي القيام بعملية تطعيم هذا الوسط الثقافي بأفكار فعالة تبعث فيه الحياة من جديد، أي بطريقة " إيجابية توصلنا إلى الحياة الكريمة" وهذا ما يسمى ب" التجديد الإيجابي. حيث أن هذا التغييرالذي يريده بن نبي لن يتحقق في نظره إلا باستعادة المجتمع لمبررات وجوده الأصلية المؤسسة على قيم الروح، لهذا نراه كما وضحناه أنفا يتحدث عن التغيير من منطلق إعادة البناء .ويركز في عملية إعادة البناء على هذه الخصوصية الثقافية، إذ يوجهها نحو غاية سامية تتجسد في تبليغ " رسالة عالمية" أصلية محملة بمعاني السلام والإخاء والعدل والمساواة والتعاون ولا يتوقف هدف بن نبي عند تحقيق التغيير الذي ينتهي بإقامة حضارة ونهوضها المقدس النبيل ، بل يتعداه إلى البحث عن الآليات التي تحفظ التغيير من التراجع والمجتمع من النكوص. لهذا كان هدفه أيضا هو التركيز على التجديد المستمر للحوافز والمبررات للإبقاء على الحالة الحضارية، لأن استمرار الحضارة يدل عليها وجود حركة دائبة تخضع في عملها لقانون فيزيائي"ثابت وهي النظرية التي أشار إليها ابن خلدون ونعني بها أن الحضارة في نظره تدوم مدة 120 سنة ثم تعود إلى نقطة الصفر² لكن السؤال الذي يعترضنا هنا هو كيف يمكن توليد هذه الحركة الآن ؟ بمعنى انه كيف يمكن إيجاد الشروط الأولية لهذه الحركة في مجتمع يغلب عليه الركود؟

يربط بن نبي أسباب التغيير الأولى، بالشعور العميق الذي يعتري الإنسان المسلم بثقل وضعه المتخلف، والوعي بوجود التغيير الذي لا مناص منه. هذا الوعي هو الذي يكون سببا في تشكيل الحوافز الموقظة لتلك الإرادة النائمة و استعجالها لتحدي الوضع

¹-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 17.

²-مالك بن نبي: تأملات ص 17

المتري على حد تعبير أرلوند تويبي. **Arnold Joseph Toynbee** ومن هذه الإرادة يأتي انطلاق الحركة و يأتي الإقلاع الحضاري .وذلك عبر " تنمية الوعي" في تنمية الشعور بالذات، أي بوضعيتها ومصيرها التاريخيين (تخلفها وتبعيتها) والوعي بطبيعة الصراع الحضاري التاريخي .وهذا الوعي من شأنه أن يوجد المبررات التي يستمد منها الإنسان كل معاني ودلالات وجوده وبالتالي يوجد حوافز العمل التغييرى ويغذيها. وهذه التربية هي التي تقوم بتنمية الوعي وتصاحب الإنسان في كل تفاصيل العمل التغييرى الذي يقوم به و في جميع خطواته البنائية. وتتجسد تربية الإرادة لدى "مالك بن نبي" في رفض الإنسان المتحضر لوضعه السيئ وفي سعيه الجاد للتخلص منه وتغييره بما يلائم منزلته بصفته مسلما وهو ما يعبر عن إستجابة هذه الإرادة للتحديات المنتصبة أمامها وقهرها. وفي هذا ترجمة لفعالية هذا الإنسان المتحضر الناتجة من تربية الإنسان المسلم وتعوده على العمل الدؤوب والمتواصل، والتعامل الذكي مع شروط الحياة في ظل تخطيط مسبق يراعي حوافز العمل ووسائله وغاياته، ويبين قيمته المادية والمعنوية وأهميته بالنسبة للفرد والمجتمع مبرزا في ذات الوقت مكانة كل من القلب والعقل واليد في كل نشاط ذي مغزى. مفيد¹.

خامسا-العقيدة ودورها في إحداث عملية التغيير :

أكد بن نبي على ضرورة تجديد النفس الإنسانية لأن هناك داء واحدا ينهش جسد الشعوب العربية في كل مكان بما فيه المغرب والشرق الأوسط منذ قرون، ذلك الداء هو فقدان الثقة بالنفس وما طبع أخلاقنا من الوشاية والتشهير.وهذا التردى المزمع هو الذي حمل الرؤساء العرب على فرض نظام صارم على شعوبها الذي لم يعر أدنى إهتمام للتربية أو للتقدم. ومن أجل هذا عليه أن ينفذ الغبار على نفسه ويسعى نحو مرحلة الحضارة التي تتسم بتركيب أصيل لعبقريته الاسلامية. لكن هذا ليس بالأمر السهل وإنما يقتضي معرفة متعمقة بالانسان وإمكانيته ونقائصه. وعليه لكي نعرف الإنسان ينبغي أن نعرف أنفسنا

¹-مالك بن نبي نفس المصدر السابق .ص34.

وذلك أمر لا يتيسر لقادة العالم الإسلامي إلا إذا قامو بعملية استبطن دقيق لذواتهم وإختبار ضمائرهم الميتة و القاسية¹ إذ ما أردنا أن نعرف الإنسان من حيث كونه محركا للحياة الإجتماعية، فإننا نحتاج إلى قدر كبير من الوعي والعمل وبهذه الطريقة ينقشع الغموض عن خبايا النفس لتتعرّف أين ينبغي إحداث التغيير الضروري الذي يتم حسب بن نبي بواسطة الدين والعقيدة لان عملية تجدد الإنسان لا تتم فقط من زاوية المادة كما يعتقد البعض بل نتناوله كلاً غير متجزء (الكل غير المتجزء) فلا نستطيع أن نحدد شروط تغييره لو غاب عن أعيننا (الجانب الروحي). حيث يمثل العنصر الديني الطريقة التي يتبعها الإنسان لإستبطن ذاته، إذن فالإصلاح الديني ضروري بإعتباره نقطة تغيير اجتماعي .والعالم الاسلامي قد اعتمد على الجانب الديني لإحداث التغيير، ولعل الفضل يعود إلى مجهودات الشيخ محمد عبده ومدرسته، فأول مرة منذ قرون دار النقاش فمزق الصمت الذي خيم على الجامعات الإسلامية القديمة.

وبدأ الفكر الإسلامي ينشط في الحقل الفسيح الذي مهدت له حركة لإصلاح التي كانت تدعو إلى الهدم من أجل البناء وإلى فكر منهجي يميز فيه المصلحون خبيث النوايا عن طيبها. وكان الشيخ محمد عبده يواجه وحده هذا العبء في عصره. فقدم أعظم مثال على العمل الأدبي لعالم لم يتعود على التفكير في مشكلاته، وفي الجزائر قام بهذه المهمة على وجه الخصوص العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس حيث استطاع أن يخلص الجزائر من تلك التقاليد الزائفة التي كانت تتجسد في الطريقة المرابطية وقد نجحت هذه الحركات الإصلاحية في إزالة الركود الذي ساد مجتمع مابعد الموحدين. وهذا حينما غيرت أوضاع الحياة وعلمتهم حتى فن الذوق وبلاغة الأدب العربي، وهذا ما لمسناه في رائعة العلامة بن باديس: **شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب.**

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

¹ - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي: ص: 147/153/155.

ولقد كان من أثر تلك الحركة الإصلاحية أن تجددت القيمة القرآنية في ذات الإنسان فأصبحت قيمة منشطة ووسيلة فنية لتغيير الإنسان. إنتقل بها من عصر ما بعد الموحدين إلى عصر النهضة. كما قدر له أن يتخطى بالطريقة نفسها حياة المجتمع الجاهلي إلى حياة المجتمع الإسلامي . فليس من الممكن إذن انفصال فكرة الإصلاح التي خطت تلك الخطوات الكبيرة عن حركة التطور في العالم الإسلامي التي فتحت أغنى حقول النهضة في أعز أيام الأمة العربية. وتعد الحركة الإصلاحية في التاريخ الإسلامي المعاصر أول محاولة إيجابية لاستحداث تركيب عضوي تاريخي، وكانت العامل الحاسم في توحيد القلوب وصفاء النفس الإسلامية وهي أول جهد استهدف إعادة بناء المجتمع الإسلامي مسترشدا بالتخطيط الذي وضعه الرسول (ص)¹ ولقد نقد بن نبي وجهة نظر الدكتور "محمد إقبال" الذي ظن أنه من الضروري الاعتماد على علم الكلام من أجل تغيير ذواتنا وأنفسنا، لان علم الكلام يتصل بالنفس الإنسانية وهذا يظهر في ميدان العقيدة. والمسلم كما نعلم لا يمكن له أن يتخلى عن عقيدته إطلاقاً، فلقد ظل مؤمناً متديناً.

وعليه فإن المشكلة لا تكمن في أن نعلم المسلم عقيدة وهو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي. أو بعبارة أخرى ليست مشكلتنا في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما نشعره بوجوده ونملاً به نفسه وهو ما يسميه بن نبي ب (تجديد الصلة بالله) فموسى وعيسى ومحمد (صلوات الله عليهم) لم يكونوا علماء كلام ينطقون بأفكار مجردة ولكنهم كانوا مجتمعين لتلك الطاقة الأخلاقية التي أوصلوها إلى نفوس بشرية. ففي كل هذه الحالات الفكرة الدينية إستهدفت مباشرة ضمير الإنسان.²

¹-مالك بن نبي: وجهة العالم الاسلامي ص: 158. / 161

²-نفس المصدر السابق: ص 54/55. 157

سادسا: التنمية الاقتصادية وضرورة إعادة بناء :

لقد استبدل الاستعمار طريقة استعمارها حيث عوض السيطرة العسكرية بالهيمنة الاقتصادية التي تضمن له البقاء في مناطق نفوذه السابقة. وهكذا إذن نرى أن المظهر قد تغير أما المضمون فبقي على حاله لأن الرجل المستعمر (بكسر الميم) استبدل السيف الذي كان بيده بغصن من الزيتون مدعيا أنه رجل السلام وعليه يترتب على كل من يهمله أمر النهوض الاقتصادي في بلد إسلامي أو في العالم الإسلامي أن يمضي خطوة في تصفية منطق القضية لأن الأوطان العربية أحوج من غيرها إلى إعادة النظر في بناء اقتصادها. حيث باستطاعة العالم العربي أن يعيد للتراب وظيفته الاقتصادية وذلك بوسائله الموجودة بيده وليس بحلول مستوردة لأن الأوطان التي لا تستطيع الصمود ولا النمو إنما هي دول أصيبت بنزيف حاد يتمثل في هجرة العقول الدامغة (عقول أبنائها) نحو البلدان الغربية القادرة على شن العزائم ورفع الهمم في إطار الاقتصاد التكاملي حيث تكاثفت فيها العقول والأيدي والأموال في ورشة العمل المشترك في ظل اقتصاد متحرر. وهو ما عبر عنه خروشوف **Nikita Khrouchtchev**¹ في قوله "إن أحسن دليل على صحة أفكارنا لهو نجاحنا الاقتصادي²، وحسبنا أن نقول أن الأسباب التي تطبع سلوك المسلمين لتكون أفكارهم أقل فعالية في الحقل الاقتصادي من أفكار غيرهم، هي أسباب مرحلية لأننا لو عدنا للحديث عن مثقفينا في المجال الاقتصادي نرى أنهم وقفوا موقف اختيار وتفضيل بين (أدام سميث Adam Smith وكارل ماركس Karl Marx) في حين أن القضية هي قضية تطعيم ثقافي للمجتمع الإسلامي الذي بإمكانه أن يستعمل إمكاناته الذهنية والجسمية وبصورة عامة تجعل كل فرد فيه ينشط على أساس معادلة اجتماعية تؤهله لإنجاح أي

¹- هو زعيم سوفياتي (1858-1964) عارض السياسة الستالينية بعد تسلمه الحكم. في فترة حكمه حدثت أزمة الصواريخ النووية في كوبا. تم تنحيته على الحكم بسبب تصرفه بدق حذائه على منصة الأمم المتحدة كأسلوب احتجاج.

²- مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد،: (بإشراف ندوة مالك بن نبي) ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر سوريا ط:9. سنة 2009 ص: 98-102-103.

مخطط اقتصادي. وبعبارة أخرى فالديناميكية الاقتصادية ليست هذه النظرية أو تلك، بل هي مرتبطة بجوهر اجتماعي وهذا ما نجده في تجربة الصين الشيوعية بعد أن عدلت ثورتها الاقتصادية (1966-1968) . فعلى المسلمين أن يحددوا إمكانياتهم لكي يحققوا في أقرب وقت ممكن شروط الاكتفاء الذاتي أي الحلقة الاقتصادية التي تستطيع الانغلاق على نفسها إذا ما اقتضت الضرورة ذلك ،ومن أجل النهوض بالإقتصاد الوطني والدفع بعجلة التنمية إلى الأمام لا بد من تحقيق أولا ما يسميه بن نبي ب: التنمية الاقتصادية شرطا أوليا وضروريا يمكن تعريف التنمية الاقتصادية عند "مالك بن نبي"، بأنها خطة نتبعها من أجل الخروج من حالة التخلف إلى الإقلاع الاقتصادي، *decollage économique*. إن هذا الإقلاع الاقتصادي ومخططه في نظر بن نبي يجب أن ينطلق من مبدأ إنتاج ما يمكن من الغذاء أو ما يسميه ب: وسائل القوت. وفي هذا الصدد نجد "مالك بن نبي" يقول: "في بلداننا لا بد للتخطيط أن يعين ويشكل بكل وضوح وسائل القوت ووسائل التنمية"¹، وتتمثل وسائل القوت في الزراعة ،ولذلك فعلى كل بلد متخلف في محاولته للإقلاع الاقتصادي أن يهتم بالزراعة من أجل تحقيق التنمية والنهوض الاقتصادي للبلاد وهذا ما فعلته الصين في مخططها التنموي الذي مكنها من حل المشكلة الزراعية ولعل هذا ما جعل بن نبي يضع في مقدمة كل تنمية ومخطط تنموي معادلته المشهورة "كل الأفواه تأكل" أما الوسيلة الثانية فتتمثل في سواعد وعضلات الرجال التي يجب تشغيلها بفعالية وتصنيفها باعتبارها جامدة منذ سنين وعلى الإنسان المسلم إذن أن يشمر عن ساعد الجد، وأن يتعلم السير وحده في ميدان الاقتصاد دون يد تمسكه أي يقضي على التبعية في نفسه وفكره وجهده ،وأن يتقبل التحدي من أجل تحقيق التنمية المنشودة وتنظيم قطاعه بواسطة توفير المنتج الزراعي الذي يزيد عن الإستهلاك الوطني قصد تصديره إلى البلدان المصنعة واقتناء ما يحتاجه البلد من

¹-مالك بن نبي:مشكلة الثقافة:ص 135.

الات ضرورية ومواد أولية خام تمكنه (البلد المتخلف) من تجهيز صناعته بآلات ضرورية. أما الوسيلة الأخيرة تتمثل في تحرير المادة الأولية وهذا عن طريق اتباع طريقتين ناجعتين وهما:

طريقة المقايضة:

وهي مقايضة أو استبدال مادة أولية بتجهيز صناعي. وطريقة التكتل: يجب أن توحد البلدان المتخلفة المالكة للمواد الأولية أسعار المواد الأولية في الأسواق العالمية، لكي تنفذ نفسها من سياسة المساومات ومن بخس قيمتها الشرائية في السوق. ولا يكتفي بنبي بتوجيه العالم الإسلامي إلى طريقة الاستثمار الاجتماعي بل يوجهه أيضا إلى التعاون الإقتصادي وفق ما يسميه ب "الاقتصاد الموحد"¹.

2. أهداف التغيير:

لا بد لكل شيء في الكون من هدف وحكمة، والتغيير عند "مالك بن نبي" يتحدد من خلال تحليله لمشكلات العالم الإسلامي من منطلق أن مشكلة أي شعب هي مشكلة حضارته والتغيير يهدف إلى بعث الحضارة من جديد لكن ليس بالمفهوم الغربي الذي أتى بالتغيير على حساب القيم الإنسانية والأخلاقية، النابع من فلسفات متعددة كالوجودية والبرغماتية، وإنما التغيير بالمفهوم الإسلامي الذي هو الارتقاء بالمجتمع إلى درجة التحضر. أي بناء حضارة متكاملة يتكامل فيها إشباع المطالب الإنسانية والروحية والمادية. ومن الأهداف الجوهرية التي نستطيع استخلاصها من خلال منهج التغيير في فلسفة بن نبي.

أولا: بناء الإنسان أساس كل تغيير:

كل مشروع تغييرى لا يهدف إلى حل أمهات المشاكل مصيره الفشل المحتوم، لأنه لا يخرج عن إطار الترقيع الجزئي، ولذلك يجب التركيز على بناء الإنسان لأنه هو الذي

¹-مالك بن نبي:المسلم في عالم الإقتصاد:ص 26..

يعطي للقيمة الحضارية عنصرى (الزمن والتراب) وبذلك يكون هدف التغيير الأساسى هو بناء إنسان الحضارة أو تحضير الإنسان فى كل أبعاده النفسية الإجتماعية وهذا بواسطة العمل الذى يغير الفرد من كونه فردا إلى أن يصبح شخصا، وهذا ما أكد عليه علماء الاجتماع مؤكدين بأن كل عمليات التنمية الاجتماعية هي عمليات تغيير حضارى¹. وإلى نفس الفكرة ذهب المفكر محسن عبد الحميد بقوله (فنحن فى منهجنا التغيرى لا بد أن نصوغ الإنسان المسلم من جديد قبل بناء العمارات وإنشاء المصانع وتعبيد الطرقات وتنظيم الحياة المادية ولا بد لنا أن نعيد إليه شخصيته المسلوبة وإنسانيته الضائعة وننقذه من عوامل الخوف والقلق كي نضعه على طريق التغيير والبناء الجديد)² فالمشكلة التى تواجه المسلمين هي مشكلة الإنسان الذى يعيش فى عصر ما قبل الحضارة .لأن المسلم اليوم يضع مشكلاته فى حدود الأشياء، أى فى الحدود التى لا تتسع لظروف الحياة المتغيرة فى حين أن الأفكار وحدها تستطيع مسابرة الظروف كالظروف التى مرت بها ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، ويترتب على هذا أن العلاج الجذرى لمشكلات التخلف ليس فى مواجهة هذه المشكلات بوسائل جاهزة أنتجتها حضارة شقت طريقها نحو التقدم وخرجت من المرحلة البدائية المتسمة بمنطق الأشياء، بل لا بمواجهتها بإنشاء حضارة توظف الطاقات الإجتماعية الموجودة مهما كانت ظروف إنشاء وسائلها الفنية للتخلص من إنسان ما قبل الحضارة³ وقد ركز بن نبي على تغيير الإنسان الأفرو-أسيوي لأنه يواجه أزمة حضارة التى يجب عليه أن يحققها أى أن يحقق وضعها عاما يتفق مع الشروط الفنية التى من شأنها أن تخوله الضمانات الاجتماعية التى يتمتع بها إنسان المحور الشمالى.(على محور واشنطن موسكو) فيتغير بذلك وضع الحياة البشرية وتتغير معه كل القيم الحضارية وبالتالي ينتج تغيير كلي فى طبيعة العلاقات بين المحورين. تلك العلاقات التى يمكننا وصفها اليوم:

¹-مالك بن نبي: تأملات، ص. 192

²-محسن عبد الحميد: المذهبية الإسلامية والتغيير الحضارى: دار الفكر العراق ط 4 1423هجرى العراق ص68.

³-مالك بن نبي: تأملات: ص 62/60

سياسيا تظهر في علاقات الإستعمار بالقابلية للإستعمار، واقتصاديا في علاقات الإنتاج الزراعي الصناعي بالمواد الأولية. فيجب إذن تغيير هذه العلاقات حتي لا يبق الحوار التاريخي بين الطرفين حوارا بين السيد والعبد وبين القوي والضعيف، بين متحضر ولكنه دون مستوى الإنسانية الأخلاقي، ومتخلف دون مستوى الحضارة الإجتماعي. لأن كل تغيير اجتماعي على محور (طنجة جاركا) تفرض تغييرا أخلاقيا وسياسيا على محور (واشنطن وموسكو). ولعل هذا التفسير نوضحه أكثر بتاريخ اليابان الحديث الذي بادر إلى تغيير كل أوضاعه الاجتماعية منذ الهجوم الاستعماري سنة 1853. وبذلك تكون اليابان قد دخلت الحضارة من بابها الواسع وهذا بواسطة التغيير الداخلي الذي يمتد نحو تغيير العلاقات الخارجية السياسية وهذا ما جعل بريطانيا تجري وراءها من أجل عقد تحالف ومحبة بين الدولتين، ولم تلغها بريطانيا إلا سنة 1925. بعد أن كان لها أثرها '(اليابان) الفعال في الحرب العالمية الأولى، وخلال هذه الفترة بدأت المنافسة اليابانية القاسية حيث اكتسحت اليابان أسواق جنوب آسيا وقامت بتهديد مصالح بريطانيا الاقتصادية ذاتها¹.

لقد أشرنا إلى النموذج الياباني لكي نبين أن كل تغيير يحدث على مستوى الحياة النفسية يؤدي حتما إلى تغيير في طبيعة العلاقات السياسية وبالتالي بناء الحضارة. لنصل إلى استنتاج مهم وهو أن اليابان عندما نزلت بأرضه القوات الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية نزلت من أجل الإحتلال العسكري لا من أجل الاستغلال العسكري كما هو سائد لدى مستعمراتها الأخرى كالفيتنام لأن العهد الميجي قد محا من النفس اليابانية ما يطلق عليه بالقابلية للإستعمار نهائيا. يشير بن نبي الى ضرورة إستخلاص الدروس من الأمم والشعوب التي سبقتنا إلى التطور والحضارة، فتجربة اليابان تعطي للتضامن الإفريقي الآسيوي معناه الفعال في إدراك الشعوب مدى خطورة الاستعمار لأنها (التجربة اليابانية) غرست روحها في كيانها محققة بذلك القاعدة الإيديولوجية التي لا كيان لسياسة بدونها.

¹- نفس المرجع السابق ص 119.

ومن الناحية التطبيقية فإنها تحرك أقصى ما يمكن من الطاقات الإجتماعية لمواجهة أكثر ما يمكن من المشكلات الحيوية، ولكن بشرط أن يكون العمل بناء ، لا عمل تكديس لأن الحضارة لا تصنعها كومة من الأشياء المتوفرة وإنما هي بناء تطبعه فكرة معينة، كما تطبع فكرة المهندس المعماري العمارة التي شرع في بناءها. وإذا ما توفرت هذه الشروط في إنسان الأفرو-أسيوي فإن موجة جديدة من التقدم والتطور ستغمر تاريخ الإنسانية من طنجة إلى جاكرتا¹. لكن وبكل أسف نحن الآن نعيش في القرن الواحد والعشرين وأن موجة جديدة من الاستعمار غمرت تاريخ البلدان الأفرو-أسيوية بما فيها (سوريا، مصر، العراق، السودان، مالي) التي أصبحت اليوم مسرحا للعنف والتطرف ومشاهد القتل والاقبقتال التي لا تكاد تفارق حياتنا اليومية. أما نحن الدول التي نالت استقلالها حديثا فقد قذفنا أمواج الإستعمار إلى اليابسة بعدما أنهكت قواتنا وإمتصت ممتلكاتنا وهجرتنا أدمغتنا وكل هذا لم يغير من أنفسنا شيئا ولم يحرك من ضمائرنا الميتة، ولم نستخلص منهما درسا... فمتي نفهم؟².

ثانياً: -تحقيق الديمقراطية: أكد "مالك بن نبي" ضرورة إعادة النظر في المفهوم الحقيقي لمعنى الديمقراطية حيث يجب تحديدها دون ربطها مسبقا بأي مفهوم آخر كالإسلام أو العلمانية بل يجب النظر إليها من ثلاثة وجوه.

1- الديمقراطية بوصفها شعورا نحو الأنا وهي الفكرة نفسها التي أشار إليها دوتوكفيل حيث يرى أن المعنى الحقيقي للنظام الديمقراطي هو الذي يقيم العلاقات بين الأفراد على أساس التعاطف والشعور بالمحبة والحنان وليس رعاية المصالح الفردية .

2- الديمقراطية بوصفها شعورا نحو الآخرين. فهذه الوجوه الثلاثة تتضمن بالفعل مقتضيات الديمقراطية الذاتية والموضوعية، أي كل الاستعدادات النفسية التي يقوم عليها

¹-مالك بن نبي: تأملات. ص 120.

²-بالترصيف

الشعور الديمقراطي، فلا يمكن أن تتحقق الديمقراطية واقعا سياسيا، إن لم تكن شروطها متوفرة في بناء الشخصية، فالشعور الديمقراطي هو نتيجة لهذه الحركة عبر القرون، ولهذا التقدير المزدوج لقيمة الإنسان¹ فإنجلترا مثلا تتمتع بحياة ديمقراطية ممتازة دون أن يكون في أساسها نص دستوري خاص يحمي الحقوق والحريات التي يتمتع بها فعلا الشعب الإنجليزي. وإنما تحميها تقاليد الشعب ذاته وعاداته وأوضاعه النفسية وأعرافه الإجتماعية، فليست الديمقراطية في أساسها عملية تسليم السلطات تقع بين طرفين معينين (بين الملك والشعب) بل هي تكوين شعور وانفعالات ومقاييس ذاتية وإجتماعية تشكل مجموعها الأسس التي تقوم عليها الديمقراطية في ضمير الشعب. وما الدستور إلا النتيجة الشكلية للمشروع الديمقراطي يدل عليه نص توحى به عادات وتقاليد. فالإسلام منح للإنسان قيمة تفوق كل القيم لأنها القيمة التي يمنحها له الله في قوله "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"² والاية التي تنص على هذا التكريم تبدو وكأنها نزلت لرسم دستور ديمقراطي يمتاز عن كل النماذج الديمقراطية الأخرى. فالتقويم الإسلامي يضيف على الإنسان شيئا من القداسة ترفع قيمته فوق كل القيم، فالإنسان الذي يحس بتكريم الله له يشعر بوزن هذا التكريم في تقديره لنفسه وللآخرين³ فهدف الديمقراطية هو تطعيم الإنسان وتحصينه ضد النزعات المنافية للشعور الديمقراطي وتصفية هذه النزعات في نفسه حيث أننا كثيرا ما نقع في أخطاء فادحة لا نتغقر وهذا عندما نستعير من بلاد معينة دستورا ديمقراطيا جاهزا .

إننا في مثل هذه الحالة لم ننقل من النصوص الدستورية المستوردة كل الأسس النفسية والتجربة التاريخية التي تركزت عليها الديمقراطية بل إكتفينا بالشكليات فقط. ولذلك

Alexis de Tocqueville --: De la démocratie en Amérique , première partie, chap. III I Paris, coll. Bouquins, Éditions Robert Laffont, 1986.p106-

-²سورة الإسراء الاية 70

³-مالك بن نبي: تأملات، ص. 79/68.

دعا بن نبي إلى ضرورة تأسيس الديمقراطية على أساس الشعور وقوة الضمير لأنها تكمل تقويم الإنسان في نقطة رئيسية تتصل بالعبد في المجتمع الإسلامي، وهذا ما نستخلصه من الحديث الشريف "أوصاني حبيبي جبريل بالرفيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم" فهذا النص يبين التقويم الإنساني للإنسان الذي يقوم عليه المشروع الديمقراطي. والإسلام يتضمن كل السمات التي تطبع الديمقراطية السياسية نحو منح الأفراد المسؤولية في تأسيس الحكم والضمانات الضرورية التي تحميه غير أن الإشعاع الروحي الديمقراطي الذي بثه الإسلام في المسلمين سرعان ما انتهى في العالم الإسلامي عندما فقد أساسه في نفسية الفرد، ويجب أن نلاحظ أن الحضارة الإسلامية انتهت في الحين الذي فقدت في أساسها قيمة الإنسان. لأن الحضارة تنتهي عندما تفقد في شعورها معنى الإنسان. وهذه المحاولات لا تتجح إلا إذ وضعت في ضمير المسلم تقويماً جديداً في نفسه أي بقدر ما تضع في ضميره قيمته وقيمة الآخرين حتى لا يقع في هاوية العبودية والاستعباد¹.

ثالثاً: تحقيق الفعالية:

أرجع بن نبي سبب إخفاقنا إلى أننا لم نعبر عن الأشياء بلغة الفعالية ولكن بلغة العاطفة، التي أدت بنا أحيانا إلى تصرفات ومواقف هزلية تتفق تماما مع الخطط الاستعمارية. وهذا ناتج عن أننا لا نقدر حوادث التاريخ كما ينبغي لنا تقديرها أي فحصها ودراستها دراسة مدققة. بل غلبت علينا لغة الثثرة والكلام الفارغ. ولتحقيق الفعالية علينا أن نقدر للإنسان قيمتين: قيمته كإنسان وقيمه ككائن اجتماعي فالقيمة الإنسانية تتمثل في تكريم الله لعبده ولا أحد يحق أن يغير منه شيئاً (الإنسان مقدس). أما القيمة الثانية فتمثله كائنا اجتماعيا يصنعه المجتمع الذي تتغير فعاليته من طور إلى آخر (مجتمع متحرك) وهذا يعني أن شخصيته ليست بالبسيطة وإنما مركبة تشتمل على عنصر ثابت يحدد كيانه

¹ نفس المصدر السابق ص 79--94

كإنسان وعنصر متغير يحدد قيمته ككائن اجتماعي يخلق فيه الفعالية، الناتجة عن وجود حالة جديدة غيرت أوضاع المجتمع وبذلك فإن موقف الإنسان هنا يتغير أمام الحوادث والأشياء وبالتالي يتغير مجرى التاريخ وهذا لا يحدث إلا في حالات معينة من تاريخ المجتمعات (المجتمع المتحرك) حيث الفرد يشعر بالقلق يسوده الشعور بالخطر سواء أكان الخطر واقعياً أم مجرد فكرة خامرت العقول. بين الحالتين الإنسان تسوده حالة جديدة وهي الفعالية¹.

رابعاً: بناء مجتمع أفضل: ألح بن نبي على ضرورة إعادة النظر في المفهوم الحقيقي لمعنى المجتمع² لأن المفهوم السطحي لمعنى المجتمع لا يعطينا أدنى تفسير للوظيفة التاريخية، كما أنه لا يفسر تنظيمه الداخلي ولذلك نجده يعرف المجتمع كما يلي: "الجماعة التي تغير دائماً خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير"³ ومن بين العناصر الأساسية التي يجب أن يقوم عليه المجتمع⁴ نجد: وجود حركة يتسم بها المجموع الإنساني وهذا يتمثل في تحديد أسباب هذه الحركة وتحديد اتجاهها⁴. وهذه العناصر الأساسية نجدها حتى عند الحشرات (مجتمع النحلة) لأن النحلة لا يمكنها أن تعيش بعسلها ولا أن تحقق أهداف حياتها، لو لم يكن نشاطها هادفاً إلى فكرة عامة ومستقرة في حياة المجتمع الذي هي جزء منه. والإنسان شأنه في هذا شأن النحلة لأنه لا يستطيع أن ينعزل عن المجتمع أو يحاول العيش بجهد

¹-مالك بن نبي، تاملات ص 134-135-136.

²-قسم بن نبي المجتمع إلى نوعين: فالنوع الأول يحقق نموذج المجتمع الساكن كالمجتمعات الموجودة في مجتمع النحل أو النمل والقبيلة الإفريقية في عصر ما قبل الإستعمار والقبيلة العربية في العصر الجاهلي، أما النوع الثاني يحقق النموذج المتحرك أي المجتمع الذي يخضع لقانون التغيير الذي يعدل معالمه من جذوره. فالطبيعة توجد النوع ولكن التاريخ يصنع المجتمع وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير ويركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية وهو ما نطلق عليه إسم الحضارة

³-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص:17.

⁴-نفس المصدر السابق، ص 15.

الخاص. ففي التاريخ القريب (الأربعين سنة التي مضت) إرتكبنا أخطاء لأننا لم ندقق في مصطلحات الإجتماع ففهمنا أن المجتمع عدد من الأفراد يعيشون كما يشاؤون لكن ليس هذا هو المجتمع وإنما يمكن أن نسميه بقايا مجتمعات أو بداية مجتمعات قبل أن تقوم بوظيفتها التاريخية ، أما المجتمع الذي يقوم بوظيفته التاريخية، فهو المجتمع الذي يقوم بوظيفته نحو الفرد ويحقق راحة الفرد فالمجتمع هو بنيان وليس تكديسا من الأفراد ببنيان فيه اشياء مقدسة متفق عليها فقبل أن تتجمع الأفراد تكون هناك فكرة عامة التي تؤلف أفراد المجتمع، فإذا فقدت هذه الفكرة تفكك المجتمع وضاعت المصلحة التي كانت تتمثل فيه. فالجماعة الإنسانية تكسب صفة المجتمع عندما تشرع في الحركة أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها، وهذا يتفق من الوجة التاريخية مع لحظة إنبثاق حضارة معينة¹ نستنتج من خلال هذا التحليل أن الإنسان الذي لا يكون مجتمعه مجتمع حضارة، هو معرض لحرمان الضمانات الاجتماعية فأنا حينما أحاول تحديد مجتمع أفضل أحاول تحديد أسلوب حضارة، إذ أنني حينما أحقق الحضارة أحقق جميع شروط الحياة. بما فيها الأسباب التي تأتي بمتوسط الدخل المرتفع بمعنى أنني أحقق الخريطة الإقتصادية ونتائجها الاجتماعية والثقافية أيضا². ويعتبر تغيير المجتمع في نظر بن نبي شرط دخولنا في المجتمع العالمي. بشرط أن نتجنب التقليد. الأعمى وبهذا الأسلوب سنكون أسبق من غيرنا إلى تحقيق مكانة في العالم الجديد.³

خامسا- نحو بناء حضارة عالمية والدعوة إلى التعايش الثقافي في ظل مؤتمر باندونغ:
دعا مالك بن إلى ضرورة تشكيل تعايش ثقافي على محور (طنجة وجاكرتا) وهذا من خلال مؤتمر باندونغ. الذي عالج مصير الأفرو آسيوي بالتحديد مصير الشعوب المتخلفة⁴

¹-مالك بن نبي :ميلاد مجتمع. ص 156-157

1- مالك بن نبي : ميلاد مجتمع: ص 18

2-مالك بن نبي:تأملات:ص 163.

Malek BEN NABI:LAFRO-ASIATISME p71- .⁴ .

و قد ركز على مشكلة الثقافة لأن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة نظرا للرابطة القوية بين الثقافة والحضارة فإننا نستطيع القول أن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو في جوهره تفكير في مشكلة الثقافة ، وبذلك تكون الحضارة في جوهرها عبارة عن مجموعة من القيم الثقافية لأن مصير الإنسان مرهون بثقافته، فمهما تكن الصورة التي نضع فيها أية مشكلة فمن الضروري أولا أن تحدد البلدان المتخلفة ثقافتها لتدارك تأخرها وهذا ل(فا يتم بالطرق الملتوية أو كثرة الكلام في الفراغ بل يتم بالطرق التي توجه الذكاء والفكر في اتجاه الحضارة لأن الثقافة الإسلامية لا يمكن لها أن تجد إلهامها الجوهري في مجرد نزعة معادية للإستعمار بل يجب أن تبحث عن روحها الأخلاقي في مجموع القيم الروحية والتاريخية التي تقرأها الشعوب (الأفرو -أسيوية) أما التراث الأفرو-أسيوي فيمكن أن يجد عناصره أولا في المركبات النفسية التي أدت دورا من أجل التحرر وهي مشتركة بين جميع الشعوب التي خاضت هذا الصراع وهي الآن تجد نفسها ملزمة ومضطرة إلى تحديد مثلها الأعلى الذي يتم بواسطة العمل. وبلا شك ستجد الفكرة الأسيوية بمقتضي إزدواجها الروحي مبدأها الثاني في فكرة (عدم العنف أو اللاعنف) ذلك المبدأ الذي حرر الهند بزعامة بطلها الأسيوي المها تما غاندي.¹

الاستنتاج :

في الأخير نستنتج أن عملية التغيير عند "مالك بن نبي" تركز بالدرجة الاولى على الإنسان وتوجيه عناصره في التغيير الإجتماعي بما فيه :التوجيه الخلقي: يحقق الربط والتلاحم بين الأفراد.ثم التوجيه الجمالي:يحقق الانسجام والإحسان والتناغم فكما يقال:كن جميلا تري الوجود جميلا وبعدها التوجيه العملي:يحقق الفعالية، حيث يقال فى معظم أحاديثنا اعوذ بالله من البخل والكسل وأخيراالتوجيه الصناعي:يحقق التنمية المستدامة. تجسيدا لمقولة المفكر الفرنسي فولتير Voltaire إن العمل يبعدنا عن ثلاثة :القلق الرذيلة

¹-مالك بن نبي:مشكلة الثقافة، ص، 108/107//101/99.

والحاجة، كما اعتبر "مالك بن نبي" أن العنف و التربية و الثورة وكذا العقيدة (حينما نحسن استعمالها)) كلها وسائل ضرورية ومهمة في إحداث عملية التغيير

وكان يهدف دائما من وراء عملية التغيير الى :نحو بناء حضارة عالمية والدعوة إلى التعايش الثقافي بين أبناء الأمة الواحدة وهي الأمة الاسلامية في ظل مؤتمر باندونج وهو أول من تنبأ بفكرة انشاء مغرب عربي موحد (في كتابه المسلم في عالم الاقتصاد) وهو المشروع الذي جسده اليوم اوروبا وهو ما يعرف ب توحيد عملة اليورو، وكان دائما يلح على ضرورة اعادة بناء التنمية الاقتصادية من اجل بناء إقتصاد موحد وتخليصه من التبعية وهذا يتم بفضل تحقيق فرد فعال منتج، كما سعي وراء عملية التغيير الى إعادة النظر في المفهوم الحقيقي لمعنى الديمقراطية حيث يجب تحديدها دون ربطها مسبقا بأي مفهوم آخر كالإسلام أو العلمانية بل يجب النظر إليها بوصفها شعورا نحو الأنا الذي يقيم العلاقات بين الأفراد على أساس التعاطف والشعور بالمحبة والحنان وليس رعاية المصالح الضيقة كما هو الحال عندنا الان والديمقراطية بوصفها كذلك مجموعة الشروط الإجتماعية السياسية الضرورية لتكوين وتنمية هذا الشعور في الفرد حيث عندما يشعر الناس بالتعاطف إزاء بعضهم البعض فإن معني ذلك أن الروابط التي تجمعهم متينة وقوية وأنه من السهل مد يد المساعدة متي إقتضت الضرورة ذلك.

المبحث الثاني : الحضارة عند "مالك بن نبي":

قبل الحديث عن إشكالية الحضارة في فكر "مالك بن نبي" علينا أن نتمكن من حصر القلب الفكري من فكر "مالك بن نبي"، فهل هو مصلح اجتماعي يتصدر قائمة المصلحين الذين وعوا أسباب الفساد في مجتمعهم فأخضعوه للتشخيص بمنهج المصلحين؟ أم أنه عالم اجتماعي يأتي في طليعة علماء من ابن خلدون إلى دوركايم، فقدم كل واحد منهم - من زاوية الخاصة - تشخيصا لداء مجتمعه، محاولين تقديم العلاج اللازم لمختلف أمراضه، أم انه فيلسوف التاريخ لأنه تخصص في تقويم أبعاد حضارة مجتمعه مثل هيجل،

وتومبي، وشبنجلر، ولمعرفة ذلك لابد من تشخيص نظرية هامة وهي تحليل معادلة العلاقات الاجتماعية لأنها تمثل مفتاح الدخول إلى فكر "مالك بن نبي" فهي تضع الهندسة في مقابل الفقه وتضع ابن خلدون في مواجهة ارلوند تومبي، والحضارة في مواجهة الهمجية والكم المهمل في مقابل الكيف الديني، والمنهج الاقفي امام المنهج العمودي مما يجعل "مالك بن نبي" مهندساً للحضارة وفقهياً مستلهماً ذلك من ابن خلدون عصبته المجسدة للتعاقب الدوري مؤكداً في كل ذلك على خطوة هامة وهي الموازة بين المنهج الاقفي في شبكة العلاقات الاجتماعية المتينة التي تربط الانسان بمجمعه وبين المنهج العمودي وهي الشبكة التي تربط الانسان بخالقه. فهذه هي الحلقة التمهيدية في محاولة فك اشكالية الحضارة عند "مالك بن نبي"، اما الحلقة الموالية فهي تتعلق بالجانب التجديدي في فكره وفلسفته¹. إن الشيء الذي يميز عظمة أبحاث بن نبي فيما يخص المفهوم الحقيقي لمعني الحضارة هو سعة اطلاعه لحضارة الغرب وإبراز موقفه النقدي من مختلف أبحاثهم وتفسيراتهم لنشأة الحضارة وعوامل التحضر وفي الوقت نفسه نجده قد أتى على الفيلسوف العظيم والعلامة الكبير ابن خلدون بإعتباره أول من صاغ الحادثة التاريخية لمنطق محكم وأكتشف ما يسمى ب قانون الدورة التاريخية² ففي نظر بن نبي فقد شهد القرن التاسع عشر ظهور أول تفسير للواقعة الاجتماعية بربطها بظاهرة أخرى، حيث يرى "كارل ماركس" (karl marx) أن كل إكتمال تاريخي لا يكون إلا نتيجة الضرورات المادية وحاجات الإنسان الأساسية، فالحاجة والفن الصناعي يمثلان في نظر ماركس مراكز التقاطب لقوى الإنتاج وهي المراكز التي تحدد العلاقات الاجتماعية الخاصة بحضارة معينة. غير أن هذا التفسير لم يصمد أمام "مالك بن نبي" الذي بين وأثبت بأن هناك حضارات كحضارات أمريكا السابقة على العهد الكولومبي وكذلك الحضارة الرومانية تلاشت دون ظهور أى تغيير في طبيعة الحاجات

¹-سليمان الخطيب: نقلا عن قناة المجد الفضائية، برنامج فصول، لقاء حول كتاب فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي. دراسة

أسلامية في ضوء الواقع المعاصر 2009

²-مالك بن نبي: شروط النهضة ص 69.

ووسائل الإنتاج وهكذا نجد أن التفسير الماركسي للوقائع اتخذ نقطة انطلاقه من حتمية مادية ما يسميه بالمادية التاريخية أي من عملية ميكانيكية لا من إرادة التخطيط الحضاري ويرى بن نبي أن الديالكتيك الماركسية تقيم السيرورة التاريخية كدورة مغلقة (من المرحلة المشاعية، إلى المرحلة الشيوعية)، فيها نوع من التفسير الضيق، والواقع أكد لنا أن هذه "الواقعية" أخرجت "العقلانية" التاريخية من المأزق ولم تخرج الإنسانية من المأزق. خصوصا وأن دائرة التنبؤات التاريخية لماركس نجحت مع شعوب "العقل" (كالشعب السويدي) ولم تتجح مع شعوب أخرى عبر قارات العالم المختلفة. وهو الانتقاد الثاني الذي يقدمه بن نبي للماركسية: "أما في القرن العشرين فقد ظهرت مناهج أخرى لتفسير النمو الحضاري غير أنها مناهج إنحصرت في حاجة الإنسان المادية ووسائل الإنتاج، حيث إعتبر "شبنجلر" الحضارة أنها ثمرة لعبقرية خاصة يمتاز بها عصر معين ثم سرعان ما تزول، وإلى نفس الفكرة تقريبا ذهب الألماني (فرانز شوبرت) walter schubart² بإعتباره أن الحضارة نتاج عبقرية عصر معين وليس بإعتبارها نتاج عبقرية جنس معين حيث بين شوبرت في كتابه "أوربا وروح الشرق" أن لكل عصر عبقرية الخاصة أو روحه الكلي الذي يسود ذلك العصر، أما المؤرخ الإنجليزي الكبير "أرلوند تويمبي" فقد فسر الحضارة بإرجاعها إلى العامل الجغرافي الذي يلعب دورا أساسيا فيها ما كان يدعو به بالتحدي وهو المذهب الذي يفسر الحضارة ب "رد" معين يقوم به أحد الشعوب أو الأجناس لمواجهة تحد معين. غير أننا لا نري في تكوين الحضارة العامل الجغرافي أو المناخي في شكل "تحدي" ولا في العامل الإقتصادي المتمثل في الحاجة والوسيلة لأننا لو قمنا بعملية التحليل التاريخي يمكننا أن نشاهد قانون ظاهرة الحضارة. خصوصا وأننا نعرف مسبقا أن حضارة معينة تمر بمرحلة الميلاد ثم الأوج وأخيرا

¹-مالك بن نبي : شروط النهضة ،ص 70.

²-فرانز شوبرت: 19/11/1828-31/01/1797 ' franz peter schubert . مؤلف وموسيقي نمساوي، رغم رحيله المبكر جدا في سن 31. إلا أنه قام بتأليف أكثر من 100 مقطوعة موسيقية ويعتبر الكثيرون بعض أعماله من أفضل المقطوعات في تاريخ الموسيقى

الأفول والمنحنى البياني يبدأ بالضرورة من النقطة الأولى في خط صاعد ليصل إلى النقطة الثانية في خط نازل الميلاذ ثم الاوج وأخيرا الأفول¹ وبين الطورين الأولين يوجد بالضرورة توازي معين يشير إلى تعاكس في الظاهرة، فطور الأفول النازل هو عكس طور النهضة الصاعد ، وبين الطورين يوجد بالضرورة إكمال معين هو طور إنتشار الحضارة وتوسيعها و بهذا يكون المفكر "مالك بن نبي" قد قلب صفحة جديدة في سنه للأسس الأولى للحركة التاريخية. لذا فإنه أقام فكرة التاريخ في حركيتها في ضوء القرآن الكريم بداية من "الفعالية" "الوعد والوعيد"، مروراً برسم العوالم الأساسية لهذه الحركة التاريخية في الحضارة ، والمتمثلة في النشاط المشترك لكل من "عالم الأشخاص" "وعالم الأفكار" "وعالم الأشياء"

1-1 الدورة الحضارية عند "مالك بن نبي":

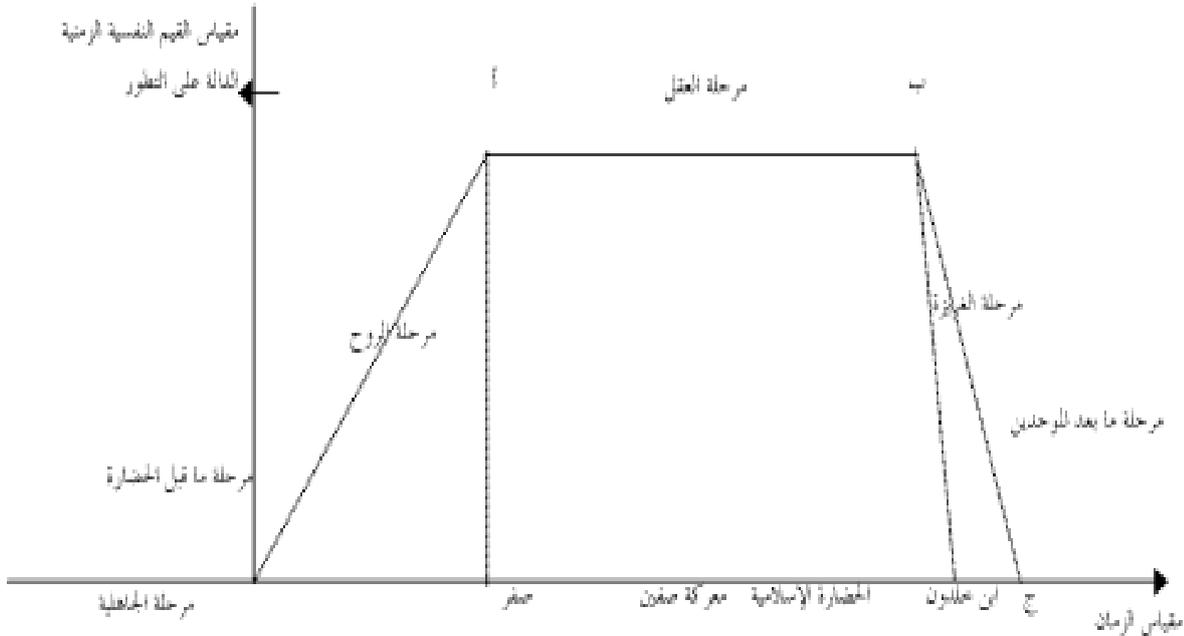
إن الهدف من تحليل مراحل الحضارة عند "مالك بن نبي" هو إبراز الدور التاريخي الذي تقدمه كل مرحلة للمرحلة الموالية. حيث يعتبر أول من اكتشف الظاهرة الدورية بما تحتويه من نقطة البداية ثم الصعود إلى القمة ثم الأفول وهو المدخل الذي نستطيع منه فهم دراسة بن نبي للحضارة. حيث أنه في دراسته لـ (الظاهرة الدورية) يبدأ الفصل بقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾² ليؤسس عليها قانون التداول الحضاري. وهذا المبدأ يرتكز على أن الحضارة أياً كانت يحكمها قانون الدورة الحضارية. ففي نظر "مالك بن نبي" فإنه يجب فهم هذه الدورة من أجل إستيعاب فلسفة البناء الحضاري.³ ويمكن عرض نظرية مالك في تركيب الحضارة على شكل صورة تخطيطية. فالمنحنى البياني يبدأ من النقطة الأولى في خط صاعد حتى يصل إلى مستوى نقطة أخرى في خط نازل. أما المرحلة التي تتوسط هذين الخطين فهي مرحلة وسيطة وهي مرحلة القمة وهي طور انتشار الحضارة

¹- نفس المصدر ص 74/72

²-سورة آل عمران، الآية 140

³-مالك بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، ص 27.

وتوسعها.¹ أما الظاهرة هي وجود محورين تنتقل من الواحد إلى الآخر القيم الحضارية بصورة دورية، كأنما تاريخ الإنسانية يتأسس على محورين بينهما حركة مد وجزر مستمرة تنتقل القيم الحضارية².



وقد حاول مالك تطبيق هذا الرسم البياني على حركة التاريخ الإسلامي، وذلك للوقوف على اتجاه حركة الحضارة الإسلامية في صعودها وهبوطها، وهذا لكي يتسنى للمسلم أن يعرف تاريخه كقيم ومفاهيم. حيث قبل بدء دورة من الدورات أو عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة. أما في نهاية الدورة فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضارياً وسلبت منه الحضارة تماماً، فيدخل في عهد ما بعد الحضارة³ وهي مرحلة الانحطاط حيث لم يعد الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارة بل عناصر خاملة غير متفاعلة. حيث أن نقطة الصفر في الرسم البياني التي تسجل الحالة السابقة على الحضارة تمثل بداية ظهور تركيب

¹ - نفس المرجع السابق ص 28.

² - بن نبي مالك، شروط النهضة، ص 7473.

³ - د/ سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت، ط 1، 1993، ص 99.

العناصر الثلاثة . الإنسان والتراب والوقت . مما يؤدي إلى ميلاد مجتمع معين . ولكن عالم الأشخاص والأشياء لم يوجد بعد . أما عالم الأفكار فإنه يحتوي على بذرة إمكانياته "كما تحتوي النطفة كل العناصر العضوية والنفسية المهمة في تركيب الكائن" وبهذا يمكن التقرير "أن الفكرة التي غرست بذرتها فيالتاريخ هي فكرة دينية"أي أن الدين هو أساس بناء المجتمع وهو يخلق نظاماً اجتماعياً للأفراد . فكلما قويت العلاقة الدينية بين نقطة الصفر والنقطة (أ) فإن درجة الفراغ الاجتماعي تقل وهي الهدف والمثل الأعلى لجميع الشرائع التي تحاول جاهدة سد أي فراغ اجتماعي¹ وفي النقطة (أ) توقفت النهضة الإسلامية حينما حدث أول انفصال في التاريخ الإسلامي وذلك مع بدء معركة صفين (38هـ) بسبب ذهاب الروح إلى حب السلطة والنزعة القبلية أي أن الروح فقدت نفوذها على الغرائز بالتدرج ومنذ ذلك الانفصال فقد العالم الإسلامي قوته وتوازنه غير أن الفرد المسلم ظل متمسكاً في داخله بدينه الإسلامي وعقيدته حتى سقطت دولة الموحدين . أما النقطة 'ب' والتي تمثل نقطة الانكسار في منحنى التطور التاريخي وهي تتمثل في إنقلاب القيم الأخلاقية داخل حضارة معينة . والتي تتمثل في فقدان الإنسان المتحضر لهيمته وأخلاقه الحضارية ، فيعجز عن تطبيق إبداعه ومواهبه على التراب والوقت مما يؤدي إلى تفكيك الحياة الاجتماعية لتحل مكانها الحياة البدائية . وقد بدأت هذه المرحلة في التاريخ الإسلامي بسقوط دولة الموحدين في الأندلس الذي يمثل سقوط الحضارة الإسلامية الخالدة فبدأ تاريخ الانحطاط وكان ذلك في عهد ابن خلدون.²

نستنتج من خلال الرسم أن لدورة الحضارة ثلاثة مراحل مختلفة فالأولي تبدأ بنقطة الصفر التي تمثل إنسان الفطرة فالمرحلة الأولى هي مرحلة الروح (من نقطة الصفر إلى النقطة (أ) وهي تتمثل في علاقات اجتماعية قوية ومتمينة ،توحي بعبارة من القرآن "البنيان

1-مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص83.

2-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ص5855.

المرصوص" كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ﴾¹ كما أن الفرد في هذه المرحلة يكون في أحسن ظروفه وفاعليته الاجتماعية أما في المرحلة الثانية (من النقطة أ إلى النقطة ب) فإن العلاقات الاجتماعية لا تزال قوية ولكن قد ظهر عليها بعض الشوائب والنقص. فالمجتمع يواصل نموه ولكن ليست. كل قواه في نطاق الحركة، فلم يعد الفرد المسلموهو مباشر وظيفته الاجتماعية، يعمل بكامل طاقته لأن جانباً من الطاقة مضى إلى السكون. أما المرحلة الثالثة (من النقطة ب إلى النقطة ج) فإن الغرائز تتفكك وتسد الفردية تبعاً لتحرر غرائز الأفراد مما يؤدي إلى انهيار العلاقات الاجتماعية فيختل نظام الطاقة الحيوي وهو ما يسمى بعصر الانحطاط وهو العصر الذي هياً للعالم الإسلامي الظروف الملائمة للقابلية للاستعمار ثم دخول الاستعمار حقيقة².

1-3- تطور الحضارة الإسلامية:

في هذا العنصر سوف نتعرف على خصوصيات كل مرحلة وماذا تعني كل واحدة منها ؟ كما نحاول أن نحدد العلاقة التي تجمع هذه المراحل ببعضها البعض في تفسير للحركة التاريخية ولقد قسم "مالك بن نبي" الحضارة إلى ثلاثة مراحل هي:

المرحلة الأولى: وهي المرحلة التي تبدأ من غار حراء إلى واقعة صفين (سنة 38 هجري) وهي المرحلة الجوهريّة التي تركبت فيها العناصر الأساسية للحضارة الإسلامية لأنها حتى وإن كانت دينية إلا وأنها يطغى عليها الجانب الروحي ففي هذه الحقبة ظلت روح المؤمن هي العامل النفسي الرئيسي لذا سميت هذه المرحلة بـ مرحلة الروح³ وكان الإنسان في هذه المرحلة يمثل نقطة الانطلاق متمسماً بالبساطة الفطرية، فهو إنسان طبيعي

¹ -سورة الصف، الآية 4

² -مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 77/78

³ -/مالك بن نبي: شروط النهضة: ص 69/70. وأنظر أيضا عباس محمود العقاد عبقرية الإمام - البيعة- دار المعارف

(Homonatura) يحيا حياة راكدة خاوية ثم تأتي الفكرة الدينية المركبة للعناصر الثلاثة (الإنسان، التراب، الوقت) فتملاً فراغه فتدفع بذلك عجلة التاريخ وتشرع في دورتها وتكون للإنسان روح. كله إيمان وأمل وسمو نحو الغاية التي رسمتها له الفكرة الدينية، التي هي تمثيلاً أولياً " لإشعاع الفكرة الدينية تلك التي تتمكن من النفوس فتبنيها بناء "مرصوصاً". كما كان ذلك في عهد الرسول (ص) وجماعته من الصحابة والخلفاء الراشدين، إذ أنه في ذلك العهد كانت الروح التي بدأت في غار حراء، قد فعلت فعلتها في النفوس. فكنا نلاحظ أنه وبمجرد ما إن نزلت آيات الخمر مثلاً.

فإن الصحابة ومن تابعهم نهوا عن شربه حتى أن واحداً كعمر ابن الخطاب - رضي الله عنه (والذي كان يتعاطاه في الجاهلية) تخلى عنها بكل سهولة بمجرد أن أعلن إسلامه-يأتي"مالك بن نبي" بأمثلة عديدة لفعل القرآن فيها لا نرى ضرورة لسردها كلها - وبالمقابل نجد كلا من الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي أصدرتا مرسومين يقضيان بمنع تعاطي " الخمر " ثم تراجعاً عنه لاحقاً، حتى أن الرئيس الأمريكي في 1963 تراجع -بعد شهر من إصداره للمرسوم- عن قانون المنع هذا بسبب هو أن المجتمع الأمريكي لم يكن ليجد الروح المريية للنفس كما أقامها القرآن الكريم، في قبائل قريش). وهذه هي المرحلة الأولى من التحضر، وسماه "مالك بن نبي" "بمرحلة الروح"، لأن الروح هنا تكون مهيمنة على الغرائز ومتحكمة في العقول في بداية التحضر، ويكون المجتمع والفرد متماسكا كلما زادت الطاقة الدينية، حيث رأى "مالك بن نبي" " أن هاته المرحلة ضرورية لأي إنسان كان في أي زمان أو مكان¹.

المرحلة الثانية : وهي المرحلة الدالة على أفول الروح وهذا بعدما دخل العالم الإسلامي في حروب وفتن لا مخرج منها مما تسببت في ظهور ظاهرة التشيع التي لا يزال أثارها موجودا حتي يومنا هذا. ونتيجة لهذه الصراعات ،فقد دخل الانسان المسلم في مرحلة ثانية وهي

¹- مالك بن نبي- حديث في البناء الجديد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بدون تاريخ، ص 100-101

مرحلة العقل أين يشهد صراع داخلي بين الغرائز والعقل حيث تساوى فيها أسباب السمو الروحي وجاذبية الغرائز. ومن الناحية التاريخية تمثل هذه المرحلة ظهور العصر العباسي الذي عُرف بالعصر الذهبي للحضارة الإسلامية حيث جمع لنا هذا العصر قائمة بأسماء علماء ومفكرين شهد لهم التاريخ بأنهم أعلام عصرهم ومن ذلك أمثال الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي (هؤلاء في الفكر) وابن حفصين وابن النفيس والرازي وجابر بن حيان والخوارزمي (في العلوم). وقد شهدت هذه المرحلة توسعا فوق الأرض وبدأ العلم ينتشر وهذا بفضل أساتذة سطعت أسماءهم في جو المعرفة ومن الناحية الجغرافية فإن الحضارة الإسلامية في هذه المرحلة قد خرجت من عمق النفوس إلى سطح الأرض التي إمتدت من شاطئ الأطلنطي إلى حدود الصين كما عبرت عنه كبريات الجوامع والمنارات والقصور وغيرها التي أنشئت هنا وهناك في كل من بغداد والقاهرة ودمشق والأندلس وتركيا وغيرهم..

نستنتج إذن أن تطور الحضارة عند بن نبي مرهونة بتطور الانسان التي هي عبارة عن حلقات متصلة إذ تبدأ الحلقة الأولى بظهور فكرة دينية ثم يبدأ أفولها وهذا بتغليب جاذبية الأرض عليها بعد أن تفقد الروح ثم يظهر العقل ولذلك سميت هذه المرحلة ب مرحلة العقل، المرحلة الثالثة: عندما تتكتمش تأثيرات الروح والعقل يعود الإنسان إلي مستوي الحياة البدائية وهو ما يمثل مرحلة الغرائز الناتج من المرحلتين السابقتين حيث يدخل الإنسان (في منظور "مالك بن نبي") مرحلة جديدة، أين تسيطر الغرائز في هذه المرحلة على العقل والروح فينحط الإنسان إلى حضيض الحيوان نتيجة التدرج في السيطرة من الروح إلى العقل ثم الغرائز في بناء الإنسان، وتدخل نتيجة لهذا الحضارة الإنسانية في مرحلة جديدة من التخلف والتوقعوهو حال أغلب المجتمعات العربية والإسلامية اليوم -ويكون المجتمع غير متماسك ميالا إلى الماضي والقابلية للاستعمار والأصح كما سماه "الاستعمار"، إن المجتمع في مرحلة الغريزة من الدورة الحضارية، فقد كل ما يربط أواصره: بحيث أصبحت صالونات الآداب (بالأندلس) مراقص وملاهي بدعوى التجديد في التطور أو التقدم الحضاري. كما بقيت

" المقدمة "لأبن حلدون حروفا مية، وقد كانت مكتبات القيروان وفاس وغيرها، تزخر بالكتب النادرة دون أن تجد منشغلا بها أو حتى متصفحها لها).

إن مرحلة الغريزة في الحضارة هي الطور الحضاري الذي ينبئ عن مجتمع سماه "مالك بن نبي" بمجتمع ما بعد الحضارة، وهو ممثل أيضا على محور الزمن من وقت سقوط دولة الموحدين بالمغرب العربي حتى عام 1868 ومنه رأى "مالك بن نبي" ضرورة أن تحل "الفاعلية الإيجابية" محل هذه "القابلية" لتربط الفكرة بالعمل، ويقوم النهوض ويخرج المجتمع من "حضارة شيئية" إلى "حضارة إنتاجية" لإعادة "الفكرة الدينية" ووظيفتها الاجتماعية في الحياة العملية، ويخرج الإنسان من دائرة "الفجور والجهل والفقر والظلم... إلى دائرة التقوى والعلم والاكتساب ونصرة الحق فتكون إنسانية الإنسان واجتماعية المجتمع. "ومن هنا نكتشف أن "الإنسان" أهم عنصر من عناصر الحضارة، ولا يمكننا أن ننفي علاقته المباشرة "بالتراب" و"الوقت" كعنصرين ضروريين لحركة الإنسان في التاريخ وعدم إدراك هذه الحركة في علاقتها بالزمان والمكان يجعل صعوبة في تشخيص أسباب أفول الحضارة، وأيضا في إيجاد حلول ومناهج لجهل مكانة الأمة من التطور الحضاري¹.

2- الفكرة الدينية ودورها في عملية البناء الحضاري عند "مالك بن نبي": يرى "مالك بن نبي" أننا حينما نتأمل القرآن يظهر لنا أن الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في تطورها. والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع لنظام الكوني، قانونًا خاصًا بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، فهو قانون من قوانين الله عز وجل التي فطرت عليها النفس الإنسانية.. وهو فضلاً عن أنه يغذي الجذور النفسية العامة، فإنه يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكوّن الأنا الواعية في الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تصنعها الغرائز في خدمة الإنسان. ثم يرجع بن نبي إلى شهادة التاريخ بإعتباره السجل الأمين للتحوّلات التي شهدتها البشرية،

¹--مالك بن نبي:شروط النهضة:ص 71 /74/73

فيجد أن التاريخ شاهد على أن الدين يمثل أحد الركائز التي يبني عليها الإنسان المسلم شخصيته كما يمثل ثابت من ثوابت الشخصية الإنسانية، بل وأن الدين كان وراء كل الإنجازات البشرية، ولهذا فابن نبي إنتقد نظرية توينبي في التحدي والاستجابة، لأنها حتي وإن فسرت قيام بعض الحضارات فإنها لم تفسر لنا دور الفكرة الدينية في بنائها وقيامها ، ويقدم الدين بديلاً لقيام الحضارات ومنجزاتها عبر التاريخ. حيث نجد "مالك بن نبي" يقول: (كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي، وفي الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية، وجد سطوراً من الفكرة الدينية حيث إن الحضارات ما أشرقت إلا من أمثال الكعبة أو معبد سليمان، ومن هناك كانت تشرق هذه الحضارات لكي تنير العالم.)¹ فابن نبي لا يرى الفكرة الدينية نسقاً من الأفكار الغيبية فحسب ولا يقصرها على الدين السماوي فقط، بل يعتبره قانون يحكم فكر الإنسان، فبتحليله لدورتين من دورات الحضارة؛ هما الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية توصل إلي استخراج السر الذي دفع بكلتا الحضارتين إلى تحديد الموقع الذي يمثله الدين في حركة الحضارة. حيث توصل إلى تأكيد أن السر الكوني الذي يركب العناصر الثلاثة الأساسية للحضارة؛ الإنسان والتراب والوقت، والذي يبعثها القوة الفاعلة في التاريخ هو الدين. لان كلتا الحضارتين تنطلقان من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها الخاص، وتوجهه نحو غايات سامية. إلا أن هذا القانون لا نجده في الحضارتين: الإسلامية والغربية فحسب، بل يتعداه إلى بقية الحضارات التي سجلها تاريخ الإنسانية، كالديانة البوذية في الحضارة البوذية، والبرهمية مما يفسر لنا أن كل حضارة في أساسها ذات مبعث ديني. ولا يمكن للحضارة أن تظهر في نظر ابن نبي إلا (في صورة وحي يهبط من السماء ، وعلى هذا فالحضارة تبدأ عندما يمتد نظر الإنسان إلى الأفق .

¹-مالك بن نبي: شروط النهضة ص 48

ومن هنا ينبغي علينا أن نتتبع تأثير الدين من خلال تركيبه بين العبقورية الإنسانية والشروط الأولية للحضارة، أي نتتبع ذلك (الإطراد بين الفرد والفكرة الدينية التي تبعث الحركة والنشاط)¹. فالفكرة الدينية في عمومها أساس لكل مشروع حضارى، يقول ان نبي: " فالحضارة لاتبعث- كما هو ملاحظ- إلا بالعتيدة الدينية، وينبغى أن نبحت فى حضارة من الحضارات عن أصلها الدينى الذى بعثها، ولعله ليس من الغلو فى شىء أن يجد التاريخ فى البوذية بذور الحضارة البوذية، وفى البرهمية نواة الحضارة البرهمية. فالحضارة لاتظهر فى أمة من الأمم إلا فى صورة وحى يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا،² ولقد كانت قناعة ابن نبي فى الدين الإسلامى على الخصوص، على أنه يملك من المقومات ما يغيره حياة الفرد وحياة المجتمع، كما أنه يحمل من جهة أخرى مقومات وجوده واستمراريته. ولقد كانت عناصر الحضارة فى جزيرة العرب "الإنسان والتراب والوقت " راكدة خامدة، وبعبارة أصح مكدسة لا تؤدى دورا ما فى التاريخ، حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء- كما تجلت من قبل بالواد المقدس أو بمياه الأردن- نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة فكأنما ولدتها كلمة (اقرأ). هذه الكلمة التى غيرت مجرى التاريخ، وتميز بها الدين الإسلامى عن غيره من الأديان السماوية، " فبينما يفتح فى الغرب كتاب العهد الجديد فى إنجيل يوحى لنا بعملية التجسيد فإننا نجد عندنا القرآن يفتح على الجانب العقلى فى قوله تعالى "اقرأ باسم ربك الذى خلق".³ (اقرأ) هذه هى الكلمة الأولى التى تفتح إليها أول ضمير إسلامى، ضمير محمد، ويتفتح لها بعده كل ضمير مسلم⁴. ويفهم من ذلك أن الأمر الإلهى (صورة الآية)، أمر بالتغيير، ومن هنا كان منهج الرسالة الإسلامية مقتضيا للتغيير، والتغيير

¹--د: عائشة المناعى مظاهر التجديد فى فكر مالك بن نبي:مجلة المسلم المعاصر بقلم عبد الحميد الادريسي العدد

101 سبتمبر 1 200 ص 18

²--شروط النهضة- مصدر سابق- ص 50- 51.

³--سورة العلق، الآية 1

⁴--مالك بن نبي انتاج المستشرقين- مكتبة عمار- القاهرة- 1970م- ص 42.

يستلزم تغيير ما بالنفس أولاً، وهذه المسؤولية الفردية وإن كان أساسها ذات الإنسان كفرد، إلا أنها تحتم من ناحية أخرتغيير المجتمع أو ما سماه القرآن بالقوم في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).¹ هذه الآية الكريمة الصادقة التي يتخذها (مالك بن نبي) وكذلك رجال الإصلاح شعاراً لهم، تعبر عن أهمية وضرورة أن يبدأ التغيير من الإنسان الفرد ثم يأتي فعل الله تعالى في التغيير، و من هنا تظهر القيمة القرآنية لا على أساس أنها آية يتعبد بها وتحفظ عن ظهر قلب دون أن تمس القلب، بل قيمتها في كونها محركة للحياة وباعثة للنشاط ومغيرة للإنسان، ولكن لن تكون كذلك إلا إذا وجدت من يجعلها آية حية تملى على الفرد تصوراً جديداً لعبوديته لله تعالى، وتملى عليه سلوكاً جديداً ثم تجذبه إلى الحياة. فإذا وهنت الدفعة القرآنية توقف العالم الإسلامي كما يتوقف المحرك عندما يستنفد آخر قطرة من الوقود. ولا يمكن لأي عامل مهما كانت أهميته أن يقوم مقام الدين لأنه المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية،².

2-1 دورها في خلق التوازن النفسي:

يرى "مالك بن نبي" أنه عند دراستنا للحضارة الإسلامية لا بد أن نخضعها لعاملين أساسيين هما: الفكرة الإسلامية والإنسان المسلم. الذي يمثل السند المحسوس لهذه الفكرة لأن كل القيم النفسية الزمنية التي تميز مستوى حضارة ما وفي وقت معين. ما هي إلا ترجمة تاريخية لهذه العلاقة العضوية بين فكرة معينة كالإسلام مثلاً، والفرد الذي يمثل بالنسبة إليها السند المحسوس وهو المسلم، ولتوضيح الفكرة أكثر نلجأ إلى لغة التحليل النفسي بغية تتبع إطراد الحضارة باعتبارها صورة زمنية للأفعال وردود الأفعال المتبادلة بين الفرد والفكرة الدينية، فالإنسان يولد مع جميع غرائزه وهو ما نسميه ب الإنسان الطبيعي أو الفطري l'homonoatuna غير أن الفكرة سوف تتولي إخضاع غرائزها إلى عملية شرطية

¹ -سورة الرعد- الآية 11.

² -نفس المصدر السابق ص74

conditionnement وهذه العملية الشرطية لم تقض نهائياً على الغرائز، ولكنها تولت تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية، فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز لم تلغ، ولكنها إنضبطت بقواعد نظام الفكرة الدينية، ففي هذه الحالة يتحرر الفرد جزئياً من قانون الطبيعة المفطور في جسده ويخضع وجوده إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة حسب قانون الروح. ذلك هو الطور الأول من أطوار الحضارة الإسلامية، وهو الطور الذي تكبح فيه الغرائز وهذا بسيطرة الروح عليها¹ ولكون المجتمع متحرك فإنه يشهد توسيعاً في مختلف الأنشطة وهو ما يستدعي وجود متطلبات كثيرة وأساسية لا بد من إرضاءها، وهو ما يتحتم على الحضارة أن تسلك منعطفاً جديداً وأن تختار بين طريقين لا ثالث لهما، فإما أن تتطابق مع النهضة كما رأيناها بالنسبة للدورة الأوروبية، وإما أن تأخذ بسياسة الأمويين² كما هو شأن الدورة الإسلامية وفي كلتا الحالتين فإن المنعطف الذي تسلكه الحضارة هو منعطف العقل، غير أن هذا العقل لا يملك قدرة السيطرة على الغرائز وحينئذ تشرع الغرائز في الظهور والتحرر من قيودها وبذلك يكون المجتمع قد فقد سيطرته على ممارسة ضغطه على الفرد وكلما ضعفت سلطة الروح تحررت سلطة الغرائز³ ولو تتبعنا بدقة هذا الإطراد يمكننا أن نلاحظ إنحفاً في مستوى أخلاق المجتمع وهو ما يؤدي إلى نقص في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية حيث أن هذه تبادلت منذ أن دخلت الحضارة منعطف العقل وبهذا تواصل الغريزة المكبوح سعيها إلى التحرر والإنطلاق. وعندما يبلغ هذا التحرر أوجه يبدأ الطور الثالث من أطوار الحضارة، وهو طور الغريزة التي تكشف عن وجهها.

¹- نفس المصدر ص 75

²- الأمويين نسبة إلى العصر الأموي وهو عصر الصراعات والإشقاقات السياسية الخطيرة حول مشكلة الخلافة حيث شهد هذا العصر الصراع الدموي بين أنصار الإمام علي ومعاوية بن أبي سفيان حول السلطة، وقد انتهت الحرب لصالح معاوية وهو مالم يتقبله أنصار الإمام علي

³- مالك بن نبي: شروط النهضة: ص 76

وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية التي تصبح عاجزة عن القيام بمهمتها في مجتمع منحل يكون قد دخل نهائيا في ليل التاريخ . وبذلك تتم دورة الحضارة التي غالبا ما تنتهي دورتها إلى مرحلة الفوضى يعيش أصحابها على حساب الجهل المنتشر. فدورة الحضارة تتم على هذا المنوال: حيث أنها تبدأ حينما تدخل إلى التاريخ فكرة دينية وتنتهي حينما تقعد الروح نهائيا الهيمنة على الغرائز المكبوتة فقبل بداية دورة الحضارة يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة، أما في نهاية الدورة فإن الإنسان يكون قد تفسخ حظارياً وسلبت منه الحضارة تماما فيدخل في عصر ما بعد الحضارة¹. فإذا كان ممكنا المماثلة بين هاتين الحالتين من وجهة نظر سطحية لما فيهما من وجوه الشبه الظاهرية، فإنه من الخطأ المماثلة بينهما ذلك أن الإنسان الذي تفسخ حظارياً يختلف تماما للإنسان السابق على الحضارة أو الإنسان الفطري. لأن الإنسان الذي خرج من حضارته لم يعد قابلا لإنجاز عمل فيه تحضّر ، إلا إذا غيّر ومن الأساس نفسه ، عكس الإنسان السابق على الحضارة يظل مستعدا للدخول في دورة الحضارة . ولتوضيح الفكرة أكثر لدينا مثلا (جزئيا) من الماء في وضعيتين مختلفتين،الوضعية الأولى: قبل دخوله الخزان يكون مشبع بطاقة م ذخرة فيه قابلة لتأدية عمل نافع إذا ما إستعملتها أجهزة الخزان في الري -معناه السقيئ- أو في إنتاج الكهرباء فهذا يعطينا صورة للإنسان السابق على الحضارة. غير أن هذا الجزئ يعجز عن تأدية العمل نفسه منذ خروجه من الخزان لأنه فقد طاقته المذخورة ولم يعد بإمكانه أن يستعيد حالته إلا بواسطة عملية جوهرية تتمثل في عملية التبخر التي ترجعه إلى أصله،حيث يتم تحويله من جديد إلى جزئ مائي وهو ما يعطينا صورة للإنسان الذي خرج من دورة الحضارة².

¹-مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 78/77

²-مالك بن نبي :شروط النهضة ، ص 79

2-2 دور العقيدة في إعادة بعث الروح الانسانية:

فبعدما تبين لنا مدي أهمية الفكرة الدينية في بناء الحضارة القائمة على أساس منطقي وواقعي هنا نجده ("مالك بن نبي") يوضح لنا أهمية الفكرة الدينية (في بناء الحضارة) من الناحية التاريخية. ولعل الإهتمام بهذا الجانب والتركيز عليه يبين ما مدي أهمية العقيدة الإسلامية ودورها الفعال في إعادة تركيب بنية الفرد المسلم، فحسب "مالك بن نبي" فإن العوامل المادية الثلاثة (الانسان - الوقت - التراب) التي أشرنا إليها فيما سبق هي عوامل بناء الحضارة، غير أنها لا تكتمل ولا تتطور إلا بالعقيدة الدينية،¹. ولتوضيح الفكرة أكثر نضرب المثال التالي: فجزيرة العرب مثلاً قبل نزول القرآن يسكنها شعب بدوي يعيش في صحراء جرداء قاحلة يقضي سكانها معظم أوقاتهم في اللهو والخمول والكسل (بما لا ينتفع به) لذلك كانت العوامل الثلاثة: الانسان والتراب والوقت راكدة خاملة فهي لم تؤد دوراً في التاريخ، حتي نزل الوحي بغار حراء أين أعاد الحياة والروح للإنسان، وأثارت كلمة الوحي إقرأ - المعالم الجديدة. فمنذ تلك اللحظة فرضت القبائل العربية نفسها على مسرح التاريخ حيث ظلت قروناً طوالياً تحمل للعالم حضارة جديدة قادتته إلى التمدن والرقى. وما هو مثير للإندهاش هو أن هذه الوثبة لم تكن من صنع السياسيين ولا العلماء، بل كانت من صنع أناس لا يزالون في بداوتهم يتسمون بالبساطة، غير أن بصيرتهم توجهت إلى ما وراء أفق الأرض حيث تحول هؤلاء الرجال البسطاء إلى دعاة إسلاميين عندما مستهم شرارة الروح التي تمتلئ خلاصتها في قيام حضارة جديدة حيث نقلت من علوم الأولين ما يخدمها وأدخلت علوماً جديدة حتي بلغت درجة قصوي من الرقي والازدهار وهي حضارات أنتجت دمشق وبغداد وقرطبة وسمرقندوبالمقابل لم يكن حظ الحضارة المسيحية في نفوس أهلها وبيئتها كحظ الحضارة الإسلامية، فقد نشأت المسيحية في وسط من الخليط بين الديانات والثقافات العبرية والرومانية واليونانية، فلم تستطع أن تدخل إلى قلوب الناس وسط الزحام الفكري والثقافي ولم يكتب لها ان تعمل عملها مثلما قامت به الحضارة الإسلامية .

¹ - نفس المصدر السابق، ص 56/48

كل هذا يعود إلى قوة الإيمان والعقيدة التي لم تزعزعها أية ديانة. فحسب "مالك بن نبي" لكي نتوصل إلى إيجاد حل للمشكلة الإسلامية وجب ان يتوفر لدينا الوازع الديني الذي يغير النفس الإسلامية لأن الدين كما يقول كسرلنج "الدين يمنح للنفس مبدأ الشعور" قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين لأنه عامل مؤثر صالح في كل زمان ومكان كما انه (الدين) الوحيد الذي يمنح للإنسان قوة بدنه وروحه والتاريخ الإسلامي يفخر بهؤلاء الرجال اللذين إمتازوا بقوة العقيدة والروح، وإلا فكيف نفسر التعذيب الشديد الذي تعرض إليه الصحابي "بلال بن رباح" وكذلك معاناة الصحابي عمار بن ياسر حيث كان يحمل حجرتين على كاهله في بناء مسجد المدينة في الوقت الذي كان ثقل الحجر الواحد يعادل مجهود شخصين، ففي هذه الحالة نستنتج أن قوة الإيمان التي إمتاز بها هؤلاء الرجال هي التي مهدت الطريق إلى حضارة¹

2-3 دور العقيدة في تكوين مجتمع موحد ومتماسك: للدين في ضوء القرآن غايتان، ففي قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)²، فهذه الآية تبين لنا أن غاية الدين هي ربط الأرض بالسماء، و هذا عن طريق وجود الشبكة الروحية التي تربط الفرد والمجتمع بالله، ففي الوقت نفسه يبني شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يؤدي مهمته في الارض والذي يكمن في العبادة، وهو بذلك يربط أهداف السماء بضرورات الأرض. ومن خلال هذه الآية أراد بن نبي ان يفتح آفاقاً أوسع للإنسان حينما ربطه بأبعاد السماء، رفع بصره إلى ما بعد حياته الدنيوية ففي نظره هناك غايتان للدين، أولاهما ربط الصلة بالله، وثانيا بناء شبكة العلاقات الاجتماعية التي تدخل المجتمع في دائرة الحضارة. باعتباره يبحث عن القوانين التي تحكم التغيير الاجتماعي، وينظر في شروط البناء الحضاري، وقد ركز "مالك بن نبي" على الوظيفة الاجتماعية للدين، معتمداً في ذلك على

¹ - مالك بن نبي : شروط النهضة: ص 66/64.

² -سورة الزيات الآية 56

الاعتبارات النفسية والاجتماعية بالإضافة إلى الاعتبارات التاريخية. فهو يختبر هذه الوظيفة من ناحيتين; من ناحية تسجيل الفكرة الدينية في النفوس، ومن ناحية تسجيل الفكرة الدينية في التاريخ، وهو ما بينه في كتابه (شروط النهضة) وهذا الاختبار لعمل الفكرة الدينية، هو الذي جعله يختار في دراسته دورتين حضاريتين مختلفتين، هما; دورة الحضارة الإسلامية، ودورة الحضارة الغربية، فمن الناحية النفسية الاجتماعية، فإنه يتبع بالتحليل والتركيب كيفية دخول الفكرة الدينية في بناء الشخصية الإنسانية¹ وهذا (برنال) في كتابه (العلم في التاريخ عندما تحدث عن حركة الإصلاح البروتستانتي حيث قال كانت الحركات التي قضت على الإقطاع والنفوذ الكنسي هي نفسها التي قضت على العبودية والأنظمة المتخلفة المتوارثة، وكما في السياسة كذلك في العلم حدثت ثورة على التقاليد، التي حررت عقل الإنسان وأخرجته من الدائرة الضيقة التي كان مسجوناً فيها وهذا هو الدور الذي كان بن نبي يقصد من وراءه بقوله إن الفكرة المسيحية شكلت أنا الأوروبي أو ذاته، كما صاغت منظر أوروبا الذي شهدته في منتصف هذا القرن .وكانت الفكرة الدينية المشكّل الأول للفردية الأوروبية، والأنا المتفوق الذي كان يشعر به الغربي في بداية حملة توسعته الاستعمارية عبر العالم، بل إن المسيحية كانت الفكرة الوحيدة، والدافع الأخلاقي الذي وظفته أوروبا لغزو العالم، ويستشهد ابن نبي بالتفسير الذي ذهب إليه (كسرلنج) الذي رأى بأن الحضارة الغربية الأوروبية باعتبارها تركيباً مكوناً من روح المسيحية وتقاليد الجرمانية. ولهذا فقد أكد ابن نبي على أن المسيحية كانت المفعّل الأول لشروط الحضارة الأولية في الغرب² وبما أن الدين سنة مرتبطة بالوجود الإنساني، فإن الفكرة الدينية تبقى تعمل، وتقوم بدورها الاجتماعي ما دامت متمسكة بقيمتها الثابتة ، وعندما تفقد هذه القيمة فإنها تترك مكانها، أو تعمل بواسطة بديلاتها اللادينية نفسها، وهذا فعلاً ما حدث في الغرب، عندما لم تعد المسيحية تملك بعداً دينياً متماسكاً، وأنتجت المادية الماركسية، وانطلاقاً مما سبق فإننا نجد المفكر

¹-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص: 71

²-مالك بن نبي -شروط النهضة ص56.

"مالك بن نبي" قد إستعمل مفهوم الدين باعتباره تلك السنة التي فطر الله عليها الإنسان، وأن الدين هو وحدهالذي يمثل المركب الحقيقي للقيم الحضارية، لأنه يعطي شرارة الانطلاق الاولى لتدخل الحضارة في التاريخ، وتتحقق في عالم الإنجاز كما وضح لنا أهمية هذه الفكرة وأبرز علاقتها بالنفس كعنصر حضاري من خلال إتخاذه لمنهج التغيير، كأساس للبناء الجديد للإنسان الذي يتماشى مع الروح والعقل والغريزة، "ف"مالك بن نبي" نظر بإمتياز لمشكلة الإنسان العالمي، وليس الإنسان العربي المسلم فقط، حيث يمكن إعتبار نظريته الفلسفية الواقعية حلا فاصلا بدلا من الفلسفات المادية والعقلانية، بل حتى الفلسفات الوجودية التي تزعمت النزعة الإنسانية، كما يمكن اعتبارها ردا بناء على أصحاب الفلسفات المعاصرة أمثال: (فرويد ، ماركس، ماركيز... وغيرهم)، والتي حاولت بناء الإنسان في جانب واحد فقط سواء أكان هذا الجانب ماديا أو عقليا أو غريزيا أو ما سواه، وحقيقة المشكلة هنا أن هؤلاء حاولوا دراسة الإنسان بمناهج لا تتماشى والطبيعة الإنسانية؛ وبالرغم من أن البداية كانت غربية في تجاوز هذا المشكل مع كل من "هوسرل وكيركيكورد هيدغر ومرلوبونتي وسارتر... الخ"، إلا أن التنظير كان بعيدا عن الرؤية الشمولية التي اتسمت بها الرؤية العميقة لـ"مالك بن نبي" ففيها الحضارتين الغربية والعربية، والمؤسس لنظريته على منهاج إسلامي أصيل أدرك من خلاله نقائص التنظير العربي والغربي في تناول أزمة الإنسان والمجتمع والأمة¹.

2-4- دور شبكة العلاقات الاجتماعية في تقوية البناء الحضاري عند "مالك بن نبي": لقد أراد "مالك بن نبي" توضيح معالم الصلة القائمة بين النشاط الاجتماعي للإنسان، ضمن عالم الأفكار والأشخاص والأشياء، وبين نشاطه فيما ما يخص استغلال مقاييس التراب والزمن في التنمية، هذه الصلة تتضح أكثر من خلال التفاعلات داخل شبكة العلاقات الاجتماعية. إستمد هذا البحث مادته من كتابات "مالك بن نبي" وتحليلاته، على إعتبار أنه

¹د- عائشة المناعي:مظاهر التجديد في فكر بن نبي،مجلة المسلم المعاصر العدد 101،سبتمبر 2001.القاهرة ص 43

أولى إهتماماً خاصاً لهذه المشكلة، وجاءت هذه التحليلات خلاصة معايشة لواقع المسلمين، امتزجت بدراسة عميقة لتاريخ الأمة عبر مختلف مراحلها، بنجاحاته وانتكاساته، إبّان ميلاد الجماعة المسلمة وإلى غاية تصدّعها، وكذا المحاولات التي كرّست من أجل لمّ شملها. وتتحدّد أهمّية موضوع شبكة العلاقات الاجتماعية من خلال مستويين .

أ. المستوى المعرفي: تكمن أهمّية الموضوع في أنّه يتطرّق إلى إشكال عالجه "مالك بن نبي" في كتاباته، ألا وهو معادلة العلاقات الاجتماعية، ومدى تأثيرها على الأداء الوظيفي لعوالم البناء الثقافي: عالم الأفكار، عالم الأشخاص وعالم الأشياء، وبالتالي تأثيرها على مسيرة الإنسان والزّمن والترّاب باتّجاه البناء والتّمية، الأمر الذي يؤهّل هذا البحث ليكون خطوة لفهم إشكالية الحضارة عند ابن نبي، خاصّة وأنّه حلّل التجربة الحضارية الإسلامية في جميع مراحلها: الولادة، النّمو، والأفول، واستفاد علمياً وعملياً من التجربة الغربية.

ب. المستوى الواقعي: يستمدّ الموضوع أهمّيته من واقع الأحداث على السّاحة العربية، بالخصوص تلك الإنقسامات الخطيرة التي إستهدفت البنية الداخليّة للمجتمع، سواء على مستوى القاعدة الشّعبية أم على مستوى السّلطة، أوحتي بين القاعدة والسّلطة. وقد تسبّبت هذه الإنقسامات في حالة من اللاتجانس الوظيفي في هذه المستويات، أثر بشكل سلبيّ وخطير على قضايانا المصيرية، التي تتراجع المواقف إزاءها نحو الهروب الى الوراء. وقد حاول "مالك بن نبي" إبراز المكانة التي تحتلّها شبكة العلاقات الاجتماعية بالنّسبة لعناصر البناء الحضاريّ (الإنسان، الزّمن والترّاب)، ومدى تأثيرها على الأداء الوظيفي لعوالم البناء الثقافيّ (عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء)، وذلك من خلال رصد مجموعة من المظاهر، عبّرت في جوهرها عن حالة نموّ في كيان الحضارة على المستوى الماديّ وعلى المستوى الاجتماعيّ، أو عبّرت عن حالة تراجع نحو اللّاحضارة على ذات المستويين، كما يهدف إلى تهيئة أرضية صلبة لحوار الحضارات والأديان من الجانب الإسلامي وذلك لأن المنطلق الاساسي في هذا الحوار يكون بالتأسيس لحوار داخليّ،

ومن ثمة التوجّه نحو الآخر بشبكة متينة تعكس تناغما بين الفكرة والكلمة، خاصّة في ظلّ تصاعد المدّ العدائيّ للإسلام. لانّ الدّعوة التي تحمل شعار "حوار الأديان والحضارات" تصير خاوية المحتوى إذا غصّ الطرف عن حوار الأنا أو الحوار الداخليّ، الذي يتمّ حالياً بلغة القتل والسّلاح و يهدف "مالك بن نبي" من خلال إستعراضه لأهمية الشبكة الإجتماعية إلى التّحسيس بواقع علاقاتنا التي تتّجه أساساً نحو التّمزق، الذي ينتج عنه تفكّك في بنائنا الاجتماعيّ، ممّا يعني التّراجع أو النّهاية بالنّسبة لمحاولاتنا التّتمويّة، لأنّ العلاقات الاجتماعيّة صارت رهينة حساباتٍ فريديّة ضيّقة، بسبب إنهيار القيم الانسانية وانتشار الأنانية والمصلحة بين الأفراد والمجتمع الذي يصل إلى هذه الدّرجة ينهار داخليّاً، ثمّلا يلبث أن ينهار خارجيّاً. لذلك فإنّ هذا العمل جاء ليلخّ على خطورة القضية بالنّسبة لحاضر علاقاتنا ومستقبلها، ومصير امتنا، فإذا كان الإحساس بالمشكلة أولمرحلة في البحث عن الحلّ، فإنّ التّحسيس بالمشكلة هو أول مراحل تطبيقه، خاصّة إذا استندت العملية التّحسيسية للواقع الذي يعتبر منبع المشكلات، وموطن الحلول في آن واحد¹ ولقد اعتبر "مالك بن نبي" شبكة العلاقات الاجتماعيّة روح المجتمع التي توجّد عناصره ؛ فهي المركّب الذي يُحدث الانسجام الداخليّ بين عناصر البناء الثقافيّ (عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء)، ويخلق الصّلات الضّروريّة بينها، بما يضمن وحدة الهدف، وتوافق السّير، واشتراك الجهود. فوجود شبكة قويّة من العلاقات في عالم الأشخاص، يمنح فاعليّة أكبر لنشاط عالم الأفكار من أجل استغلال أحسن لعالم الأشياء. وهنا يكمن لبّ العلاقة بين البناء الحضاريّ، وشبكة العلاقات الاجتماعيّة. ويرتكز البناء الحضاريّ على شبكة قويّة من العلاقات حيث ينظم وفقها نشاط عالم الأشخاص؛ ذلك أنّه إذا كان يعتمد في ناحية على قوّة عمل الأشخاص، والأفكار في استغلال مقاييس التّراب والزّمن، فإنّ قوّته تعتمد من ناحية أخرى على حجم العلاقات الداخليّة في المجتمع ومتانتها، وإذا كانت ثروة أمّة ما تقاس بغنى

¹-مالك بن نبي :ميلاد مجتمع، (شبكة العلاقات الاجتماعيّة) ص136

مواردها البشريّة والماديّة، فإنّ فعالية هذه الموارد مرتبطةً بنوعية شبكة العلاقات الاجتماعيّة ووضعيّتها. وقد تمارس شبكة العلاقات الاجتماعيّة دوراً هاماً في حماية النسيج الفكري والاقتصادي والحضاريّ ككلّ، وذلك من خلال خاصيّة توحيد الأنشطة وتوجيهها لخدمة غاية مشتركة في عالم الأشخاص. فهي بذلك تمارس دور التنظيم والتّوجيه والحماية على مستوى الإرادة الحضاريّة والإمكان الحضاريّ معاً.

كما أن إرتباط شبكة العلاقات الاجتماعيّة بعوالم البناء الثقافيّ، لا تحكّمه علاقة من طرف واحد، بمعنى أنّ هذا التأثير لا يكون من جانب واحد فقط، بل تحكّمه علاقة تأثير وتأثر متبادلة. وإنّنا وفي مثل الظروف التي تمرّ بها، فنحن بأمرّ الحاجة إلى تبنيّ هذا المنهج، خصوصاً إذا تعلق الأمر بقضايانا الاجتماعيّة، والتربويّة والتّمويّة على العموم. وأنّ التخلي عن هذا المنهج يؤدّي إلى تبنيّ حلول عرجاء، تتّجّع عنها نتائج عوْجاء، تؤثر على سلامة النّظام الاجتماعيّ، والتربويّ، والتّمويّ ككلّ، ليدفع ضريبة هذه الحلول التّريعيّة المواطن البسيط¹ وعن أهمية شبكة العلاقات الاجتماعيّة على المستوى الواقعيّ فقد إقترنها "مالك بن نبي" بالاحداث التي شهدتها الواقع العربيّ والإسلاميّ، في ظلّ التّراجع الخطير لعلاقتنا الدبلوماسية مع الغرب، فإنّه من الواجب أن نعيد ترميم هذه العلاقات، قبل الخوض في أيّ مشروع تنمويّ؛ فالإصلاح الاقتصاديّ لن يجدي نفعاً، إذا لم يسبقه الإعداد لأرضيّة اجتماعية صلبة، تحوي هذا الإصلاح، وتهيئ له المناخ الصّحيّ لإقلاعه. وإنّ إغفال هذه المرحلة أو التّغاضي عنها يقود إلى استنزاف الإمكانيات الاقتصاديّة، والاجتماعيّة لدولنا، بسبب تضارب المصالح وتباين الأهداف، الأمر الذي يؤدّي في الأخير إلى تشتت الجهود، وبالتالي ضياعها. هذا إن لم تكن هذه الإمكانيات مستغلّة لصالح أطراف، يناسبها أن تبقى الأوضاع على ما هي عليه، ولنا في التّاريخ والواقع أعظم الدلائل. فصدقت يا أيها المفكر

¹ -موسي لحرش:مالك بن نبي:حياته ونتاجه الفكري (مجلة مالك بن نبي)جامعة الامير عبد القادر ،قسنطينة،الجزائر
جويلية 2006. ص 20.

العظيم حينما قلت لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء، بل بمقدار ما فيه من أفكار فالعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعباً أو مستحيلاً، إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات، بل للعثور على أدلة وبراهين¹.

3- عناصر البناء الحضاري عند "مالك بن نبي":

اتجه "مالك بن نبي" نحو تحليل الأحداث التي كانت تحيط به وهذا بفضل سعة ثقافته التي ساعدته على إبراز مشكلة العالم النامي باعتبارها قضية حضارة أولاً وقبل كل شيء، حيث نجده يقول (إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته ما لم يرتفع بفكره إلى مستوى الأحداث الإنسانية وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها)² لأن بناء الحضارة لا يتم عن طريق الصدفة، بل يتطلب نظرة منهجية تعتمد على التحليل ومعرفة عوامل البناء. حيث أن مسألة الحضارة عنده لا تعني محاولة لاكتشاف حقائق جديدة تتعلق بعلم الإنسان، ولكنها تعني لديه تحديد الطرق المؤدية إلى الهدف المنشود وهو تحريك العالم الإسلامي المعاصر، حتى يتخلص من رواسبه ومعوقاته وينطلق بإرادة وفاعلية نحو إستعادة مكانته في التاريخ والحياة وفق شروط معينة. لأن المشكلات التي تواجه العالم الإسلامي متعددة، ولذلك يتطلب منا أن نقوم بترتيبها منطقياً، حتى نعطي لكل نوع قيمته الحقيقية، دون أن نقع في شرك الشيء السهل أو شرك الشيء المستحيل مدركين بأن للحضارة قانونها الذي لا يجامل أحداً، وبذلك يستطيع العالم الإسلامي أن يشق طريقه نحو دورة حضارية جديدة. ولقد استطاع "مالك بن نبي" أن يحدد المشكلات الأساسية التي تواجه العالم الإسلامي في الآتي مشكلة الإنسان - مشكلة التراب - مشكلة الوقت (الزمن) أن مشكلات الإنسان والتراب والوقت هي المشكلات

¹-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 139/140/144

²-مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 48

الأساسية التي تواجه كل مجتمع متخلف، فإذا أراد أن يبني نفسه ويخرج من دائرة التخلف فعليه أن يُولي اهتمامه لهذه المشكلات وأن لا يضع جهوده بالاهتمام بالمشكلات الجزئية. ولاريب في أن مشكلة الإنسان تأتي في المقام الأول، إذ أنه هو الذي يوجّه الأشياء ويبني الحضارة، وهو الذي يمثل محور العملية الروحية ثم التراب الذي يمثل أحد المعطيات المادية التي يجب أن تستغل جيداً لصالح المجتمع، أما الوقت فهو الزمن الذي يتم تكييفه بحيث يصبح زمناً إجتماعياً. فأول عمل يجب القيام به في بناء الحضارة (في نظره) هو أن نفكر في عناصر بناء الحضارة وأن ندرسها وأن نحللها، وقد دعم "مالك بن نبي" نظره من خلال مثال بسيط تضمن رغبة الإنسان في معرفة عناصر تركيب الماء حيث قام أولاً بتحليل الماء تحليلاً علمياً ووجد أنه يتكوّن من عنصرين هامين عنصر الهيدروجين وعنصر الأكسجين ثم إنه بعد ذلك درس القانون الذي يتركّب منه هذان العنصران ليعطينا الماء، وهذا بناء وليس تكديساً، ذلك لأنه لو كدّس ملايين من الأطنان من الهيدروجين والأكسجين ثم بقي ينتظر أن يتكوّن الماء فإنه لا يتكوّن وحده إلاّ بعد أن يبعث الله إليه شرارة من عنده.

أ- الإنسان: كيف يمكن إعادة بناء وصناعة الانسان من اجل حل المشكلة الحضارية ؟

تحليل الإنسان يرى "مالك بن نبي" أنّ أزمة العالم الاسلامي هي أزمة إنسان، الذي توقف عن الحركة وقعد عن السير في ركب التاريخ واصبح في حالة خمول تام، في الوقت الذي خطت فيه الحضارة خطوات العماليق¹ وعليه إن أردنا مواكبة العصر والدخول في دائرة التحضر واللاحق بمصف الدول المتقدمة علينا أن نضع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى وقد صنّف بن نبي الانسان الى صنفين من الناس، فالصنف الاول هو الذي يسكن المدينة فنجدّه إما عاطلا لا يعمل شيئاً وإما نجدّه يبيع بعض العقاقير والحاجيات. أما الصنف الثاني: هو الذي يسكن البادية يقضي معظم أوقاته في المحراث وخدمة الأرض، والفرق بين هذين الصنفين من الناس هو أن ساكن

¹-مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ص 71

الحضر رجل قليل (تمثل فيه القلة في كل شيء) والثاني فهو ذلك الرجل الذي يرضى من الأشياء بالعدم، إن رجل المدينة الذي يرضى بالقليل من الأشياء قد تغلغت في نفسه دواعي الانحطاط فهو يحمل روح الهزيمة بين جوارحه. إذ يقف دائما في منتصف طريق وفي منتصف فكرة وفي منتصف تطور لا يعرف كيف يصل إلى هدفه، إذ هو ليس (نقطة الإنطلاق) في التاريخ كرجل الفطرة ولا (نقطة الإنتهاء) كرجل الحضارة، بل هو في نقطة التعليق في التطور وفي التاريخ وفي الحضارة، فرجل المدينة هو رجل القلة ورجل النصف¹ او رجل العالم الثالث الذي يختلف في متطلبات حياته وفي حوافز نشاطه عن الانسان المتحضر الذي بلغ بمجتمعه قمة الحضارة وبلغ به مجتمعه شموخ التحضر في حين نجد ان إنسان التنمية يعاني من قصور ملموس في الخدمات الاساسية ومتطلبات الحياة الكريمة في الوقت الذي يجد نفسه مطالبا بان يعمل بجد وجهد لتحقيق خطط التنمية² فالانسان عند "مالك بن نبي" هو بمثابة الخلية الحضارية الاولى التي يجب تكوينها وبنائها عن طريق حشد الفعالية الروحية وتحريك الدوافع والبواعث الكامنة فيه لاننا اذا اهتمنا بهذا الانسان ونمينا قدراته وصقلنا مواهبه ونفضنا عن عزمته غبار التخلف وفجرنا طاقاته، إستيقضت روح العمل فيه واصبح بإمكاناته الروحية والمادية مستعدا للتلقي والابداع وملاحقة العصر ومواكبة حضارته بنظرة ثاقبة وعزيمة قوية تتجاوز كل مظاهر الخمول والكسل والتفوق، لان الروح الخاملة لا مكان لها اليوم في دنيا الناس ولا قيمة لها ابد في افاق الحضارة. ولعل هذا يحدث عندما يتوصل الفرد إلى تغيير ما بنفسه وهذا يتم طبقا لمجموعة من الشروط، ولهذا نطرح السؤال التالي ما هي شروط التغيير النفسي عند "مالك بن نبي" ؟ :

إن انطلاق "مالك بن نبي" من مرجعيات الفكر الإصلاحية يجعلنا لا نستغرب إهتمامه وتركيزه على فكرة التغيير النفسي والاجتماعي التي جعلتها بعض الحركات

¹-مالك بن نبي: شروط النهضة ص 82/83

²-د/ محمود محمد سفر: دراسة في البناء الحضاري (محنة المسلم مع حضارة عصره) الطبعة الاولى رجب 1409 هجري.

الإصلاحية شعاراً ومنهاجاً لها . وهذا يعني لنا باختصار أن سنة التغيير هاته تربط تغيير الأوضاع الاجتماعية بتغيير الأحوال النفسية لأن ترقية النفوس لما هو أفضل يستلزم ترقية في المجتمع أولاً وتطويره سواء تعلق الأمر بالجانب المعنوي أو المادي وقد تتضمن شروط التغيير النفسي والبعث الحضاري عند "مالك بن نبي" تطهير القلوب وتطهير النفوس الذين أصبحوا مطالبين في صناعة إنسان اليوم واستخلافه على الأرض لأنها أساس التغيير نحو الأفضل والعودة من سيطرة الغرائز والعقل إلى سيطرة الروح المملوء بالإيمان وحب الخير كما جاء في قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)¹ حيث يستقيم الإنسان مع نفسه مما يجعله لا يقبل إلا سلطة حاكم مستقيم مع دينه، وهو ماجسده في مقولته المشهورة (غيرنفسك يتغير التاريخ). ولتوضيح مسألة التغيير النفسي علينا بالرجوع إلى مصطلح "مالك بن نبي" في "قابلية الاستعمار" وفي علاقتها بتواجد الاستعمار في البلدان الإسلامية والذي يعتبر حتمية نفسية مرضية ، لذا أوصى "مالك بن نبي" بإنشاء "علم الاجتماع المرضي" في البلاد الإسلامية لتشخيص جميع الآفات الاجتماعية وإيجاد حلول لها إذ أن المسألة الجوهرية في التغيير الحضاري تربطها بالإنسان² وهذا ما قال عنه المولى عز وجل: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)³ فإذا عوض الإنسان بالنفس في المعادلة الحضارية عند "مالك بن نبي" والمتكونة من جانبين هما الفجور والتقوى فيكون مايلي: نفس = فجور + تقوى بالحضارة = (فجور + تقوى) + التراب + الوقت وتبدأ عملية التغيير الفعلية بتخليص الإنسان من عقدة النقص أو الانبهار بمظاهر الغربيين، كذلك بتخليصه من بقايا التوكل والخرافة، وبإعادة الثقة بينه وبين وعقيدته وسلوكه وعمله. فليس

¹ -سورة النور الاية 55

² - أحمد سعيد مولاي ، إشكالية الحضارة عند مالك بن نبي، مجلة الموافقات، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، العدد

الثالث، جوان 19، ص 308

³ -سورة:الشمس: الايات 10/9/8/7

المهم في بناء الإنسان الجديد أن يبدل نمط أو زي لباسه ونوعية أثاث منزله ومكتبه... ولكن المهم أن يتحدد له إطاره الحضاري في مجال الثقافة، والأخلاق، والاقتصاد؛ وكافة المجالات وبكلمة واحدة أن نقتلع ونصفي "القابلية للاستعمار" من عالمه الداخلي حتى تتطلق طاقته لتصفيته من عالمه الخارجي، فالتغيير الحقيقي إذن يبدأ من النفس، وبها تتعدل شخصيته ويتم توازنها لمحاولة الدخول في مرحلة الإقلاع الحضاري القائمة على الأصالة والمعاصرة من خلال منهجها المنشود على التواصل والتفاعل فسخ المجال أمام الفاعلية الإيجابية للتأثير والتفاعل مع وقائعه الساعية إلى تحقيق أهداف مستقبلية لتتجاوز التمزق والتخلف والاستبداد؛ لأن مشكلة الإنسان الكبرى هي الحضارة من حيث عناصرها وشروط بنائها وأسباب هدمها، وأن هذه القضايا تطرح تساؤلات ترتبط بالإنسان والتراب والوقت من جهة وبالمحيط الذي يعيش فيه من جهة أخرى، وهو يختلف من مكان إلى آخر ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى، وبالتالي توجد ثلاث مشكلات فرعية تنحل بفضلها مشكلة الحضارة وهي مشكلة الإنسان ومشكلة التراب ومشكلة الوقت¹ ولهذا فمشكلة الإنسان تعالج إيجاد سبل وطرق في تكوين إنسانا قادرا على بناء حضارة والمحافظة عليها حيث أكد "مالك بن نبي" على هذه القضية من خلال فكرة تُعتبر إجابة على سؤال: هل نحن في حاجة إلى مؤسسات أم إلى رجال ؟ ويجيب "مالك بن نبي" بأنه يجب أولا أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافه الكبرى " ولبلوغ هذا المبلغ يجب الإمام بالمشكلة برمتها².

ولتركيز على عناصرها الأساسية كما ينبغي فهم كيفية تأثير هذا الإنسان في تركيب الحضارة، حيث أن الفرد يؤثر في مجتمعه "بثلاثة مؤثرات: أولا: بفكره، ثانيا: بعمله، وثالثا: بماله"، وبالتالي ينبغي توجيهه في الجوانب الثلاثة، توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه المال

¹- مالك بن نبي: وجهة العالم الاسلامي ص 163

²- محمد سعيد مولاي : إشكالية الحضارة عند مالك بن نبي، ص 307

أو رأس المال قد رأى "مالك بن نبي" ان العامل الاساسي الذي يجب ان يتوفر لدى الإنسان من أجل مواكبة التحضر هو فكرة التوجيه الذي تحركه حركة دينية، وقد اعتبر التوجيه انه قوة في الاساس وتوافق في السير ووحدة في الهدف لانه كم من طاقات وقوي ضاعت ولم تحقق هدفها ، فالتوجيه اذن هو تجنب هذا الإسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية¹ بحيث ينبغي أن نركز في عملية التوجيه على الجانب الثقافي لان الثقافة عنده ليست مجرد علم يتعلمه الإنسان في المدارس أو من الكتب بل هي جوّ من العادات والأذواق والقيم التي تؤثر في تكوين الشخصية وتحدّد دوافع الفرد وانفعالاته وصلاته بالناس والأشياء، وبناء على هذا فقد نجده يقدم تعريفا جامعا وشاملا لمعني الثقافة حيث يقول "بأنها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته " والثقافة على هذا المنوال تمثل المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر، ولكي يتحقق كل هذا لا بد أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي ويجب ان نحددها كعامل تاريخي لكي نفهمها ثم كنظام تربوي تطبيقي حتى ننشرها بين طبقات المجتمع²

ب- دورالثقافة في تغيير الانسان واعادة بنائه:

إذا كانت الثقافة - كما ذكرنا سلفا- تمثل الوسط الذي تتكون فيه خصائص المجتمع المتحضّر وتتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه بما في ذلك الفنان والراعي والإمام وعلى هذا الاساس يتركب التاريخ، فالثقافة هي تلك الكتلة نفسها بما تضمنته من عادات متجانسة وعبقريات متقاربة وتقاليد متكاملة

¹-- مالك بن نبي : شروط نهضة ص 48

²--مالك بن نبي : شروط نهضة، ص 91

وهي بعبارة جامعة: كل ما يعطي للحضارة سميتها الخاصة ويحدد قطبيها :من عقلية ابن خلدون وروحانية الغزالي أو عقلية ديكرت وروحانية جان دارك¹. Jeanne d'Arc . هذا هو معنى الثقافة في التاريخ وإذا حاولنا أن نحدد الثقافة معنى في الحقل التربوي ، فإن الثقافة ليست علما خاصا بطبقة معينة من الشعب دون أخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة أو بعبارة أوضح إذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع للوصول إلى الرقي والتمدن، فإنها أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعض افراده من السقوط من فوق هذا الجسر إلى الهاوية . وعلى خطى هذه القاعدة تشتمل الثقافة في معناها العام على حياة واحدة تجمع بين جميع طبقات المجتمع وهي (الثقافة) تتدخل في شؤون الفرد وفي بناء المجتمع ومعالجة مشاكلهم، وإذا أردنا توضيح الفكرة أكثر لوظيفة الثقافة فلنمثل لها بوظيفة الدم، الذي يدخل في تركيبه الكريات الحمراء والبيضاء، وكلاهما يسبح في سائل واحد من البلازما ليغذي الجسم، فالثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع ، يغذي حضارته يحمل أفكار النخبة كما يحمل كذلك أفكار العامة، وكل هذه الأفكار منسجمة في سائل واحد من الإستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأذواق المتناسبة. وفي هذا المركب الاجتماعي للثقافة ينحصر برامجها التربوي، ويرى "مالك بن نبي" أن الثقافة كنظرية للتغيير وإعادة البناء لا بد وأن تُصاغ صياغة تربوية تعتمد على العناصر الأربعة والتي يتخذ منها الشعب دستورا لحياته المثقفة: ²

¹ --جان دارك: (1412-1431) Jeanne d'Arc)تعتبر دارك من ابرز وجوه مقاومة الإحتلال الأنجليزي ،وترجع شهرتها الى نجاحها في رفع حصار قوات الاحتلال الانجليزي،غير أنه في 1431 /05/30 وقعت أسيرة بين القوات المستعمرة وتمت محاكمتها إتهامها بالسحر وكونهت مرتدة مما أستدعي حرقها حية لو درسنا تاريخها ورجعنا إلى أصول فكرتها الأولى لوجدناها ذات أصول دينية فهي تدين بالفضل إلى القديس فانسان دي بول Vincent de Paul 1 الذي أنشأ مشروع الأطفال المشردين خلال النصف الأول من القرن السابع عشر .

² -- مالك بن نبي :شروط النهضة ص 93/92

أولاً: التوجيه الأخلاقي:

يرى أن فعالية المجتمعات تزيد أو تنقص بمقدار ما يزيد فيها من تأثير الأخلاق أو نقصانها وما يعنيه هذا من التأكيد على مفاهيم الإخاء والتعاون ومبدأ الجميع للفرد والفرد للجميع وربط العلم بالأخلاق حيث يهتم بالأخلاق من الناحية الاجتماعية. إن هذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض، تأتي مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد ببعضهم البعض، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى :
 وَاللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۗ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ ۗ
 إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ¹ فقهوة التماسك التي امتاز بها المجتمع الاسلامي هي التي جعلته يجمع بين عناصر متفرقة كالانصار والمهاجرين وهو ماسمح بظهور أول مجتمع اسلامي .فحتي أصل المجتمعات الغربية مبني على أساس روحي أخلاقي فنجد مثلا مؤسسات الدولة كجمعية حضارة الأطفال في فرنسا ولهذا فقد رأى "مالك بن نبي" أن أكبر مصادر خطئنا هو حينما ننظر إلى منتجات الحضارة الغربية، وكأنها نتيجة علوم وفنون وصناعات، في حين أننا ننسى أن هذه العلوم ما كان لها أن توجد لولا صلات إجتماعية فهي الاساس الخلقي الذي قام عليه صرح المدنية الغربية في علومه وفنونه بحيث لو أغينا ذلك الأساس لسرى الإلغاء على جميع ما نشاهده اليوم من علوم وفنونوهكذا نستنتج أن المبادئ الاخلاقية الاولى هي التي بعثت الحضارة وهذه حقيقة كل عصر وكل حضارة².

ثانيا المنطق العلمي:

لا نقصد في دراستنا هذه المنطق الذي وضعه أرسطو وإنما نقصد به العقل التطبيقي الذي يجسد الفعالية في النشاط سواء على صعيد الفكر أو العمل، فالذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة بل منطق العمل والحركة والفكرة ،لأن العقل المجرد متوفر لدينا غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون من الإرادة والإهتمام فهو أمر يكاد يكون منعدما لأن

¹ -سورة الانفال الاية 63.² -نفس المصدر ص 96/95

المسلم اليوم ينفق معظم أوقاته في العبت والكسل والترثرة وهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا بل وأكثر من ذلك فهو يبغض أولئك الذين يفكرون ويقولون كلاما منطويا من شأنه أن يتحول إلى عمل ونشاط، بل أكثر من ذلك هناك حالات من البغض والكرهية التي أوصلت أصحابها إلى درجة التصفية الجسدية، وإذا ما أردنا حصرنا لهذه القضية فإننا نرى أن السبب الرئيسي لجهلنا يكمن في إفتقادنا للمنطق المحكم الذي يربط بين العمل وهدفه، بين السياسة ووسائلها، بين الفكرة وتحقيقها. فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا . فنحن إذن نعاني من العقم الاجتماعي الناتج من نقص المنطق العملي الذي يتجلى حتى في المعاملات فلننظر إلى الطريقة التي تربي بها الأم أولادها في المجتمعات المتخلفة، فهي إما أن تعامله بقساوة ووحشية ويصاب الولد بحالة الهستيريا كلما يرى أمه، وإما أن تطلق له العنان إلى درجة أين تتحول أوامر الأم وقراراتها إلى مجرد تفاهاات وكلام عديم الفائدة ، ولعل الشيء المؤسف في كل هذا هو الدين الإسلامي حذرنا من مثل هذه التصرفات ألم يقل الله سبحانه وتعالى "وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ " ¹ وفي قوله "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَنْ تَحْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا " ² وبكل أسف نقولها هذا هو حالنا اليوم إذ أن الوهن واللامبالاة يطبعان منطق أقوالنا تصرفاتنا وأعمالنا ³.

ثالثا :التوجيه الصناعي:

تشمل الصناعة في نظر "مالك بن نبي" كل الفنون والمهن والقدرات ذات القيمة الاجتماعية التي تعود بالنفع على الفرد وعلى المجتمع. حيث تعتبر الصناعة بالنسبة للفرد

¹ -سورة لقمان الاية 19

² -سورة الاسراء الاية 37

³ مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 100

وسيلة لكسب عيشه أو لبناء مجده،¹ وحتى تحقق الصناعة أهدافها فهي بحاجة إلى العلم والممارسة اليدوية حتى تصبح راسخة مع مرور الزمن، والدليل على ذلك أن هذه الصناعة لا تكون إلا في مجتمع متحضر فوجود الصناعة يدل على درجة التحضر والعلم ولهذا فقد دعا العلامة "عبد الرحمن ابن خلدون" المسلمين إلى ضرورة إتقان الصنائع والإبداع فيها مما يتناسب مع الإسلام والحضارة الإسلامية وقد قسم ابن خلدون الصنائع إلى قسمين: منها البسيطة ومنها المركبة فالبسيطة منها تختص بالضروريات، والمركبة هي التي تكون الكماليات، كما قسم الصنائع كذلك إلى ما يختص بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير ضروري كالجزارة والنجارة والحدادة، وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم، والصنائع والسياسة، كما أن الصنائع تكتمل بكمال العمران الحضري وكثرته، فعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصانع فيها، حيث تتوفر دواعي الترف والثروة، وفي هذا السياق يقول العلامة ابن خلدون "وإذا زخر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملتها التائق في الصنائع واستجاداتها فكلت بجميع متماماتها وتزايدت صنائع أخرى معها. كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الأثقال وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب، لأننا لم نبلغ عمران مصر والقاهرة" أما العمران البدوي أو القليل فهو الذي لا يحتاج من الصنائع إلا البسيط منها كالنجارة أو الحدادة أو الخياطة أو الحياكة وبذلك فإن رسوخ الصنائع فيه يتم برسوخ الحضارة وهذا كحال الأندلس قديماً حيث كانت تزخر بالصنائع والرسوم وأحوالها مستحكمة راسخة سواء في المباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأتار والرقص وإقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر كما إستحكمت فيها الصنائع وكتملت فيها جميع اصنافها من جودة وتنميق وبقية صبغتها ثابتة في ذلك العمران غير انه سرعان ما إنهار

¹ -مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 104

عمرانها وصنائعها بسبب ما عانتها من رسوخ الحضارة فيها برسوخ الدولة الاموية وما بعدها من دولة الطوائف¹ فالصنائع تتطور على حساب حاجات الانسان فان كانت الصناعة مطلوبة فان الناس تجتهد في تعلمها، واذ لم يوجد قصد من تعلمها فان تلك الصناعة تكون عرضة للاهمال والترك لأن صاحبها فر إلى غيرها او مات ولا يترك خلفا له فيذهب رسم تلك الصنائع، كما يذهب الكتاب والنساخ وأمثالهم من الصناع لحاجات الترف. ويبقى العرب أبعد الناس عن الصنائع والسبب في ذلك أنهم أبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها فحتى الإبل التي أعانت العرب في التغلب على الفقر فقد أصبحت مفقودة لديهم بالجملة، ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الاسلام قليل الصنائع بالجملة، فالصنائع بالمغرب مثلا قليلة وغير مستحكمة إلا ما كان من صناعة الصوف في نسجه والجلد في خزره.

أما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه حضارة الفرس واليونان والروم أحقابا متطاولة فرسخت فيهم أحوال الحضارة وأستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت فبقيت مستجدة حتي الانوقد بين لنا العلامة ابن خلدون في رائعة كتابه المقدمة بالشرح والتفصيل إلى أمهات الصنائع كالفلاحة والبناء والخياطة حيث نجده يقول "وأما الشريفة بالموضوع كالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب، فإنها ضرورية في العمران إذ بها تحصل حياة المولود، فأما الطب فهو حفظ الصحة للإنسان ودفع المرض عنه ويتفرع عن علم الطبيعة وموضوعه مع ذلك بدن الانسان² فبهذه العناصر الأربعة تستكمل الثقافة بناءها في المجتمع وترتقي حينئذ إلى مستوى الحضارة. ويرى "مالك بن نبي" أنه (ليس بنافع لنا أن نفكر في الأسباب التي تدخلنا

¹ عبد الرحمان ابن خلدون :مقدمة ابن خلدون،تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية صيدا بيروت ،الطبعة الاولى 1995، ص. 370/372 / (الفصل الثامن عشر)

² --نفس المصدر السابق:ص 374 (الفصل العشرون) و(الفصل الحادي والعشرون و الثالث والعشرون)ص 374-375

إلى باب الحضارة من غير أن نواجه أولاً وقبل كل شيء الوسائل التي تجعلنا نخرج من باب التخلف¹.

5- المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي في بناء الحضارة:

إن المجتمع حسب "مالك بن نبي" هو الذي ينتج بذورا أخلاقية وجمالية والتي نجدها في عاداته وتقاليده، حيث ويقدر ما تكون ثقافة المجتمع متطورة فإن البذور الأخلاقية والجمالية تكون أقرب إلى الكمال لأنها تشكل قوانين يخضع لها نشاط المجتمع والدستور الذي تقوم عليه حضارته وثقافته. لأن الثقافة في صورتها الحية عبارة عن وحدة ذات أجزاء متماسكة ومترابطة فيما بينها بروابط داخلية تحددتها عبقرية الشعب التي وضعها طبقاً لأخلاقه وأذواقه، لأن هناك علاقة عضوية تجمع بين المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال، وما يدل على هذه العلاقة العضوية بين الجانبين هو أنّ الحياة في مجتمع ما، قبل أن تتأثر بالجانب المادي والإقتصادي من الحضارة فإنها تتخذ أولاً إتجاهاً عاماً ولونا شاملاً يجعلان جميع تفاصيلها مرتبطة بالمبدأ الأخلاقي ويمكن أن نصوغ هذه العلاقة على الشكل التالي :

مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = إتجاه حضارة:

تعد إذن هذه المعادلة مقياساً عاماً يدل على إتجاه الحضارة. لأن الحضارة تتغير ميزاتاً وتتجه بوجه خاص طبقاً لعلاقة المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال في المعادلة الحضارية، وعليه يمكننا القول بأن هناك نموذجين من المجتمع، النموذج الأول: مجتمع يقوم فيه النشاط أساساً على الدوافع الجمالية أما النموذج الثاني: مجتمع يقوم فيه النشاط أساساً على الدوافع الأخلاقية . إن هذا الاختلاف في ترتيب هذه العناصر ليس مجرد اختلاف شكلي لأن المجتمعات التي تختلف في كيفية ترتيب عناصر الثقافة لا تتطور في إتجاه واحد بل في بعض الظروف تنشأ بينهما تناقضات ويتخذ كل مجتمع منهما إتجاهاً يخالف تماماً

¹ - مالك بن نبي: شروط النهضة ، ص 104

المجتمع الآخر، ولتوضيح ذلك نتخذ من الحضارتين الإسلامية والغربية نموذجا يبين التباين الموجود بينهما والذي يرجع أساسا إلى الطريق المختلف الذي سلكته كل حضارة على حدى والذي يعود إلى الأصول البعيدة فالثقافة الغربية ورثت ذوق الجمال من التراث اليوناني الروماني والتي حمل لواءها زعماء الفن من فيدياس phidaias إلى مخائيل أنجلو michel angelo اللذين مارسوا فن التصوير حيث يتم تصوير المرأة عندهم في الأماكن العمومية عارية أو شبه عارية. بينما لا نرى مثل هذه التحف في الفن الإسلامي لان الوازع الأخلاقي في المجتمع الإسلامي لا يطلق العنان للفنان أن يعبر عن الجمال بالطريقة التي عبر عنها الفنان في الغرب، فالثقافة الإسلامية ورثت الجانب الأخلاقي من عقيدة الدين الإسلامي حيث نجد الفنان في المجتمع الإسلامي يعبر عن جمال المرأة بإخفاء جمالها بواسطة (ملاية اللف)¹ فمن خلال هذا المثال نلاحظ أسبقية المبدأ الأخلاقي، عن الذوق الجمالي. ولقد كان لهذا الإختلاف في الأصول البعيدة للحضارتين أثر فيما ينتجه الفكر في كل واحدة منهما، فالعقيدة الأوروبية أنتجت مناهج أدبية كتبت على رايها خلال قرون اسماء لامعة منذ سشيلين Zschyl إلى راسين racine وبالزك balzac. وعلى العكس من ذلك فإن الادب العربي والأدب الإسلامي لم ينتجا التراجيديا ولا القصة بل لم يحاولا أن ينتجها إلا في القرن العشرين، وعليه فإن كل ثقافة تتضمن علاقة (مبدأ أخلاقي - ذوق جمالي) تكون ذات دلالة أنها نوع عبقرية مجتمع معين.

وهكذا يمكننا أن نتبع هذه الإعتبارات إلى أبعد مدى. فنرى كيف أن الثقافة التي تمنح الأولوية لذوق الجمال فإنها تغذي حضارة تنتهي إلى فضيحة يقود جنونها امرأة مثل مسالين (mesaline) ذلك لأنها تسيطر عليها دوافع الأنوثة، كما أننا نلاحظ من ناحية أخرى كيف أن الثقافة التي تمنح الأولوية للمبدأ الأخلاقي تكون حضارة مألها التحجر والجمود وتنتهي إلى فضيحة صامته تائهة يقود جنونها مشايخ الطرق كما أننا لو تتبعنا

¹ - نوع من اللباس المستور ترتديه المرأة المسلمة وكان يغطي لها كل انحاء الجسم ماعدا العينين واليدين.

مفعول علاقة (المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي) في مركب الحضارة يظهر ذلك في الجانب الأدبي حيث هناك مجتمعات تمنح الأولوية لذوق الجمال، كما تحدد من ناحية أخرى نزعة الأدب الملتزم في المجتمعات التي تقدم الجانب الأخلاقي على الجمال. وعليه فإنه حينما توضع مشكلة توجيه الثقافة يجب أن نراعي هذه الاعتبارات جميعا بحسب ضرورات الحياة علما بأن العناصر الثقافية موجودة في كل حضارة تواجه هذه الضرورات غير أن تأثيرها يختلف في الحياة والتاريخ بحسب ترتيبها في سلم القيم المتفق عليها، وبهذا فإنه يتبين لنا أن أي خلل يحدث في هذه العلاقات فإنه قد ينتهي في آخر المطاف إلى خلل في توازن الحضارة وفي مكوناتها¹.

- **توجيه العمل:** بعدما رأينا دور التوجه الثقافي في حل مشكلة الإنسان، نبدأ الآن في دراسة توجيه العمل باعتباره الجزء الثاني في حل مشكلة الإنسان، غير أن الحديث عن توجيه العمل في البلاد الإسلامية في العصر الحديث والمعاصر يكاد يكون لا وجود له لأن الجزء الأكبر من أوقانتنا نقضيه في لا قيمة له بما فيها الثروة وكثرة الكلام في الفراغ. وقد نضر "مالك بن نبي" إلى العمل نظرة قداسة وإحترام لانه يتولد من اتحاد العناصر الثلاثة من (الإنسان والتراب والوقت) وليس من الخطب السياسية أو الحملات الانتخابية. والدليل على ذلك عندما كان المسلمون يعرفون قيمة العمل ، شيدوا المساجد والمباني بأبسط الوسائل وبأقل الإمكانيات وصنعت فيها الحضارة الإسلامية أوج تطورها وقبضوا على عصا التاريخ بيد من حديد² غير أن عاصفة التقهقر التي ألمت بالامة العربية و التي ارجعتها إلي نقطة البداية جعلتها تتراجع على مستوى كل الاصعدة الثقافية السياسية التربوية وقد تغيرت نظرة المسلمين حتي إلى طبيعة العمل، فبعد أن كان في زمن الرسول ص واجب وشرف على كل مسلم قادر أصبح العمل اليوم ينظر اليه نظرة نبوذ واحتقار. وحلت محله روح الاتكال والكسل

¹-مالك بن نبي : شروط النهضة ص 100

²-نفس المصدر السابق ص 115-118

بين الافراد ،ولهذا فإن الرحلة الشاقة التي يجب أن تبدأها الأمة الإسلامية من أجل إعادة النظر في قيمة العمل وتوجيهه تبدأ أولاً من تغيير نظرة المجتمع إلى العمل لأن مجتمعاتنا ما زالت تنظر الى العمل اليدوي المرتبط بالجهد العضلي نظرة احتقار مما دفع بجزء كبير من الطلاب الى الإتجاه نحو التعليم النظري دون فعالية تذكر أو جهد ملموس يبذل. وإلا لماذا نجد رئيس الجامعة في أمريكا يقوم بإصلاح سيارته في ورشته، في حين ينفر موظف في المجتمع العربي من القيام بأبسط من ذلك والسبب دون شك يعود إلى الفروق والفجوات الحضارية بين المجتمع الأمريكي والمجتمع العربي، فيجب على العالم العربي أن يغير من نظرتة السلبية الى الحرف والمهن حتي يتيح له إعادة هيكلة القوي العاملة من أبناء الامة¹ الذي يتم على أساس توجيه العمل الذي تتحد فيه كل الجهود البشرية من اجل تغيير وضع الإنسان وخلق بيئة جديدة ومن هذه البيئة يشتق العمل معناه الاخر وهو عبارة عن مجهود فكري أو عضلي يبذله الانسان وينصب على الطبيعة حيث يحولها من حالتها الخامة الى حالتها النافعة أو هو حسب تعريف "أوغست كونت" فإن العمل هو التغيير النافع للمحيط من طرف الإنسان، وقد راي "مالك بن نبي" أن العمل هو النشاط الذي يقوم به الإنسان المسلم. ومن ثمة يمكن تصنيف ذلك كما يلي: توفير شروط التحول من "العطالة" أو البطالة إلى " حالة العمل الموجه"، حيث أن الجهود الاجتماعية تصبح تسير في اتجاه واحد: وهو مايسميه بتوجيه العمل يؤكد "مالك بن نبي" على أن المجتمع الناشئ لا بد أن يركز على الناحية التربوية في العمل ، ولا يركّز على الناحية الكسبيّة، لأن الخلط بينهما في هذه المرحلة يشكّل خللاً في المجتمع ، إذ يحمّل نفسه فوق ما يطيق، ذلك أنّ المجتمع الذي يريد بناء حضارة انطلاقاً من العدة الدائمة، عليه أن يلتحم شعور الأفراد فيه ويتقاسموا بؤسه ونعمته ويعملوا متكاتفين متعاونين، لا أن يكون سعيهم على المصلحة الفردية التي شعارها (كل جهد يستحق اجرا) وهو شعار مرحلة متطورة من مسيرة حضارة المجتمع.

¹ نفس المصدر السابق ص 118

فتوجيه العمل إذن في مرحلة التكوين الإجتماعي الذي يعني سير الجهود الإجتماعية في اتجاه واحد بما في ذلك الراعي، صاحب الحرفة ،التاجر ،الطالب، العالم، المثقف، الفلاح، المرأة، لكي يصنع كل واحد منهم وفي يوم واحد لبنة جديدة في البناء والتنمية. فإزالة الاذي عن الطريق يعتبر عمل غرس الشجرة عمل، واستغلال اوقات فراغنا في مساعدة الآخرين عمل، والواقع أنه يجب ان يكون .التّوجيه المنهجي للعمل شرطا عاما أولاً ثم وسيلة خاصة لكسب العيش لأن هذا التوجيه حين يتحد مع توجيه الثقافة وتوجيه رأس المال فإنه يفتح مجالات جديدة للعمل حيث أن توجيه العمل في المجتمع الناشئ يعني تأليف الجهود لتغيير وضع الإنسان وخلق بيئته الجديدة، التي يصبح شعارها (كسب العيش لكل فرد) ، وعلى قدر تكاثر الحرف، تتحسن أحوال الفرد، ، وكلما تقدم التوجيه الثلاثي (توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال) تغيّر وجه الحياة. ويحتل مستوي ارفع وارقي لان كل عمل يصدر عن يد الانسان يعتبر بمثابة الطريق الذي يشقه لفكره في عالم الاشياء التي صنعتها، فلنكرم إذن اليد التي مسكت الفأس والقلم فمنها ستنبثق المعجزات التي ننتظرها يوماً¹.

ب- التراب:

إعتبر "مالك بن نبي" أن عامل التراب يمثل أحد شروط النهضة وعنصرها هاما أيضا في مشروع حل مشكلات الأمة الإسلامية؛ من عدة زوايا، حيث نجد علاقة المباشرة بينه وبين الإنسان وفيه يمثل التراب عاملا حيويا بالنسبة للمجتمع حيث يحقق للفرد الضمانات الاجتماعية فهو يمثل في نظر "مالك بن نبي" ذلك الكل الذي يسبح فيه الإنسان في حياته اليومية؛ سواء في المجال الصناعي أو الزراعي أو التجاري أو العلمي أو الأخلاقي أو الديني، فهو يمثل: العناصر الثلاثة التي تكون الحضارة (إذا ما توفر المركب الديني) وحينما تكلم "مالك بن نبي" عن أهمية التراب ودوره في تكوين الحضارة فإنه لم يتكلم عن التراب من حيث الخصائص أو الأنواع، ولكنّه تكلم عنه من حيث أهميته وقيمه الاجتماعية وهذه القيمة

¹-د/ محمود محمد سفر:دراسة في البناء الحضاري(محنة المسلم مع حضارة عصره) ص 69

الاجتماعية مستمدة من قيمة مالكيه، بحيث تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة ،وعندما تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدر من الانحطاط ،وبواسطة هذا المقياس نستطيع القول أن التراب في أرض الإسلام بائر منحط بسبب تخلف القوم اللذين يعيشون عليه أو بسبب الكوارث الطبيعية التي تهدده، فعلى طول الخط الذي يمتد من جنوب تونس إلى جنوب مراكش تتقدم الصحراء كل سنة والسبب بلا شك يعود إلى الإقلال من الاشجار والغابات إقلا لا بالغا وبالخصوص في السنوات الاخيرة وهي الحالة نفسها تعيشها الاراضي الزراعية الجزائرية حيث بدأ خط الصحراء يصعد من الجنوب الى الشمال بسبب زحف الرمال مما أدى الى إتلاف وهلاك الأراضي الزراعية ودفنها تحت الرمال ،وقد كان لهذا التحول في الارض من الخصبة إلى صحراء أثرا مأساويا على تكوين الحياة الإقتصادية حيث تحولت حرفة البلاد من الزراعة إلى رعي الأغنام ومن ثمة لا شئى ولقد كانت بلاد الشمال الإفريقي قبل ألف سنة تحتوي على مساحات من الأشجار تبلغ سبعة ملايين من الهكتارات، غير أننا نجدها اليوم قد نقصت إلى الثلث تقريبا،وهنا يكمن سر المأساة التي نعيشها اليوم .

ولعل ما جعل "مالك بن نبي" يركز على هذه الفكرة أكثر وإظهار مدي خطورتها هي تلك الفترة التي قضاها في أفلو حيث لفتت إنتباهه ظاهرة زحف الرمال على المنطقة ثم أدرك مدي صعوبة الوضع على الانسان و الأمن الغذائي والأمة الإسلامية، ولهذا فقد أصبحت القضية اليوم قضية خطيرة لانها تهدد كيان الفرد والامة معا،ومن المناسب ذكر بعض الأرقام التي توضح خطورة القضية:فعلى سبيل المثال إنخفض عدد السكان في تبسة من مئة وثمانين ألفا إلى أربعين ألفا تقريبا بينما الماشية التي نجدها التي كانت مورد الإقليم الوحيد نجدها اليوم على وشك الإنقراض.وبديهي انه لا حل لهذه الأزمة إلا الشجرة فلم يبق لنا إلا أن نلتفت إلى غرس الشجرة ،غير أنه لن يتحقق لنا هذا النصر على الصحراء إلا إذ إنتصرنا على أنفسنا الخاملة الكسولة لأن القضية لا تتطلب شجرة بل مئات الملايين

فالقضية لا تهم الجزائر لوحدها بل الكتلة الطبيعية التي تمتد عبر سلسلة جبال الأطلس التلي من قابس شرقا إلى أغادير غربا .

وهذا العمل ليس بالمستحيل بل علينا أن نلتزم فقط بالإرادة القوية ونتخذ من الدول الغربية التي تعرضت لمثل هذه المحن أسوة حسنة حيث واجهت مثل هذه المواقف بكل كفاح وعبقرية ففرنسا مثلا قامت سنة 1850 بغرس الأشجار في الناحية الجنوبية الغربية من البلاد، حيث كانت رمال الشاطئ الأطلنطي تهدد مصالح أهلها وصحتهم. فانطلقوا بهمة وصبر يوقفون الرمال عند حدها وقضوا عشرين سنة وهم يسدون الطريق فانحصروا على الرمال وكانت نتيجة إنتصارهم أبعد مما كانوا يتوقعون. فبعدها كانت تلك المنطقة من أفقر المناطق وأخطرها على الصحة في فرنسا أصبحت اليوم -بما تمتعت به من الأشجار الكثيرة- ذات حركة إقتصادية ممتازة، إذ أصبحت أول بلد منتج في العالم لزيت (الترينتين) المستخرج من تلك الأشجار وأصبحت ملجأ صحيا للمرضي من جميع أنحاء العالم. وكذلك المثال ينطبق على هولندا التي يعد أكثر من ثلث أرضها مصنوعا بأيدي أهلها فليكن لنا إذن يوم للشجرة، يكون عيدا يتمثل فيه كفاحنا ضد الرمل الذي نري خطره اليوم في غالب بلاد العروبة والاسلام لانه لا يمكن إنفاذ الأجيال القادمة أو بناء حياة جديدة إلا بالعمل الشاق الذي يقوم به جيلنا الحاضر والذي يتم بالإننتصار على أنفسنا وعلى عراقيل الطبيعة وبهذا العمل يكون الإنسان قد أعاد للتراب فعاليته ومهد فيه لحضارته، ولم يعد يخاف من نواب الزمن¹ ويمكن أن نؤكد على واقعية هذه النظرية عند "مالك بن نبي" - والتي حققت نجاحا باهرا - عندما تكلم عن محور (طنجة جاكرتا) واقتراحه حلولا مناسبة وهامة وهذا بإحداث "كومولث إسلامي" لإيجاد التكامل المفقود بين شعوب العالم الإسلامي، والذي يتمثل في تشكل منظمة المؤتمر الإسلامي من الناحية السياسية واقتصاديا يتمثل في شكل منظمة الأوبيب، وثقافيا في شكل المنظمة الإسلامية للعلوم والثقافة والتربية، كما

--¹مالك بن نبي: شروط النهضة ص 119/143/144

تحققت نظريته فلاحيا في شكل "السد الأخضر" عندنا في الجزائر كحاجز ضد هجوم التصحر على الأراضي السهبية (ولهذا فقد كانت فكرة السد الأخضر " في الجزائر تنفيذا وتجسيذا لفكرة "مالك بن نبي"¹ .

ج- الوقت :

ما قيل عن الوقت "ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا بن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد فإغتنم مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة استنادا على هذه المقولة يبرز لنا "مالك بن نبي" أهمية الوقت في حياة الفرد، فقد اعتبره بمثابة الجوهر الذي لا يقدر بثمن ولا يشتري بالمال، حيث لا تستطيع أي قوة في العالم أن تستعيد دقيقة من الوقت إذا مضت. وحظ الشعب العربي والإسلامي من الساعات كحظ أي شعب متحضرو لكن . شتان بين الساعتين، فعندما يدق ناقوس الساعات الأولى في البلدان المتحضرة فإن الشعوب تشرع في العمل، أما نحن في العالم الإسلامي فإننا نعرف شيئا يسمى "قتل الوقت" لأننا ببساطة لا ندرك لأمعناه ولا قيمته ولسنا ندرك إلى حد الآن فكرة الزمن الذي يتصل إتصالا وثيقا بالتاريخ مع العلم أن أول من أدرك فكرة الزمن هو المسلم العربي (أبو الحسن المراكشي) فالحياة والتاريخ الخاضعان للتوقيت ما يزال يفوتنا قطارهما لأننا نحن بحاجة ماسة إلى توقيت دقيق وخطوات واسعة لكي نعوض تأخرنا. ولا شك أن التربية هي الوسيلة الضرورية التي تعلم الشعب العربي الإسلامي قيمة الوقت وهذا العمل ليس بالشيء السهل لأنه من الصعب جدا أن يستمع شعب ثرثار وكسول للصوت الصامت لأهمية الوقت الهارب، غير أنه بواسطة الإرادة القوية والصبر يمكن أن نعلم للفرد المسلم علم الزمن وهذا يتم عن طريق تخصيص نصف الساعة يوميا للطفل وللرجل وللمرأة أداء واجب معين، حيث إذا خصص كل فرد نصف ساعة من وقته في تنفيذ مهمة منتظمة وفعالة، سوف يكون لديه في نهاية العام حصيلة هائلة ومهمة من ساعات العمل لمصلحة الحياة الإسلامية في جميع أشكالها العقلية

¹-مالك بن نبي منكرات شاهد القرن الطالب ص 28.

والخلقية والفنية والإقتصادية وسترترفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي وهذه هي الحضارة ولنا في العالم نماذج عن دول أعطت أهمية للوقت واستطاعت حينئذ أن تشق لنفسها طريق التشيد الحضاري وهذا ما ينطبق تماما على المانيا عقب نهاية الحرب العالمية الثانية حيث تحطمت فيها كل البنى التحتية ولم يبق لها من شيء تقيم على اساسه فكل شيء منهار وفوق ذلك كله فقد كانت خاضعة لاربعة دول من الحلفاء هي التي كانت تدير شؤونها الداخلية والخارجية¹ وبعد مرور عشر سنوات وفي وقت قصير جدا استطاعت أن تتفوق وتدهش العالم في صناعة أضخم الأجهزة وأجودها بالاضافة إلى صناعة السيارات بأنواعها.فلو بحثنا عن اسباب هذه المعجزة لوجدنا فيها عوامل عديدة (الصناعية والطبيعية) والتي لا يمكن إنكارها. لكن العامل المهم في هذه العوامل جميعا هو إنتشار فكرة يجب تدارك الزمن لدي الشعب الألماني حيث فرضت الحكومة الألمانية 1948 عام على الشعب الألماني كله- نساء وأطفالا ورجالا-التطوع يوميا لمدة ساعتين،يؤديها كل فرد زيادة على عمله اليومي بالمجان وهذا من أجل فائدة الصالح العام ، والمصلحة العامة.ومن هنا يمكننا أن ندرك قيمة الوقت وأهميته في إعادة تنمية المجتمع لشعب لم يبق لديه من مخلفات الحرب العالمية إلا أثار الدمار والخراب ولكن بفضل عزمته وإخلاصه في العمل عرف كيف يحسن استثمار العناصر الثلاثة من الإنسان،والتراب،والزمن،والعالم الإسلامي لا ينقصه معرفة شيء اسمه (الوقت)، ولكن ينقصه إدراك معناه، فينتهي عنده الوقت من حيث بدأ² تعتبر الحضارة أعظم مشكلة في حياة الإنسان حسب "مالك بن نبي" لأنها ظاهرة إنسانية تتشكل من الإنسان والتراب والوقت، بفعل الفكرة الدينية التي تولف بين العناصر الثلاثة السابقة، وترتبط هذه العناصر الأولية المكونة للحضارة بالمشاكل التي تحيط بالإنسان والتي تختلف باختلاف بيئته، "لأن الإنسانية لا تعيش ولا تعاني مشكلة واحدة، بل مشاكل متنوعة تبعا لتنوع مراحل التاريخ".حيث شهادة التاريخ تبين أن غياب

¹-اليوم الذي يقصده بن نبي هو شهر مارس اذار 1957

²-مالك بن نبي شروط النهضة ص 164/148

الموقف الحضاري من الواقع في العالم العربي والإسلامي المعاصر عَجَل بخلق أزمة الإبداع الفكري والفلسفي وعَجَل بالسقوط في أحضان الآخر ولا سبيل للتخلص من هذه الهوة والنهوض والتحرر من الأزمة إلا باتخاذ موقف حضاري في وعي مبدع تجتمع فيه المواقف الحضارية وهذا من خلال إعادة بناء النص الشعبي الموروث الوارد في النصوص القديمة والتراث وتحديد الفاعليات القادرة على التغيير و قدرتهم على معرفة النص التراثي المؤثر في المجتمع سلبا وإيجابا¹.

- 6- علاقة الحضارة بالفنون الأخرى:

6-1- التاريخ: شهد القرن العشرون مناهج متعددة في فلسفة التاريخ والحضارة أرجعت كل من الحضارة والبناء التاريخي إلى عوامل لا تنحصر على الإنتاج ووسائله مثلما كان الحال في النظرية الماركسية. بل إلى عوامل أخرى أهمها العامل الديني² وقد أخذ عن هذه الفكرة المفكر "مالك بن نبي" حينما أكد أن الحضارة الإسلامية ذات أصل ديني ولم يكن للعامل الجغرافي الدور الأساسي في تكوينها ولا حتا العامل الاقتصادي وهذا بعدما اتخذت ظاهرة الحركة التاريخية مواقف عدة وتفسيرات شتى إطلع عليها "مالك بن نبي" بعمق ودقة وانتقدتها مبرزاً مواقفه منها ثم أعطي موقفه المبني على الاطلاع والتحليل والنقد والاستنتاج مستخدماً الدقة العلمية والصرامة المنطقية ليقرر ما ذهب إليه علماء الاجتماع من إعتبار أن التاريخ بحوث ودراسات مجالها الفرد نفسه وكل ما يؤثر في حياته ويغير من ظروفه، فالتاريخ إذن يمثل التغيير الذي يتعرض له الفرد والمجال الذي يحويه على السواء وبعبارة أكثر دقة فإن صناعة التاريخ تتم طبقاً لتأثير طوائف اجتماعية ثلاثة: تأثير عالم الأشخاص، تأثير عالم الأفكار، وتأثير عالم الأشياء، إنَّ الفعل التاريخي من إنتاج العوالم الثلاثة ولا يمكن أن يتم

¹-حسن حنفي: هموم الفكر والوطن، الجزء الثاني، دار قباء للطباعة، القاهرة، مصر، 1998، ط3، ص45. وأنصر

الطيب برغوث: موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ص8/14.

²-مالك بن نبي: شروط النهضة ص 96/98.

عمل تاريخي اذا لم تتوفر علاقات ضرورية داخل هذه العوامل الثلاثة، وتوضح صلة الحضارة بالتاريخ عند "مالك بن نبي" باعتباره أن المجتمع ليس مجرد عدد من الافراد، بل هو اجتماع هؤلاء الافراد على موقف واحد واشتراكهم في اتجاه واحد للقيام بعمل معين ذو غاية معينة، وعمل المجتمع ليس امر تلقائي وإنما تركيب بين هذه العوالم الثلاثة الذي يفضي الى عالم رابع يتمثل في "شبكة العلاقات الاجتماعية" فالحضارة ان هي عمل تاريخي وتأليف بين العوالم الثلاثة في صورة واحدة وهذه الصورة هي التي تتجسد في صورة الحضارة التي تعتبر في منظور بن نبي مظهرا من مظاهر الحياة والفكر الإجتماعي، بحيث توجد عدة عوامل تتحكم في بناء المجتمع وحركة التاريخ وتكوين الحضارة، وهي العوامل التاريخية والتطورات التي تطرأ على المجتمع بما فيها العوامل الداخلية والخارجية¹، وقد استوحى "مالك بن نبي" حقيقة "دورة الحضارة" من نظرية "ابن خلدون" عن الاجيال الثلاثة لأن النظرية سمحت له بالوقوف على عوامل الانحطاط الى جانب أسباب التقدم والازدهار فلتاريخ دورة فهو يسجل عوامل التقدم وأسباب إنحطاط الأمم وله نقطة للبداية واخري للوصول.

وبمقدار ما تتعدد الدورات التاريخية تتعدد معها الدورات الحضارية² لذلك لا ينبغي إغفال مكانة الامة في دورات التاريخ اي الاكتفاء بوضع حلول ومناهج مستوردة وفي معني هذا يقول بن نبي "وعلاج أية مشكلة يرتبط بعوامل نفسية زمنية، ناتجة عن فكرة معينة تؤرخ منذ ميلادها عمليات التطور الاجتماعي في حدود الدورة التي ندرسها"³ كما نجده يتفق كذلك مع شبنجلر في كون أن ظاهرة التغيير أو التحول في التاريخ، أو الانتقال من الانحطاط الي الحضارة تعود الى تغيير الانفس ويستشهد '(بن نبي) بالحضارة الاسلامية والحضارة المسيحية فكل واحدة منها قامت على الايمان والشعور القوي بالحاجة الى التغيير وهي الشروط التي اشار اليها القرآن الكريم الذي جعل من تغيير النفس أساس كل تغيير

¹-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص 24-29.

²-مالك بن نبي وجهة العالم الاسلامي 21

³-مالك بن نبي شروط لنهضة ص 70

اجتماعي كما اتفق كذلك مع نظرية كيسرلنج الذي رد تكوين الحضارة في التاريخ الى عوامل دينية التي استمدت روحها من الديانة المسيحية فمجال التاريخ هو الفرد والمجتمع وكل ما يحيط بهما فهو يسجل -التاريخ- ويحدد عوامل الضعف والانحطاط وشروط القوة والازدهار لمجتمع معين في حالة معينة فلتاريخ دورة وللحضارة دورة فلهما نقطة الانطلاق ونقطة الوصول وقد رأى الدكتور حسن حنفي أن حال الأمة العربية الإسلامية لا يستقيم ولا يعرف النهضة في زمانها الحاضر في غياب وعي تاريخي جديد وفي انعدام فلسفة تاريخ جديدة تعتنى بالحقبة التاريخية التي تعيشها الأمة اليوم. وبدون الوعي التاريخي الجديد يصبح حاضر الأمة ومستقبلها ووجودها مليئاً بالغموض والإبهام وتصبح الأمة عاجزة عن وعي حاضرها والتطلع إلى مستقبلها. والموقف الحضاري من التراث ومن الأنا ومن الآخر ومن الواقع في المشروع يشكل رؤية تحليلية نقدية للتاريخ العربي الإسلامي في إطار التاريخ الإنساني العام، كل هذا يشكل نقطة نوعية في الشعور العربي الإسلامي من منظور حضاري شامل يعطي الأمة مجالاً رحباً فسيحاً للأمل والعمل.

وفلسفة التاريخ وما تتضمنه من وعي تاريخي لا تتفصل عن فلسفة السياسة والوعي السياسي الذي ينطلق من مبدأ الثورة والتنوير، الثورة في وجه الأوضاع الثقافية والفكرية الفاسدة والتنوير هو تنوير قيم التراث لتتحول إلى واقع ماثل ومعايش، واقع تحكمه التراثية الواعية والعقلانية المفتوحة والعلمية والحرية، والحكمة العملية التي تجمع بين الأخلاق والسياسة والتربية¹.

6-2 بالثقافة:

إن ثقافة أي مجتمع تعكس نمط عيشه كما تحدد أنماط تفكيره وأساليب عمله ووسائله واتجاهاته الفكرية ، كما تقوم بحفظ ونقل ذلك على انه تراث ثقافي من جيل الى

1- نفس المصدر السابق ص 85/96

آخر ومن حقبة تاريخية إلى أخرى، كما تحافظ على عناصرها وتتكفل بنقلها إلى الآخرين. وثقافة المجتمع المتحضر تعكس حضارة المجتمع وخصوصياته . فهي تشكل إدارة الفرد وإدارة المجتمع باعتبارهما محيط يعكس الحضارة التي يصنعها الافراد داخل المجتمع في مرحلة تاريخية معينة، فالثقافة تنشأ (تنتج) الحضارة وتوجهها وتعكس سماتها وتمثل المحيط الذي يتحرك فيه الانسان المتحضر، أمّا الحضارة فهي منتجات ثقافية ومادية نتجت عن قدرة الإنسان على الإبداع والتجديد، فبين الثقافة والحضارة تداخل وتلازم دائمين¹.

لكن تبقى العلاقة بين "الثقافة والحضارة" حسب ابن خلدون علاقة تلازم فهو يقول "ان حضارة اي مجتمع او ثقافته انما تتمثل في القيم والمعاني والتنظيم التي تتطوي عليها حياته ويظهر هذا التلازم في كون حضارة أي أمة عبر التاريخ في التطبيق المادي والاجتماعي للتراث الثقافي ونفس التفسير نجده في اللغة الالمانية حيث لفظ الثقافة تدل على معني الحضارة وذات دلالة واحدة وهي تمثل سائر العادات والظروف الاجتماعية والتراث الفكري والعلمي والفنون والاداب واللوان التفكير والقيم الرائعة في مجتمع معين.² أما "مالك بن نبي" فهو لا يقتصر على المعني الفكري النظري بل يتناول المعني في إطار الأوضاع التي مرّ بها العالم أجمع والعالم الإسلامي المعاصر من جهة أخرى فهو يراعي الجوانب والمعطيات العملية والاجتماعية والتربوية والتاريخية اذ انطلق من تباين الباحثين في وجهة نظرهم حيث يوجد من نظر إليها من الناحية النفسية الفردية وهناك من نظر إليها من الجانب الاجتماعي اما هو فوقف على الجوانب الثلاثة: الجانب النفسي والجانب الاجتماعي وجانب الصلة بين الفرد والمجتمع حيث ربط "مالك بن نبي" مفهوم الحضارة بالثقافة من حيث مفهومها ووظيفتها الاجتماعية والتاريخية فالثقافة عنده هي العلاقة التي تحدد السلوك الاجتماعي لدي الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدد أسلوب الحياة بسلوك الفرد. إن

¹--ALEXANDRU TANASE: CULTURE CIVILISATION HUMANISME ،.TRAD DU ROUMAIN .MICAELASLAVESCU .EDITION MERIDIANE .BUCAREST 1974 P 24-30

²--عبد الرحمان ابن خلدون : المقدمة .ص 124

هذه العلاقة المتبادلة تنمو لدى الفرد وتكبر من خلال صلته بالمحيط الحيوي وحياته. النفسية وفاعليته الاجتماعية، هذه الصلة تنبعث في الأساس من رغبة الفرد لاندماجه في المحيط الاجتماعي من أجل تكوين وحدة اجتماعية والتي تتيح له تكوين القبيلة والعشيرة، أما المجتمع الذي يجتمع لتكوين حضارة فإنه يستخدم نفس الغريزة ولكنه يهذبها .

فالثقافة حسب بن نبي لا تمثل علما من العلوم بقدر ما هي نظام تقتضيه الحياة بشكل عام بكل ما تحتويه من أصناف التفكير والتغيرات داخل المجتمع وهي وسيلة للتحضر فالثقافة تمثل الجسر الذي يعبره البعض إلى الرقي والتمدن كما أنها تمثل ذلك الحاجز الذي يحفظ البعض من السقوط إلى الهاوية ، فلا يمكن الحديث عن الحضارة دون ربطها بالثقافة، إنها الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر ويؤكد "مالك بن نبي" على الطابع الشمولي للثقافة فرديا واجتماعيا وانسانيا وعلي التكامل بين هذه الجوانب في الحياة حيث يقول: فالثقافة هي تلك الكتلة التي تتضمن عادات متجانسة وعقريات متقاربة وتقاليد متكاملة وأذواق وعواطف متشابهة وبعبارة أخرى هي: ¹ كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة ويحدد قطبيه: من عقلية إبن خلدون وروحانية الغزالي، وعقلية ديكارت"، فأحسن ما يقال في ايضاح الفرق بين الثقافة والحضارة هو أنّ الثقافة هي ما نتكون به والحضارة هي ما نعمل به فالثقافة علوم وفنون وفلسفات وعادات وتقاليد، أما الحضارة فهي ما نعمل به من أدوات سواء أكانت هذه الأدوات حسية مثل الآلات أو معنوية مثل المؤسسات الاجتماعية المختلفة كالحكومة والمجلس البلدي، فالثقافة تسبق الحضارة وتؤدي إليها لأنها بمثابة الفكرة، والحضارة بمثابة المادة. وتلك القاعدة السيكولوجية التي نسلم بها جميعا، هي أن التعرف يؤدي إلى التحرك، وهذه القاعدة تنطبق أيضا على الثقافة والحضارة فنحن نعرف الأشياء ثم نتأثر بهذا التعرف فنتحرك به إلى عمل ما وهذا العمل قد يكون اختراع آلة أو اكتشاف أو إيجاد

¹-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة:ص 111/97/88

نظام وهذه هي الحضارة¹ ويمكن أن نقول إن الحضارة الصناعية التي تتمثل في المصانع الكبرى للنسيج أو لمركبات النقل أو للبواخر أو الطائرات هذه المصانع إنما هي الثقافة الرياضية والفيزيائية. ولا يمكن لأمة أن تعيش في حضارة صناعية مالم تكن هناك ثقافة علمية. وإن أهملت هذه الثقافة العلمية فإنها سرعان ما تعود إلى الحضارة الزراعية التي تنتكس إليها كل أمة حين تتقهقر ثقافتها ومن هنا لا بدّ من ضرورة الانقلاب الثقافي لايجاد انقلاب في الحضارة. وهذا هو ما فعلته الصين واليابان وتركيا وإيران. لأنّ كل حضارة تحتاج إلى ثقافة تنشئها ثم تفسرها².

3-6 بالدين: إذا كانت الحضارة لدي العديد من المفكرين مظهر التقدم الأدبي والفني والعلمي، فإنها عند "مالك بن نبي" تعني سائر الشروط والعوامل الاخلاقية والمادية التي تسمح لمجتمع ما بأن يتكفل بجميع أفراده مادياً ومعنوياً في جميع أطوار الحياة، فهي ظاهرة إنسانية مركبة من عدة عوامل مرتبطة بالفرد وبتفكيره وبعيانه وسائر ظروفه وما يطرأ عليه من تغيرات، كما تتصل بالمجتمع وبأوضاعه وبمكوناته وبما يجري عليه من تحولات، والدين عبارة عن مجموعة من التعاليم والتوجيهات والمعتقدات يقر بها الإنسان وتنظم سلوكاته وتحدد نمط حياته. وتظهر أهمية الفكرة الدينية في حياة الأفراد والمجتمعات في علاقته بحركة التاريخ وقيام المجتمعات وبناء الحضارات وهو الامر الذي جعل "بن نبي" لا يسقط الفكرة الدينية من جميع مناقشاته وكتاباته، حيث إعتبرها أساس بناء الحضارة وأساس تحريك عجلة التاريخ وأساس تشييد صرح المجتمع المتحضر، وإذا كان الدين في نظر البعض عامل التخلف والجهل فعنده عامل تركيب وتأليف بين عوامل وشروط ولوازم البناء الحضاري. وإذا كان التحضر مرهون بالتحدي عند "ارلوند تومبي" و بالجدلية التاريخية عند هيجل فإنه عند "مالك بن نبي" مرهون بالفكرة الدينية لأنها وراء البناء الإجتماعي سواء عند المجتمع الإسلامي

¹ -سلامة موسى: ماهي النهضة؟، سلسلة موفم للنشر 1990 النشر الثاني ص 131.

² -مالك بن نبي : شروط النهضة : 132/133/

أوالمجتمع المسيحي ولذلك فإننا نستطيع أن نقول أونقرر أنّ الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي الفكرة الدينية¹.

إنّ حركة التطورالإجتماعي مصدرها عوامل دينية واجتماعية تتمثل في العلاقات الاجتماعية،حيث تصبح تلك العلاقات بمثابة عوامل وقوانين تحرك التاريخ وتصنع التقدم والازدهار،فالعلاقة الروحية بين الله والانسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية،وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان.فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الإجتماعية والعلاقة الدينية معا من الوجه التاريخي على أنها حدث،ومن الوجهة الكونية على أنها عنوان لحركة التطور الإجتماعي². كما تتفق العلاقة الإجتماعية مع العلاقة الدينية،وهما ظاهرتان إنسانيتان إجتماعيتان،ومن الناحية الميتافيزيقية يمثل الدين العلاقة الروحيةالتي تربط بين أفراد المجتمع وهو شرط وجود العلاقة الاجتماعية في حركة التطور الاجتماعي،فالعلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني.فعندما تقوي العلاقة الدينية تقوى شبكة العلاقات الاجتماعية، ويضيق مجال الفراغ الاجتماعي عندما تضعف العلاقة الدينية وتضعف معها العلاقة الإجتماعية وتتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية ويتسع مجال الفراغ الاجتماعي بقوة علاقاته الاجتماعية وتماسك أفرادها فالنبي (ص) يقول المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه البعض".

وإذا كانت الفكرة الدينية تبني شبكة العلاقات الاجتماعية وتصنع حركة التطور داخل المجتمعات فإن الحضارة تمثل هذا التطور الذي هو من فعل الفكرة الدينية لذا حرص مالك بن نبي" على توضيح أثر ودور الفكرة الدينية في تركيب الحضارة وكيف تنظم سلوكاته

¹-مالك بن نبي : ميلاد مجتمع:ص 52.

²-نفس المصدر السابق ص 53

وتهذب غرائزه¹ وكيف يصنع الدين الانسان لينهض بدوره في بناء الحضارة وكيف تستطيع الفكرة الدينية أن تقدم التفسير العقلي لدور الديانة في تحريك التاريخ وتوجيهه. حيث لم يكتف "مالك بن نبي" في إبراز أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة على معطيات التاريخ، وإنما لجأ الى لغة التحليل النفسي بإعتباره أن الحضارة تمثل الصورة الزمنية للافعال وردود للافعال المتبادلة التي تتولد بين الفرد والفكرة الدينية² حيث أن الفرد قبل إنطلاقه في البناء الإجتماعي والحضاري فهو فرد طبيعي فطري غريزي ثم تقوم الفكرة الدينية بضبط وإخضاع غرائزه -ليس بإزالتها بل بتنظيمها - وفق نظام يضمن إنسجامها مع معطيات الفكرة الدينية فيصبح الإنسان خاضعا لقوانين يفرضها الدين، فتسيطر على فكر الفرد وتأملاته وسلوكه مطالب وحاجات روحية فيحصل الارتقاء من مسوي البهيمة إلى مستوي الروح في سلم التغيير والتطور وكان هذا التحول في حياة الفرد من صنع الدين ويستشهد "مالك بن نبي" فإبراز أثر الدين في تكوين الحضارة الإسلامية، معتمدا على معطيات التحليل النفسي الفردي والاجتماعي، فتحرر الفرد من غرائزه بفعل الفكرة الدينية في بداية انطلاق البناء الحضاري حالة يمثلها "الصحابي الجليل بلال بن رباح" حينما قال "أحد، أحد" وهو تحت أشد أنواع التعذيب وهي صيحة الروح متحدية قانون الطبيعة وغريزة الإستسلام .

إنّ جميع الإعتبارات السابقة حسب "مالك بن نبي" تبين لنا الدور الذي يلعبه الفرد في القيام بوظيفة وأداء رسالته الحضارية المستوحاة من الفكرة الدينية، كما تحل الفكرة الدينية مشكلة إستمرار الحضارة لأنّ دوام الحضارة وإستمرارها مرهون بوجود الفكرة الدينية، لأنه إذا كان كل ناتج حضاري عند "مالك بن نبي" يتألف من تركيب بين العناصر الثلاثة وهي الانسان، والتراب والوقت، فإن الفكرة الدينية لها دورها في ظهور نواتج الحضارة وفي تكوين الحضارات والدليل على ذلك فقد ركز في دراسته لتكوين الحضارة في بدايتها الاولى على

¹-مالك بن نبي : شروط النهضة ص 33

²-نفس المصدر السابق : ص 100.

دورتين هما: الدورة المسيحية والدورة الاسلامية حيث أن السر الذي كان وراء ظهور الحضارة الاسلامية وركب بين عناصرها الثلاثة، هو الدين الاسلامي، فدورة الحضارة الإسلامية بدأت بنزول القرآن وشهدت بعد ذلك أوج تطورها وإزدهارها حيث السيادة فيها للروح وللمثل العليا لا للشهوات والغرائز، كما شهدت حياة فكرية واسعة، فكانت روح الانسان المؤمن بالاسلام هي العامل الحاسم في البناء الحضاري إلى غاية أن جاءت واقعة صفين عام 37 هجري فتحوّلت حياة المسلمين الى حياة يسودها الترف والزينة وحب الزعامة وأخذت شمس الحضارة الإسلامية تغيب شيئاً فشيئاً. انه نفس السر الذي كان وراء ميلاد الحضارة المسيحية التي تختلف في طبيعة ميلادها عن ميلاد الحضارة الاسلامية لان المسيحية وجدت نفسها في وسط فيه تعدد الديانات والثقافات لم يسمح لها بالتوغل في النفوس وتؤثر فيها تأثيراً فعلياً إلا بعدما حلت بمحيط الجرمانين في شمال أوروبا فمعهم ظهرت روح خلقية سامية في العالم المسيحي ثم بدأت النهضة وخرجت من مرحلة الرفعة الروحية الى حالة التطور العقلي وأخيراً مرحلة الفناء التي اشار اليها شبنجلر مما يبين أن الأمم المتقدمة هي الاخرى مهددة في حضارتها بالفناء.

إنّ ما نستخلصه مع المفكر العظيم "مالك بن نبي" فيما يخص الدين والحضارة هو أن الدين يمثل العامل الاساسي القادر على تشكيل الظواهر والعلاقات الاجتماعية والقيم الاجتماعية، والفكرة الدينية هي مركب القيم الاجتماعية، وهذا التشكيل يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية، ويجعل من الوقت وقتاً اجتماعياً مقدراً بساعات عمل "ومن التراب مجالا لسد حاجيات الحياة الاجتماعية المتنوعة تبعا لظروف عملية الانتاج فالسبيل الى الحضارة موجود والأداة متوفرة ما دامت الفكرة الدينية موجودة تتألف من الانسان، التراب، والوقت¹.

¹- نفس المصدر السابق ص 107/74.

7- غاية ورسالة الحضارة عند "مالك بن نبي":

ترتبط رسالة الحضارة بالإنسان وحياته ، كما تتصل بتاريخه وثقافته، لأنّ الحضارة تمثل دورة تاريخية يصنعها الفرد ويعيشها داخل المجتمع، ولعلّ ما يدفع بني البشر على التعاون والاجتماع فيما بينهم هو عجز الفرد الواحد عن أداء جميع الوظائف والحصول على كافة الحاجات، فحاجة الناس إلى بعضهم البعض ضرورة تفرضها طبيعتهم ورغبتهم التي فطروا عليها في العيش معاً، وبالاجتماع يتم التفاهم والتعاون وفق قيم وعلاقات اجتماعية وفردية تشكل المجتمع وتبني الحضارة، هذه الحضارة ترتبط بالمجتمع وتعكس تطوره وإنسانيته، وأي إجتماع بشري خالي من الحضارة حتى ولو شهد شيئاً من التطور في حياته فهو اجتماع ذو طابع بدائي، يسوده قانون الغاب، وهو أمر لا يتناسب مع ضمان إنسانية الإنسان، فالحضارة تلازم المجتمع وتضمن تلك الإنسانية في أبعاد صورها وأشكالها، فالحد الفاصل عند "مالك بن نبي" بين الإنسان المتحضّر والإنسان اللامتحضّر، أي البدائي الهمجي هو هذه الحضارة، حيث أنها تفصل بين الحياة البدائية الهمجية المتوحشة الخالية من الأمن والاستقرار، والحياة الإنسانية المدنية التي يسودها الأمن والتطور والإزدهار في مختلف المجالات. فالمجتمع المتحضر يضمن لأفراده بقائهم ويوفر لهم جوّ الحرية ويحميهم من مخلفات الانحدار في مختلف ميادين الحياة الفكرية والاقتصادية¹.

فمن دون الحضارة لا يصير الإنسان محصناً في حياته ومصيره، ، ويصبح مهدد في شخصيته الفردية والوطنية والدينية، فالإنسان الذي لا يكون مجتمعه مجتمع حضارة فهو معرّض للحرمان من الضمان الاجتماعي، وفي هذا المعنى يقول: فأنا حينما أحاول تحديد مجتمع أفضل فكأنني أحاول تحديد أسلوب حضارة، إذ أنني حينما أحقق الحضارة، أحقق جميع شروط الحياة، والأسباب التي تأتي بمتوسط الدخل المرتفع، بمعنى أنني أحقق الخريطة الاقتصادية ونتائجها الاجتماعية والثقافية أيضاً". فالحضارة الإسلامية مثلاً فقد

¹-مالك بن نبي: تأملات ص 16

أقامت بدخول الروح القرآنية فألّفت بين عناصر الحضرة، وانتقل على إثرها الإنسان العربي من حياة البادية القائمة على الترحال والبساطة إلى دولة إسلامية قوية جدا بعدتها وعددها عسكريا واقتصاديا وفكريا، قائدها سيد الخلق "محمد رسول الله ﷺ"، وبهذا المثال تتجلى الرسالة الروحية للحضارة، فالحضارة تقوم حينما يدخل الإنسان التاريخ بفكرة دينية تحدد المبدأ والمسار والمصير، وهي رسالة أرادها "مالك بن نبي" أن تكون لدى الإنسان المسلم كما يلي: "إذا أراد المسلم أن يسد هذا الفراغ في النفوس المتعطشة، النفوس المنتظرة لمبررات جديدة فيجب أولاً أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود، ولا قداسة لهذا الوجود إلا بوجود الله، والمسلم إذا أتى بهذا لا بلسانه ولا بشطحاته الصوفية وإنما كإنسان معاصر¹.

تتضح مما سبق رسالة الحضارة في أبعادها المختلفة، فهي بالنسبة للإنسان ترفعه فوق المخلوقات الأخرى وتضمن له إنسانيته وتميزه عن التوحش والهمجية، وهي بالنسبة للفرد توفر له كل ما يحتاج إليه في كل طور من أطوار حياته، أما بالنسبة للمجتمع فهي تخرجه من دائرة التجمعات الإنسانية وتدخله في التاريخ لتبنيه وتصنع تطوره بما يحقق التوازن بين الجانب المادي والجانب الروحي في حياة الإنسان، ويحصل التوازن والانسجام بين الجانب الدنيوي والجانب الأخروي في إطار مسار يربط بين المبدأ والوسيلة والغاية في تكامل تام.²

¹-مالك بن نبي: تأملات ص -162

²-مالك بن نبي: دور المسلم في الثلث الأخير من القرن 20، ص 39-40

الفصل الثالث:

البناء الحضاري عند مالك بن نبي

المبحث الاول التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي"

المبحث الثاني: معاني ودلالات التربية عند "مالك بن نبي"

المبحث الاول : التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي":

يمثل التجديد في الفكر الإسلامي سمة بارزة لرسالة الإسلام لأنه لكي يتحقق له الخلود لا بد له أن يتجدد عطاؤه الحضاري في كل عصر ونعني بالتجديد عند مفكري الإسلام انه إعادة الأفكار إلى جذورها وذلك بإزالة الشوائب التي عكرت صفوها وهو ما ينطبق على أهم تيارات التجديد في الفكر الإسلامي التي عملت على تطهير الإسلام مما لحق به من شوائب. وقد بدأت بوادر هذا الاتجاه مع بداية القرن التاسع عشر، الذي يعد عصر التقدم العلمي والتقني في الغرب، وعصر التخلف والانحطاط والفساد والاستعمار في الشرق. وأمام هذا الوضع المتأزم برز سؤال في غاية الأهمية وهو: ما هو سر تقدم الغرب بالرغم من كفرهم، وبالمقابل تأخر العرب والمسلمين؟ وهل من وسيلة ناجعة يمكن للمسلمين عن طريقها أن يصبحوا جزء من العالم المتحضر مع الحفاظ على تراثهم ومبادئهم؟.

وقد إنتهي علماء هذا التيار إلى الإتفاق على أن تقهقر العرب والمسلمين يعود إلى أنهم هجرو تعاليم الدين الإسلامي الصحيحة فأندھشوا بالحضارة الغربية فأرتمو في أحضانها. وهكذا أصبحت مشكلة العرب والمسلمين في القرن التاسع عشر والتي شكلت قضية التجديد الأساسية هي رد الإعتبار للدين وللتراث، حتي تعود للمسلمين حريتهم و إسترجاع مجدهم الضائع¹ وقد إتسم الفكر الإسلامي المعاصر بشكل عام بسمة العداء الشديد للإستعمار والدعوة إلى محاربتة بكل السبل المتاحة فالخطاب السياسي المعادي للإستعمار له حضور بارز ضمن نسيج هذا الفكر حيث برزت نخبة من العلماء والمفكرين المسلمين المعاصرين الذين شعروا منذ البداية جدية التحديات الآتية من الغرب ونموذجه الحضاري الخطير، وانكبوا على معاشتها وإدراكها من أجل إستيعابها لبلورة موقف واع وبناء، ويأتي في طليعة هؤلاء محمد إقبال و"مالك بن نبي" وروجي غارودي وعبد الوهاب الميسري .

¹ - منير شفيق، الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات، دار القلم، الكويت، ط1993، 2، ص 36/35

1 - بؤادر التجديد الحضاري في الفكر الإسلامي :

لقد ظهر في الفكر الإسلامي المعاصر خطاب جديد وتيار شامل سجل حضوره المميز على الساحة الفكرية المعاصرة، لانه لم يقتصر على معالجة قضايا فقهية أو دعوة سياسية لمقاومة الاستعمار والتبعية، بل هو خطاب تجديد ينطلق من إعتبار الإسلام مشروعاً حضارياً متكاملًا لا يخص بيئة مكانية ولا ظرفاً زمانياً ولا جنساً معيناً، وإنما تميز هذا الخطاب في تبنيه لأدبيات الدين الأساسية وهذا ما يجعلنا نصلح على تسميته ب: تيار التجديد الحضاري وقد ظهر هذا اللون من التجديد إبان تردّي الحضارة الإسلامية والتي عاصرت ظهور ابن خلدون الذي أرجع سقوط الحضارة الإسلامية إلى انتشار البدع في الدين وما صاحبه من جمود في الفقه وشلل عقلي وتمزق سياسي مما مهد للاستعمار. ولذلك فإن دعوة ابن خلدون التجديدية قدمت علاجاً مناسباً لازمة أمته حيث بين أن الدولة العظيمة أصلها الدين لأن الدعوة الدينية تزيد للدولة أصالة وقوة على قوة والدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم¹ وقد أدرج أغلب الباحثين على إعتبار "مالك بن نبي" بمثابة إبن خلدون العصر الحديث، وأعظم وأبرز مفكر أولى عناية فائقة للفكر الحضاري الإسلامي منذ ابن خلدون، فهو من أرسى قواعد مدرسة التجديد الحضاري في الفكر الإسلامي المعاصر حيث إنفرد عن أقرانه من المصلحين بأنه درس مشكلات الأمة الإسلامية إنطلاقاً من رؤية حضارية شاملة ومتكاملة وقد أظهر تيار التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي" مهارة فائقة في تشخيص النفسية الأوروبية واكتشاف عيوبها حيث رأى أن هناك نزعة عدوانية تجري في عروق الحضارة الغربية تجاه الآخرين وأن كتابه (شاهد القرن) خير شاهد على هذه الحضارة بكل إيجابيتها وسلبياتها وهنا يدق بن نبي ناقوس خطر الحضارة الغربية على العالم، لأن المادة في قبضتها تتصرف فيها كما تشاء²، لكن في الوقت نفسه لا يمكن أن نغض النظر عما

¹ - عبد الرحمن ابن خلدون المقدمة : ص 143/145/146/147/148.

² - د سعيد جودت: مذهب إبن آدم الأول: دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، ط 5 سنة 1993. ص 15.

تمتاز به الحضارة الغربية من نزعة علمية حيث دعا "مالك بن نبي" شعوب المجتمعات الإسلامية إلى الاستفادة من التقنية الغربية والأخذ بالجانب الجمالي الذي تمتاز به هذه الحضارة لأنّ العالم الإسلامي لا يمكنه أن يعيش في عزلة وانطواء، فليس الهدف أن يقطع علاقته بحضارة تمثل وتشكل إحدى التجارب الإنسانية الكبرى، بل المهم أن ينظم هذه العلاقات معها.¹

وهي نفس الفكرة التي أشار إليها من قبل المفكر محمد إقبال حيث كشف عن المدى الذي تستطيع به النتائج التي وصلت إليها أوروبا أن تساعدنا في إعادة النظر في التفكير الديني في الإسلام، لذلك ينطلق أقطاب هذا الإتجاه من نقد الحضارة الغربية ليفتحوا المجال لإرساء فكر إسلامي خالص. فمع هيمنة المفاهيم الغربية لا يمكن اكتشاف أصالة الفكر الإسلامي، لذا نجد مشروع الفيلسوف إقبال يتمثل في فهم الحضارة الغربية باعتبارها المهيمنة ثم إزاحتها لفسح المجال أمام انبعاث الفكر الإسلامي الأصيل، حيث استشهد محمد إقبال² بموقف علماء المسلمين الذين تصدوا للفلسفة الإغريقية، فمن أمثال هؤلاء نجد ابن تيمية والغزالي حيث رفضوا منطق أرسطو aristot لأنهم كانوا على دراية بالفلسفة المهيمنة في ذلك العصر ومن خلال تقييمها خلفوا بديلا إسلاميا. وفي هذا المعنى نجد محمد إقبال يقول "إن الفلسفة اليونانية كانت قوة عظيمة في تاريخ الإسلام، ولكن التمحيص في مقالات المتكلمين على إختلاف مدارسهم التي نشأت ملهمة بالفكر اليوناني، يكشفان عن حقيقة بارزة هي أن الفلسفة اليونانية غشت على أبصارهم فهم القرآن الكريم" وفي هذا الإتجاه يلوح في الأفق مشروع ضخم يتجسد في بروز مدرسة التجديد الحضاري المعاصر منذ محمد إقبال التي عملت على تكوين وتشكيل رؤية شاملة في عرضها لأزمة المسلم باعتبارها أزمة إنسانية عامة في جوهرها، ومما يثير العجب-

¹-مالك بن نبي: مشكلة الافكار في العالم الاسلامي ، ص 102

²-محمد إقبال، فيلسوف (1873_ 1938) شاعر صوفي، هندي مسلم درس الفلسفة والحقوق بجامعة كامبردج ، تحصل على دكتوراه في الفلسفة من مونيخ بألمانيا. عاد إلى لاهور سنة 1908 حيث درّس الفلسفة واشتغل بالمحاماة

كما يذكر إقبال- أن وحدة الشعور الإنساني التي هي مركز الشخصية الإنسانية الإسلامية لم تكن أبدا موضع إهتمام جدي في تاريخ الفكر الإسلامي، بل أن فلاسفة الإسلام إستلهموا آراءهم من الفكر اليوناني¹، وقد اتخذ محمد إقبال من القرآن الكريم مرجعا أساسيا ليؤكد أن للإنسان مكانة مرموقة تميزه عن باقي المخلوقات، حيث أن الإنسان بالرغم من أخطائه إلا أنه أريد أن يكون خليفة الله في أرضه والدليل على ذلك قوله تعالى " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ² ". لذلك نجده ينتقد حركة الإصلاح الديني بالخصوص جمال الدين الأفغاني بقوله أن نشاطه المكثف لو إقتصر عمله كله على الإسلام بوصفه نظاما لعقيدة الإنسان وخلقته ومسلكه في الحياة لكان العالم الإسلامي أقوى مما هو عليه اليوم³ وتبعنا لما أولاه الإسلام من تكريم للإنسان وحديث القرآن عن سجود الملائكة لأدم، وإستنادا إلى ذلك دعا فيما بعد المفكر "مالك بن نبي" إلى بناء ثقافة إنسانية مستلهمة ذلك من مبادئ الإسلام السمحة وقد نلمس جانب التجديد لدي "مالك بن نبي" في كيفية تحليله لأزمة المجتمع الإسلامي الحضارية حيث أرسى دعائم علم جديد في فلسفة التاريخ وعلم النفس المجتمعات يتحدث فيها عن ظاهرة تخلف الضمير وعدم مواكبته لتقدم العلم، وقد قال عنه الدكتور جودت سعيد "وكان بذلك أول باحث حاول أن يحدد أبعاد المشكلة على أساس علم النفس وعلم الاجتماع وسنة التاريخ" وقد اعتبر "مالك بن نبي" أن الخروج من الأزمة ليس بالأمر الصعب ولا هي حالة مستعصية الحل، فقط فإننا في أمس الحاجة إلى مفكرين أصحاب النظرات الثاقبة والعميقة الذين يستطيعون أن ينضروا الى المشكلة في إطارها العام والشامل ويحددوا بدقة منبعها الاصلى. وان يكشفوا أصل الداء ويشخصوا

¹- محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الاسلام: تعريب عباس محمود . سلسلة معالم الحداثة، دار الجنوب للنشر بيروت

1996 ص 147 و 109

²-سورة البقرة الآية 30

³-- محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الاسلام: ص 112

أغراضه ويحذروا من مخاطره على المدى القريب والبعيد، وقد نفهم من هنا أن البديل الإسلامي الذي تتطلع إليه مدرسة التجديد الحضاري لدى "مالك بن نبي" ومفكري الإسلام المعاصرين ليس مجرد شعارات خالية من أي مضمون وإنما عبارة عن دراسات عميقة ودقيقة. وينبغي التأكيد إذن على أن التجديد الحضاري في الفكر الإسلامي المعاصر يتولى مسؤولية في غاية الأهمية يتمثل في انتشار الأمة من وضعها المتأزم إلى الشهود الحضاري .

غير أن هذا التجديد الحضاري في الفكر الإسلامي المعاصر ليس من شأنه أن يلغي جهود حركات النهضة في العالم الإسلامي وتبقي عملية التجديد الحضاري إنتصارا لقضية الإسلام مصداقا لما ورد فيه حيث من إجتهد وأصاب فله أجران، ومن إجتهد واخطأ فله أجر واحد¹. ولعل الشيء الذي نلاحظه لدى هؤلاء المجددين -بالرغم من إختلاف الفترة الزمنية التي عاشوا فيها- هو إرتباطهم الوثيق بالتراث الإسلامي ودعوتهم إلى إحيائه وتجديده حيث نجد هذه الفكرة كذلك لدى المفكر المعاصر "حسن حنفي" الذي تميز مشروعه الحضاري التجديدي بمجموعة من الخصائص، وقد إرتبطت هذه الخصائص بالظروف الفكرية والثقافية التي تبلورت فيها ملامح مشروعه ومعالم فلسفته. وهي ظروف ارتبطت بماضي الأمة فهي أمة تراثية تاريخية، كما إرتبطت بثقافة غربية أوربية اطلع عليها المفكر واستفاد منها في دراساته وأبحاثه كما إرتبطت بواقع أمته المعاصر وتحدياته ومشكلاته ومتطلباته، فجاءت فلسفته وجاء مشروعه يحمل خصائص أملتها ظروف المرحلة التاريخية المعاصرة الفكرية والثقافية والإجتماعية والسياسية، وأفرزتها ثقافة المفكر الواسعة والمتنوعة حول التراث ومن بين هذه الخصائص التي يمتاز بها مشروع التجديد الحضاري عنده نجد:

¹-مالك بن نبي:شروط النهضة 68/69

أ- التراثية : إتمد صاحب مشروع "التراث والتجديد" على إحياء التراث، وكانت رسالته الأولى تحمل بوادر ومحاولة قراءة أصول الفقه وإعادة بنائه وفق ما يقتضيه العصر ، بأدوات ومنهجية معاصرة فلا سبيل في نضره إلى التخلص من الأزمة التي يعيشها العالم العربي والإسلامي في غياب قراءة التراث وإعادة بنائه ، لأن شعوب العالم العربي المعاصر تعيش على التراث وهو مخزون نفسي يؤثر فيهم شعوريا ولا شعوريا، وأية محاولة لتجاوز الأزمة خارج التراث ومن دونه هي ضرب من الوهم ونهايتها الفشل، والأمر يختلف عما حدث في الغرب الأوربي، حيث قامت النهضة الأوربية الحديثة بعدما تعرضت كل جوانب التراث للنقد والهدم، لأن الموروث التاريخي الغربي آنذاك ارتبط بجوانب مظلمة فكرياً وسياسياً واجتماعياً و دينياً. أما التراث عندنا فيمثل جوانب مشرقة في الثقافة العربية الإسلامية وهو صورة ومادة الحضارة الإسلامية الزاهية التي بلغت قوة أوجها وعزتها

ب - التجديدية: يمثل التجديد الأداة التي بدونها لا تحصل عملية التغيير سواء من الناحية الفكرية أو الإجتماعية أو الحضارية وحتى التاريخية. لأن الأزمة أزمة تغيير الأوضاع الإجتماعية وقبلها فكرية وثقافية، وأزمة بحث علمي ومشكلة التغيير تبدأ من تغيير الذهنيات وتغيير العادات والتقاليد وتغيير مناهج البحث والدراسة فالمشكلة هي مشكلة تجديد لأنه لا سبيل لحل أزمة التغيير الاجتماعي وأزمة المناهج في الدراسات الإسلامية إلا بواسطة التجديد، تجديد اللغة ومنطقها، وتجديد مستويات التحليل وتجديد البيئة الثقافية، ويعود سبب فشل المحاولات المتكررة لحل مشكلة التراث والتجديد إلى إرتباط تلك المحاولات بحلول مستوردة لأزمة خاصة لها ظروفها وأوضاعها تختلف عن الأوضاع والظروف التي وجدت فيها تلك الحلول، أو الاكتفاء بحلول ذاتية موروثية من القديم حيث لم تعد تلك الحلول تناسب مشكلات العصر الذي تختلف ظروفه عن الظروف التي نشأ فيها التراث. فالحاجة ملحة إلى التجديد وهو مشروع "التراث والتجديد" لأنه هو القادر على إفادة الواقع بنظريته في التفسير ، فالتراث هو نظرية الواقع، والتجديد هو إعادة فهم التراث حتى يمكن رؤية الواقع

ومكوناته التراث والتجديد عند "حسن حنفي" يؤسسان معاً علماً جديداً وهو وصف للحاضر وكأنه ماض يتحرك، ووصف للماضي على أنه حاضر¹.

2- شروط التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي":

إن المشكلة الأساسية عند فكر "مالك بن نبي" -كما رأيناه- هي مشكلة الحضارة، وشروط حل هذه المشكلة والإمام بشروط النهضة والتحضر هو الارتقاء بالفكر إلى درجة الوقائع الإنسانية ذات الطابع العالمي، ولا يمكن لشعب ما أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارة أو تهدمها¹ وأن حضارة أي شعب تمثل حلقة في سلسلة الحضارات تجسد جهود وأعمال الشعوب بإعتبارها أجيالا متعاقبة متصلة فيما بينها في سبيل الرقي والتقدم فما هي شروط هذا الرقي وهذا التقدم؟ .

إن هذا السؤال يرتبط في أصله بالتجديد الحضاري، لأن أي تقدم أو رقي لأي شعب لا يقع خارج التجديد الحضاري حيث تتجاوز مهمة (التجديد الحضاري) من إصلاح الأوضاع إلى تشخيص الفساد وأسبابه وتحديد المبادئ والغايات والسبل والوسائل المناسبة والمتاحة لإزالة الفساد وتجاوزه، ومن مهامه أيضا نجده يسعى الى إحياء القديم وبعثه وتكييفه مع المستجدات، فالتجديد الحضاري يمثل جوهر الحضارة ومحركها وجوهر التاريخ ومحركه لأنه ضروري لميلاد الحضارة وضروري لتطورها عبر التاريخ، وأن شروط هذه العملية (عملية التجديد) مرتبطة بشروط البناء الحضاري والتي حددها "مالك بن نبي" في كتابه شروط النهضة وهي.

2-1 الشروط النفسية : نستطيع أن نتعرف على شروط التجديد الحضاري عند "مالك بن

نبي" ،إنطلاقاً من قول الله سبحانه وتعالى : **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**².

¹ - حسن حنفي: التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2002، ط5، ص181.

² -سورة الاسراء الاية 70

يتضح من الآية الكريمة أنّ الله خلق الإنسان وخصه وحده بالتكريم والتفضيل، فوهبه العقل والقدرة على الإبداع والتجديد، أي القدرة على بناء الحضارة والتحضر، حيث أن النهضة تحتاج في حياة أي أمة ، إلى شروط نفسية تكون في البداية ذات طابع ذاتي خاص ثم تتبلور وتشق طريقها داخل المجتمع فتصبح ذات طابع اجتماعي. وبعض الشروط التاريخية يفرضها الاجتماع البشري وشبه العلاقات الاجتماعية والحياة داخل المجتمع، فمثلا دعوة "الرسول ص" إلى الإسلام بدأت من بيته ثم انتشرت في جميع بقاع الكرة الأرضية، ودعوة "كارل ماركس" إلى الاشتراكية بدأت كفكرة نادى بها صاحبها ثم صارت عقيدة يؤمن بها أصحابها ويدعون إليها ،ومن جهة أخرى نجد الحياة في المجتمع تقتضي النظام وأشكال أخرى من العلاقات والأنشطة مثل المعاهدات والاتفاقيات وتقسيم العمل والتعاون وغيره، وهذا يعني أن التجديد الحضاري في أي نهضة تاريخية يشترط جملة من العوامل الاجتماعية بعضها نابع من أفراد المجتمع وبعضها صادر عن المجتمع ذاته، وفي الحالتين معا الحضارة مشروطة بعوامل اجتماعية وتحقق غايات اجتماعية كما تلازم المجتمع بكافة معطياته. إنّ الشروط النفسية تكون وراء أي حضارة كما تلازمها وهي تتجز وتصنع منتجاتها، وتمثل هذه الشروط كذلك غايات وأهداف الحركة التاريخية لأن إستراتيجية التجديد والبناء الحضاريين تقوم على التخطيط وربط المبادئ والأفكار بالأهداف والغايات. هذه المبادئ والغايات نابعة من الفرد الطموح إلى الحضارة، كما يتمتع بالشروط الأولية التي تضعه في أعلى درجة وفي أعلى هرم مقارنة ببقية المخلوقات الأخرى من خلال امتلاكه لكافة عوامل وعناصر التحضر، فهو ينشئ الحضارة بالعقل والقدرة على الإبداع وله القدرة في أن يتأثر ويؤثر في غيره من خلال استعماله لفكره ولغته التي هي وسيلة التواصل. ومن هنا يتجلى البعد الإنساني في الحضارة والتجديد الحضاري ، فالطبيعة البشرية وما تتوفر عليه من دوافع فيزيائية ونفسية وعقلية وأخلاقية واجتماعية هذه الدوافع تتحول إلى فاعليات قوية تخط طريقها نحو التجديد الحضاري، فتصبح الحضارة ظاهرة إنسانية تركز رسالة الإنسان في هذا الوجود كما تميزه عن غيره من المخلوقات التي لم تشهد الحضارة إطلاقا،

وهي من خلال عناصرها وشروطها ومنتجاتها تجسد القيم الإنسانية حيث أن للفرد ذات زاخرة بالميول والرغبات والأهواء والعواطف، التي تبدأ بالطابع الفردي الخاص ثم تشق طريقها داخل المجتمع، وما رغبة الإنسان في تغيير حياته ونمط عيشه نحو الأحسن إلا ضرب من الرغبة التي تحرك الإرادة فتتحرك سائر القوى الذهنية والنفسية ومعها القوى العضوية فيحصل التجديد، حتى أن البعض يرى بأن العنصر الانفعالي هو المحرك الأساسي لعملية الابداع فالإنسان في نظره يرغب في شق طريقه نحو النهضة والحضارة وهو ما يعرف عند "مالك بن نبي" (بالعدة الدائمة)¹ حيث تتكون هذه الثروة الإنسانية من الإنسان والتراب والوقت لأن الحضارة تتجسد في ذلك الرجل الذي تحرك في التراب الذي يمهده بقوته مستغلا الوقت اللازم للوصول إلى أهدافه. والعدة الدائمة تمثل ميراث الإنسان والتاريخ والمجتمعات وهي ليست حكرًا على احد ولا هي من منجزات أو منتجات الحضارة، بل تتكون وتتركب منها ولهذا نجد الانسان لا يمكن له أن يفرط في العناصر الثلاثة التي تمثل رأسماله الأول لتحقيق وجوده الاجتماعي والمدني، وإن كان قادرا على الاستغناء عن منتجات الحضارة ومنجزاتها مؤقتا، فالشعوب التي شاركت وانهزمت في الحرب العالمية الثانية لم تقدر خسارتها بالذهب، بل بساعات العمل، أي بمقدار من الوقت وبمنتجات التراب، تلك القيم الخالدة التي نجدها كلما وجب علينا العودة الى بساطة الاشياء، أي كلما تحرك رجل الفطرة وتحركت معه حضارة في التاريخ² لأن الحضارة بسائر منجزاتها ومنتجاتها الفكرية والمادية ترجع في أصلها إلى (العدة الدائمة) وأي منتج حضاري هو حصيلة تأليف بين العناصر الثلاثة، فالمصباح الذي نستعمله في الإنارة هو منتج حضاري أنجزته جملة من الافكار تطورت مع الزمن عند الإنسان الذي يمثل العنصر الأول الذي يدخل في إطار التدخل البشري الفكري واليدوي، إبتداء من أول إنسان فكر في المصباح وصنعه وصولا إلى "توماس إديسون" مخترع المصباح الكهربائي والتراب فهو العنصر الثاني، فيمثل المادة

¹-مالك بن نبي:شروط النهضة،ص 23.

²-نفس المصدر السابق ص 90

الأولية التي تقوم بمهمتي الوصل أو العزل أما الوقت فهو الذي تجري فيه عملية الانجاز و بناء الناتج الحضاري لأنه يمثل الزمن الذي تجري فيه الأحداث الإنسانية ويتحرك فيه المجتمع داخل التاريخ .وتتكون في مجاله الحضارة¹.

2-2-الفكرة الدينية : إنَّ الفرد في حاجة إلى الجماعة، فهو في أمس الحاجة إلى النظام ليحقق وجوده وإستمراره،وهذا الاجتماع يظهر في صورة مجتمع يبقي في حاجة كبيرة إلى عقيدة موحدة لكي تنشئ العلاقات والقيم الأخلاقية، وتزرع في أفراد المجتمع الشعور المشترك بحاجة الأفراد إلى بعضهم البعض ،حيث تعتبر العقيدة الموحدة هي الدافع إلى النهوض بالمجتمع ، فيبدأ التاريخ وتنطلق الحضارة فالتاريخ يصنعه الإنسان والحضارة إنتاج إنساني في التاريخ وهذا الصنع وهذا الإنتاج من فعل الانسان بدافع من الفكرة الدينية، فالعقيدة تغذي الروح،لأنَّ الحضارة في طورها الأول تشترط عوامل روحية دينية تكون وراء كل تجديد حضاري،وهو ما نجده في الحضارة الإسلامية حيث بواسطة تعاليم القرآن وسنة الرسول(ص) بزغت شمس الحضارة وسطع نور النهضة في صحراء العرب بعدما تحكمت فيهم تقاليد وأحكام وأفعال الجاهلية مثل وأد البنات،والزنا، والعصبية.وبناء على هذا فإن الحضارة عند "مالك بن نبي" تصنعها الفكرة الدينية والمبدأ الأخلاقي من خلال التأليف والتوحيد بين عناصرها الثلاثة: الإنسان التراب والوقت،حيث تمثل الفكرة الدينية المركب في كل تجديد حضاري أو نهضة حضارية،².

2-3 التغيير:التغيير عند "مالك بن نبي" جوهر ولب عملية التجديد الحضاري وهو شرط لازم لكل تطور أو بناء أو إصلاح أو بعث حضاري ، فكما يكون التغيير شرط البناء الحضاري فقد يشرف على هدم هذا البناء وإزالته، و"مالك بن نبي" يضع التغيير كفاعلية إنسانية فردية واجتماعية وأمية وراء كل نهضة ، ومبدأ التغيير عنده يمثل قاعدة أساسية أكد

¹-مالك بن نبي:تأملات،ص 198/199

²-مالك بن نبي:شروط النهضة: 103.

عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"¹ وقد تناول "مالك بن نبي" مبدأ التغيير كقاعدة عامة في كل حركة تاريخية حضارية فهو يلزم كل عملية من شأنها أن تجدد أو تطور أو تصنع التقدم والإبداع في مختلف مجالات حياة الإنسان الفكرية والاجتماعية والمادية، كما تناوله كمشكلة مطروحة أمام العالم الإسلامي الذي يعاني الجمود والركود والتخلف. وحل هذه المشكلة مرهون بتمسك المسلم بالقاعدة المقررة في الآية السابقة، كما أن عملية إنتاج الأفكار والقيم والأشياء بفعل التجديد الحضاري تكون بدافع الفكرة الدينية هذه العملية تتضمن تغييرا يحدث في روح الفرد وروح المجتمع وروح الأمة ولا يحصل التغيير في محيط الفرد ما لم يحصل في نفسه أولا، وتغيير النفس هو الأساس لكل تغيير هادف رشيد فالاستعمار لم يستطيع فعل شيء مادام الفرد يملك نفسا تحررت من المذلة بفعل تغيير نفسي مكنها من القيام بوظيفتها الاجتماعية ولا يتغير شيء في الخارج إن لم يغير الفرد نفسه² فالتغيير ضرورة لا بد منها لكي يحقق الإنسان وجوده في التاريخ ويقوم بوظيفته الاجتماعية التاريخية، والتغيير يبدأ من داخل نفس الفرد ثم يشق طريقه نحو الخارج فالفرد لا يمكنه أن يغير شيئا في الخارج ف إن لم يغير شيئا في نفسه و يظل التغيير فاعلية إنسانية ضرورية للتجديد الحضاري عند الإنسان الذي يتحرك في التاريخ ليحقق وجوده، هذا الانسان الذي صارت إرادته قوية ورغبته كبيرة في الارتقاء الحضاري بعدما هجر الجمود والتخلف والانحطاط وبذلك يكون قد شق طريقه نحو البعث والإحياء وإعادة البناء .

2-4 البناء لا التكديس: اعتمد "مالك بن نبي" في تحديد شروط النهضة والتجديد على شواهد تاريخية حيث أرجع كل مشكلات الإنسان جميعا إلى مشكلة الحضارة لأن القضية ليست قضية فقر، وإنما هو أمر يتعلق بأساس مشكلاتنا، فعلى أن نفكر في جذور المشكلات ونذكر أن القضية قضية حضارة، وما الفقر والغنى والجهل والمرض إلا أعراض لتلك

¹-الرد الآية 11

²-مالك بن نبي: دور المسلم في الثلث الاخير من القرن العشرين: ص 58

المشكلات الأساسية¹ فالحضارة عند "مالك بن نبي" تقتضي تجنب الاتكال على الغير وتحاشي أسلوب الإستيراد والتكديس فلا يتحضر شعب إلا اذا امتلك وعيا حضارياً يميز بين البناء والتكديس وبين الإنتاج والاستراد ، فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس لأن عملية إنشاء الحضارة لا تتم بشراء كل منتجاتها وتكديسها فذلك مستحيل من حيث الكم والكيف معاً، لأن حضارة لا تتبع كل منتجاتها مرة واحدة، فلها روح وأفكار وأذواق خاصة بها تبقى لها ،لأننا عندما نشترى منتجاتها -الحضارة- فإنها تمنحنا هيكلها وجسدها لا روحها وتعجز الأمة المستوردة عن شراء كل منتجات الحضارة ودفع ثمنها لأنها لا تملك رأسمال ذلك فالاستحالة هنا تاريخية واجتماعية واقتصادية والتسليم بالإمكان يؤدي إلى حضارة الشئئية² في حين أن الحضارة الحققة هي عملية بناء ، تتطلب أسسا فكرية ومادية في عالم الأشخاص والأشياء وفي إطار منهج يحدد المبادئ والغايات، فلكي نقيم بناء حضارياً لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات وإنما أن نستغل شروط البناء استغلالاً رشيداً يسمح بإنشاء حضارة فذلك يتطلب توجيهها رشيداً لعناصر وشروط وإمكانات وطاقت الفرد والمجتمع³.

2-5 التوجيه: يعتبر التوجيه شرطاً ضرورياً للنهضة والتجديد الحضاري انطلاقاً من أن النهضة مشروطة بالتغيير الذي يقع على مستوى الفرد والمجتمع، هذا التغيير الذي يضمن تحرك التاريخ بفعل دوافع نفسية واجتماعية، ولا يؤدي المجتمع رسالته إلا بوجود ترابط عضوي بين مكونات شبكة العلاقات الاجتماعية طبقاً لتأثير طوائف اجتماعية ثلاثة:

أ/تأثير عالم الأشخاص.ب/تأثير عالم الأفكار.ج/تأثير عالم الأشياء، حيث أن هذه العوالم لا تعمل متفرقة،بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته من "عالم الأفكار" يتم تنفيذها بوسائل من "عالم الأشياء"،من أجل غاية يحددها "عالم الأشخاص"⁴ فالتغيير التاريخي من إنتاج

¹ -مالك بن نبي: تأملات ص 166

² مالك بن نبي شروط النهضة: ص106

³ -مالك بن نبي ميلاد مجتمع: ص 10

⁴ -نفس المرجع السابق، ص 24

العوامل الثلاثة ووحدة التغيير التاريخي ضرورية لأن ذلك في نظر "مالك بن نبي" يجسد الحضارة في الواقع وهذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود "عالم رابع" وهو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية، أو ما يطلق عليه "بشبكة العلاقات الاجتماعية" فالمشكلة بأكملها مشكلة فرد يصنع التاريخ من خلال تأثيره في المجتمع بفكره وعمله وماله والتوجيه في هذه النواحي الثلاث الفكر والثقافة، العمل ورأس المال.¹، إن توجيه الإنسان في النواحي الثلاث لغرض التجديد الحضاري يرتبط بتوجيه التراب والوقت، بل يشترط ذلك ليكون الفعل الحضاري متكاملًا، فالتراب عنصر من عناصر تكوين الحضارة وقيمتها الاجتماعية تكون على قدر مالكيه من التقدم أو التخلف والإنحطاط أما الزمن فهو العامل الثالث من عوامل الحضارة الذي يمثل ثروة في مجالات الحياة وهو جوهر لا يقدر بثمن، ولا يتحدد معنى الوجود الإنساني إلا بتحديد فكرة الوقت ووعي قيمته، والتربية هي الأداة الوحيدة التي تغرس في أفراد المجتمع قيمة الوقت وتثبتها فيهم، فإذا إستغلينا الوقت هكذا فسترتفع كمية حصادنا العقلي واليدوي والروحي وهذه هي الحضارة.²

إن التجديد الذي دعا إليه "مالك بن نبي" له طابعه الخاص لأنه حتى وإن كان يلتقي مع المحاولة الإصلاحية عند مفكري الإسلام كمحمد إقبال غير أن فكره انطلق من واقع العالم الإسلامي ومن تخلفه ومشاكله اليومية، في الدين و الاجتماع و الثقافة و السياسة والأخلاق وغيرها، وهي مشكلات حضارة في الأصل و الجوهر. وقد قام بتحليل واقعه و تحليل واقع الأمم المتحضرة في عصره، وانتقدهما بطريقة علمية، كما حل وانتقد الحياة الفكرية في العالم الإسلامي المتخلف، وحتى أوروبا المتحضرة. وركز على إستيعاب و نقد الفكر الإصلاحي الحديث والمعاصر في العالم الإسلامي، و فلسفة التاريخ في أوروبا من خلال رؤية "شبنجلر" ، ومنظور "كيسرلنج"، و نظرية "توينبي" و "فيكو" وغيرهم. وقد انبثقت عن هذه الدراسة النقدية التي قام بها "مالك بن نبي" سواء في الحضارة، أو في التجديد الحضاري،

¹- مالك بن نبي: شروط النهضة: ص 148،

²- نفس المصدر السابق: ص 214

التأكيد على البعد الروحي والديني للحضارة، لكون الفكرة الدينية تؤلف بين عناصرها، و توحّد الانسجام بين شروطها و لوازمها، كما تضمن لها البقاء والاستمرار و الازدهار بالإضافة إلى فعاللتغيير الذي يحققه هذا البعد (الروحي) في داخل نفس الإنسان، وفي أعماق ذاته، ثم يجرى في المحيط الذي يعيش فيه، وهي سنة سنّها الله لتسير عليها الحياة، و يقررها القرآن في قوله تعالى: "(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) والتغيير يسمح للإنسان بأن ينتج حضارته بنفسه، بعيدا عن الاستيراد والتبعية والمديونية الحضارية، فالحضارة الحقّة هي التي تلد منتجاتها، وليس العكس. لذا يجب التمييز بين البناء و التكديس، و الأخذ بالبناء لا التكديس، ويبقى التوجيه شرطا ضروريا لكل صحة أو نهضة حضارية، توجيه الإنسان، وتوجيه الأفكار وتوجيه الأشياء. لأن فعل التجديد الحضاري عبارة عن تغيير يجرى على الإنسان في عالمه النفسي الداخلي، ثم عالمه الخارجي، أساسه روحي، يظهر في الحياة بجميع مجالاتها. و يتجلى في النهاية في صورة تقدم وازدهار روحي، وتقدم وازدهار مادي، و متى حصل التوازن والانسجام والتكامل بين الجانب الروحي و الجانب المادي يبلغ الإنسان قمة الحضرة التي هي غاية التاريخ و المجتمع و مبتغى الإنسان فالتجديد في الحضارة من حيث تكوينها أو تطورها أو إستمرارها، أو إصلاح أوضاعها يقتضي عدة دائمة وتغييرا يبدأ من داخل الفرد ثم يتجه إلى الخارج، فيحصل البناء من خلال توجيه وتخطيط يربط المبدأ بالغاية، ويستغل جميع الوسائل والمناهج ويستغل جميع الوسائل والمناهج لخدمة الإنسان ولتحقيق أغراضه القريبة والبعيدة¹.

3- أبعاد التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي" :

شهدت الإنسانية عبر تاريخها الطويل عدة حضارات .واستقراء هذه الحضارات يثبت أن قوة الحضارة مشروط بالانسجام بين جهد الإنسان وغاياته العليا أما ضعف الحضارة وانحلالها سببه تحلل الإنسان في فكره وسلوكه، فمن خلال التاريخ يمكن للإنسان أن يحدد

¹-وجيه الكوثرائي: لماذا العودة إلى بن نبي عندما يطرح منهج التغيير، ندوة الكويت، ط1995، 1. ص 68

مكانته في الدورة التاريخية بل في الحياة ككل ويدرك أسباب التخلف والانحطاط وعوامل النمو والنهضة، فيصبح التاريخ بهذه الأهمية أداة تقويم للذات ، فهو يمد الإنسان بالمعايير اللازمة للوصول إلى الحقيقة وبذلك فإن عملية التجديد الحضاري تبدأ عندما يتحرك الإنسان ليدخل إلى التاريخ ويؤثر عليه مما يثبت لنا أن للتجديد الحضاري أبعادا تاريخية واجتماعية قد حققها .

3-1- البعد التاريخي و الاجتماعي: يمثل التجديد الحضاري حركة إنسانية تنطلق من نقطة ما لتصل إلى أخرى داخل مجال التاريخ، لأنه هو الذي يسجل هذه الحركة منذ انطلاقتها ويسجل مراحلها وكل ما يصيبها وما يطرأ عليها من تغيرات، وأن أية حضارة من الحضارات سواء ماضية أو حاضرة أو تكون في المستقبل تتكون بفعل التجديد الحضاري. والتاريخ هو الذي يسجل هذه المرحلة من النهضة الحضارية من البداية إلى النهاية، لأن ميلاد الحضارة لا يكون بالصدفة أو من العدم بل من معطيات تاريخية سابقة ، فالتاريخ يمثل الإنسان والحضارة والتجديد الحضاري، وتمثل المعطيات التاريخية لأية نهضة حضارية شروطا وأسبابا تنتج النهضة والتجديد والحضارة، هذه الحضارة يلعب في بنائها الفرد في صلته بمجتمعه وفي علاقته بالتاريخ دورا رئيسيا. لأن أي تجديد في الحضارة هو من صنع أسباب نفسية وعوامل زمنية تاريخية وكذلك إجتماعية¹ كما أن عملية التجديد تحددها حاجة الفرد إلى الاجتماع الإنساني، فهو لا يستطيع أن يوفر لنفسه كل ما يحتاج إليه من ضروريات وكماليات ولا يقدر على بناء الحضارة بمفرده، وبالمقابل فالاجتماع البشري في حاجة إلى الفرد لأن الاجتماع ذاته هو اجتماع أفراد يجمعهم حاضر واحد ومصير واحد، فتتوحد الجهود وتتحدد الغايات والسبل والوسائل وتتحد لضمان حياة اجتماعية، هذه الحياة الاجتماعية في حاجة إلى علاقات تنظم حياة الأفراد داخل الاجتماع، فيصبح الاجتماع في حاجة إلى النظام فيتشكل المجتمع، والواقع أنّ حركة المجتمع التي

¹ - د /عائشة المناعي : مظاهر التجديد في فكر مالك بن نبي ص 38 وأنصر أيضا أسعد الحمراي- مالك بن نبي

تحدث التغيير والتطور تمثل حركة التجديد الحضاري في التاريخ، وهذا الحركة هي التي تبني المجتمع وتصنع الحضارة وتحدث التطور التاريخي¹.

ومن هنا نستنتج أنّ التجديد الحضاري يشترط المجتمع والمجتمع يشترطها، وإنهيار حضارة أي مجتمع هو انهيار للخصوصيات التي يتميز بها هذا المجتمع، وأي إجتماع بشري بدون حضارة يغلب عليه الطابع البدائي ويسوده قانون الغاب وتحكمه الهمجية، فالحضارة هي التي تحمي المجتمع من الهمجية، ويؤيد تاريخ الحضارات ما يذهب إليه "مالك بن نبي"، فالعرب في الجاهلية كانوا بدوا رحلا تسيطر عليهم الوثنية والنصرة القبلية وغيرها من العادات الفاسدة، فإذا بالإسلام يبعث فيهم روح التآلف ويدفعهم إلى التحضر، فكان لهم ما هو معروف من حضارة²، ففي مجتمع الحضارة يتوفر مناخ الحرية والحماية للفرد، فالتجديد الحضاري مرهون بوجود المجتمع لينطلق من داخله فيغيره والمجتمع لا يتطور ولا يحافظ على حياته ولا يشهد الحضارة ولا يعرف التجديد الحضاري إلا بفعل هذه الحركة . وقد أكدت معظم الدراسات في تاريخ الحضارات أنّ كل حركة تجديد حضاري تنطلق من داخل المجتمع بتوجيه أخلاقي وضوابط أخلاقية، فالمجتمع في حاجة إلى قوة تماسك لأفراده لممارسة التجديد الحضاري وبناء الحضارة، ويحصل التماسك لدى الفرد بفعل الغريزة أما المجتمع التواق إلى الحضارة وإلى الرقي والسمو فإنه يستعمل الغريزة نفسها، ولكنه يهذبها ويوظفها بروح خلقي سامي .

3-2 البعد الأخلاقي للتجديد الحضاري: انطلق "مالك بن نبي" من مسلمة مفادها أنه لا يمكن لأي مجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك دون وجود شبكة العلاقات التي تؤلف بين عناصره المختلفة بما فيها النفسية والزمنية. وأن كل علاقة هي في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقي والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع والقانون الخلقي تتضمنه العلاقة الاجتماعية التي هي في جوهرها قيمة ثقافية، بحيث أن الغاية من وجود القانون الخلقي هو

¹-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ، ص 72/42

²-مالك بن نبي: شروط النهضة ص 104/102

بناء المجتمع والمحافظة على تماسكه وإدخاله في التاريخ من خلال تمكينه من التجديد الحضاري وتكوين الحضارة وتحريك التاريخ، وكلما حدث إخلال بالقانون الخلفي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع تاريخه "فقوة التماسك التي أوجدتها العلاقة الاجتماعية المتضمنة للقيم والقوانين الأخلاقية الإسلامية هي التي جعلت المهاجرين والأنصار يصلون إلى درجة التآخي والإيثار كما أنّ قوة التماسك بين أفراد المجتمع الواحد الناشئة عما تفعله القوانين الأخلاقية داخل المجتمعات يقدم صورة جمالية تختلف عن تلك الصورة التي يظهر عليها مجتمعا ممزقا في طريقه الى الأفول حيث أن الجمال يمثل أحد مكونات المنظومة الثقافية، والثقافة تمثل المحيط الذي يعكس حضارة المجتمع، "والإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال بل إنّ الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة¹". بحيث أن الجمال ينبغي أن يشاهد في المجتمع المتحضر في جميع الأماكن والمجالات، في الشارع والبيت والسينما والمسرح، وقيمة الجمال تكبر في عين "مالك بن نبي" فهو عنده وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا، لكي نحفظ كرامتنا ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بنفس الاحترام فالتجديد الحضاري مشروط بجملة من القيم الأخلاقية والجمالية تشكل عوامل تحرك التاريخ وتبني الحضارة، وهذا يتطابق مع ما يدعوا إليه الإسلام فالرسول الكريم ﷺ بُعث لإتمام مكارم الأخلاق، والله يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾² كما اعتنى الإسلام بالبعد الجمالي في حياة الفرد والمجتمع والأمة، ويظهر ذلك بوضوح من خلال التأكيد على طهارة النفس والبدن والمحيط³.

إنّ النتيجة التي انتهينا إليها بعد تحديد البعد الأخلاقي والبعد الجمالي للتجديد الحضاري والحضارة تؤكد أن وراء البعدين بعد آخر يمثل الأرضية والمرجعية لجميع الأبعاد المختلفة حسب "مالك بن نبي" وهو البعد الروحي الديني، فالعلاقات الاجتماعية المتضمنة

¹-مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص96

²-سورة القلم الآية 4

³-مالك بن نبي: شروط النهضة ص: 98

للقيم والقوانين الأخلاقية وحتى الجمالية هي من صنع علاقة روحية بين الله و الإنسان، وهي التي تكون وراء ميلاد أي مجتمع يدخل التاريخ ويصنع التجديد الحضاري ويبني الحضارة. لأن الفكرة الدينية تشترط سلوكا لدى الإنسان به يكون قادرا على أداء الرسالة، ودوره لا يقف عند بعث التجديد الحضاري ودفع معتقياها إلى الحركة في التاريخ وتشكيل الحضارة بل تعمل على ضمان استمرار هذه الحضارة و حمايتها من عوامل وأسباب الإنهيار والأفول. فهي تحل لنا مشكلة نفسية اجتماعية أخريذات أهمية أساسية تتعلق باستمرار الحضارة. فالتجديد الحضاري "عند مالك بن نبي" امتداد لأبعاد كثيرة ومختلفة وهي إنسانية ونفسية واجتماعية وأخلاقية وجمالية وهذه الأبعاد كلها ذات طابع روحي ديني تعود إلى بعد روحي، يكون وراءها يصنعها جميعا ويحرك التجديد الحضاري ويضع الإنسان في التاريخ ويمكنه من بناء الحضارة ويحافظ على استمرارها ويحقق الوجود الإنساني بتحقيق غاياته القريبة والبعيدة وهي غايات الإسلام ومبتغاه ومقصده¹.

4- مظاهر التجديد عند "مالك بن نبي":

4-1- التمازج بين النظرية والتطبيق: لعل أهم شئ أساسي جعل "مالك بن نبي" من بين مجددي العصر الحديث في العالم الإسلامي، هو أنه لم يكن فقط مجرد مفكر قام بسرد سلسلة من الحلول اللازمة لنهوض الحضاري، بل إنه قد جمع بين طرفي المعادلة اللازمة لأي نهوض أو تجديد، ونعني بها التمازج بين "النظرية والتطبيق". وفي هذا السياق التجديدي نجده يستعين بالتجربة اليابانية، فمن عام 1868م إلى 1905م قفزت اليابان من مرحلة العصور الوسطى إلى مرحلة الإنجازات والتطورات. فالعالم الإسلامي إذا أراد أن يجتاز المرحلة نفسها، فما عليه إلا أن يقتبس من الكيميائي طريقته، فهو يحلل أولا المنتجات التي يريد أن يجري عليها عملية التركيب الحضاري فإذا سلكنا هنا هذا المسلك قررنا أن كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية الآتية: ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت،

¹- نفس المصدر السابق ص 87

ففي الصباح مثلا يوجد الانسان خلف العملية العلمية والصناعية التي يعد الصباح ثمرتها، والتراب في عناصره من موصل وعازل، أما الوقت يبرز في جميع العمليات البيولوجية والتكنولوجية، وهو ينتج الصباح بمساعدة العنصرين الأولين: الإنسان والتراب ولم يكتف "مالك بن نبي" بما ذكر، وهو بصدد رسم معالم الطريق لمسلم اليوم، لتحقيق انطلاقة حضارية راشدة تساعده على انجاز البناء الحضاري المعاصر، فيواصل تحليله لهذه الصيغة الرياضية، فيقول: " فالصيغة صادقة بالنسبة لأي ناتج حضاري، وإذا ما درسنا هذه المنتجات حسب طريقة الجمع المستخدمة، فسننتهي حتما إلى ثلاثة أعمدة ذات علاقة وظيفية: حضارة = إنسان + تراب + وقت. وتحت هذا الشكل تشير الصيغة إلى أن مشكلة الحضارة تتحلل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات، وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها¹.

2-4 بين الفكرة والواقع: من أهم المظاهر الأساسية التي يمكن إستخلاصها من خلال تحليلنا لمنهج البحث في فلسفة عند "مالك بن نبي" هو صياغته للعلاقة بين الفكر والواقع وهذا حينما حاول إيجاد العلاقة بين الوسائل التي يملكها المجتمع بالغايات التي حددها هدفا له، وهذا من خلال طرحه لمشكلة الفعالية الحضارية (أو التجديد الحضاري) وهو بحث في العلاقة المتبادلة بين العناصر الثقافية التي تؤثر في البنية الحضارية، وفي مدى ملاءمة هذه القيم والأفكار للغايات التي تسعى الحضارة لتأصيلها في محيط الإنسان الاجتماعي² وفي هذا السياق يمكن القول بأن التجديد عند "مالك بن نبي" إنما هو عملية بنائية تستهدف إقامة حضارة بواسطة نظام من العلاقات الاجتماعية، أو هو تحويل الواقع الاجتماعي المتخلف إلى تركيب حضاري، عن طريق شبكة العلاقات الاجتماعية والتغيير الاجتماعي بالضرورة

¹ نفس المصدر السابق ص 94/05.

² -- د./ سلميان الخطيب: ، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ببيروت ، ط1، 1993 ، ص 151.

هو من صنع الأشخاص والأفكار والأشياء جميعاً، ولا بد من توفر صلات ضرورية بين هذه العناصر كي يؤدي التغيير الاجتماعي وظيفته ويتحقق الوصول بالمجتمع إلى الحضارة، والأشياء التي تنشأ نتيجة التفاعل بين العناصر الثلاثة الأولى الأشخاص والأشياء والأفكار، وترابطها في كيان عام من أجل عمل مشترك هو تحقيق الحضارة¹. وفي ضوء هذا المنظور النسقي للتجديد الحضاري المنبثق عن فلسفة حضارية واعية، يبدو "مالك بن نبي" - كمفكر اجتماعي ومجدد إسلامي أصيل- يقترب في كثير من موضوعاته إلى دراسة الواقع الاجتماعي حيث تشغل نظريته في هذا الصدد جانباً هاماً من أعماله، بما ينبثق منها من أفكار ومعالجته لقضايا الثقافة والبناء الاجتماعي، وقد امتاز في كل ذلك برؤية سوسيولوجية خاصة، وخصوصية في المنهج فرضها وعيه المتميز والمبكر، بضرورة أن يكون هناك علم اجتماع خاص بالعالم الإسلامي² وللخروج من الأزمة يرى "مالك بن نبي" من الضروري أن نعود إلى الدين والعقيدة والتي يفرضها الفهم الصحيح للإسلام لأنه إلى جانب كونه عقيدة خالدة، فهو أيضاً شريعة قادرة على احتواء الأزمة الحضارية للمسلم المعاصر، والعودة بمنحنيات الانكسار في الحضارة الإسلامية إلى مسارها الذي أراده لها الحق تبارك وتعالى كخير حضارة تظفر عنها قلب التاريخ، لأن أمتنا هي خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتهدي البشرية الحائرة إلى استقامة المنهج وصدق الرسالة، وفق قيم الجمال والحق والخير والعدل³.

4-2 الإنسان محور التغيير الحضاري: دعا "مالك بن نبي" المسلم اليوم إذا كان فعلاً جاداً في تبني خيار التجديد الحضاري فعليها أن يتلمس العودة لإيقاظ روح الإيمان الموجودة فيه، وتقوية تكوينه العقائدي والأخلاقي، وذلك بنفس معيار الطاقة والفعالية التي أتمم بها

¹- د./ نورة خالد السعد: المرجع السابق، ص 601.

²-- د. علي القرشي: التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1409 هـ - 1989م، ص 692.

³- د./ سليمان الخطيب: المرجع السابق، ص 186-781.

المجتمع الإسلامي في عهد الرسول (ص) حيث أن التاريخ الحضاري للبشرية يؤكد لنا بأن كل عملية تقدم وتطور لا يمكن أن تتحقق إلا إذا ارتبطت بوجود قوى داخلية تصنع هذا التقدم- أو التجديد الذي يكمن في بناء المسلم المعاصر على أسس روحية مستمدة من مفاهيم الفكر الإسلامي الصحيح، كما يؤكد أيضا على ضرورة الإبداع الذاتي في عالم الفكر وعدم الاعتماد على الفكر الغربي كليا، وذلك لأن هذا الفكر وليد بيئته الخاصة، ووليد روح إنسانية لها سمتها الخاصة به¹.

من هنا يمكن القول بأن التجديد الحضاري، كما يراه "مالك بن نبي"، لن يتحقق في أرض الواقع إلا بفعل ديناميكي يحركه، لأننا نجد في بداية كل حضارة ثمة فكرة فاعلة قادرة على تغيير ما بالنفس، ومن ثم تغيير ما بالعقل، وذلك من أجل الإقلاع الحضاري نحو التجديد، إنها الفكرة المشحونة بالرؤية الكونية وبالمسؤولية الإنسانية الشاملة، إنها الطريق الشرعي والفطري لصناعة الحضارة الإنسانية والتقدم².

5- أهمية التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي":

5-1 البناء الحضاري وتحقيق التقدم: الحضارة - عند مالك بن نبي - هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفرادها كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه³ فالحضارة إذن تمثل حصانة لحياة الإنسان، وفيها تأمين على مصيره، وتوفير لاحتياجاته، وحفاظا على شخصيته الوطنية والدينية. فالحضارة يصنعها تاريخ الإنسان بعد أن تمده الطبيعة بالطاقات، ولكن إذا أحسن تكييف هذه الطاقات، وتوجيهها نحو أهداف محددة واضحة، وهذا الأمر مرهون بمدى الانسجام بين النمط الفكري الذي يحكم هذه

¹ - نفس المرجع السابق ص 432.

² - د./ عبدالحليم عويس: الوظيفة الحضارية لأفكار مالك بن نبي، مجلة الفيصل، العدد 96، دار الفيصل الثقافية، الرياض

شوال 1413 هـ - أبريل (نيسان) 1993م، ص 24

³ - مالك بن نبي: آفاق جزائرية. ت: الطيب شريف، مكتبة النهضة الجزائرية بدون تاريخ 47، 46

الحضارة عبر التاريخ، وبين الطاقات المتوفرة أو التي يمكن توفيرها لتنفيذ الجانب العملي. وصناعة التاريخ عند "مالك بن نبي" تتم تبعا لتأثير طوائف إجتماعية ثلاث: أ/ تأثير عالم الأشخاص. ب/ تأثير عالم الأشياء. ج/ تأثير عالم الأفكار. لكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة، بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الأفكار، يتم تنفيذها بوسائل من عالم الأشياء، من أجل غاية يحددها عالم الأشخاص. وكما أن وحدة هذا العمل التاريخي ضرورة فإن توافق هذه الوحدة مع الغاية منها، وهي التي تتسجم في صورة حضارة¹ يعطي هذا النسيج المطلوب لصنع الحضارة مفهوما يقيم التوازن بين وجهي الحياة المادية والمعنوية، وبهذا التوازن يتم الالتزام بالإسلام من أجل التحضر، حيث ترفض أحكامه، السقوط بالإنسان ليصبح عبدا للأشياء. فأى توجه حضاري جديد يتطلب إعادة قضية التوازن الروحي- المادي، وإذا ما توحدت ذات الفرد يكون ذلك خطوة على طريق توحيد المجتمع، أي بناء شبكة علاقات إجتماعية وبقدر ما تتجح هذه العلاقات التي تسير بتوازن يمكن أن تعجل في بزوغ فجر حضارة جديدة تعيد الدور للعالم الإسلامي وللعرب على المستوى العالمي. وقد رأى "مالك بن نبي" أن الحضارة إذا كانت هي استيراد أشياء الأمم الأخرى، أو استعارة فكرها ومنتجاتها، فإن في هذا الفهم بذرة موت الطموح الحضاري للشعوب، ولذلك يلاحظ أن الاستعمار يحاول دوما تنمية هذا الفهم العقيم للتحضر². ولا ينسى "مالك بن نبي" أهمية الروح، فالروح إذا ما إندفعت بالإنسان فإنما تندفع به لتوظف طاقاته وفكره و لابد من التأكيد على أن السمة العامة لهذه الحضارة تتبع من قواعد الأخلاق التي تضع في الأولوية كرامة الإنسان وحقه في العيش الكريم³ فعناصر الحضارة من إنسان وتراب ووقت لن تجدي نفعا إن لم يكن الجامع المشترك لها الأخلاق بمعناها الواسع، وهذا مبدأ عام وأساس ويفقدانه تفقد العناصر الثلاثة فعاليتها التحضيرية. وحتى العلوم بالرغم من اختلاف وتتوع مجالاتها من علوم إنسانية، إلى طبيعية إلا أن

¹ - مالك بن نبي : أفاق جزائوية نفس المصدر السابق ص23،24

² - مالك بن نبي: شروط النهضة ص45.

³ - مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية ص134.

تلازمها مع الأخلاق هو الذي يجعل منها رسالة حضارية لها صفة العالمية¹ فلتحقيق البناء الحضاري علينا إذن أن ننتقل من تكديس الأشياء إلى بنائها وفق إطار من النموذج المستلهم لروح الثقافة.. وهو العنصر الأساسي الذي يفتقد إليه العالم الإسلامي فعملية البناء الحضاري تقوم على أساس حركة شعب أيقظته ثورة على الواقع المتخلف، وتهيات له أفكار نابغة من تراثه وطبيعة تركيبته الثقافية والاجتماعية من أجل تحقيق رؤيته الفلسفية وقيمه العقائدية. ومن هنا نستنتج أن الحضارة لا تتبعث -في نظره- إلا بالعقيدة الدينية الصحيحة، كما هي واضحة في الإسلام، ولا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء، بل بمقدار ما فيه من أفكار، ولقد يحدث أن تلم بالمجتمع ظروف أليمة كأن تحدث كوارث طبيعية أو تقع حروب، فتحمو منه عالم الأشياء محوا كاملا، ، إلا أنه إذا استطاع أن ينقذ أفكاره فإنه يكون قد أنقذ كل شيء، إذ أنه يستطيع أن يعيد بناء عالم الأشياء مثلما وقع لالمانيا عقب نهاية الحرب العالمية الثانية.

5-2 بناء الانسان: إن بناء الفرد يستلزم عامل الزمن، وأسلوب التدرج، وعامل التوعية، والتأصيل. ويؤكد "مالك بن نبي" على أن بناء الإنسان منذ فجر التاريخ هو من مهمة الرجال، لأن الطبيعة لا تهب لنا كائنا جاهزا، كما أن الله لا يصنع إنسانا كاملا؛ ولقد كانت صيحة «بن نبي» كمتقف دوما يجب أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت في بناء أهدافهم. فالقضية الحضارية ليست قضية آلة يمكن توفير المال بشتى الوسائل لإحضارها، بل قضية إنسان مهياً لتوجيهها واستخدامها، وبالتالي فإن «مشكلة التجهيز مرتبطة بقضية الإنسان والأفكار وأن المحصول الاجتماعي للآلات مرتبط بفعالية وسلوك الفرد الذي يستخدمها»² كما أن حل مشكلة الإنسان غير متوفرة في الفكر السياسي الذي يوجه حضارة الدول الكبرى، لأنه فكر مادي بفرعيه: الرأسمالي والماركسي. ففي هذا الفكر تسود حلول أحادية الجانب أساسها المادة؛ لأن هذه الفلسفات لا ترى في الإنسان إلا

¹ - د. أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص148، 149 دار النفائس، بيروت عام 1984م. ص 23

² - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص104 وأنضر أيضا كتاب مالك بن نبي ، أفاق جزائرية ص 68

عالم أعداد وأرقام، بينما المسألة تختلف جذريا في الإسلام الذي ينظر للإنسان من زاوية الاستخلاف في الأرض وأن كل ما في الكون من موجودات ومخلوقات مسخرة له حيث نجد بن نبي يقول: (إن الإنسان ليس في نظر المسلم الكم الذي تجري عليه الإحصائية والوزن، أي الشيء الذي تجري عليه تجارب المختبر وعمليات المصنع، وحاجات الجيش. بل الصفة التي قرنها الله بالتكريم في سلالة آدم، فالمسلم يكرم هذه الصفة بصورة مطلقة. كما هو منتظر فإن هذا التكريم له آثاره المحسوسة في الحياة، في التشريع وفي الآداب وفي العادات).¹

5-3 تحرير الإنسان: من هنا بات من الواجب أن نبدأ في تحرير ذات الإنسان من الاستسلام أمام الغزو والاستعمار وذلك بأن نتدرب هذه الذات على استخدام الوسائل والقدرات المتوفرة لها، حتى تحصن وجودها من إستهداف المستعمر-بكسر الميم- لها، والذي ينوي إفقادها الفاعلية، وروح التقدم والطموح، تمهيدا لتحويلها إلى (كم) مهمل يتصرف فيه كيف يشاء، وبذلك تبدأ ثورة التغيير عندما ينجح الإنسان في تحرير نفسه من عقد النقص والانبهار بمظاهر الغرب وهذا يتم عن طريق تحريره من الترسبات الوراثية في مجال التواكل والخرافة، وإعادة الثقة بينه وبين قناعاته وعقيدته وسلوكه وعمله. فليس المهم في بناء الإنسان الجديد أن نبدل له نمط عيشه أو زي لباسه ونوعية أثاث منزله ومكتبه، ونوع سيارته وكمالياته، ، ولكن المهم أن نحدد له إطاره الحضاري في مجال الثقافة والأخلاق والاقتصاد وكافة المجالات، وبشكل آخر أن نقنع ونصفي القابلية للاستعمار من عالمه الداخلي، حتى تنطلق طاقاته، ولتصفيته من عالمه الخارجي. فكل تغيير يطرأ على أمة معينة يجب أن يكون مرهونا بتحرير الإنسان، فحتى تحرير التراب والأرض يجب أن يسبقه تحرير الإنسان، لأن ذلك هو النهج الموصل للتخلص من الاستعمار، لأنه قد تتغير خريطة توزيع الملكية في الوطن، وقد تسند إلى أبناء الوطن وظائف كان المستعمرون يشغلونها، وقد تبدل الحروف اللاتينية بحروف عربية على واجهات ولافتات الحوانيت، إلا أن التغييرات هذه

¹-مالك بن نبي: في مهب المعركة . ، ص164-143.

جميعها تصبح مجرد سحر للأبصار ولا يستقر أمرها إذا لم يتغير الإنسان نفسه¹ من هنا فالبدء من الذات هو أساس الإصلاح والتغيير، وتجاهل دور الإنسان هو قصور في وعي خطورة هذا الموقف، وهو ما يترجمه خطأ السياسات التي اتبعتها العالم الإسلامي في الصميم، فقد اتجهت في كفاحها إلى المستعمر، دون أن تلتفت إلى الفرد الذي تسخره للقضاء على الاستعمار² فتنحى ثورة الحرية والتقدم يبدأ من النفس، وبهذا تتعدّل شخصية الإنسان، ويتم توازنها، وتتعانق جوانب الروح والمادة فيها، وبهذا النوع من الأفراد تعود الروح القرآنية إلى توجيه السلوك في المجتمع، فتكون الثمرة نهضة شاملة في العالم الإسلامي والعربي. لأن الذي يستطيع أن يجعل من العالم جديدا هو الذي يستطيع أن يبني إنسانا جديدا قادرا على تحمل مسؤولية وجوده ماديا وروحيا³ فالطريق إلى المشاركة في مصير الإنسانية مرهون إذن بقدرتنا على بناء ثقافتنا وفق النموذج المستمد من قيمنا الحضارية التي احتوت الإنسانية جميعها. فالإسلام ليس ديننا فحسب، بل إنه حضارة زودت عالمنا الإسلامي بالعقائد المختلفة بالنمط والأسلوب والنظرة إلى الإنسان نظرة تتفق والحقيقة العلوية المطلقة، ومن هنا تأتي أهمية ودور المثقف ووظيفته. لأن الوعي الاجتماعي مرتبط بمدى نشاط المثقف الحيوي، فهو عقل الأمة، والمرآة العاكسة لأوضاعها والذاكرة المحركة والمشكلة لهويتها. وإذا كان "ديكارت" قد وضّح أن المعيار المميز للشعب الهجري، هو مدى شيوع التفلسف الصحيح، فإن "مالك بن نبي" يعتبر أن ما يميز المجتمع المتحضر للتحضر عن غيره، هو مدى فاعلية المثقف. إن بناء الإنسان مرتبط ارتباطا وثيقا بمدى ما يقدمه المثقف في العالم الإسلامي من خدمات خاصة في مجال التوعية والتعليم. لأنه -في نظر بن نبي - قبل أن نبني الإنسان الجديد، يجب أولا أن نبني المثقف. ويرى "عبد القادر بوعرفه" أن الشعب الجرمانى تفتن إلى هذه النقطة الجوهرية، مما جعل "بسمارك" يعتبر أن إصلاح

¹-مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه دار الوعي للنشر والتوزيع ط 1. 2013. روية الجزائر (منشور أصلا من قبل دار

الفكر المعاصر بيروت . 44-49

²-- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 106

³-مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص192

الفرد أمر مستحيل فاتجه أولاً إلى إصلاح من يصلح الفرد، أي إيجاد المثقف. لأنه (المثقف) يمثل دورين أساسيين في كل عمل حضاري، دور المرأة التي تعكس الواقع الحقيقي دون زيف ولا خداع، ودور المصباح الذي ينيّر الطريق أمام الجيل المتعطش للتحضر. ويبين بن نبي أن المجتمع الإسلامي بحاجة إلى مثقفين من حجم "محمد إقبال" الذي يعتبر في رأيه المثقف الحيوي والنموذجي في نفس الوقت، لأنه استطاع تصفية الأفكار الميتة المشحونة في نفسه عن طريق الوراثة الاجتماعية والثقافية الاستهلاكية، وبالتالي إكتسب قابلية للتحضر. لأندور المثقف في نظر "مالك بن نبي": هو توعية المجتمع بالصعوبات التي يعيشها ومحاولة انتشاله من الضياع، وتوجيهه نحو الطريق الأسلم للبحث عن الهوية. كما أن عليه ترميم شبكة العلاقات الاجتماعية التي أصابها الانحلال التي أصبحت تشبه -من حيث العلاقة- بيت العنكبوت، والمجتمع بالصفات السالفة لا يمكنه الشروع في التحضر إلا إذا إكتسب شروط موضوعية وأخرى ذاتية تدفعه نحو الحضارة، يقول بن نبي: (ومن هنا ينبغي على المجتمع، عندما يشرع في النهوض أن يرمم ويصلح شبكة علاقاته الاجتماعية، ليتغلب على الصعوبات الناشئة في نطاق علاقاته السلطوية)¹ وهكذا يتضح لنا أن الوعي التاريخي، عند «بن نبي» كان واضحاً في مواقفه النقدية إزاء الحضارة الغربية وفي تأكيده على الأسس الروحية والأخلاقية للبناء الاجتماعي، وقوله بضرورة مراعاة البعد الإنساني في الجوانب التنموية. وكان في معظم كتاباته وتحليلاته السلوكية والاجتماعية والتاريخية، وما صاغ من مفاهيم وموجهات فلسفية وتربوية قد قدم فكراً مميّزاً حياً، وعرض معالجات دقيقة وملاحظات نقدية يقظة يمكنها أن تشكل منبعاً خصباً لتغذية وتنشيط التفكير الإسلامي المعاصر وإضاءة وإعلاء وعية ومستقبلية لما يحدث في قرننا الواحد والعشرين، الذي يعاني نفس المشكلات التي عاشها "مالك بن نبي" في منتصف القرن العشرين، وهي نفس مشكلات عالم العولمة الذي يدفع بالعالم إلى مزيد من الشقاء والمعاناة في ظل تدهور بيئي

¹ -مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه، ص 48-50

وكوني شامل ومرّيع، والاستغلال الرأسمالي، الذي تمارسه الدول العظمى والشركات العملاقة للهيمنة ليس على مقدرات وثروات العالم العربي والإسلامي بل مقدرات العالم أجمع.

إن العالم العربي والإسلامي -في نظر "مالك بن نبي"- يملك القدرات التي تؤهله لإنقاذ البشرية ولكن ذلك يحتاج إلى الإرادة المستقلة المتطلعة إلى التقدم، والتخلص من الواقع المتخلف الذي يفرضه الارتباط بالغرب، والإطار الشامل لأي تحول ثقافي ببعد إنساني وطابع تقدمي، هو الإسلام، ومهما كان الأمر، فإن للإسلام في هذا التوقع العالمي لتحديد ثقافة شاملة دورا كبيرا، إذ هو يأتي بعناصر ثقافية جوهرية، كما يأتي بعناصر جغرافية وسياسية ذات أهمية خاصة.. ولكننا ندرك أيضا أنه لكي يؤدي الإسلام بصورة فعالة هذا الدور المزدوج، فإن عليه أن يترجم قيمه الروحية إلى نظام اجتماعي، كما يترجم إليه جميع إمكانياته الطبيعية، يجب أن يحول هذه وتلك إلى حلول مادية للمشاكل التي تواجهه في الإطار الإنساني¹.

الإستنتاج:

من الواضح أن التجديد الحضاري تصنعه جملة من الشروط ويتجلى في جملة من الميادين التي تمثل مظاهر الحضارة ومعالمها، ويمثل هو ذاته عامل البناء الحضاري لكل مجتمع فهو يمثل الديناميكا الحضارية لكونه إستراتيجية شعب يريد التحضر وينفر من التخلف ويرغب في التطور الروحي والمادي، ولكونها خيرا نظاما يُنتهج وخطة تُتبع لتطوير منتجات الحضارة الفكرية والمادية، للمحافظة على منتجات الحضارة القائمة واستمرارها من خلال الإبداع في مختلف المجالات ليتحقق التقدم والازدهار، وقد يحتاج أيّ مجتمع إلى التجديد الحضاري حينما يحرص على بعث وإحياء قيم وأعمال وعادات طيبة نافعة يكون قد تخلى عنها في وقت سابق، لكن في هذه الحالات التي يكون فيها التجديد الحضاري جوهر كل العمليات الحضارية وأساس "الديناميكا الحضارية" عند ميلاد الحضارة أو عند تطورها

¹-مالك بن نبي: فكرة الأفريقية الآسيوية، ص231.

أو عند إصلاح ما تمّ إفساده، وحتى في عملية البعث والإحياء وإعادة البناء، تقف أمامه جملة من الأسباب تمنع حركته وتقضي على بواده وعلى الشروط التي تصنعه فيشتد التخلف وتنتشر أسباب الجمود والتحجر، هذه الأسباب المانعة لقيام الحضارة ولقيام التطور الحضاري وإبعاد أي فعل لأجل البعث وإعادة البناء و هي التي تمثل عند "مالك بن نبي" موانع التجديد الحضاري وعوائق استثمار واستغلال الرأسمال الحضاري ولقد حدد "مالك بن نبي" في أكثر من بحث وفي أكثر من كتاب و محاضرة شروط نهضة أي شعب وهي شروط الحضارة معتبرا إياها المشكلة الأم في حياة الإنسان ، وتعكس فلسفة "مالك بن نبي" في تعاطيها مع الدين والثقافة والعلم والسياسة والتاريخ والحضارة عامة فتح عقل الإنسان العربي الإسلامي المعاصر على هموم ومشكلات عصره، وعلى قضايا الثقافة والحضارة والأصالة والمعاصرة والثبات والتغير، وهي مشكلات الأمة وقضايا الإنسانية جمعاء، إنه عقل همّه الأكبر ومشكلته العويصة محاربة التخلف والانحطاط، والأخذ بأسباب التحضر والتقدم والبناء الحضاري، وعقل مبدع صاحب دين وفكرة دينية، وصاحب علم ونظرية علمية، وصاحب تقنية وصاحب فكر وفلسفة، يعتبره بعض المفكرين المعاصرين همزة وصل بين النهضة والصحة في سياق تاريخي جمع بين الماضي والحاضر والمستقبل و صاحب نسق فكري متكامل في التعاطي مع مشكلات الحضارة دينيا وفكريا وثقافيا وعلميا واجتماعيا وماديا واقتصاديا، ولقد تبين لي وبوضوح من قراءتي لبعض الجوانب الهامة في فلسفة الحضارة عند "مالك بن نبي"، أن ما يجمع بين محاولته ومحاولات غيره من مفكري الإسلام في العصر الحديث والمعاصري الظروف التاريخية الزمنية والمكانية المتشابهة، والتي فيها نبتت فكرة الإصلاح عندهم، فهي متشابهة تماما، حيث الإسلام والاستعمار والتخلف في العالم الإسلامي من جهة والحضارة والعلم والتكنولوجيا في أوروبا الحديثة والمعاصرة من جهة أخرى، شكلت روافد و مصادر الفكر الإصلاحي في عصرنا، وأوجد وحدة في المبادئ والأهداف والتطلعات، فالبحت عند "مالك بن نبي" جاء ذا طابع علمي واقعي، وجاء الإصلاح بطابع اجتماعي علمي واقعي تاريخي، وجاء منهج البحث قائما على

التغيير في الفرد والمجتمع، وعلى القضاء على أسباب التخلف والأخذ بأسباب الحضارة كما هي في نظرية الحضارة، مصدرها التوجيه الديني والأخلاقي والعملي مع الاستفادة من خبرات وتجارب الآخرين العلمية والحضارية، كما نستخلص أيضا أن التجديد الحضاري له عوامل وشروط تطوره كما له موانع تقف في وجهه، وهذه الموانع ترتبط بالفرد وبمحيطة، إنها ترتبط بالفرد ككائن طبيعي وفساني وعقل واجتماعي ذات طابع حيوي وفساني واجتماعي وهي كذلك ذات طابع فكري ومنهجي، بعضها ذاتي في الفرد وبعضها موضوعي، بعضها داخلي في المجتمع وبعضها خارجي، وسبيل الفرد والمجتمع إلى الحضارة هو تجاوز موانع النهضة والتجديد للوصول إلى نقطة منها تتطرق وتطلع عملية البناء التاريخي بعدما تتوافر كافة شروط هذا الإقلاع. من بداية التحليل إلى نهايته ويمكن تفسير مدى اهتمام "مالك بن نبي" بفلسفة الحضارة من خلال ذلك العنوان الدال الذي حملته جميع مؤلفاته ونعني به "مشكلات الحضارة"، وتشير القراءة العلمية الدقيقة لهذه المؤلفات جميعا بأن "مالك بن نبي" قد توصل إلى أن الهدف من فلسفة الحضارة هو زرع بذور التقدم في التربة الإسلامية الخصبة، وهو ما يعني أن مجددنا علامة مميزة ليس فقط في الفضاء الثقافي الإسلامي فحسب، بل في الفضاء الثقافي الكوني قاطبة، تلك هي أهم ملامح رؤية "مالك بن نبي" لفلسفة الحضارة ودورها البارز في تحقيق التجديد عبر رسم معالم المشروع الحضاري البديل، الذي يعتبر "مالك بن نبي" أحد أبرز منظريه في عالم الإسلام.

المبحث الثاني : معاني ودلالات التربية عند "مالك بن نبي"

تعد المشكلة التربوية من اهم التحديات التي تواجه الدولة الحديثة .كما كانت أيضا مند الأزمنة الغابرة مشكلة أساسية ليس فقط للمربين وانما للمفكرين والمصلحين الاجتماعيين أيضا بل وحتى رجال السياسة باعتبارها عنصرا جوهريا في مشكلة الحضارة.وقد واجه العالم الإسلامي المشكلة التربوية في مختلف مراحل تاريخه الطويل غير ان المشكلة استمرت في جوهرها لانها كانت تعبر عن حقيقة واحدة والتي تتمثل في كيفية اعداد الانسان المسلم ليتمكن من القيام بمختلف وظائفه الاساسية في الحياة . ومن بين المفكرين اللذين تناولوا فكرة التربية بالتحليل والنقاش نجد المفكر الجزائري مالك بن نبي . غير ان معظم البحوث التي التي أنجزت حول فكره التربوي قد استولي عليها طابع السطحية في مناقشة ودراسة أفكاره فلا نكاد نعرث علي اية محاولة عالجت الدراسة المفصلة والشاملة لأفكاره التربوية علي شكل مشروع متكامل يمكن اتخاده كإطار مرجعي ننطلق منه لبناء منهج في التربية يتولى إعادة هيكلة الانسان المسلم واعداده لأداء وظيفته في التاريخ ولقد سبق وان اشرنا إلى أن الحديث عن الحضارة والثقافة والمجتمع والتغيير وهي محاور اساسية في فكر "مالك بن نبي" غير ان المتمعن لهذه المحاور يجد انها لا تخلو من طابعها التربوي ،وهو ما اردنا ان نقف عليه من خلال دراستنا للفكر التربوي ل"مالك بن نبي" وسوف نوضح العلاقة في هذا الفصل عن العلاقة بين الحضارة والتربية باعتبارهما عمليتين هادفتين تسييران في اتجاه واحد، إذ انهما تقعان على الإنسان كعنصر جوهري في معادلة "مالك بن نبي" الحضارية

1- مفهوم التربية ودلالاتها عند "مالك بن نبي" :

1-1 أزمة الفكر التربوي: يرى "مالك بن نبي" ان أسباب الازمة التربوية التي يعيشها المسلم اليوم تعود أليا غياب الشروط النفسية والزمنية اللازمة لتطور المجتمع "فأزمة العالم الإسلامي لم تكن أزمة في الوسائل؛ وإنما هي أزمة افكار، ولكي نتغلب على هذا المرض

علينا أن نكتشف طريق الأمة المرشدة¹ ويقرر "مالك بن نبي" أن صناعة التاريخ والحضارة تتم تبعاً لتأثير ثلاثة عوالم أساسية هي: عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء. بحيث نجد عالم الأشخاص يتعلق بالمجتمع والأفراد، عالم الأفكار يتعلق بالثقافة أما عالم الأشياء يتعلق بالمادة. وهذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة؛ بل تتوافق في عمل مشترك تأتي صورته طبقاً لنماذج أيديولوجية من (عالم الأفكار) يتم تنفيذها بوسائل من (عالم الأشياء) من أجل غاية يحددها (عالم الأشخاص)² فازمتاهي أزمة الانسان نحن اليوم بحاجة الى الإنسان الجديد، الإنسان المتحضر، الإنسان الذي يدخل الى التاريخ، الذي خرجت منه حضارتنا منذ واقعة صفين، لان المشكلة الحقيقية في نظره لا تكمن في تغيير المؤسسات السياسية ولا في الحلول الترقيعية، وانما المشكلة تكمن في الإنسان الذي تغير، وفقد همته الحضارية وكذا عدم قدرته علي احداث تركيب ديني جديد للتراب والوقت كما فقد كل مؤهلاته التي ترفعه إلى مستوى لقدوة والقيادة.³

ويرصد مالك بن نبي أهم صور الاختلال في العالم الثقافي (عالم الافكار) والذي يتمثل في مختلف الأصعدة: فعلى الصعيد القيمي: حيثحتل الأشياء القمة في سلم القيم، وتتحول الأحكام النوعية إلى أحكام كمية دون أن يشعر أصحاب تلك الأحكام بانزلاقهم نحو (الشيئية)، أما على الصعيد الاقتصادي والسياسي نجد: طغيان الشيئية وطغيان الأشياء قدرات المجتمع في ميادين أخرى، خصوصاً ميدان التخطيط - عندما يواجه بلد ما مشكلة التخلف- إما باستثمار رؤوس أموال أجنبية، أو بزيادة معدل الضرائب التي تشل كل أوجه النشاط الفردي كما نجد ان العالم الإسلامي .يعاني العالم الثقافي من هيمنة "الفكرة الوثن"، وهي منتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي المعاصر، وتكون أحياناً سبب ما نشهده من

¹-مالك بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ترجمة: عبدالصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، ط16، 2014م، ص117

²-مالك بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ترجمة: عبدالصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، ط9، 2012م ص27.

³- مالك بن نبي مشكلة الافكار في العالم الاسلامي ص 36

حالات إفلاس سياسي مذهل. إن تناقص الفكرة والوثن قد ضمن بصفة عامة للاستعمار نجاحه الباهر في الإجهاض السياسي في بلادنا، مستخدمًا غالبًا مثقفينا أنفسهم¹.

وأما على الصعيد الأخلاقي: يظهر الخلل عندما يتجسد المثل الأعلى في شخص ما، فيكون هناك خطر مزدوج فسائر أخطاء الشخص ينعكس ضررها على المجتمع الذي جسّد مثله الأعلى²، وتكون هذه الخسارة إما في رفض للمثال الأعلى الذي سقط، وإما في عجزنا عن إمكانية تعويض المثل الأعلى الذي³، إن أصل الأزمة الحضارية يكمن في بُعدها الثقافي والتربوي الذي ساهم في تشكيل إنسان عصر التراجع الحضاري، في ظل نظام تربوي هيمنت عليه رؤية قاصرة في التعامل مع الواقع ومشكلاته ومستجداته، وفي التعامل مع الماضي بموروثاته الفكرية والاجتماعية السلبية والتي أَلقت بظلالها على الجوانب السياسية والاجتماعية والأخلاقية بالضرورة، إن المنحى التربوي للأزمة الحضارية لم يساعد على حل الأزمة بل ساهم في تكريسها، ثم تطور فأصبح جزء من هذه الأزمة الحضارية بما حمله من مضامين سلبية من الماضي وفشل في إدراك الواقع والتعامل معه⁴.

وأخيرا على الصعيد الفكري: حيث يشهد عالم الأفكار في عالمنا العربي والإسلامي اضطرابًا يتمثل في عدم ادراك قيمة الفكرة بحيث يمثل الجانب الفكري اساس المشكلة التي نحن بصدد حلها. فالأفكار في المجتمع الإسلامي لا تتمتع بقيمتها التي تجعلنا ننظر إليها بصفاتها أسمى المقومات الاجتماعية، وقوة أساسية تنظم وتوجه قوى التاريخ كلها، وتعصمها بذلك من محاولات الإحباط مهما كان نوعها. وهذه الثغرة تعود في تكوينها، إلى التخلف الاجتماعي الذي نعاني منه في مجتمعاتنا المتخلفة، وبناء على هذا الاعتقاد المعرفي يمكن إعادة تعريف

¹ - مالك بن نبي : مشكلة الافكار في العالم الاسلامي ترجمة الدكتور بسام بركة، واحمد شعبو ،دار الفكر دمشق سوريا، ط1

1992 ص 81

² مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص 40

³ - مالك بن نبي مشكلة الافكار في العالم الاسلامي ، ص 81

⁴ - مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامي 48-49

المجتمع المتخلف بالتركيز على معيارية "عالم الأفكار" وقيمة "الفكرة" عوضاً من التركيز على مناهج أخرى تقاس على المعيارية "المادية" أو معيارية "الوسائل" و"الآلات". فالتخلف ليس تخلفاً في الوسائل المادية (الأشياء)، وإنما بافتقارنا للأفكار. يتجلى بصفة خاصة في طريقة استخدامنا للوسائل المتوفرة لدينا، بقدر متفاوت من الفاعلية، الذي يترتب عليه بالضرورة غياب وسائل الفعالية، والتي من أهمها تأسيس شبكة للعلاقات الثقافية، والتي لم تتكون بعد في المجتمع الإسلامي الراهن، وهو ما يتجلى في صورتين¹ الصورة الأولى: تدلنا على أن المجتمع الإسلامي فقد شبكة الاتصالات الثقافية، فالشخصيات التي يمكنها المساهمة مادياً في القيام بمشروع كهذا لا تشعر بأهميته. المهم هو المنصب أما الصورة الثانية: تكشف لنا عن ضعف الطبقة المثقفة نفسها في البلاد العربية والإسلامية. ويحمل "مالك بن نبي" "المثقف المسلم" مسؤولية الخلل والاضطراب الموجود في نظام الأفكار، وغياب وسائل الفاعلية، وذلك بعدم قناعاته بالقيمة الاجتماعية للأفكار وهو ما جعل المثقف المسلم "يدور في فلك بعض الأوثان بدلاً من أن يكرس نفسه لخدمة الأفكار"² ومن النتائج التي ترتبت على الخلل في (نظام الأفكار) وغياب (وسائل الفاعلية) وتشوه دور (المثقف المسلم) في العالم الإسلامي مما جعلها كذلك تعيش فترة أكبر، وتفقد الجهد والوقت إلى حد الإسراف في هذا الإعداد الحضاري الذي لم يتم، ولن يتم في ضوء خيار "التكديس" القائم على اختيار عقلية التوهم³ والوهم⁴. وهذه الإشكالية أوقعت المجتمع الإسلامي في تناقض واضح بين فعلي "التكديس" و"البناء" وبين الاستعارة والفاعلية، "حيث أورث ذلك تدهوراً في قيمة الأفكار الموروثة، وتدهوراً في قيمة الأفكار المكتسبة، وقد ترتب عليهما ضرراً في نمو العالم

3- مالك بن نبي، تاملات (مشكلات الحضارة) ترجمة، عمر مسقاوي، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، ط 9، 2009 ص 146.

2- نفس المرجع السابق ونفس الصفحة، انظر مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 83.

3- الزُّبُّ والشُّكُّ والظُّنُّ

4- الخرافات والأفكار والتصورات التي يميل الشخص إلى الاعتقاد .

الإسلامي أخلاقياً ومادياً. وهذه الانعكاسات السلبية اثرت على الواقع حيث نصادفها يومياً في صورة غياب الفعالية، وقصور في مختلف أنشطتنا الاجتماعية،¹ إنالأسى الذي يبديه "مالك بن نبي" هنا بالأساس يرجع لافتقاد المثقف المسلم الارتباط بنموذجه الأصلي ورصيد تجربته الحضارية، وهو ما أفشله أيضاً في الاتصال بالواقع المعاصر والتطور الحضاري الحادث في الغرب؛ وذلك لافتقاده أدوات الاستيعاب الحضاري وتنعكس الحالة الفكرية وهذا الخلل الموجود على العالم الاجتماعي، وهو من أخطر وجوه الأزمة بحيث يتحلل كيان المجتمع تحلاً كلياً، فيتجلى هذا المرض الاجتماعي في تفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية وتمزيق العلاقات بين الأفراد. وأكبر دليل على ذلك يتمثل فيما يصيب (الأنا) عند الفرد من (تضخم) ينتهي إلى تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية.

فالعلاقات الاجتماعية تفسد عندما تصاب الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعباً أو مستحيلاً، إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات، بل للعثور على أدلة وبراهين تبرر المواقف الفردية والخيارات الشخصية² إن هذه الأمراض الاجتماعية انعكست بدورها على النظام التربوي ومنهجه الذي غابت عنه "الفكرة" و"قيمتها" وهيمن عليه (قطاع التربية) "التقليد"³ وينتقل "مالك بن نبي" إلى بُعد آخر يرصد فيه أسباب "الأفول" و"الأزمة" الحضارية، وهي أن المسلم اليوم لم يتخل مطلقاً عن عقيدته فلقد ظل مؤمناً، متديناً [بالشعائر]، ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها، لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جاذبية فردية، وصار الإيمان إيمان فرد متحلل من صلته بوسطه الاجتماعي، وعليه فليست المشكلة أن نُعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملاً به نفسه باعتباره

¹-مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص43.

²-مالك ابن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، مرجع سابق، ص 12

³- مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص 67-69

مصدرًا للطاقة¹ ولعل أحد أهم الأسباب التي أدت إلى هذا الانفصال بين المسلم ومبادئ عقيدته وقيمها الجوهرية هو غياب مبدأ "المراجعة" و"النقد" الحضاري على المستوى الفردي والجماعي، رغم أصالة هذا المبدأ في النموذج التوحيدي وتطبيقاته التربوية الراشدة " فلم يعد أحد يؤنب نفسه أو يتأثر من خطيئته، أو يبكي على ذنبه.² ولعل أثر الاستعمار قد ظهر جليا في نظامنا التربوي وهذا في استيراد نظم التعليم من الغرب والتي تتمثل في بنية النظم التعليمية العربية والإسلامية، وربطها بالأيديولوجيات الاقتصادية أو امتيازات خاصة، وقد اصفر هذا التدخل عن عدة إشكاليات أهمها صرف العقل التربوي العربي عن رؤى الإصلاح الداخلي للنظام التعليمي والاتجاه نحو الاستيراد والتبعية فيما لا يجدي معه مما نعكس على الهوية وبناء الشخصية العربية المسلمة.³ ومن أهم الزوايا التي نعالج منها التربية نجد .

1- التربية كمشكلة: يرى "مالك بن نبي" ان مشكلتنا ليست في تغيير الأنظمة السياسية السائدة ولا في انتهاج نظام اقتصادي معين ، انما أصل المشكلة هو تغيير الإنسان الذي تحللت تركيبته الإنسانية ، فتحللت معه الحياة "بعدها أكمل دورته الحضارية لأنه لم تتعامل - حسب "مالك بن نبي"- مع جوهر المشكلة و حقيقتها و إنما مع أعراضها و مظاهرها بحكم أن الإنسان هو الذي أنتج مثل هذه المؤسسات الفاشلة العاجزة عن أداء مهامها الاجتماعية و من أجل توضيح هذه الفكرة تعرض بالتحليل لمختلف مظاهر التخلف التي تدل على تماذي هذا النموذج التربوي الرديء في حياة المسلمين، و كدلالة على تماذي المشكلة إلى اليوم على الرغم من مضي عدة عقود على جلاء الاستعمار من العالم الإسلامي . ماورد في كتاب وجهة العالم الإسلامي إذ يقول :"فالنقائص التي تعانيها النهضة الآن ، يعود وزرها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن في طليعة التاريخ، فنحن ندين له بموارثنا الاجتماعية و بطرائقنا****

¹-مالك بن نبي: مشكلة الافكار في العالم في العالم الاسلامي، ص 39

²-مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص107.انظر كذلك كتاب مشكلة الافكار في العالم الاسلامي (الحضارة والافكار) ،ص 44،41

³-مالك ابن نبي،. وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص31-

التقليدية التي جرينا عليها في نشاطنا الاجتماعي¹ و يعترف "مالك بن نبي" أن المشكلة التربوية ليست ابدا بالسهلة كما يظن البعض فلا تكمن في ايقاظ ذلك الصبي صباحا ولا حشو محفظته بالكتب ، وانما المشكلة تتطلب جهدا استثنائيا لأن إعداد الانسان للدخول في الحضارة صعب وبكثير من صنع محرك أو بناء قصرا. فالعلوم الأخلاقية والاجتماعية والنفسية تعد اليوم من اكثر العلوم ضرورة ، لان اعداد الانسان اشق كثيرا من ترويض قرد على استخدام رباط العنق. ولعل أول ما يمكن أن نتوصل إلى تسجيله في هذا المقام هو انهيار سلم القيم الاجتماعية الذي يحدد لكل فرد موقعه الاجتماعي و دوره الاجتماعي و طبيعة العلاقات التي تربطه بغيره من الأفراد لتكتمل بذلك شبكة العلاقات الاجتماعية باعتبارها العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده. و هذا الانهيار إنما هو في الحقيقة تعبير عن الخلل الذي أصاب المنظومة التربوية والثقافية للمجتمع باعتبارها هي التي تحدد شبكة العلاقات الاجتماعية².

و بناء على ما قلناه فإن "مالك بن نبي" يعتقد أن نقطة الانطلاق لاستئناف دورة حضارية إسلامية جديدة تكمن في استئصال الاورام النفسية والفكرية و الاجتماعية السلبية التي أسقطت المجتمع المسلم منذ ستة قرون، وتجديد كيان الإنسان المسلم طبقا للتعاليم الإسلامية الحقة ومناهج العلم الحديثة و بعبارة أخرى تجاوز وضعية العجز عن التغلب على العقبات النفسية و العادات السلبية في التفكير و التصرف الموروثة من منظومات تربوية تجمعت فيها تراكمات قرون متعددة من الإفلاس و الفشل و التوقف الحضاري،

"فالمسألة إذن تحتاج أولا إلى أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب و الوقت و المواهب في بناء أهدافهم الكبرى وكذا إعادة الصياغة التربوية لشخصية الإنسان المسلم لتمكينه من الانتقال من وضعية الانسان المتخلف بكل ما يحمل هذا المفهوم من

¹ - مالك بن نبي: نفس المرجع السابق، ص 37

² - مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامي ، ص 38

معني إلى وضعية الانسان المتحضر الذي يتمتع بمؤهلات الدخول في الحضارة من اجل الأداء الناجح لوظيفته في التاريخ¹ وفقا للمعنى الذي قرره القرآن الكريم في قوله تعالى: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا"².

1-3 التربية كوسيلة فعالة لتغيير الانسان: لقد قام "مالك بن نبي" بصياغة مفهوم التربية على أنه مشروع متكامل للتحضر الإنسان و تأهيله للمساهمة في بناء المجتمع التاريخي المتحضر، بحيث تضمن هذا التعريف الموضوع و الأداة و الهدف و الوجهة النهائية للمشروع . حيث نجده يقول ليست التربية مجموعة من القواعد و المفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، على عالم الأشخاص، و عالم الأفكار و عالم الأشياء . و ليست هي من إنتاج المتعلمين و بحار العلوم الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم دون أن يلموا بما تترجم عنه هذه الكلمات من وقائع. بل هي وسيلة فعالة لتغيير الإنسان ، و تعليمه كيف يعيش مع أقرانه، و كيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شروط الوجود نحو الأحسن دائما، و كيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ³

1-4 التربية كعملية منهجية هادفة و عملية استيعاب للقيم الثقافية : نظر "مالك بن نبي" إلى التربية على انها عملية منهجية هادفة موضوعها و أدواتها و هدفها ،وقد استطاع بذلك أن يعدد الزوايا التي تناول من خلالها موضوع عملية التربية والتي تتمثل في كونها، كل واقع اجتماعي إنما هو في أصله انعكاس للمنظومة من القيم الثقافية التي تشكل بمجموعها النموذج التربوي المنشود لكل من الفرد و المجتمع¹ يجب على المجتمع في نظر "مالك بن

¹-مالك بن نبي: نفس المصدر، ص 37-54

²-سورة البقرة الاية 143

³- ميلاد مجتمع: ص 99-100

¹-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 104

نبي" أن يؤدي نشاطه في التاريخ وهذا بتوحيد شبكة العلاقات الاجتماعية التي تولف عناصره المختلفة الزمنية و النفسية، لان كل علاقة هي في جوهرها تحمل قيما ثقافية يمثلها القانون الخلقي و الدستور الجمالي الخاص بالمجتمع¹ وقد تناول "مالك بن نبي" مفهوم التربية وهو يناقش مشكلة الثقافة، فيعرفها بناء على ذلك أنها عملية تمثل العناصر الثقافية التي يمتصها الفرد من الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه ذلك لأن الثقافة ليست إلا المناخ النفسي و الاجتماعي الذي ينمو فيه الفرد بل ويكبر من خلاله ولهذا السبب، يرى مالك بن نبي أن مايجب القيام به لبناء الفرد وتربيته هو "تركيب عناصر الثقافة بطريقة تتشكل منها المنظومة الثقافية للمجتمع في إطار منهج تربوي قابل للتحقيق² ولاشك في أن عملية التركيب الثقافي ينبغي أن تستوعب سائر مؤسسات المجتمع باعتبارها المجال الذي تتجلى فيه معاني عناصر المنظومة الثقافية للمجتمع. وبعبارة أخرى، يتجلى في عملية التمثيل النفسي لعناصر الثقافة- حسب "مالك بن نبي"- البعد الأخلاقي لعملية التربية بوضوح على شكل مجموعة من المعايير الأخلاقية التي تلعب دور المرشد الذي يوجه تفكير وتصرفات الفرد أثناء ممارسته لهذه العملية³ كما يؤكد "مالك بن نبي" أن ثمة ارتباط قائم بين التربية كأداة، ومنظومة القيم الثقافية كمحتوى تربوي والحضارة كمنتج تربوي، بحكم أننا نتعامل مع مشكلة الثقافة باعتبارها منهجا تربويا ينتظر التطبيق و يستهدف تجسيد معاني التحضر في إطار تربوي قائم على فلسفة أخلاقية محددة باعتبار هذه الفلسفة هي البعد الأساسي الذي يحدد المعالم المميزة لهذه العملية التي تستهدف تأهيل الفرد للفعل التاريخي المجسد لمعنى التحضر في الحياة الاجتماعية.¹ و هكذا تتجلى التربية باعتبارها التجسيد العملي للمثل الثقافية للمجتمع على طريق بناء المجتمع التاريخي المتحضر. كما تصبح الثقافة مصدر

¹ - مالك بن نبي ،ميلاد مجتمع ،ص 48

²-مشكلة الثقافة : مالك بن نبي ، ص61

³-نفس المرجع السابق ، ص 66

¹-مالك بن نبي :مشكلة الافكار في العالم الاسلامي، 48-49

إلهام للتربية بحكم أنها هي التي تضفي دلالة تاريخية على الفعل التربوي ذاته. من هنا فإنه بعد استكمال العناصر الثقافية يصبح الفرد مرآة عاكسة لثقافة المجتمع مهما كان الموقع الاجتماعي الذي يحتله أو الوظيفة التي يضطلع بها، حيث يستوي ذلك الطبيب و الفلاح و الراعي و الحاكم، فالطبيب يمكن أن يتحد مع الراعي في السلوك الاجتماعي على الرغم من اختلاف طبيعة السلوك المهني لكل منهما بحكم نوع الوظيفة التي يزاولها كل واحد منهما،¹ إن مثل هذا الأسلوب في التعامل مع الأفكار و الأشخاص و الأشياء و تقويمها إنما هو مبني على مجموعة من المعايير تملئها على الفرد القيم الثقافية التي تزخر بها منظومة التربية التي شكلت شخصيته على امتداد الزمان. ذلك لأن "الأسلوب الاجتماعي للفرد خاضع لأشياء أعم من المعرفة و أوثق صلة بالشخصية منها بجمع المعلومات ولأن الثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة.ويمكن أن نصل إلى خلاصة مفادها أن التربية تنحصر في عملية النقل المنهجي المقصود لعناصر المنظومة الثقافية للمجتمع إلى الأجيال الصاعدة بهدف ضمان استمرار المجتمع. وقد انصب "مالك بن نبي" اهتماماته على كيفية صياغة نموذج جديد لمنظومة أصلية تشكل على أساسه شخصية الإنسان المسلم المعاصر لتأهيله لمهام التغيير التاريخية التي تتوقعها منه البشرية برمتها فضلا عن المجتمع الذي ينتمي إليه ولعل هذا هو الذي ميز بن نبي عن كثير من المفكرين و المرين العرب الذين لم يتجاوزوا كونهم أداة تستخدم لترسيخ سياسة الأمر الواقع على المجتمع فكانت نتيجة لذلك سببا في تمادي بل و تعقيد وضعية التخلف المزوج في مجتمعات ما بعد الاستقلال فيالعالم الإسلامي²

1-5- التربية عملية اعداد الفرد نحو تكييفه في المجتمع: تعرض "مالك بن نبي" في كتابه ميلاد المجتمع الى تعريف التربية واثرها على الجانب الاجتماعي وكان هدفه من ذلك

¹ - مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ، ص 51 - 54

² - نفس المصدر السابق ، ص 66

تهيئة الفرد ليصبح مؤهلاً للحياة الاجتماعية من أجل أن يفرض موقعه فيه، لأنه في نظره الفرد يأتي إلى هذه الدنيا في حالته الفطرية البدائية، فالمجتمع هو الذي يتولى عملية تكييفه طبقاً لأهدافها الخاصة، تكييفاً يجعل الفرد أهلاً لأن يتخذ مكانه ولأن يقوم بدوره في المجتمع، ولكي يبني الفرد شبكة علاقاته الاجتماعية معينة- عليه أن يندمج في المجتمع وأن يجسد في ذاته واقعا نفسيا معيناً، وهذا الواقع يعد شرطاً أساسياً وضرورياً لكي يندمج في الحياة الاجتماعية¹ وقد ساهمت التربية من الناحية الاجتماعية من نقل الفرد من وضعية الفرد الخام إلى وضعية الفرد المنتج و بعبارة أخرى ، من وضعية الفرد الذي يستهدف المحافظة على النوع ، بناء على مبدأ الاستجابة لمطالب الجسد إلى وضعية الشخص الذي يستهدف ترسيخ معاني التكريم و التفضيل الرباني للإنسان .وذلك لأن نقطة الانطلاق في كل عملية تربوية تستهدف تأهيل الإنسان لوظيفته التاريخية ، فضلا عن إدماجه في المجتمع، تبدأ من اللحظة التي ينتقل الفرد فيها من كونه فرداً إلى كونه شخصاً. وهذا عن طريق العمل وتغيير صفاته البدائية وفي هذا المعنى نجد يقول (إن إدماج الفرد في شبكة إجتماعية هو في الوقت ذاته عملية إنتقاء. وتتم هذه العملية المزدوجة في الظروف العادية، أي في حالة المجتمع المنظم -بوساطة المدرسة -وذلك ما يسمى التربية)² وعبارة أكثر تفصيلاً تحويل الطاقة الحيوية للإنسان إلى طاقة اجتماعية يمكن استخدامها في المجال الاجتماعي لترقية الحياة البشرية ونظراً لأهمية الموضوع وحساسيته يمكن أن نوضح هذه المسألة بطرح سؤال مهم وحساس وهو هل يحسن أن نتعامل مع التربية في العالم الإسلامي كعملية للتكيف أم عملية للتكيف؟ و بعبارة أوضح أي المنظورين أصح لتربية الأجيال عندنا، التربية كعملية إعداد الفرد ليتكيف للتأقلم مع واقع موجود بصرف النظر عن طبيعة هذا الواقع، أم هي عملية إعداده ليتمكن من تكييف الواقع و تغييره وفق النموذج الثقافي المنشود . إن التعامل مع التربية بالمنظور الأول ينطلق من قناعة مفادها أن المشكلة

¹ - مالك بن نبي :ميلاد مجتمع ،ص 65-66

² - نفس المرجع السابق، ص 67

التربوية عندنا تتلخص في كون الواقع الذي نعيشه هو أفضل ما يمكن أن نتصوره و نوفره، لأبنائنا و أن مختلف المنظومات التي ينطوي عليها هذا الواقع هي في أكمل حالاتها و أحسنها و لهذا، فأفضل ما يمكن أن نسديه للأجيال من خير هو أن نعددهم و نؤهلهم ليصبحوا قادرين على الاندماج في هذا الواقع و من ثم التكيف معه و العمل من أجل استمراريا اعتبار أنه واقع يمثل النموذج الأمثل لما يمكن أن يكون عليه المجتمع. أما التعامل مع التربية بالمنظور الثاني فهو خلاف الأول لأنه مبني على قناعة مفادها أن الواقع الفعلي للمجتمع لا يمثل التجسيد الحقيقي للتصور النموذجي لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع. و لهذا فمهمة التربية تتحصر في إعداد الفرد و تأهيله تربويا بشكل يجعله قادرا على المساهمة في تغيير الواقع تغييرا إيجابيا و تكيفه وفقا للرؤية التي يتضمنها النموذج التربوي المنشود لان المجتمع الحقيقي ليس مجرد عدد من الافراد بقدرما هو تمكينه من نقل الفرد المشروط (المكيف) من حالة بدائية الى حالة نافعة بحيث يتولى تشكيله ليكيفه طبقا لأهدافه الخاصة وهو ما كان يقصده الرسول ص كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه¹ فذلك هو التكليف الذي يجعل الفرد أهلا لان يتخذ مكانه وان يقوم بدوره في المجتمع². إن الحديث عن طبيعة المنظور الفكري الذي يجب على المجتمع أن يتبناه لتربية أجياله يدفعنا للتذكير بما أثاره "مالك بن نبي" عندما أشار إلى طبيعة مشكلة الثقافة و أكد أننا في العالم الإسلامي لا نواجه مشكلة فهم لنموذج ثقافي موجود بالفعل كما هو الشأن في بلاد الغرب، وإنما نواجه مشكلة الثقافة بحد ذاتها التي تمكننا من تأهيل الإنسان المسلم لاستئناف وظيفته التاريخية في العالم. وفي هذا المعنى نستطيع انقول عن العملية التربوية انها الأداة التي تشكل من خلالها شخصية الفرد وفقا لإيديولوجية المجتمع القائم نتيجة لكل ما سبق، فإن تبني هذا الاتجاه (أي: اتجاه التكيف لا التكيف) في

¹ - معني الحديث أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي فطرة الإسلام، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال: {الَسُنْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} [الأعراف:172] وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة.

² - ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 65-66-67

التعامل مع المشكلة التربوية عندنا لم يزد إلا في ترسيخ وضعية التخلف المركب للعالم الإسلامي بل و عمل على إضفاء الطابع الشرعي للسياسات التنموية الفاشلة في ربوع العالم الإسلامي¹.

1-6 التربية عملية اعداد الفرد للاندماج في المجتمع: يرى "مالك بن نبي" في كتابه أن التربية هي عملية إدماج الفرد في المجتمع و تأهيله للقيام بدوره المناسب وفقا لما يملكه من استعدادات فطرية وما اكتسبه من مهارات ومن ثمة تمكين المجتمع من أداء وظيفته في التاريخ معناه تمكينه من الدخول في فلك الشبكة الاجتماعية. وهذا من اجل تجسيد واقعة النفسي كشخص وليس كفرد، ولا شك في أن هذا الاستعداد ليس إلا ثمرة عملية تربوية منهجية هادفة واعية و مكثفة وبحكم أن هذه العملية تنطوي أيضا على عملية تغيير و إعادة صياغة الطاقة الحيوية للفرد- كما يقول مالك- من شكلها البدائي الذي ينطلق فيه الفرد من مبدأ الغريزة و يتعامل بها على أساس المحافظة على النوع إلى شكل أرقى من التعامل الاجتماعي المتحضر الذي يظهر الفرد ككائن اجتماعي. وقد اختلف "مالك بن نبي" عن غيره من علماء التربية فيما يخص بالمقصود من وراء عملية الاندماج الاجتماعي ففي نظره فان هذه العملية لا تعني تماما ما يعنيه علماء التربية عند إشارتهم إلى عملية التطبيع الاجتماعي الذي يتجه أساسا إلى النشء قبل غيرهم من أفراد المجتمع من أجل تأهيلهم للاندماج في واقع موجود ذي نظام اجتماعي قائم. وانما الذي يعنيه "مالك بن نبي" هو إعادة تأهيل الفرد المسلم، مهما كان عمره، من أجل التمكن من المساهمة في إعادة بناء مجتمع ما بعد الاستقلال و تمكينه من أداء وظيفته التاريخية على شكل حركة مجتمعية متناسقة يشق بها المجتمع مسيرته في التاريخ لتسجيل حضوره كشاهد، و يؤكد "مالك بن نبي" أن عملية الاندماج الاجتماعي ذات طبيعة مزدوجة¹ لأن إدماج الفرد في شبكة

¹- عمر نقيب:، مقومات بناء انسان الحضارة في فكر مالك بن نبي، شركة الاصاله للنشر والتوزيع، ص 215-216-

العلاقات الاجتماعية هو عملية تنحية هو في الوقت ذاته عملية انتقاء، أما التنحية فيقصد بها التخلي عن العادات المنافية للزرعة الاجتماعية ، و أما الانتقاء فينصب على استبدالها بأسس أكثر توافقا مع مقتضيات الحياة الاجتماعية فالعملية-حسب "مالك بن نبي"- تتم تلقائيا في الظروف النفسية الزمنية أو الظرف الاستثنائي الذي يتوافق مع ظهور المجتمع و الحضارة، أما إذا كان المجتمع في حالته الطبيعية ، فإن العملية تتم بوساطة المدرسة و ذلك ما يسمى بالتربية" و بهذه العملية-كما يعتقد "مالك بن نبي" -يكون الفرد قد خطا خطوة ذات دلالة في بناء ذاته و تحديد العناصر الأساسية و المميّزة لشخصيته وفقا لنموذج المنظومة الثقافية للمجتمع¹.

1-7 التربية عملية تحضير (التحضر) للإنسان اعتبر "مالك بن نبي" ان التربية هي عملية تحضير للكائن البشري، من هنا، تظهر التربية على أنها مشروع يستهدف بناء مجتمع تاريخي من خلال إعداد الإنسان المتحضر الذي يكون نواة هذا المجتمع و من ثمة تؤهلها للإنجاز الناجح للوظيفة التاريخية التي كلف بها الإنسان من قبل الإرادة الإلهية و بهذا، فإن مقصود "مالك بن نبي" كانواضحا في المساهمة في وضع بعض الآليات التي يمكن -حسب رأيه- أن تساعد المسلم على الاستعداد تربويا من أجل استئناف وظيفته في التاريخ ليس كفرد فقط و إنما كمجتمع يطمح إلى إحداث حركة تاريخية توجه الحياة البشرية إلى استرجاع مبررات وجودها و استمرارها وفق الإرادة الإلهية². و من خلال التأمل في هذا التعريف ، يمكننا التوصل إلى خلاصة مفادها أن التحضر هو الأصل الذي يقوم عليه الجهد التربوي كله بل هو المقصد الأسمى الذي ينبغي أن توجه إليه كل الاهتمامات ، و أن كل تربية لاتستطع أن ترقى بالإنسان إلى هذا المستوى من التغيير الا بواسطة التحضر و لعل الرجوع إلى بعض التجارب التربوية العالمية الناجحة، و التأمل في أسرار نجاحها يجعلنا نتأكد من أهمية المقاربة البنابية.و يتأكد هذا الطرح خاصة إذا ما نظرنا إلى ما يطبع حياة الإنسان

¹-عمر نقيب: نفس المرجع السابق 219-220

²- نفس المرجع السابق ، ص 222

المسلم اليومية من مظاهر التخلف في التفكير و النظر و التصرف، و ما انجر عن ذلك من مظاهر العجز و الرداءة و الكسل و التعب المستديم و الاتكالية الجماعية و التسبب و العاطفية في التعامل مع الأحداث و الأشخاص و الأفكار و استفحال حالات تضخم الأنا الفردي و الجماعي و غياب البعد الاجتماعي في الاهتمام، الأمر الذي جعل إنجاز مشروع حركة تاريخية تستهدف التغيير التاريخي للمجتمع و إحداث نقلة نوعية على طريق استرجاع مكانة الأمة في التاريخ ، لعل الأصل في عجز المسلمين عن إحداث هذه النقلة النوعية إنما يرجع إلى أن الإنسان الذي هو العامل الأساسي في هذه العملية الذي أصيب بخلل دام قرونا ، بل و مما زاد في تعقد هذه الأزمة أن مختلف المنظومات التربوية في أغلب بلاد العرب و المسلمين كانت ولازالت عاجزة عن صياغة رؤية واضحة عن النموذج التربوي المنشود لكل من الإنسان و المجتمع. و لهذا ، فتطور مجتمع ما مرهون بشبكة علاقاته الاجتماعية بدليل أنه عندما يسود التوتر في خيوط هذه الشبكة،تصبح بدورها عاجزة عن القيام بالنشاط الاجتماعي و هذه علامة على أن المجتمع مريض، و أما إذا تفككت الشبكة نهائيا، فذلك إيذان بهلاك المجتمع و لو اجتمعت فيه عالم الأشخاص و الأفكار والأشياء. فجميع أسباب التفكك كامنة في هذا المجتمع،¹و يتجلى هذا المرض في العلاقات بين الأفراد عندما يصاب الأنا بالتضخم و ينتهي الأمر به إلى تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية أي، عندما يختفي الشخص باعتباره فردا مكيفا، و يسترد الفرد الخام استقلاله و سلطته في داخل الجسد الاجتماعي، فالعلاقات الاجتماعية تكون فاسدة عندما تصاب الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبا أو مستحيلا، إذ² يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات بل للعثور على أدلة و براهين لتدعيم الذات و هكذا يبدو جليا أن التربية هي

¹-مالك بن نبي :ميلاد مجتمع، ص 38-39

²- نفس المصدر السابق : ص 48

الأصل في المشروع النهضوي الذي يدعو إليه "مالك بن نبي" و أي مخالفة لذلك يمكن أن يكون لها أثر سلبي على المشروع برمته¹

2-أنواع التربيّات المجددة عند "مالك بن نبي": و التي يمكن إجمال هذه التربيّات فيما يلي

التربية الايدولوجية: هي التي تهدف إلى تنمية وعي إنسان ما بعد الموحدين، وهذا عن طريق إعادة تشكيلها وتفعيلها للجهاز لمفاهيمي المرجعي المؤطر للغايات والأهداف، وللعلاقات الفاعلة والنشاطات المنتجة في المجتمع، تتمثل الايدولوجيا في تزويد المجتمع والأفراد بهويتهم الجماعية المميزة، ولما كان المجتمع المسلم اليوم يمر بمرحلة تاريخية يميزها التخلف وتكتسحها مورثات ورواسب الماضي انعكست وضعيته المتردية هذه على منظومته الفكرية فأفدتها وحدتها وفعاليتها².

- **التربية العملية:** يقصد بالتربية العملية ذلك المنطق العملي الذي يربط العمل بوسائله وأهدافه الذي يربط العمل بوسائله وأهدافه، والمنطق العملي أساس ثالث من أسس برنامج التربوي الذي تقوم عليه الثقافة لدي بن نبي، وتكمن أهمية هذا المنطق في قدرته على تحويل الفكرة المجردة إلى واقع محقق ولعل الذي جعل بن نبي يدخل المنطق العملي كركيزة أساسية في بنا البرنامج التربوي للثقافة ويشدد عليه، كما تهدف التربية العملية الى تكوين (العقل التطبيقي) القائم على الارادة والانتباه وهذا عن طريق تعليم الفرد كيف يتمكن من إنجاز الأعمال المطالب بأدائها وذلك بربط الفكرة المنطوي عليها العمل بوسائلها المناسبة وفي ضوء اهدافها المنفعية المرغوبة والتربية العملية اذ تختص بتكوين هذا العقل التطبيقي لدي الفرد المسلم إنما تهدف إلى تعليمه كيف يمكنه أن ينشئ المقاييس الصالحة التي تمده بها التجربة والتي تمكنه من اصدار أحكام صحيحة موضوعية على الأشياء التي يتعامل معها

1- عمر نقيب : مقومات بناء انسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ص 222-223

2- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 102.

وهذا حتى يتغلب على ذهاني الاستحالة والاستسهال فيصبح لا يستسهل ولا يستصعب شيئاً دون مقياس.¹

-التربية الفنية: يقصد بالصناعة عند "مالك بن نبي" في كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم، والصناعة أساس آخر يكتمل به البرنامج التربوي للثقافة عند "مالك بن نبي" وقد ميز بين الصناعة كفن وبين صناعة كوظيفة fonction وينطوي عنده مفهوم الصناعة على اعتبارين: بالنسبة للفرد: الصناعة وسيلة لكسب عيشه وبالنسبة للمجتمع: الصناعة وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه، ويرى بن نبي بأن التربية التي يسند إليها القيام بمهام الإعداد والتدريب والتكوين والتلقين والتوجيه ينبغي أن تقوم على سياسة تربوية رشيدة تمتاز بالواقعية

التربية الإنمائية: التي تهدف إلى القضاء على "ذهاني الاستحالة والاستسهال" وكلّ ضروب العطالة عند إنسان ما بعد الموحّدين، وهذا من خلال تمكينه تحصيل الخبرة وإكسابه لمعنى الفعاليّة التي تقوم على الإرادة والانتباه وعلى ربط دوافع العمل بوسائله وأهدافه والتي ترمي إلى تنمية الحسّ المدنيّ في المجتمع، وخلق الشّعور الديمقراطيّ لدى أفرادهِ وتجسيده في سلوكياتهم، وهذا من خلال تعليم هؤلاء الأفراد فن العيش المشترك، القائم على الاحترام المتبادلو تقوم التربية عند بن نبي بمهمة خلق شروط الفعالية لدى الانسان المسلم المعاصر وعليه فهي ترتبط بالجانب العملي النفعي الذي يغير من طبيعة النفس الخاملة ونظرتها إلى الاشياء وتغيير النظرة إلى الأشياء تتم عن طريق منح هذه الأخيرة معان جديدة تجعلها قابلة للتحول من حالة سلبية الى حالة اخري اكثر ايجابية تعود بالنفع على الشخص والمجتمع وتقوم التربية الانمائية على فكرة التوجيه حيث تعمل على تكريس المعنى التربوي للعمل وهو المعنى الذي يرتبط بفكرة الواجب أما المعنى الكسبي للعمل الذي تعكسه فكرة الاجر

¹-مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ،ص 85

(salaire) المرتبطة بفكرة الحق تحويل الثروة ذات الطبيعة الساكنة الى مال ذي الطبيعة المتحركة النافعة اعطاء الوقت معناه الوجودي وهذا من خلال اكتساب الانسان المسلم فكرة الزمن بحيث تصبح فكرة الزمن عنصرا جوهريا في بناء "الأنا" الفرد والمجتمع¹ كما نجد الاهتمام ب التراب وهذا من خلال التشديد على اهميته باعتباره احدي مقومات الإنسان والمجتمع.²

-**التربية المدنية:** تمثل التربية المدنية في قدرة الفرد على تقبل الاخر وهو ما يسمى بالعيش المشترك. وتبرز أهمية الاجتماع الإنساني والعيش المشترك من خلال تلك الصلات التي تربط افراد المجتمع فيما بينهم والقائمة على اساس الاحترام المتبادل وهو ما ينعكس على اسلوب الحياة في المجتمع والاحترام المتبادل هو قيمة أخلاقية إلزامية ترسم للفرد حدود حريته ،ويرى بن نبي من اجل تحقيق هذا الهدف، يجب تعليم الأفراد كيفية التخلص من ثقافة الإستصغار والإستبعاد ورفض سياسة الإحتقار وتستمد التربية المدنية مقوماتها الفلسفية والاخلاقية من الاسلام ونظرته إلى الإنسان . فالإسلام قد أخص الإنسان منزلة خاصة حيث منحه صفة التكریم كما يشير الى ذلك في قوله تعالى **(ولقد كرّمنا بني آدم³ وتستنّين التربية المدنية في أداء وظيفتها هذه بالتربية الأخلاقية وتتداخل معها من اجل بناء عالم الأشخاص وتنظيم شبكة علاقاته الاجتماعية⁴.**

-**التربية الأخلاقية:** و هيالتي تهدف إلى تشكيل "عالم الأشخاص" الذي يُتَسَنَّى من خلاله تشكيل "عالم الأفكار" و"عالم الأشياء"، وهذا عبر عمليّة الإشراف (الترويض، والتّهذيب، والتّوجيه) للطّاقة الحيويّة للأفراد، لتجعل منهم أفرادا مكّيّفين، ، فيتّصلون بالمجتمع

¹- نفس المرجع، ص 23.

² -مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 144.

³-الاسراء الآية 7

⁴-مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص 146.

وبالإنسانية بمساهماتهم وإبداعاتهم في تقدّم مجتمعاتهم والتربية الأخلاقية تقوم على: ضبط وتوجيه -عالم الأشخاص -عالم الأشياء-عالم المفاهيم وكذا تأسيس وبناء وحدة تاريخية (القبيلة، العشيرة، المدينة، المجتمع، الأمة). ومن الناحية الفنية، فإن التربية الأخلاقية في المشروع التربوي الحضاري، تعمل على: تنمية الوازع الداخلي، أو ما يعبر عنه بالضمير الأخلاقي، الذي يتغذى من إيمان المرء ومعتقداته. وكذا التزويد بالمعرفة الأخلاقية، حتى يستطيع أن يميز الإنسان بين الخير والشر، وتشمل هذه المعرفة، المعرفة بالغاية والوسيلة، التي تحقق السلوك الأخلاقي. كما نجد تربية الإرادة، التي تنمي في الإنسان حرية الاختيار السليم، حيث يختار الخير وينفذه، وحيث تؤثر الإرادة على الفكر والعاطفة. وأخير تلبية الاحتياجات الإنسانية المختلفة والاستعانة بالإدراك والحاجات والانفعالات والعواطف، ثم بالتحليل العقلي، حيث تتضح ضرورة وأهمية الأخلاق للوضع الاجتماعي وللوضع الفردي.¹

-**التربية الاجتماعية:** لا يمكن الانتقال إلى مجتمع الحضارة أو أن تظهر فاعلية الأفكار، دون بناء شبكة علاقات اجتماعية متماسكة في المجتمع، فإذا كانت الحضارة عملاً متجانساً من بين عوامل: الأشخاص، والأفكار والأشياء، فإنه لا يمكن تصور هذا التجانس دون وجود شبكة من العلاقات الضرورية التي تعد معياراً لقوة العمل ورمزاً لعمق تأثيره. والتربية الاجتماعية - في نموذج مالك - هي العمل الأول الذي ينبغي أن يقوم به المجتمع في طريق "التغيير الذاتي الحضاري"، وهي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده. مثل تلك الشبكة من العلاقات الاجتماعية التي ظهرت بين المهاجرين والأنصار في المجتمع الإسلامي التاريخي الأول. وتسعى التربية الاجتماعية في هذا النموذج إلى تحويل الإنسان من كونه فرداً، إلى أن يصبح شخصاً، وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع. وكذا تحقيق الانسجام والتآلف والتآزر بين الأشخاص المكونين لشبكة العلاقات الاجتماعية، والذين يؤدون نشاطاً مشتركاً في المجتمع.

¹-مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص66.

وهذه العناصر المذكورة "الانسجام والتآلف والتآزر" بين الأشخاص تترجم المستوى النفسي والزمني للمجتمع أو يمكن من خلالها قياس فاعلية شبكة العلاقات الاجتماعية. عن طريق إقامة مجتمع "البنیان المرصوص" الذي "يشد بعضه بعضاً" فتتكون "اللحمة الاجتماعية" عميقة الأثر والجدور. وأخير الوصول إلى مرحلة المجتمع الكامل، أي المرحلة الروحية التي يتوافر فيها توهج الفكرة الدينية وجذبها الاجتماعي لتقوم بدور الموجه والقائد لنشاط الفرد والمجتمع، وهي المرحلة التي تطبع فيها سلوك الفرد، وتتكون شبكة العلاقات في أكثر حالاتها.¹

- التربية الجمالية والتي تهدف إلى تشكيل الذوق العام وتجميل النفس والمحيط، وهذا عن طريق جعل النفس تستهجن وتنفر من كل قبيح وكل ما يقرب منه، في الأقوال والأفعال، والمناظر والأشكال والأصوات والروائح، وبالمقابل تستحسن الجميل وتسعى في طلبه² والجمال يمثل الإطار الشامل لتصور الإسلام للكون والإنسان والخالق، وتتضمن التربية الجمالية تزكية حاسة الجمال لدى الإنسان، وتنمية الإدراك الجمالي المرتبط بعناصر: الدقة والنظام والاتساق والتوازن والترابط في الكون والنفس، وترجمة هذا الإدراك إلى سلوك جمالي في حياة الإنسان،³ فالجمال يطبع خصائص الفرد والمجتمع والحضارة، فالجمال هو الإطار الذي تتشكل فيه أي حضارة. والإسلام في مضمونه التربوي أكد على هذا البعد الجمالي "إن الله جميل يحب الجمال"⁴ وأقر "الزينة" وتناول عناصر الكون ببعد جمالي (الإنسان، الطبيعة) والأشياء وتعمل التربية الجمالية في المشروع الحضاري على تشكيل الإنسان المسلم الذي يشعر في أعماق وجوده بالجمال، وذلك عن طريق تنمية القدرة على التمييز الدقيق فيما تتأثر به حواس الإنسان سواء من الأشكال أو الألوان، حيث يدرّب

¹- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ، ص 26-28-78

²-تدريب الأحاسيس الإنسانية وفتحها على مشاهد الكون، والطبيعة والإنسان

³-مالك بن نبي : شروط النهضة، ص 98-99-

⁴- توجيه الإنسان نحو الجمال من خلال الفكر القرآني

الإنسان على الإحساس بالألوان وتنوعها وجمالها، وتناسقها في المخلوقات والجماد والحيوان والنبات والإنسان.¹

التربية الثقافية: إن الثقافة في المشروع التربوي الحضاري هي: المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر، وتضم فلسفة (الإنسان)، وفلسفة (المجتمع)، أي مقومات الفرد ومقومات المجتمع، مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد، تحدثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية، عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات. والمحيط هنا: المقصود به مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تمثل رأس المال الأولي للفرد في الوسط الذي نشأ فيه والثقافة - أيضاً - هي "الإطار العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع ما وسلوك الفرد بطابع خاص، يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر".² وفي ضوء هذا التعريف للثقافة، يمكن اشتقاق أهم عناصر التربية الثقافية في هذا المشروع، وهي: الرؤية الكلية التي تحكم حركة الإنسان وتحدد تصوراتته نحو ذاته وخالقه والمجتمع والكون، الانسجام والتآزر والوحدة بين مكونات المحيط التربوي لإنجاز العملية الثقافية مهما كانت درجة تنوعها، التركيب، والذي يتم في عالم الأشخاص بين القيم الثقافية، والأخلاقية التي تتخلع على الإنسان في ضوء برنامج تربوي مناسب. وأخيراً التوجيه، ويفيد هذا العنصر في "توجيه الأفكار" في التفعيل التربوي والاجتماعي للثقافة بما يضمن: قوة الأساس التربوي الثقافي للمجتمع، وتوافق السير، ووحدة الهدف... وتجنب الإسراف في الجهد والوقت للعمل الذهني والمهني واليدوي. ومما يجب الإشارة إليه في هذا المقام هو أن مجموع وظائف هذه التربيّات تتداخل وتتفاعل وتتكامل فيما

¹ -مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ص 81-82-83

² - مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ، ص 85-88

بينها، وهذا لغرض خدمة حقيقة واحدة ألا وهي ممارسة التأثير على هذا الإنسان، المتعدّد الأبعاد، بما يمكنه (يؤهّله) من أداء الدور المنوط به تاريخياً¹.

1-مالكبن نبي: مشكلة الثقافة ص 70 -71-77

الاستنتاج

قد توصل "مالك بن نبي" من خلال تحليله النقدي الى تحديد وتشخيص لاهم الاسباب والعوامل التي ادت الى فشل مختلف محاولات الإصلاح في تحقيق أهدافها لان المشكلة الإسلامية انما مشكلة حضارية في طبيعتها وتربوية في جوهرها .وهي النتيجة التي توصل اليها "مالك بن نبي" من خلال دراسته التحليلية النقدية للتطور التاريخي لحضارة الدولة الإسلامية ولهذا فهو يرى ان الإنسان المسلم المتخلف قد تحللت تركيبته الشخصية فهو الإنسان الذي لم يحسن كيفية التعامل مع جوهر المشكلة وحقيقتها وإنما يتعامل مع مظاهرها واعراضها ، وهو الذي يسميه "مالك بن نبي" ب انسان ما بعد الموحدين الذي يحمل في كيانه جميع الجرائم التي سينتج عنها فيما بعد جميع المشاكل التي تعرض لها العالم الإسلامي وفي هذا المعني يقول "مالك بن نبي" (فالنقائص التي تعانيها النهضة الان.تعود جذورها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن في طليعة التاريخ،الذي تشبعت نفسيته من الانحلال الخلقي والاجتماعي والفلسفي والسياسي)ويعلل مالك بن نبي ان من بين أسباب غياب الشروط النفسية والزمنية لتطور المجتمع والأمة الاسلامية ناتج عن أزمة في (عالم أفكار) فالعالم الإسلامي اليوم يعيش حالة من التخلف عن أداء رسالته، ويتضح هذا الاختلال في عالم الافكار الى خلق عدم التوازن في (عالم الأشخاص - عالم الأشياء) وهو ما من شأنه أن يؤدي إلى طغيان عالم على آخر، أو أن تستبدل الأدوار بين العوالم، أو يغيب دور عالم فتغيب وظيفته في البناء الحضاري، وهذا الخلل يحدث عندما "يكون النشاط مركزاً على الأشياء أو على الأشخاص أو على الأفكار. هنا يكون ثمة إخلال بالتوازن الذي يميز التطور التاريخي لمجتمع ما، هذا الإخلال بالتوازن يعكس إفراطاً ما، وكل إفراط هو ضرب من طغيان نشاط على حساب نشاطات أخرى كما عرض لنا "مالك بن نبي" أنواع التبريات التي يجب تجسيدها في الواقع والتي بكل اسف يجهلها معظم المربيين ان لم نقل

كلهم حيث نجد التربية الأخلاقية والفنية والجمالية والاجتماعية والثقافية والايديولوجية الإنمائية ، فتحقيق هذه الانواع نكون قد حققنا فردا يفرض نفسه في المجتمع

إن ما يجب الوقوف عنده في نهاية حديثنا عن أنواع التربيات هذه، التي استخلصناها انطلاقا من تحديدها للأهداف المنطوي عليها مشروع بن نبي التثقيفي الحضاري، هو طابعها الوظيفي المتداخل و المتكامل. هو انه ،إذا كان كل نوع من أنواع هذه التربيات يختص بجانب معين من جوانب شخصية الإنسان ، الذي تعهد اليه مهمة إعادة البناء الحضاري، فهذا يدل على أن هذه التربيات تتداخل و تتفاعل و تتكامل فيما بينها لخدمة حقيقة واحدة ألا و هي ممارسة التأثير على هذا الإنسان لتمكينه من أداء الدور المنوط به تاريخيا. هذا من جهة، ومن جهة اخري أنه إذا ما سجل على هذه التربيات مجتمعة، هو تركيزها أكثر على البعد الاجتماعي، مما يجعلها تدخل تحت ما يسمى بـ " التربية الاجتماعية" ، فهذا لا يعني البتة أنها تربية تضحى بالفرد في سبيل المجتمع، مثلما هو الشأن مع النظريتين الماركسية و الدور أكاديمية، أو كما فهم الدكتور علي القرشي في كتابه : " التغيير الاجتماعي عند "مالك بن نبي" " عند تقسيمه لفكر بن نبي. إن هذا الاهتمام الزائد بالجانب الاجتماعي يعبر في واقع الأمر عن أسبقية نسبية للتربية الاجتماعية، و هي أسبقية استراتيجية يبررها الظرف التاريخي للمجتمع المسلم المتخلف. فهو إذن اهتمام مرتبط بتحقيق شروط الإقلاع" الحضاري التي تقتضيها المرحلة التاريخية، باعتبار أن المهمة ليست في تناول الفرد الواحد مهما أوتي من عبقرية . فتحقيق المجتمع للحضارة، كمرحلة متطورة من مسيرته التاريخية، يأخذ كامل معناه، عند بن نبي، عندما يصبح كل فرد من أفرادهم ينعم بجميع الشروط المادية و المعنوية التي تساعده على النمو في كل طور من أطوار وجوده، كما يصبح كل فرد فيه قادرا على تحقيق ذاته و التعبير عن قدراته. بمعنى أن الحضارة إذا ما تحققت استفاد الفرد من قيمها و ضماناتها، و بالتالي استطاع أن يعبر عن ذاته و كانت لقدراته أصداء تحتضنها في مجتمعه. و قدرة الفرد و ارادته لتتحققا الا في

ظل تحقق قدرة و ارادة المجتمع. و تحقيق قدرة المجتمع و ارادته تتجليان في صورة قيام حضارة. بهذا يصبح قوام فلسفة بن نبي التربوية هو المجتمع و الفرد معا ، كل منهما يؤازر الآخر في عملية تأثير متبادل تحفظ كيان المجتمع و تضمن استمرارية حركته.

الفصل الرابع: التربية والحضارة عند مالك بن نبي

المبحث الاول : أسس ووظائف واهداف نظرية مالك بن نبي
التربوية

المبحث الثاني: التربية الاجتماعية عند مالك بن نبي قواعدها
وشروطها

1 مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي:

كما سبق وأن أشرنا في المحاور السابقة أن الحضارة عند "مالك بن نبي" تمثل ذلك الحصن أو السياج الذي يحمي الانسان من الهمجية فهي "مجموع الشروط الاخلاقية¹، والمادية تتيح لمجتمع معين أن يقدم كل عضو من أعضائه، في طور من أطوار وجوده منذ الطفولة الى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه² إن هذه الشروط المادية والمعنوية التي أكد عليها "بن نبي" هي أساس البناء الحضاري حيث حاول أن يوفق (من خلال هذا التعريف) بين الفكر والاقتصاد ليكون إنتاجا لحركة المجتمع، فبدونها لن يكون المجتمع مجتمعاً صالحاً لأن من بين شروط نجاح المجتمع البشري عند "مالك بن نبي" أن يكون له حضارة لأن المجتمعات الساكنة لها حياة لكنها دون غاية فهي تعيش في عهد ما قبل الحضارة.

وقد توصل بن نبي من خلال تحليله لإشكالية الحضارة إلى تحديد العلاقة بين تفاعل الطبيعة والتاريخ داخل الحضارة الإنسانية حيث يقول "إن الطبيعة توجد النوع (الإنسان) والتاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو المحافظة على البقاء بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو الحياة الراقية وهو ما يطلق عليه اسم الحضارة³.

فتحقيق التحضر مرهون بحسن إستغلال الإنسان لطاقاته الفكرية والجسدية وإيجاد الإنسجام بين النمط الفكري الذي يحكم هذه الحضارة عبر التاريخ وبين الطاقات المتوفرة لتنفيذ الجانب العملي وهو الهدف الأسمى للحضارة الإنسانية.

¹ -- يقصد مالك بن نبي بمجموعة الشروط الاخلاقية والمادية : المدرسة والعمل والمستشفى ونظام شبكة المواصلات والأمن في جميع صورته، واحترام شخصية المواطن، التي تمثل جميعا أشكالا مختلفة للمساعدة التي يستطيع أن يقدمها المجتمع للفرد الذي ينتمي إليه.

² -- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص: 106

³ -- مالك بن نبي: أفاق جزائرية: ت الطيب شريف، مكتبة النهضة، الجزائرية، ط4، بدون تاريخ ص 46

كما نجده يعرفها بعبارات مختلفة عن التعريف الأول وهذا بحسب الموضوع الذي يبحث فيه فنجده يعرف الحضارة من الناحية التحليلية وكأنها معادلة رياضية فيقول: "حضارة = إنسان + تراب + وقت".

وتحت هذا الشكل تشير الصيغة إلى أنّ مشكلة الحضارة تتحلل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نُقيّم حضارة لا يكفي بأن نكرس المنتجات وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها".

فالذي يقصده "مالك" من الإنسان هو كونه وحدة إجتماعية وليس إنفرادية، أما الوقت فهو مدة زمنية محددة بساعات معينة ينفقها الإنسان خدمة لمجتمعه.

وأما التراب فهو ما يقدم غذاء الإنسان في صورة إستهلاكية توفى بحاجات المجتمع تبعاً لعملية الإنتاج، لقد إعتبر "مالك بن نبي" أن كل الأجناس والشعوب مؤهلة لإنشاء الحضارة لأن الله منحها الرصيد الأول والضروري ألا وهو التراب والوقت فمتي توفرت هذه الأعمدة الثلاثة (الإنسان+التراب+الوقت) توفرت بذلك المواد الخام لإنتاج الحضارة. غير أن الأمر يحتاج إلى مركب تاريخي تكويني فبغيا به تبقي العناصر الثلاثة مجرد مواد خامة لا تجدي نفعاً، ومركب الحضارة هذا هو الدين أو الفكرة الدينية، لأن الحضارة لا تتبعث إلاّ بالعقيدة الدينية، فالحضارة تظهر بدافع الفكرة الدينية وتنتهي بإنهاء هذه الفكرة، وحتى الحضارة الغربية قامت على أساس ديني فالروح المسيحية ومبدؤها الخلقى هما القاعدتان اللتان شيدت عليهما أوربا سيادتها التاريخية. وقد تتشكل الحضارة عند "مالك بن نبي" على شكل دورة تبدأ بالنشوء والإزدهار ثم السقوط والانهايار ولا تستطيع أمة من الأمم أن تخلق حضارة إلا إذا توفرت جميع هذه الشروط أما مجرد إقتباس المنتجات المادية من حضارة أو حضارات أخرى فإنه لا ينشأ(حضارة)، لأن هذا الإقتباس أو الاستيراد لا يعدو أن يكون (تكديساً) للمنتجات فقط وإذا جاز، لهذا التكديس أن يسمى حضارة، فهو حضارة الشئئية كما يسميه "بن نبي" لأن الحضارة الغربية التي نستورد منها كل منتجاتنا لا يمكن أن تبيع دفعة

واحدة كل الأشياء التي تنتجها، أي أنها لا يمكن أن تبيعنا روحها وأفكارها الذاتية وأذواقها ودونها تصبح كل الأشياء التي تبيعنا إياها فارغة دون روح وبغير هدف.

ولهذا نادى "مالك بن نبي" بوجوب إنتقال العالم الإسلامي من (التكديس) الى (البناء).
فالحضارة إذن لابد و أن تصنع منتجاتها، حيث أننا لا نستطيع إستيراد روح أي حضارة وقيمها ومعانيها التي تربط بين ما يسميه "ابن نبي" بعناصر الحضارة، والتي عبر عنها في كل مؤلفاته (بالأشخاص والأفكار والأشياء)، وتتمثل في تقسيم آخر: وهو (الإنسان والوقت والتراب) وكما أن القانون في الطبيعة يحتم تدخل مركب ما لإتمام عملية كيميائية، فكذلك وبالمثل لنا الحق في أن نقول: إن هناك ما يطلق عليه (مركب الحضارة أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض فكما يدل عليه التحليل التاريخي، نجد أن هذا (المركب) موجود فعلاً، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائماً تركيب الحضارة خلال التاريخ.¹

2- أسس التربية الحضارية عند "مالك بن نبي"

1-2 الفكرة الدينية: ركز "مالك بن نبي" على الفكرة الدينية نظراً للمركز الهام الذي تحتله هذه الفكرة، لكون الدين هو أساس كل حضارة باعتباره "يمثل الرباط الروحي بين الإنسان وخالفه،² غير أنه بالنسبة "لمالك بن نبي" فالدين ليس بالضرورة أن تتعلق طبيعة الفكرة الدينية بوحى من السماء، بل يمكن أن تكون على شكل روعي غيبي، وقد إعتبر "مالك بن نبي" أن التغيرات الكبرى التي تحدث في التاريخ إنما تحدث بفضل الفكرة الدينية إلى درجة أنه يستحيل تناول أحداث تاريخية بمعزل عن العامل الديني ومن وجهة نظر تربوية فقد أشار "مالك بن نبي" إلى دور الفكرة الدينية في عملية التكييف التربوي لشخصية الإنسان وتنظيم سلوكه وفقاً لنوعية العلاقة التي تربطه بالمجتمع.

¹--مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 78.77

²--مالك بن نبي: شروط النهضة ص 51

ولهذا فالعنصر الديني "بوصفه عامل تنظيم نفسي فضلاً عن أنه يغذي الجذور النفسية العامة، يتدخل مباشرة في الشخصية التي تكون الأنا الواعية في الفرد.¹

-2-2- الإنسان : (مع التركيز على أهم المصطلحات الأساسية التي تميزه) استخدم "مالك بن نبي" عدة مصطلحات للتعبير عن هذه المفاهيم المختلفة، و لذلك فكل مصطلح له معناه الخاص به، بإعتبار أن كل مصطلح يدل على تحليل وضعية خاصة ولذلك نحاول تقديم ملخص لأهم المصطلحات التي استخدمها "مالك بن نبي" للتعبير عن هذه الوضعيات التربوية المختلفة للإنسان و فيما يأتي عرض لهذه المصطلحات:

أ- الإنسان الطبيعي: **L'homme naturel**: إن المقصود بالإنسان الطبيعي هي تلك الطبيعة الأولية البدائية التي خلق عليها الانسان، حيث يكون قانون الغريزة هو الذي يقوده ويتحكم في تصرفاته ويحدد وجهتها".¹ وبالتالي فإن إهتمامه ينصب على المحافظة على النوع، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وهذه الوضعية تتنافى والغاية التي وجد من أجلها الإنسان باعتباره كائناً متميزاً عن الحيوان، ولهذا فلا بد من العمل التربوي الذي ينقله من وضعية الكائن الطبيعي إلى الكائن الاجتماعي.²

ب- الفرد الخام: **L'individu Brut**: (إنسان ما قبل الحضارة) إن المقصود بهذا المفهوم هي تلك الوضعية البدائية التي يكون عليها الإنسان لحظة ولادته أو قبل خضوعه لأي نوع من أنواع التكيف التربوي الذي يستهدف إعداده للاندماج في الحياة الاجتماعية و في هذه الوضعية يكون الفرد بمثابة المادة الخام القابلة للتغيير حيث يوضح "مالك بن نبي" هذه الوضعية بقوله إن "الطبيعة تأتي بالفرد في حالة بدائية، ثم يتولى المجتمع تشكيله".³ و معنى ذلك أن الإنسان يواجه الحياة لحظة ميلاده و هو "فرد خام" مفعم بطاقة حيوية تظهر على شكل استعدادات و مواهب و قدرات كامنة تؤهله للقيام بالوظيفة التي خلق من أجلها و

¹-مالك بن نبي : ميلا مجتمع, ص 71

²-مالك بن نبي : ميلاد مجتمع, ص 109

³-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع, 65-67

ومعنى ذلك أن الدين يتدخل في هذا البناء أي: في تحديد العناصر الشخصية للفرد من خلال ما تمارسه العملية التربوية من إبراز البعد الديني المغروز في أعماق الشخصية البشرية، فقد جاء في الحديث النبوي الذي رواه "أبو هريرة" عن "الرسول ﷺ" ما يؤكد هذه الحقيقة: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه¹ ومعنى ذلك أن الفرد الخام هو الذي لم يخضع لأي نوع من التربية أو باصطلاح "مالك بن نبي" أي نوع من التكيف والإشراط.² والتي يقصد من خلالها إنتقال الفرد من وضعية الفرد الخام البدائي إلى وضعية الفرد المكيف أو الشخص المؤهل للإندماج و للقيام بالأدوار الاجتماعية التي يطلبها منه انتماءه لهذا المجتمع ويقول موضحاً هذه الوضعية (أن العمل الأول في طريق التغيير الإجتماعي هو العمل الذي يُغيّر الفرد من كونه فرداً إلى أن يُصبح شخصاً وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات إجتماعية تربطه بالمجتمع)³ فالإنسان في هذه الوضعية يكون في حالة سابقة للحضارة، أهم ما يتميز به فيها هو كونه مستعداً للدخول في دورة حضارية جديدة بناءً على المؤهلات الطبيعية الخام التي تنطوي عليها شخصيته كما هو الشأن بالنسبة للعرب المعاصرين "للنبي ﷺ" والذين كانوا في حالة من الإستعداد لخوض تجربة حضارية جديدة فهؤلاء العرب الذين اختارهم الله عز وجل ليكونوا حملة الرسالة الخاتمة إلى الناس كافة يمثلون هذا الصنف من إنسان ما قبل الحضارة . و من أجل أن يصبحوا جديرين بحمل رسالة الحضارة الإسلامية العالمية تم إخضاعهم لعملية التكيف من أجل صياغة شخصياتهم بمنهج تربوي مزدوج ولم يتسلموا وسام الجدارة بتبليغ الرسالة إلى العالمين إلا بعد أن أثبتوا جدارتهم بعد تمحيص دقيق.

¹- هذا جزء من حديث نبوي أخرجه مسلم من رواية أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم. صحيح مسلم

²- التكيف اسم _الجمع تكيفات_ مصدر كيف مثال تكيف الهواء معناه تغيير درجة حرارة غرفة ما بواسطة مكيف الهواء

³- مالك بن نبي: شروط النهضة ص 78

وبناء على ما سبق، فإن الفرق بين الفرد والشخص أمر في غاية الأهمية، خاصة في مجال التربية لأنه هو الذي يحدد لنا نقطتين في مسار المشروع التربوي هما: نقطة البدء و نقطة الانتهاء في النموذج التربوي المنشود لكل من الفرد و المجتمع.¹

ج -إنسان ما بعد الحضارة (المتفسخ حضارياً): أما إنسان ما بعد الحضارة فهو إنسان متحلل، تفسخ حضارياً وسلبت منه الحضارة، ولم يعد جاهزاً لإنجاز أي فعل حضاري لأنه سبق له أن أنجزَ وظيفته التاريخية وهو بذلك قد تحلّل من أهم المكونات التي تضمن له الفعالية في الحركة إلا إذا تغيّر هو نفسه و أعيدت صياغة شخصيته من جديد يشبهه بماء الخزان الذي لم يعد صالحاً للشرب، فهو يشبه ذلك الجهاز الذي تم استخدامه في مشروع ما وتم إستنفاد كل ما فيه من طاقة فهو يحتاج إلى إعادة الشحن ليصبح قادراً على العمل من جديد ليصبح مؤهلاً للمهام التاريخية الكبرى.²

د-الإنسان المتكامل (إنسان الحضارة): بعد تحقيق عملية التكيف التربوي التي تتلخص في تأهيل الفرد للاندماج في المجتمع و إستئناف وظيفته التاريخية، يكون هذا الفرد قد إستكمل مواصفات الإنسان المتكامل الذي حسب "مالك بن نبي" هو الذي يبدأ به التاريخ أي : الدورة الحضارية الجديدة، وهو ما نسميه ب (إنسان الحضارة)أو الإنسان المتكامل الذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة، وإعدادة أو تأهيله لوظيفته التاريخية، إذ لن يصبح مؤهلاً لهذه الوظيفة إلا إذا إستكمل كل مواصفاته.³

2- 3 الإدماج: يقصد "مالك بن نبي" بهذا المصطلح بأنه إدماج الفرد الخام في المجتمع من أجل تأهيله للمساهمة في إنجاز مشروع بناء المجتمع التاريخي المتحضر، يرى "مالك بن نبي" أن الهدف الأساسي لعملية الإدماج ينبغي أن ينحصر في تأهيل الفرد لفن الحياة مع الغير من أجل التعاون على إنجاز الوظيفة التاريخية المشتركة كما أن إدماج الفرد

¹ -د-عمر نقيب : مقومات مشروع بناء انسان الحضارة في فكر مالك بن نبي التربوي، ص 234

² - مالك بن نبي، :وجهة العالم الإسلامي،ص 32

³ -عمر نقيب نفس المرجع السابق، ص 236

في المجتمع بشكل ناجح يتجلى في إنسجامه الكلي مع عناصر شبكة العلاقات الاجتماعية وتفاعله معهم. ومن أجل تقديم صورة واضحة عن هذه الظاهرة هي تلك الصورة التي يكون عليها الطفل قبل أن يتم اندماجه في المجتمع، فالطفل يكون في حالة إنعزال حيث يبدأ من شعوره بغرابة ما حوله من أشياء وأشخاص وأفكار ولو كان الأمر متعلقاً بأمه التي ليست بالنسبة إليه إلا الثدي المغذي له فقط. وقد أشار القران الكريم الى هذه الحالة في سورة النحل "لا تعلمون شيئاً"¹ ولعل أول دائرة تبدأ في التشكل مجاله المعرفي والاجتماعي هي دائرة أعضاء أسرته وبوجه خاص أمه، ولكن في شكل صورة باهتة وغامضة و يبدو واضحاً أن الطفل البشري يبدأ رحلة حياته وهو في وضعية إنعدام المعرفة بأي شيء ثم تتم بعد ذلك عملية نموه بصورة تدريجية، وقد ركز "مالك" على النمو المعرفي للطفل كخاصية مميزة لإندماجه المتدرج في المجتمع ولعل ما يميز الطفل هو تدرجه التصاعدي ويُشير "مالك بن نبي" إلى تجربة فريدة في حياة الطفل لما لها من تأثير عميق في نموه الاجتماعي وهي الدخول المدرسي لأول مرة، فهي تجربة قاسية قد يكون لها الأثر الحاسم على مستقبل حياته له إن لم نحسن توجيهه ومساعدته على تخطي هذه النقطة النفسية الاجتماعية بانسجام و تدرج خاصة وإن الأطفال يختلفون من نوع إلى آخر بين منطوي ومنبسط (مصطلحات في علم النفس) فالطفل المنفتح يكتشف عالم الأشخاص بسرعة أكثر من الطفل المنغلق، فإن هذا الأخير يسبق الأول في اكتشاف عالم الأفكار غير أنهما يشتركان في خاصية إكتشافهما لعالم الأشخاص قبل عالم الأفكار، لأن العملية تبدأ أولاً بإكتشاف عالم الأشياء ثم عالم الأشخاص بحكم العلاقات العاطفية القائمة بين الطفل وأمه ثم سائر أعضاء الأسرة التي ينتمي إليها، وهذه العلاقات العاطفية سوف تتطور فيما بعد لكي تصبح علاقات اجتماعية. و أخيراً إكتشاف عالم الأفكار عن طريق تجاربه الأولية في مواجهة مختلف مواقف الحياة البسيطة التي يحيهاها، سواء أكانت فشلاً أم نجاحاً، و تكون هذه المرحلة حوالي السابعة إلى

¹ - سورة النحل الآية 78

الثامنة من العمر. وهذه الخطوة حاسمة و مهمة في عملية إدماج الاجتماعي بالنظر إلى الأثر الذي تتركه في نفسه وعقله ولأنها هي التي تجعله يتأصل في محيط ثقافي محدد واضح المعالم.¹

2- 4التوجيه: orientation :ولعل من أهم الأسباب التي دعت "مالك بن نبي" إلى الاهتمام بفكرة التوجيه هو الدور الفعال الذي تلعبه هذه الفكرة في توجيه العمل التربوي بسبب غياب التوجيه وانتشار الفوضى والعشوائية ضيعنا الكم الهائل من الطاقات وقوى لم تستخدم لأننا لا نعرف كيف نحافظ عليها فهناك ملايين من السواعد العاملة والعقول المفكرة في العالم الإسلامي صالحة لأن تستخدم في كل وقت متروكة للفراغ والضياع والإهدار فيما ليس فيه منفعة للبلاد و العباد.² ومن هنا نفهم أهمية التوجيه في تمكين كل فرد من أفراد المجتمع من إحتلال موقعه اللائق به في المجتمع ليس وفقا لما يتمتع به من نفوذة أو ما ورثه من أجداده وأبائه وإنما وفقا لما يملكه من مؤهلات فكرية ونفسية وفطرية ومكتسبة تؤهله بحق من إفتكاك ذلك المنصب والقدرة على خدمة المجتمع، فالفرد يكون في أقصى حالات فعاليته الاجتماعية إذا ما وجد نفسه في الموقع الذي يستحقه. ولعل هذا هو السر الذي يحمله الحديث النبوي الشريف عندما أكد أنه "إِذَا أَسْنَدَ الْأَمْرَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ"³ وهذا فيه إشارة إلى خراب العمران الإجتماعي أي:سقوط الحضارة، بسبب الإضطراب الذي يصيب المجتمع جراء الخلل في عملية توزيع المواقع و الأدوار الاجتماعية وفقا لمعايير علمية تراعى فيها الشروط التي تضمن الفعالية الإجتماعية لجهد الفرد، وفي الحال التي يتم فيها التوزيع الصحيح والعادل للمواقع والأدوار الاجتماعية للأفراد، يكون المجتمع قد وضع نفسه على الطريق الصحيح للبناء لأنه عرف من أين يبدأ مسيرته

¹-مالك بن نبي : تاملات، ص 26-28-30

²- مالك بن نبي : شروط النهضة، ص 84 انظر كتاب لمالك بن نبي :مشكلة الثقافة،ص 67

³-عن ابي هريرة : قال ان رسول الله ص قال: اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة. قال كيف يتم اضاعتها يا رسول الله قال اذا اسند الامر الى لاغير اهله فانتظر الساعة رواه البخاري

التاريخية نحو الحضارة، و هذا هو الذي كان يلح عليه "مالك بن نبي" عندما أكد أن بناء هذه الشبكة هو العمل التاريخي الأول الذي ينجزه مجتمع ساعة ميلاده. فالتوجيه يبدأ من هنا و لا يمكن تصور إنطلاقة صحيحة للبناء أو إعادة البناء إذا إنعدم التوجيه وقد لفت إنتباهي مشكل التوجيه الذي كان يعاني منه التلاميذ في الطور الثانوي مما نعكس بالسلب على توجيهاتهم في الجامعة " بكالوريا آداب وفلسفة " بينما هو يجهل تماما معني الفكر الفلسفي¹.

2-5-الفاعلية: L'efficacité إهتم "مالك بن نبي" بمشكلة الفاعلية فبغياها عجز المسلمين عن النجاح في إنجاز مشاريعهم المختلفة، فحيثما نظرت وجدت العجز و الكسل و التسبب هو الطابع العام الذي يطبع عقول المسلمين والتي تضرب بجذورها عبر التاريخ وهي الفترة التي تميز بها العرب بالتخلف والانحطاط وهو ما أوقعنا في مأزق خطير وهو (التربيةُ التَّبعيةُ) إن هذا النوع من التربية إتخذ بُعداً نفسياً وتربوياً أكثر خطورة مقارنة ب التبعية الحضارية ولعل أكبر دليل على ذلك تلك الانتكاسات الكبرى التي عرفها القطاع منذ تولي الحقيبة الوزارية نورية بن غبريط من منع البسمة الى الإعتراف بالكيان الصهيوني كدولة والأخطر التسريبات التي عاشها القطاع سيما كارثة بكالوريا 2016_2017، وقد تعمل التربية التبعية على تهديم نفسية الإنسان المتخلف، فتحارب فيه كل نزعة تحررية و تقضي على روح الإبداع فيه وسرعانَ ما تتحولُ ثقافةُ التبعيةُ هذه إلى ذهنيات يتباهي بها أفراد المجتمع و حتى الطلبة مثال ذلك تلك المقالات التي يغامر بها التلميذ في البكالوريا وذلك أن تعمم وتظهر لنا في الواقع على شكل التقليد الأعمى والتبذير والإنحلال الخلفي و عدم الانضباط و أكثرها ضياع الوعي الحضاري لهذا يرى "مالك بن نبي" أن أغلب محاولات الإصلاح التي تم إنجازها في مختلف أرجاء العالم الإسلامي منذ ثورة "جمال الدين الأفغاني" في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، قد تميزت بالفشل الذريع في تحقيق الهدف المنشود. ومن أجل توضيح هذه الوضعية المرضية وأسبابها يضرب لنا "مالك بن

¹ - نفس المصدر السابق ص 86 انضر كتاب التأملات لمالك بن نبي ص 123

نبي" في مناسبات عدة أمثلة متعددة عن التجربة اليابانية الناجحة وقارنها بالتجربة الأمة الإسلامية باعتبارهما تجربتين ظهرت في نفس المرحلة التاريخية ففي الوقت الذي نجحت التجربة اليابانية في تحقيق أهداف مشروعها في المزج بين أصالة ثقافة الميجي¹، وإنجازات الحضارة الغربية الحديثة، فقد فشلت تجربة العالم الإسلامي، من التزاوج بين الأصالة والمعاصرة، فشلاً ذريعاً و قد تمثل هذا الفشل المركب في عجز الأولى عن تحديث الأصالة وعجز الثانية عن تأصيل الحداثة، ما عدا تلك الصحوة التي فجرتها صيحة "جمال الدين الأفغاني" في الضمير المسلم، إذ على الرغم من التفجير الذي أحدثته تلك الصيحة الأفغانية، لازال العالم الإسلامي إلى الآن في تراجع مستمر أكثر من أي وقت مضى، و هذا بالخصوص أكثر من أي وقت مضى². وقد أظهر العالم الإسلامي نفسه في وضعية العاجز المتسول وهو العجز الذي نراه حتي في عدم قدرتهم عن توفير لقمة عيشهم اليومية. فالأمة الإسلامية اليوم في مفترق الطرق فلا هي أمة قادرة على تمثيل صورة الإسلام في الخارج و هي قادرة في مسايرة الظروف الراهنة³.

وبناء على هذا يرى "مالك بن نبي" أن الحل المناسب لهذه المشكلة لا يتعلق بقرار سياسي أو تنظيم مهرجانات أو تجمعات بقدر ما يتعلق بإعداد "الإنسان الفعال" وأن نقطة البدء تتمثل في إعادة تصحيح مفهوم الفعالية في ذهن الإنسان المسلم طالما هي قيمة ذات عمق نفسي و جعلها قضية تربية بالدرجة الأولى لا علاقة لها بالعرق أو الجنس أو الوضع الاقتصادي و لتوضيح هذه الفكرة قدم لنا "مالك بن نبي" فكرة عن كيفية علاج مشكلة تنظيم و إستغلال الوقت ومشكلة التعليم في الجزائر فالوقت في حياة المسلم لا يحمل

¹ -كلمة تطاق نسبة الى الامبراطور ميجي 1852- 1912 هو الذي احد اصلاحات عميقة في اليابان عمل الامبراطور ميجي بعد تسلمه لمقاليد الحكم على اصدار عدد من المراسيم التي تهدف الى انهاء الاقطاع في البلاد، وقد انتقلت العاصمة في عهده من كيوتو الى طوكيو وقد شهدت البلاد في عهده العديد من الاصلاحات التي شملت مختلف جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والعمرانية

² - مالك بن نبي :ميلاد مجتمع،ص 99

³ - مالك بن نبي :تأملات، ص 31

أي معنى من معاني الفعالية بل بالعكس إنتشرت فكرة ما يسمى ب(قتل الوقت).¹ و لهذا فقد إقترح صياغة برنامج تربوي عملي لتعليم المسلمين كفايات الإستفادة من الوقت كأن يلزم كل فرد من أفراد المجتمع سواء أكان رجلاً أو امرأة أم طفلاً بتخصيص ساعة من يومه لأي خدمة عمومية يؤديها لفائدة المجتمع. هذا الاقتراح الذي يتضمن جملة من التعديلات النفسية و السلوكية يتوقع منها ترسيخ عقلية المنطق العملي في نفسية الإنسان المسلم وتكسبه للأسف فأن هذه الفكرة لقت رواجاً في المجتمع الياباني نحن المسلمون قليل من هم يفكرون في تربية أبنائهم فالكثير هم من يده بالى العمل وليس من أجل العمل فالمشكلة ليس في زيادة المدارس أو بناء المساجد وتوسيعها بقدر ما هي القدرة على تفعيل الأبعاد الفكرية والنفسية لشخصية المسلم².

2-6- غياب ثقافة الإنتاج :

غابت ثقافة الإنتاج من ذهنيات المسلمين و وحلت محلها أصبحت ثقافة الإرتجالية والكسل والاعتماد على الغير هو الغالب بكثير من الأحيان على سلوك الفرد المسلم بحيث إن كل ما يقع تحت أيدينا من إنتاج ليس من ثمرات جهدنا وبالتالي لا نستطيع أن نقدر قيمته وهذا ينطبق تماما على الذي يشقى ويتعب في بناء بيت أو ألف كتابا يختلف عن الذي وجده جاهزاً و مكمولاً فالأول يكون حريصاً على سلامته و المحافظة عليه، فأما الذي يجده جاهزاً يكون أقل حرصاً على سلامته أو أقرب إلى التهاون في المحافظة عليه لأنه لا يدرك قيمة الجهد المبذول ولا الوقت المستغرق طيلة إنجازه ولا الثروة المستخدمة، و لعل هذا الصنف من الناس ما هو إلا ثمرة لمناهج تربوية متعفنة خلفتها ورسختها التربية الاستعمارية في نفوسنا الضعيفة فتعمل على تشجيع نزعة الإستهلاك لدى تلك الشعوب المتخلفة فتحارب

¹ - مالك بن نبي :وجهة العالم الاسلامي،ص 99

² -مالك بن نبي : وجهة العالم الاسلامي ،ص : 141 . و منذ ذلك الحين أخلت عقلية الاجتهاد مكانها لعقلية التقليد و

فيهم كل نزعة تحررية ثقافية أو إقتصادية وذلك بإنتزاف ثرواته الطبيعية كمصدر لإقتصادها بل و حتى إستنزاف أراثها الثقافي كما فعلت أمريكا في العراق.¹ أما من ناحية الاقتصاد فحدث ولا حرج فهي تتمثل في أعراق أسواقنا بكل أنواع السلع المحتاج إليها، من الإبر الصينية إلى الطائرات النفاثة والصواريخ والغواصات التي تأتينا من أمريكا وروسيا و الحقيقة أن "مالك بن نبي" كان على حق عندما أرجع ذلك إلى مركب القابلية للاستعمار و بني على ذلك قانوناً عاماً لحركة التفاعل التاريخي بين المجتمعات، كما سوف نعرف لاحقاً، فاعتبر أن الاستعمار لا يستطيع أن يفعل شيئاً بدون وجود ذلك الاستعداد في نفوس تلك الشعوب التي عرفت ظاهرة الاستعمار فمركب القابلية هو الذي يستدعي الاستعمار وليس العكس ومن هنا يظهر الاستعمار كعامل ثانوي في ظاهرة التخلف و تداعياتها و آثاره فمشكلتنا ليست مع الاستعمار بقدر ما هي مع مشكلة التخلف الذي علق بنا، ومن حيث هو وضعية فكرية و نفسية تتجلى في العجز عن تفعيل الطاقة الحيوية المدخورة فينا لنحولها إلى طاقة اجتماعية إيجابية تنتج تبني و تعتمد مبدأ الاستغلال الأمثل لما بين أيدينا من رأسمال طبيعي أو مالي أو بشري كشعار لها، و تنطلق من الموجود وتبحث عن المفقود لتحقق المنشود.²

3- وضايف التربية:

مقدمة: اعتبر "مالك بن نبي" أن التربية هي أساس كل نهضة، ولهذا اختلفت نظريته حول التربية عن نظرة فلاسفة التربية الذين سبقوه لأنه إعتبرها الوسيلة الأساسية لإنتاج الثقافة والمعرفة وإعداد الانسان لذلك لأن الوظيفة الاساسية للتربية عند "مالك بن نبي" تتمحور في عملية إنتاج ما يسمى اليوم رأس المال البشري أو ما يسمى ثورة المعلومات أو المعرفة، وهو الهدف الذي لم يسبق لأي فيلسوف أو مربي إن إشار إليه، فمن أجل إن

¹ مالك بن نبي : تاملات ص 52-53-55

² نفس المصدر، ص 58

تحدث تحولاً في المجتمع، يجب أن تحدثه في العقل والتفكير والوعي، وهنا يكمن فعل التربية وجوهر وظيفتها. لأن الوظيفة الفعلية للتربية يجب أن تكون مرتبطة بالقضايا المعاصرة والتي تتمثل اليوم في أماكن بناء وعي جماهيري يخترق صفوف النخب الفكرية والسياسية والإجتماعية، ليتحول إلى طاقة منتجة، وما يثبت ذلك هو مدي إرتباط الفعل الحضاري بالعمل تربوياً بالدرجة الأولى بوصفها صيرورة إنسانية، يمكنها أن تعيد بناء الوعي على صورته المثلي والفعالة ولهذا السبب نجد أن "مالك بن نبي" يلح ويصر على أننا اليوم مطالبون بتربية جديدة تعتمد على أسس جديدة، تربية تتطلق من مبدأ التغيير، وتسير على هدى الإبداع، وتعتمد على الحوار، تربية منفتحة على معطيات التكنولوجيا ومبدأ الاستمرارية وقيم التعاون والتكامل. أنها في النهاية تربية يجب أن تكون تربية علمية عقلانية ناقدة، هذه التربية التي يجب أن تختلف عن التربية التقليدية التي ينتابها الجمود الفكري والتلقين والتسلط والانغلاق، وترفض الروح النقدية في المجتمع ومن أجل هذه الغاية الكبرى، يترتب علينا أن نعمل على تأصيل منظومة من الفعاليات التربوية التي تشكل ركائز التنوير العقلي.

وقد طالب "مالك بن نبي" بضرورة بناء العقل العملي عند في العملية التربوية للأجيال الناشئة من أجل الخروج من دائرة التقليد، ويتضمن هذا البناء في العمل على تحرير العقل من أمراض الاستظهار والحفظ والتلقين، ومن ثم بناء الأسس المنهجية للتفكير الحر عن طريق رفض التماثل والتطابق، وهذا المبدأ هو جوهر العقل الحر -العملي- الذي سبق و إن أشارنا إليه بالتفصيل في المحاور السابقة -الذي يبحث عن الاختلاف، لأنه يجعل العقل أكثر قدرة على الحركة، وأكثر ميلاً إلى الإبداع، لأن الإيمان بمبدأ الاختلاف يجسدهما لكل الحواجز التي تمنع العقل من الانطلاق والإبداع، وفي هذا المبدأ تتحقق في النهاية منطلقات قبول الآخر، وقبول الأفكار المضادة دون تعصب أو تحيز، وبين الوظائف الأساسية التي يجب تركيز عليها التربية عند "مالك بن نبي" نجد :

3-1 التعليم في مجال العقيدة: قد ركز "مالك بن نبي" على العقيدة نظراً للأهمية الفكرة الدينية في تكوين شخصية الفرد منذ صباه¹، لأن الصبي بحاجة إلى معلومات عن الدين، فعليه أن يعرف ما هو الدين؟ وما هي مسأله، وما هي مجالات تعليماته؟ وما هو الطريق الذي يقدمه للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمادية المعنوية و ماهي المعلومات التي يجب أن تكون لديه في هذا الصدد؟ وكيف يجب أن يجعل نفسه متلائماً معها؟ كل ما له صلة بالتعاليم الإسلامية بما فيها الأعمال و السلوك التي يحبها².

3-2-3-2 تعليم الدفاع و إعداد الضروريات: حيث يحتاج الفرد الى التربية لكي يتمكن من تحمل مسؤولية حياته بنفسه في المستقبل القريب، فيوفر خبزه و معيشته و ما يحتاجه، و يدافع عن نفسه وعن كرامته وعن شرفه ويجب أن يتعلم الطفل كيف يبادر على السعي في طريق توفير المعاش، وما هو الهدف الأفضل الذي يجب وضعه في كسب الماديات، حيث يضع وجوب العمل نصب عينيه مسطراً في نفس الوقت الطريق الصحيح الذي ينتهجه من أجل كسب رزقه، ويسعي الى بلوغ اعلى مستوى لكي يكون مالكاً لدخله و لثروته³.

3-3-3-3 تعليم الدفاع و إعداد الضروريات: من وظائف التربية تعليم علوم و أفكار و تقاليد المجتمع وشعائر الأديان والفنون والآداب وتاريخ الحياة السياسية والاجتماعية و الاقتصادية والثقافية، و جعله يتمتع بطريقة استدلالية صحيحة، و تعليمه المنطق والأخلاق والمهارة، كما أن من الضروري تعليم الطفل ما له صلة بالحياة الراهنة والقادمة في هذا العالم و في الآخرة⁴، وفي حالة اذا ما أدت وحققت التربية هذه الوظائف الاساسية فإنها ستحقق بالضرورة الأهداف الأخرى التي تتعلق جوانب الانسان بالمجال التربوي: لأن التربية هي

¹ - مالك بن نبي : شروط النهضة، ص 55

² محمد عطية الابراشي، التربية الإسلامية داراحياء الكتب العربية، 1962 . ص 240

³ - مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ، ص 75

⁴ - د- على القائي، اسس التربية ترجمة، عبد الكاظم لوبادي، ط الاولى، سنة 1995، بيروت، لبنان، ص 100-101

عامل تغيير الفرد من أجل سيره نحو الكمال، و من بين وظائفها في هذا المجال نجد تنمية الجسم والروح والفكر والأخلاق بالنسبة للفرد، وخلق التوازن بين حاجاته وتنظيم غرائزه عن طريق التربية الجنسية وجعله صاحب قوة يستطيع على ضوئها التقدم وبناء نفسه من دون أي شعور بالضعف أو عقدة نفسية، أن هذه الوظيفة للتربية نجدها قد ركزت على تنمية تنمية جميع الأبعاد الوجودية للإنسان وهي بشكل عام ثلاثة أبعاد (الجسم، الفكر والذهن، و الروح) التي لا معنى لانفصالها عن بعضها الآخر.

1-الجسم: إن الاهتمام بالتربية بالتربية الجسمية ليس منصباً على الجسم بمعناه العضوي المتمثل في الأجهزة الحيوية، والعضلات، ونحوها وإنما يمتد ليصل إلى الطاقة المنبثقة منه والتي تُكسبه معنى الحيوية، صحيح أنه يجب التركيز على ضرورة إشباع حاجات الجسم وتلبية مطالبه ودوافعه وفق المنهج الصحيح، إنطلاقاً من كون ذلك ضرورةً فطريةً لاغنى للإنسان عنها بما فيها المشرب، والمأكل، والملبس، والمسكن، وهنا تجدر الإشارة إلى أن وظيفة التربية الجسمية قد إهتمت بضبط هذه الدوافع والحاجات الجسمية، وحرصت على تنظيمها، وعدم إطلاق العنان لها بدعوى الحرية المطلقة التي تنحرف بها عن مسارها، وتؤدي بها إلى الفوضى، وعدم الانضباط، لان سلامة جسم الإنسان وصحته عاملٌ أساسي، وشرطٌ لا بد منه حتى يتمكن الإنسان بواسطته من التكيف اللازم مع بيئته التي يعيش فيها، ومن ثم التكيف مع متطلبات الحياة وضرورتها وحتى يتمكن الانسان أن يؤدي ما هو مطلوبٌ منه، وما هو واجبٌ عليه، إلا بجسمٍ صحيح، وقدرات بدنية جيدة تمكّنه من أداء الواجبات، والقيام بالمسؤوليات ولا سيما العبادات الشرعية العملية، ونحو ذلك من العبادات والطاعات؛ إذ إنّ قوة جسم الإنسان وسلامته خير عون له

على طاعة الله في أداء ما أوجبه الله عليه من العبادات التي تعتمد على جسمه وعقله معاً في أدائها؛ كالصلاة، والصوم، والحج، والجهاد، وكذلك العبادات التي سنّها الرسول¹.

إن المعالم الأساسية عند الإنسان التي هي "الدين، والنفس، والعرض، والعقل، والمال" التي حددتها التربية الجسمية، لها علاقة مباشرة بالجسم، ولا يمكن أن يتحقق الحفاظ على هذه الضروريات إلا بالمحافظة على الجسم وإحترامه، وعدم تعريضه للأذى المادي أو المعنوي. فمن أجل المحافظة على النفس حرّم الاعتداء على أي جزءٍ من أجزاء جسم الإنسان، كما أُبيحت للإنسان المحظورات عند الضرورة حتى لا يتعرض للهلاك. ومن أجل المحافظة على النسل أُبيح النكاح؛ وحرّم السفاح. وما ذلك إلا إشباعاً لغرائز الجسم ودوافعه. كما حرّم الاعتداء على الأعراض قولاً أو فعلاً. لأن تكامل شخصية الإنسان تعتمد على مدى التفاعل والتوافق بين جوانبها الرئيسية المتمثلة في الجسم، والعقل، والروح وهذا يعني أن للجانب الجسدي أهمية توازي أهمية الجانبين الروحي والعقلي، إذ إن كلاً من هذه الجوانب الثلاثة يعدّ مكملاً للآخر، ومرتبطاً به، ومتفاعلاً معه، وتأتي أهمية الجسد من أنه يكتسب فاعليته ودوره باتصاله وتلاحمه مع أجزاء الشخصية الإنسانية الأخرى².

إن وظيفة التربية الجسمية تحترم الجسم، وتعطيه حقه الكامل من العناية والرعاية، وتلك ميزة تمتاز بها عن غيرها من أنواع التربية المعروفة قديماً، وحديثاً، فهي لا تحتقر أو تهمل الجسم، كما أنها لا تقدسه ولا تعطيه أكثر من حقه، ولا تمنحه الحرية المطلقة لإشباع حاجاته وغرائزه وإنما تعترف بهذا الجسم اعترافاً متوازناً يمنحه كامل حقوقه ومطالبه التي تمليها عليه الفطرة السوية التي خلقه الله عليها دونما إسرافٍ أو تقتير، أو إفراطٍ أو تفريط.

¹د/ سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي: دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت، ط1، 1993، ص 203

²-. علي القرشي: التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر، ص

3-4- إعداد الإنسان نحو تربية متكاملة: إن الاعتناء بالجسم ورعايته رعاية صحيحة تعني بدورها العناية بالعقل والروح، لأن كلاً من هذه الجوانب الثلاثة التي تتكون منها الذات الإنسانية يتأثر بالآخر تأثيراً مباشراً ففوة الجسم قوة للروح والعقل، وقوة الروح والعقل يجب أن تكون قوةً للجسم؛ فمن قوة الجسم نشكل قوة التربية العقلية، فالتربية العقلية في مجملها هي التي تهتم بالعقل وتغذيه وتمده بأسباب نشاطه وحيويته وتعطيه القدرة على النظر والتأمل والتدبر والتحليل والاستنتاج أي تنمية قدراته واستعداداته، وتعمل على تنقية العقل من الأحكام المبنية على الظنون والتخمينات والأهواء المباعدة بين العقل والتبعية وتعويده رفض التقليد، وذلك أن كل إنسان يستعمل عقله في التفكير فيما يحيط به من أمور، ولا يتبع في ذلك أحداً، لأن ذلك يضر بالعقل ويعوده أن يأخذ بما يباعد بينه وبين الحق والحقيقة بل يحول بينه وبين العلم وكل ذلك يؤدي إلى فساد في الأرض¹. كما تعمل التربية العقلية على تنمية العقل بالعلم والمعرفة، يزودان العقل وينميانه ولكن ليس كل علم ولا كل معرفة، فإن بعض هذه العلوم والمعارف قد يصيب العقل بالجمود والتحجر وإنما العبرة بمصادر هذا العلم وتلك المعرفة، فكلما كانت هذه المصادر أمينة صحيحة، كلما أسهمت في تنمية العقل، وقد تتجاوز التربية العقلية المحيط الأسري لأنها بالاضافة الى مساهمتها الفعالة في تكوين الإنسان الصالح، نجدتها تساهم في بناء المجتمع الصالح لأنها تربية تهدف إلى تعويد الفرد على صفات سلوكية نافعة له، بل ولغيره من الناس، كالنظام، والنظافة، والتعاون، والاعتماد على النفس، والرغبة في القيام بالعمل بتقبل وانسراح. وذلك يؤدي إلى تكوين الإنسان الصالح القادر على التجاوب مع المجتمع الذي يعيش فيه، تجاوباً بنأً يحقق له ولغيره الرضى والسعادة في دينه ودنياه.² ويمكن حصر أهم الوظائف الأساسية للتربية العقلية في: تجنب الأبناء المفاسد التي تقسد العقول، وهذا بتنمية التفكير لدى هم وكذا تشجيعهم على الابتكار والإبداع وغرس حب القراءة والمطالعة لدى الأبناء ولهذا فعلى الأسرة

1

2

الجزائرية أن تسطر في كل بيتها برنامجا يتعلق بالتربية العقلية التي تتبع أسلوب النضج والإرشاد الذي تكمن أهميته في توعية الأبناء من مخاطر مفسدات العقول وتجنيب الأبناء المفسدات التي تقصد العقول بما فيها، التعويد على النوم المبكر وعدم السهر. (3 سنوات - 22 سنة)، التوعية من أضرار التدخين (13 سنة - 22 سنة)، كثرة تناول الطعام ونوعيته (3 سنوات - 22 سنة)، عدم تصديق كل ما يشاهد من برامج وأفلام رسوم متحركة 3 سنوات - 12 سنة)، عدم الدخول إلى المواقع الإلكترونية الاباحية (13 سنة - 22 سنة) وهذا بأسلوب النصح والإرشاد يبين الوالدين مدى خطورة السهر على الجسم والعقل وفائدة النوم المبكر والاستيقاظ الباكر بحيث يستطيع الأبناء التركيز الجيد أثناء الدراسة، فبالتالي تكون لديهم القدرة على حل الواجبات المدرسية في فترة الظهيرة .

3-5 وظيفة التربية من الناحية النفسية: تكمن وظيفة التربية من الناحية النفسية في تنمية الجوانب المتصلة بالذات الإنسانية وتهيئة موجبات النضج والإدراك وتوجيه الرغبات والاميل والإدارة والتفكير الحر والنزعة الاستقلالية في الإنسان وتربيته بالشكل الذي يكون مستعدا للتقدم في طريق الأهداف المدروسة في الحياة كما تتمثل كذلك في تنمية القابلية الفطرية في الأفراد والرغبة في التضحية والإيثار والعفو والنصيحة. وكذا التفكير الصالح لدى الناس و دفعهم إلى كسب المعرفة. و قد أولت الأديان و خاصة الإسلام مسألة تنمية الروح اهتماما كبيرا لأن الروح تمثل وجود و قيمة الإنسان نحو مركز الذات البشرية و هي حارس لحياة و إرشاد الإنسان نحو الخير وعن طريقها يمكن الارتباط الحقيقي مع اللهو الروح وهي أشد قوة متصلة بحقائق الإنسان. و ترتبط بهذا البعد من الحياة عدة مسائل تتعلق بالبحث عن الحق وحب الحق وإقامة العدل والسيطرة على الأهواء وقبول الحكم و الدين والعقل على الحياة والسيطرة عبي وجود وسلوك الإنسان من قبل الضمير والنفس اللوامة¹.

¹ - صالح عبد العزيز التربية وطرق التدريس الجزء الثاني، الطبعة 6، ص 319

3-6- سائر الوظائف الاخرى : لا تقتصر وظائف التربية على هذا المقدار، فجميع التغييرات التي تؤثر بشكل ما في سلوك و مصير الإنسان يجب أن تحصل من خلال التربية و من بين هذه الوظائف رشد و تنمية جميع الأبعاد الوجودية بما فيها العادات المفيدة و الجرأة و الشهامة و الابتعاد عن التملق، و يقظة الضمير الديني و تنمية الإرشاد نحو الصراط المستقيم و إقامة التوازن بين الأبعاد الوجودية و تنمية الأمور الذوقية والفكرية، والاعتماد على النفس و الخلاص من الخلافات وحب العلم والنظرة الواقعية والتوجيه نحو القيم السامية و أخيرا التمهيد للحصول على الزاد من أجل مواصلة الحياة في العالمين.¹

4-أهمية التربية :

نتيجة للدور الفعال الذي تلعبه التربية في حياة الانسان وهي بمثابة العمود الفقري للمجتمع ونظرا اهمية هذا الأمر فقد حظيت التربية منذ عصور قديمة باهتمام جميع الآباء والأمهات والمربين والفلاسفة وعلماء الأخلاق، وكان البحث في شأن التربية وقواعدها و فنونها وضوابطها وشروطها وأهدافها وأساليبها، مطروحا منذ أمد بعيد، وقد أدت التغييرات السريعة والمستمرة في شؤون الحياة، والمرحلة الطويلة للطفولة والتحولات السريعة والكثيرة في جميع شؤون حياة الإنسان، إلى زيادة ضرورة البحث في هذا الموضوع ودراسة جوانبه، وانطلاقا مما تعرضنا اليه سابقا وجدنا أن التربية عملية فردية إجتماعية تتعامل مع فرد في مجتمع تنقل إليه معارف ومهارات ومعتقدات وتنقل لغة الجماعة من جيل إلى جيل والإنسان هو موضوع التربية ولا يمكن لهذه العملية أن تتم بمعزل عن الجماعة، لأن الذات الإنسانية لا تتكون إلا في مجتمع إنساني، ونظرا لهذه الأهمية للتربية باعتبارها مسألة حيوية لازمة وضرورة إجتماعية فلقد زاد إهتمام الناس بها وإشتدت الحاجة إلى دراستها والتعرف علي اهميتها ومن ثم كان ضروريا بالنسبة لدارس التربية وممارسها في المستقبل أن يتعرف علي طبيعة وضرورة هذه العملية التربوية بعدما أبرزنا أهم جوانبها المختلفة فيمكن القول إذن أن

¹- على القائي، اسس التربية، ترجمة، عبد الكاظم لوبادي ص 200

هدف التربية الأساسي هو الإنسان أي جعله مخلوقاً إنسانياً يعيش في مجتمع ضمن إطار اجتماعي يحتوي على تقاليد ونظم وقيم ومعايير وأفكار خاصة به وفيما يلي سنعرض أهمية التربية بالنسبة للفرد وبالنسبة للجماعة كذلك.

4-1 أهمية التربية بالنسبة للفرد: إن العلوم التي يكتسبها الآباء لا تنتقل إلى الأبناء

بالوراثة البيولوجية كما هو الشأن في الصفات الفطرية فابن الجاهل وابن العالم يولدان متساويين من حيث خلو الذهن من المعرفة، وإنما العلم (ميراث اجتماعي) ،جاهد الجنس البشري في اكتسابه وحافظ عليه آلاف السنين، ولا يمكن إنتقاله من جيل إلى جيل إلا بالمشقة والتعب، وإذا أراد الجيل السابق أن ينقل إلى الجيل اللاحق ما تجمع لديه من معارف ومهارات وتقاليد ومثل عليا فما عليه إلا أن يشرع في عملية التربية من جديد، وما دام الطفل يولد خالي من العلوم التي حصلها أسلافه عبر الأجيال لذا قيل إن التربية عملية ينتقل بها الإنسان من الهمجية إلى المدنية.¹ وقد تكمن أهمية التربية بالدرجة الأولى في **تحقيق النمو الشامل** بحيث تعمل التربية على تهيئة الوسائل المختلفة لتحقيق إمكانيات النمو للطفل عقلياً واجتماعياً وجسمانياً، فالطفل يعتمد على الكبار في اكتسابه للخبرة اللازمة لتفاعله وتكيفه مع الآخرين، وتكسب هذه الخبرة بتكوين العادات الإيجابية والتي يسيطر بها الطفل على بيئته ويستخدمها في تحقيق أهدافه، و التي تتمثل في الطاقة الإيجابية التي تعينه على التكيف ومواجهة الظروف المتغيرة والجديدة وهكذا نخلص إلى أن عملية النمو تستلزم وجود شرطين هما: الإعتماد على الآخرين، والمرونة كما تعتبر التربية كذلك وسيلة اتصال وتنمية للأفراد لان بقاء المجتمع يتسم بالاتصال الذي يؤكد المشاركة بين افراد المجتمع وهذا الاتصال يكون قائماً على الخبرة و وحدة الأهداف والميول المشتركة وذلك هو الاتصال المرغوب المفضل بين الآباء والأبناء، وبين المدرسين والتلاميذ، وبين الرئيس والشعب، ولكي نضمن علاقة إيجابية ذات أثر تربوي بين أعضاء المجتمع، لابد من خلق

¹ الجيلالي بن التهامي مفتاح، -فلسفة الانسان عند ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الاولى، سنة

الاحساس بالمسؤولية لأن الحياة الاجتماعية لا تتطلب لدوامها التدريس والتعليم فقط، وفي هذا يقول "جون ديوي": "إِنَّ أَيْ تَنْظِيمَ إِجْتِمَاعِي لِكَيْ يَبْقَى إِجْتِمَاعِيًّا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُرَبِّيًا لِلْمُشْتَرِكِينَ فِيهِ، فَالْتَنْظِيمُ الْإِجْتِمَاعِي يَفْقَدُ قُوَّتَهُ التَّرْبَوِيَّةَ إِذَا بَقِيَ عَلَى نَحْوِ رُوتِينِي أَوْ شَكْلِي فِي عِلَاقَاتِهِ فَقَطْ، وَهَذَا يَقُودُ إِلَى الْإِنْعِزَالِيَّةِ بَيْنَ أَفْرَادِهِ وَعَدَمِ الْمَسَاوَاةِ فِي تَحْصِيلِ الْخِبْرَةِ، وَيُضِيفُ قَائِلًا: إِنَّ عَدَمَ الْمَسَاوَاةِ فِي التَّحْصِيلِ بَيْنَ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ لَا تَتَطَلَّبُ سَلِيمَ الْأَخِيرِ فَقَطْ، وَلَكِنْ تَتَطَلَّبُ ضَرُورَةً تَعْدِيلَ مُسْتَوَى الْخِبْرَةِ وَتَقْلِيلَهَا وَتَكْيِفَهَا لِكَيْ يَسْهَلَ تَوْصِيلُهَا وَتَدَاوُلُهَا"¹ ولكون إن البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيها الفرد تؤثر في تكوين شخصية الطفل فنجد ذلك ينعكس على تحديد اتجاهاته العقلية والعاطفية (طريقة تفكير الطفل في أمريكا تختلف عن طريقة الطفل المولود في فلسطين - مثلا)، وفي تحديد أنماطه السلوكية تصرفات الفرد في اليابان تختلف عن تصرفات الفرد في الجزائر)، فالوسط الخاص الذي يعيش فيه الفرد يقوده لرؤية أشياء أكثر من غيرها، ويتخذ أسلوب معين في العمل بنجاح مع الآخرين، وهكذا يكتسب الفرد من هذا الوسط اتجاهًا سلوكيًا معينًا يظهر في نشاطه وتفاعله مع غيره، وتتكون الاتجاهات السلوكية في البيئة بواسطة تشكيل العادات النافعة للطفل وتثبيتها وتعديل دوافعه الأصلية، على أساس مبدأ اللذة والألم، ودور البيئة كذلك في تزويد الفرد بالمواقف والمثيرات التي يستجيب لها وفق نمط الاستجابة للبيئة وهكذا تكون التربية عملية تعلم لأنماط سلوكية موجودة في البيئة لوجود مثيراتها، كما أن الأنماط السلوكية تختلف من بيئة إلى أخرى تبعًا لاختلاف المثيرات واختلاف الاستجابات المترتبة عليها².

و تتضح أكثر أهمية التربية في تكوين اللغة وتحصيل المعارف لأن الطفل يتعلم اللغة وأساليب الكلام منذ مراحل نموه الأولى، وتكون اللغة والمعرفة عندئذ في أبسط

¹ جون ديوي : المدرسة والمجتمع، ترجمة احمد حسن الرحيم، دار مكتبة الحياة بغداد 1964 ص 48-50

² - محمد لبيب النجحي: دور التربية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية للدول النامية دار النهضة العربية، بيروت، ط2، ص

صورهما، والأم حين تقدم لأبنها لعبة أو كساء أو غذاء فإنها تنطق صوتاً معيناً يصاحب تقديم هذا الشيء، وبما أن الابن سيكون طرفاً في هذا الاتصال لأن الأمر يعنيه فإنه يتعرف على الشيء وإسمه، وهنا تكون اللغة كصوت وأداة تعبيرية عن الأشياء ومعانيها قد اتضحت للطفل، وبتكرار هذه المواقف التي تتصل بحاجات الطفل و إهتمامته فإن التعرف على الأشياء ومعانيها يكون أول مستويات الخبرة المحسوسة، وهكذا تنمو المعرفة والخبرة عند الصغير بسيطرته على اللغة وأساليب الكلام، كأدوات اتصال لها معانيها وقيمتها.¹ يمكن إعتبار التربية وسيلة لإيصال الروح إلى أرفع درجات الكمال والجمال وعاملاً لسعادة الفرد و في ظلها يستطيع المرء أن يكون إنساناً حقيقياً، فكثير من التحولات والإصلاحات قد تحصل لدى الفرد في ظل التربية أو تزول بزوالها إن التربية تعمل على إكتشاف الجوهر الباطني للإنسان و تعمل على تعزيز قواه و بلورة ذهنه و إحياء موجبات التفكير فيه، و بناء إنسان مبتكر و منتج، ولا يؤدي الغير، إن التربية هي أساس شخصية الفرد وهي التي تحرر الطاقات و توجهها و تنمي الأبعاد الشخصية في الإنسان وتجعلها في مسير التكامل، و تبني الأرضيات الباطنية في الإنسان و تدفعه إلى العمل، و على هذا الأساس تعتبر التربية نوع من الصناعة. و التربية تغلق طرق الفساد بوجه الإنسان، وتقوي إرادته وتدفع المرء إلى السير في الطريق المطلوب وتقوي الجسم، وتجعل الفكر سليماً، وتكمل الأخلاق، وتمهد الطرق للتفكير والتعلم والتدبر والتحقيق. وتهيئ موجبات القطع واليقين والوصول إلى الحجة و البرهان.²

4. 2 أهمية التربية على مستوى الاجتماعي : نقصد بفوائد التربية على الصعيد

الاجتماعي بمجموعة العمليات التي يستطيع بها المجتمع أو زمرة اجتماعية أن تتقل سلطانها أو أهدافها المكتسبة، بغية تأمين وجودها الخاص ونموها المستمر³، إن التربية هي الحياة"

¹ - على القانمي، اسس التربية، ترجمة، عبد الكاظم لوبادي، ص 93

² -د- الصغير بن عمار، الفكر العلمي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر -1981 ص 111

³ -محمد لبيب النجحي: دور التربية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية للدول النامية، ص 203

وبهذا حدد ديوي غرض التربية كحركة تخدم المتعلم في يومه قبل غده مع التأكيد على أنها عملية مجتمعية ديمقراطية إذ أن قوة المجتمع هي التي تصنع الأفراد وتصيغ الأهداف، فالعلاقة بين التربية والمجتمع علاقة وطيدة منذ القدم.¹ فالفلسفة عند ديوي ترسم مسارات التعليم ولا يمكن الفصل بين الفلسفة والتربية فالأول يقدم التصورات الضرورية والثاني يمثل التطبيق العملي لتلك التصورات، إنَّ إسهامات ديوي يمكن تصنيفها تحت العلوم التربوية والفلسفية والنفسية والسياسية. إذا أردنا أن نوجز فلسفة وعقيدة ديوي التربوية فإن التعليم الأمثل عنده هو الذي يغرس مهارات ولا يكس معلومات، وهو الذي يلامس متطلبات الواقع، ولا يغمس في تقديس الماضي. ومما يترتب على الرؤية الفلسفية السابقة جملة من التطبيقات التربوية منها أن التربية تقوم على مبدأ تفاعل المتعلم مع البيئة المحيطة به والمجتمع الذي يعيش فيه ولذلك فإنه يحتاج إلى تنمية مهاراته الفكرية، والعملية دائماً ليقوم بحل المشكلات بشكل راشد وأسس علمية.² وقد قام "ديوي" بتحويل عملية تهذيب الإنسان من العناية بالمثل العقلية المجردة إلى الاهتمام بالنتائج المادية الملموسة، التي عُرفت باسم التربية البراغماتية. ولتربية الفرد ولتكوين المجتمع الديمقراطي. يرى "ديوي" أن أسلوب المحاضرة من الطرق القاصرة في التعليم ومنافعها محدودة لأنها لا تتيح الفرصة للمتعلم كي يستكشف الواقع، ويجمع المعلومات، ويقيس الأمور، ويبحث عن الحلول، لهذا فإن أسلوب السعي في حل المشكلات القائم على حرية المتعلم أكثر إيجابية وأفضل من الدروس التقليدية القائمة على محاضرات المعلم التلقينية. من أفكار "ديوي" التربوية طريقة المشروع "project method" ويقصد بها أن يقوم المتعلمون باختيار موضوع واحد ودراسته من عدة جوانب كأن يذهب المتعلمون إلى مزرعة وفيها يتعلمون كيفية الزراعة ويستمعون إلى تاريخ الزراعة في تلك المنطقة ويتعاون كل فرد من المجموعة بعمل جزء من المشروع، في عملية

¹ - نفس المصدر السابق، ص 210

² -- جون ديوي المدرسة والمجتمع، ترجمة احمد حسن الرحيم، دار مكتبة الحياة بغداد 1964 ص 40

تنفيذ المشروع يقوم الطالب بجمع البيانات المطلوبة من المكتبة أو مقابلة الأساتذة. من أهم سمات طريقة المشروع كنشاط شامل:

- أن المتعلم عادة سيتفاعل معه لأنه قد يكون شارك في اختيار الموضوع.

- طريقة المشروع تشبع حاجة المتعلم النفسية لأنها تراعي الفروق الفردية، وتدفعه إلى التعلم الجماعي، وتحرره من قيود الكتاب المدرسي¹ وبهذه الطريقة تكون التربية قد استطاعت حل المشاكل الاجتماعية و تنظيم الأشخاص و القوى و إزالة المصاعب و إتمام الطاقات الاجتماعية و يمكن عن طريقها التربية الاجتماعية.

- تخفيض نسبة الجرائم و حث الناس على بناء و إصلاح المحيط و تنمية قدرة الحكم فيهم وإثارة الرغبة في رفع واستئصال المفاصد والحيلولة دون الاستضعاف والاستغلال،تستطيع التربية إعداد حكم صالح للناس ورفع مستوى النضج الفكري والسياسي و الاجتماعي وتقوية قابلية مواجهة الخصم وتعلم الأفراد المسؤولية وتثير فيهم حالة الدفاع عن كيانهم و شرفهم. وهي عامل للتفاهم ولأنه بإمكانها رفع الهوة والعقبات الموجودة في الطريق حيث تتغلب على المشاكل، و تمهد الأرضية للالتزام الأشخاص بالضوابط الإنسانية و تأتي بالعدالة والصفاء للبشرية.إنها تفضي إلى التعاون الاجتماعي والتضامن بين الناس وتعزيز روح التفاهم والتعاون وإطاعة القوانين والمقررات والالتزام بالنظام والانضباط ولا يرتبط تقدم و رقي الشعوب بوجود ثروات مادية وميزانيات طائلة في ظل غياب النضج الفكري والسياسي للمجتمع والذي يحصل على ضوء الاستثمار في هذا المجال، و الانتصارات الثورية في كل مجتمع تتجم عن أفكار سياسية منتصرة².

3-4 على الصعيد الاقتصادي: إن النظرة السابقة لأهمية التربية على الصعيدين

الفردى والاجتماعى جعلنا ننظر إلى أن التربية لها وظيفة على الصعيد الإقتصادى، لأن

¹ - جون ديوي، المدرسة والمجتمع، ص 68

² - على القائمي، أسس التربية، ترجمة، عبد الكاظم لوبادي 95 - 96

التربية سواء من حيث أهدافها وكذا أهميتها تعد الناشئين ليتحملوا عبء ومشقة الحياة بما فيها تلقينهم -الأفراد- وتعليمهم لمختلف المهن الضرورية في المجتمع. والدور الفعال الذي تلعبه التربية هنا هو تطبيق محتويات المهن الصناعية، ومن هذه الزاوية ندرك أهمية التربية من الناحية الاقتصادية لأنها تؤثر في عمليات الإنتاج وفي التنمية الاقتصادية، ولقد إتضحت هذه الأهداف بالخصوص عندما أصبحت التربية تساهم بشكل فعال في نمو الطبيعة البشرية بشكل متكامل وتحقق أهدافاً شاملة إجتماعية وإقتصادية، ذلك بعد أن كانت تهدف فقط إلى تنمية العقل وتنشئة الأجيال الجديدة على قيم خلقية مجردة، فالتنمية الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع تقوم على أساس وجود مجموعة من القوى البشرية المدربة والمتعلمة والمؤهلة بمهارات تخصصات متنوعة والقدرة على القيام بعمليات الإنتاج المختلفة، وهذه القوى البشرية تقوم التربية بإعدادها لأن التنمية الاقتصادية يجب أن تتماشى وفقاً لما يطلبه رهانات العصر المعاصر بما فيه تغيير في عمليات الإنتاج وفي اتجاهات الأفراد وقيمهم نحو العمل، كما تتطلب تدريب هؤلاء الأفراد وإكسابهم المهارات اللازمة لإحداث التطور ومتطلبات التنمية وأساس التنافس المحلي والعالمي والذي فرضته قوى وآليات العولمة. وقد بلغ الاهتمام بدراسة التربية وتحديد أهدافها في الإطار الاقتصادي بعد ما أصبحت قوة الأمم وتقدمها لا تقاس فقط بتوافرها لديها من موارد طبيعة وإنما بمدى امتلاكها للقوى البشرية الواعية والمدربة على العمل والإنتاج ورصيدها المعرفي المتمثل في عدد الاكتشافات العلمية وحقوق الملكية الفكرية المسجلة للمخترعين والموهوبين والمبدعين وغيره¹ ولتوضيح النظرة أكثر، ولبيان أهمية التربية على المستوى الاقتصادي ما نلاحظه من خلال ذلك الفرع من العلوم التربوية والذي يسمى باقتصاديات التربية أو اقتصاديات التعليم، هذا الفرع من العلوم التربوية وظيفته تكمن في دراسة الأوضاع التربوية المختلفة من حيث كونها أوضاعاً اقتصادية ومن ثم فإن الدراسات التي يتولاها هذا الفرع من التربية يهتم بدراسة

¹- محمد الهادي عفيفي، في أصول التربية، الأصول الثقافية للتربية - القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية، 1985.

مستوى الدخل القومي والفردى ومدى إرتباطه بمستوى التربية فيه، والعلاقة بين مستوى الدخل ومستوى التربية، كما يهتم بدراسة التربية من حيث كونها عملية استهلاكية أو استثمارية.¹ لهذا اعتبر الأخصائيون في الاقتصاد أن التربية والتعليم هما نوع من الاستثمار للمجتمع، وليس فقط من صنف المواد الاستهلاكية كما يعتقد البعض، بحيث تشير دراسات أجريت في الاتحاد السوفيتي في مجال المنافع المترتبة على إجراء التعليم الإلزامي فترة أربع سنوات، أن إنتاج ذلك كان حوالي 43 ضعف النفقة التي صرف في ذلك الطريق، و ثمة علاقة بين التربية و التنمية الإقتصادية، كما تفيد كذلك الاحصائيات أن فئة الأفراد المترين هي الفئة قليلة التعرض لخطر البطالة، وإنتاجهم يكون أكثر من غيرهم في جميع المجالات.²

4-4 على الصعيد الثقافي: التربية أداة لنقل التراث الثقافي ونشر وتنمية العلم و الفكر وتعليم طريقة وأسلوب الحياة والعادات والتقاليد وأنماط الفكر والشعائر والفنون و المهارات وتعليم عين الحياة ونقل التراث وعن طريق التربية يمكن تغيير أو توجيه مضمون فكر الفرد أو المجتمع، وطرح طريقة جديدة في الحياة وتقديم أسلوب قيم للتمتع بالحياة و تنمية القوى المادية والمعنوية للإنسان وإعداد مستلزمات الرقي والخلاص الجماعي من الاسترقاق والاستغلال.³ ولهذا فإننا يمكن ان نعتبر أن التربية هي عامل لإخراج الفرد من الجهل إلى العلم ومن الغرور والذاتية إلى الرؤية الكونية والنظرة الشمولية، وهي عامل لإثراء الحياة سواء في الجانب المادي أو الجانب المعنوي والرشد في أهداف الحياة، ولهذا يمكن أن نعتبر التربية هي سبب رئيسي في التخلف والتقدم، فالتخلف التربوي يؤدي في ما بعد إلى التخلف الاقتصادي والسياسي، كما أن التقدم المادي أو المعنوي في التربية يفضي إلى تقدم مادي ومعنوي، كما تعتبر التربية صناعة يتمكن الأفراد في ظلها توجيه الأشياء والقضايا

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة تحقيق درويش الجويدي المكتبة العصرية صيدا بيروت ط 1 سنة 1995 ص 365

² - على القائمى، اسس التربية، ترجمة، عبد الكاظم لوبادي، ص 104

³ - نفس المرجع السابق، ص 97-98

على أساس أهدافهم فتكون أحوالهم وسلوكهم ذات أثر وتهيئ مستلزمات إصلاح الحياة. وهي كذلك عامل للتجدد المستمر للحياة¹.

5- أبعاد التربية : إن أول بعد تحققه التربية بالدرجة الأولى هو البعد البيولوجي بما فيها حاجاته الى الإشباع المتوازن لرغباته حيث يحتاج الانسان الى مجموعة من الحاجيات الضرورية لضمان وتحقيق بقاءه في الحياة بحيث لا يمكن تصور الحياة بدونها، و يتصور "مالك بن نبي" أن هذه الحاجات ذات دافع غريزي عند الانسان وأن إلحاح هذه الحاجات من أجل اشباعها باستمرار هي التي تولد فيه الحركة والنشاط فهي مصدر وأساس حركة الإنسان في الحياة. إن الهدف من عملية إشباع هذه الحاجات لا يكمن في المحافظة على النوع الإنساني، بل ينبغي إستخدامها أيضا لتأهيله لكي يصبح عضوا فعالا في المجتمع عن طريق آليتين تربويتين سماهما التكيف و الاشراط ومن ثم إضفاء دلالة تاريخية على الوجود الكوني للإنسان في التاريخ. ولا يتم ذلك إلا من خلال تغيير الفرد من كونه فردا إلى أن يصبح شخصا وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات إجتماعية تربطه بالمجتمع². يرى "مالك بن نبي" أنه و من أجل ضمان الاندماج الناجح للفرد في المجتمع، يجعل "مالك بن نبي" مبدأ الإشباع. الذي هو مبدأ ذو معنى متميز ومتفرد، فهو ليس كما يفهمه البعض أنه مجرد حركة عفوية أو إستجابة آلية يخضع لقانون المنبه والاستجابة أرفع من ذلك وبكثير إنه فعل هادف تتوفر فيه أقصى مظاهر الوعي و نرى بأن الدين الإسلامي أشار على مبدأ الوسطية ونادي بالاعتدال والإشباع المتوازن الذي جعله أصلا تقوم عليه الحياة البشرية، إذ يؤكد الرسول ﷺ في أحاديث مختلفة معاني الاعتدال والتوسط وأنه " لا إفراط و لا تفريط" و أن " خير الأمور أوسطها فقد أولت التربية الإسلامية هذا المبدأ أهمية خاصة.فالمأمل في الشريعة يجد ان كل أسسها وإحكامها مبنية على التوازن والاعتدال، لذلك فإن الإشباع المتوازن لها يصبح حاجة لا مناص منها من أجل ضمان التربية المتوازنة

¹ - د ابراهيم خضور: التربية والتغيير الاجتماعي، مجلة جامعة دمشق المجلد 25، العدد الاول 2009

² - مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 31

لهذه الشخصية. وفي هذا السياق، انتقد "مالك بن نبي" المجتمعات المسيحية التي لم تقدر أهمية مبدأ التوازن في تربية الإنسان المسيحي، وتربية الجانب الجنسي بشكل خاص. هذا النوع من التربية الذي أدى بذلك الإنسان من أجل إشباع هذه الحاجة الطبيعية الفطرية إلى اللجوء إلى طرق غير طبيعية تتنافى ومبدأ التكريم الرياني للإنسان ومركزه المميز في الكون¹.

5-1 البعد الإنساني: الإنسان كائن اجتماعي، فهو يعيش في المجتمع وباب علاقاته مفتوح أمام حشد كبير من البشر، ويختلف نوع هذه العلاقات من ناحية أنها أساسية أو غير أساسية، وفي علاقات الفرد الأساسية مع الغير نلاحظ ثلاثة نماذج في مجال الأسرة فقط وهي: علاقة المرأة والزوج التي تقوم على أساس المحبة والتشاور والأنس والالفة و العفو و غض النظر والدفاع عن بعضهما البعض وكذا علاقة الوالدين بالأطفال كعلاقة الأم مع الزوج، الأب مع الابن، الابن مع الأب، الأب مع الأم، البنت مع الأب، الأم مع الابن، الابن مع الأم، الأب مع البنت، البنت مع الأم، الأخ مع الأخت، الأخت مع الأخ، و الأخ مع الأخ². ويعتبر الانسان العنصر الفعال ومحرك فكر "مالك بن نبي" لد نجده في كل اعماله الفكرية ولا يمكن أن يتناول قضية من القضايا إلا وكان العامل البشري هو المحور الفعال فيها والسبب في ذلك أن العامل البشري-الانسان-في رأي "مالك بن نبي"- هو مصدر نجاح أو فشل أي مشروع بشري في التاريخ، على مستوى الفرد أو المجتمع سواء . ولهذا، فهو يؤكد أن " الإنسان هو محرك الذي يتوقف عليه المجتمع فإذا تحرك تحرك معه التاريخ وإذا توقف توقف معه أيضا³. ولهذا فالإنسان حسب رأي "مالك بن نبي"- العنصر الرئيسي لأي مشروع حضاري كان أو تربوي إلى درجة اعتباره الأداة والهدف آن واحد ولذلك فإن إنجاز أي مشروع في الحياة البشرية إنما يتوقف كلياً على مدى فعالية الإنسان سواء

¹-مالك بن نبي: تاملات ص : 21-22

²- على القائمى : أسس التربية ص 99

³-مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي،، ص : 53

على شكل إستعدادات نفسية وفكرية أم ثروات طبيعية استدعي الامر حسن استغلالها ولفهم الموضوع اكثر نحاول ان نعالج هذه الابعاد من عدة زوايا.

1- من زاوية العلاقات: نرى في هذا القسم أنواع العلاقات التي يبينها الإنسان مع نفسه أولاً ثم مع خالقه، وماهي الضوابط التي عليه أن يحترمها في كل علاقة.

1.1 العلاقة مع نفسه: علاقة الإنسان مع نفسه تشكل جزءاً من علاقاته، و التربية مكلفة بجعل هذه العلاقات قائمة على أساس ضوابط معينة. وعلى التربية أن تسعى إلى بناء علاقات الإنسان بصورة حسنة. إن البعد الإنساني لدى الفرد يكمن في تنمية الإنسان بالشكل الذي يتحرك في طريق الخير وصلاحه وسعادته ويستفيد من الأرضية الموجودة لصالح تقدمه و تقدم مجتمعه، ولا يعرض العقل لصدمة جسمية أو نفسية، ويبني فكره وعقيدته و يوجه عواطفه في طريق الخير ويبعد عن نفسه الشر والفساد ويبادر لتخليص نفسه من القيود غير الصحيحة ويجعل نفسه في المجرى الصحيح الذي يحظى بتأييد الشرع .

1 2- العلاقة مع خالقه (البعد الديني): خلق الله الإنسان واليه يعود و لهذا يسعى ويرغب بالارتباط الدائم مع الله عزوجل، لذا فعليه ان يحقق هذا البعد الديني وجعل الفرد معتمدا على الله و مستعينا برعايته و تمهيد طريق الحياة أمامه على أساس ضوابط الشرع التي تسمح له أن يرى نفسه قويا.¹ وفي هذا المعنى يرى "مالك بن نبي" أن التربية الدينية تساعد على نجاح الإنسان، يضرب "مالك بن نبي" مثلاً يقارن فيه بين منهجين تربويين مختلفين. و قد تم تطبيق هذين المنهجين في بيئتين حضاريتين مختلفتين من أجل علاج ظاهرة واحدة هي عادة الإدمان على الخمر. يتعلق الامر بالمجتمع الإسلامي الأول في عهد النبوة، و المجتمع الأمريكي في ثلاثينيات القرن الماضي. ففي المجتمع الإسلامي لم يثر تحريم الخمر أية صدمة في ضمير الإنسان المسلم بحكم أن عملية التحريم هذه قد سبقها

¹ - على القايمي: أسس التربية ص 100

عملية إعداد نفسية محكمة مهدت للانتقال المنسجم من حالة الإدمان التام إلى حالة الانقطاع التام عن تعاطيه عبر مراحل متدرجة كان للفكرة الدافعة (أي العقيدة) الدور الأساس فيها. وأما المجتمع الأمريكي فقد واجه حملة المنع من شرب الخمر برد فعل عكسي عنيف ما جعل الأمريكيون يتجاوزن كل الحدود و العقبات تمثلت في إنشار حرب العصابات، و تكوين عصابات التهريب ومثل التجارة الممنوعة و تسمم الجمهور بخمور مغشوشة، وهو ما ادي في الأخير إلى إلغاء قانون التحريم بموجب التعديل رقم واحد وعشرين (21)، المصدق عليه في شهر ديسمبر من سنة 1933 م وبهذا الإجراء تم استئصال فكرة التحريم نهائيا من العالم الثقافي الأمريكي و تم الإعلان، ولو بشكل غير مباشر، أن ذلك المشروع لم يكتب له النجاح لأن فكرة التحريم في أصلها كانت مرفوضة وأن الفرد الأمريكي لم يكن مستعدا لقبول فكرة التحريم فضلا عن العمل بها. وأمام هذا الموقف، يمكن أن نستخلص أن المنهج الذي تبناه المجتمع الأمريكي من أجل علاج هذه المشكلة لم يكن منسجما مع الفطرة البشرية ومن ثم غير فعال لأنه لم ينطبق من المنطلق الأصلي للتغيير، و هو الفطرة البشرية، أي القناعة الذاتية المبنية على أساس عقائدي يتضمن التعويض النفسي القادر على أن يحب محل المتعة الآنية التي تحقق بالإدمان.¹ و لعل السر في نجاح المنهج الإسلامي في إقناع الإنسان المسلم بالانقطاع الفوري عن تعاطي الخمر هو ربط عملية التغيير بمبدأ أعلى و متعالي وهو مبدأ العقيدة الإسلامية الذي إستولى على ضمير الإنسان المسلم و استحوذ عليه لكونه أحد العناصر الأساسية التي يتشكل منها إذ لا يمكن تصور اكتمال سعادته الدنيوية والآخره دون الايمان بمبدأ العقيدة الإسلامية ولعل هذا ما يفسر الربط الذي نلاحظه في القرآن الكريم بين الإيمان بالله عز وجل والإيمان وباليوم الآخر وحتي يونغ ن جده في معظم مؤلفاته يمجّد الفكرة الدينية موضحا مدى أهميتها، حيث نجد يقول "لا يجد الإنسان تبريرا حقيقيا لوجوده ولا لإستقلاله إلا عبر الإيمان

¹-مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 55-56

بمبدأ ديني"، كما ميز "يونغ" بين الدين religion وبين العقيدة creed، فالأول يعتبره علاقة شخصية مع الله والثاني تعبير عن ايمان نفسي وقد لاحظ أن الدولة الحديثة (إستهزأت أو حطت من قيمة الدين) يقول "يونغ" "إن الدين يعلم للناس سلطة أخرى غير سلطة الدولة" فهو يُقر بأن الدين قيمته تراجعت في أوروبا و لم يصبح سوى عقيدة موروثية، مما أدى إلى إصابة الإنسان الغربي بفراغ روحي يظهر على شكل أمراض نفسية وعقلية، يلاحظ يونغ أن تراجع قيمة الدين جاء بعد تعاظم قيمة العلم والفلسفة في أوروبا، ما جعل الأوربيين يسقطون في وهم إمكانية تعويض وظيفة العلم بوظيفة الدين، فالدين حسب رأيه يعمل على حفظ التوازن النفسي بين عالمين مادي و الروحي ولا بد من التوازن حتى لا يحدث الآخر مشاكل فكرية وفلسفية وأكد نفسية و وجدانية، غير أن المصالحة بين هذين العالمين ليست بالسهلة خصوصا مع المعرفة العلمية التي لا تعترف سوى بالمادي ولا تصدق ما لا يصدق العقل هنا نختم بقول يونغ "إن الذي لا يتعلق بحبل الله لا يستطيع مقاومة ثقل العالم المادي و المعنوي".¹ ولهذا في نظر "مالك بن نبي" سواء تعلق الأمر بالمجتمع المسيحي أو المجتمع الإسلامي فإن الفكرة الوحيدة التي غرست بدرتها عبر التاريخ هي الفكرة الدينية معني هذا أن الفرد حينما يلد يحمل معه إستعدادات كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الذي سيخرج فيما بعد الي الوجود إذن العلاقة الروحية بين الله والانسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية وهي التي تربط بين الانسان وأخيه الانسان وهو ما يتولد عنه صورة القيمة الأخلاقية التي تترجم في الميدان التربوي فالعلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحانية معني هذا أن الدين يخلق نظاماً اجتماعياً وكلما ضعفت العلاقة الدينية ضعفت معها العلاقات الاجتماعية وينتج عن ذلك فراغ اجتماعي وعندما تقوي العلاقة الدينية فإن درجة الفراغ الاجتماعي يقل مما يوحي بقول ص(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه البعض) فهذه هي صورة المجتمع الذي لا يوجد فيه فراغ اجتماعي. لكننا ندرك جيدا ان

¹-مالك بن نبي ميلاد مجتمع ص : 102

الوصول الى هذه الدرجة ليس بالسهل بل يجب أن تتوفر في المجتمع شبكة العلاقات الإجتماعية المتانة والاتساق هذا هو الدرس الذي أراد القرآن أن يعلمه لنا حينما قال لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ*¹ إن الفكرة الدينية نجدها تتأثر بالعوامل الجغرافية حيث ترتبط بعنصر المكان يضرب لنا "مالك بن نبي" مثال عن المسيحية مقارنة بالفكرة الدينية الإسلامية التي بسطت نفوذها لأن شبه الجزيرة العربية انذاك -أقصد فترة نزول القرآن - كانت إرضاء عذراء تستطيع أية فكرة دينية جديدة أن تمد جذورها عكس المسيحية التي جاءت في الوقت الذي كانت فيه أوروبا مزدحمة بالثقافات والأديان السابقة بما فيها الثقافة الاغريقية والرومانية واليهودية ومن خلال هذه الفكرة نستنتج أن تأثير أية فكرة دينية يكون مرهون ببعض الشروط الجغرافية الإنسانية فان لم تجدها في موطنها فإنها تهاجر الى موطن آخر لتجدها في مكان آخر فالبوذية مثلا هجرت مسقط رأسها متجهة الى الصين حيث غرست معالمها هناك وقد إستطاعت المسيحية أن تبني مجتمعا جديداً وهو مانطلق عليه -بالمجتمع الغربي -وكانت المسيحية هي التي أخرجت النسق الغربي من فوضي التي أعقبت الحضارة الرومانية وعن عظمة الفكرة الدينية وأهميتها يقول "جيزو"² (تلكم هي السمة العظيمة الاصلية للحضارة الأوروبية منذ أن تطورت تحت تأثير الانجيل.....) ولو إسقطنا هذا على علم الاجتماع نجد أن الفكرة المسيحية هي التي صاغت شبكة العلاقات الاجتماعية حيث شكلت الفكرة المسيحية (انا)الإنسان الأوروبي نظرا للارتباط بين الأشخاص والأفكار والاشياء، بحيث أنه لو تتبعنا تاريخ أوروبا من حيث عملها الروحي نجد إنسجام بين الظاهرة الروحية -الكنيسة- والظاهرة الأوروبية كجغرافيا، حيث يقول أحد المؤرخين (كل حدث يسجله الزمن في ملحمة من ملاحم التاريخ الأوروبي هو في الواقع نوع من التجسيد للفكرة المسيحية) ويظهر لنا هذا النشاط المشترك في تاريخ أوروبا منذ الحضارة الاغريقية التي كان لها الفضل في قيام

¹ -*سورة الانفال الاية 63

² -فرانسوا جيزو سياسي ومؤرخ فرنسي 1787-1874

وازدهار الحضارة الأوروبية وقد بلغت الحضارة الإغريقية أوجها خلال القرن الخامس والرابع ق.م وبعدها تأتي الحضارة الرومانية التي تعتبر من أعظم حضارات أوروبا بعد الحضارة الإغريقية وكانت تبسط سيطرتها على جميع شبه جزيرة جنوب إيطاليا- وما يعرف الآن بفلورنسا- وكان ذلك عام 275 ق.م، وخلال القرنين التاليين تمكن الرومانيون من بناء إمبراطورية إمتدت لما يعرف الآن بإسبانيا حتى جنوبي آسيا عبر الساحل الشمالي لإفريقيا وضموا فيما بعد كل ماتبقى من أوروبا إلى إمبراطوريتهم.¹ وقد إقتبس الرومانيون أفكارًا عديدة من الإغريق مما ساعدهم على نشر الثقافة الإغريقية في أنحاء إمبراطوريتهم لكن كان للرومان أيضًا إسهاماتهم في الحياة الأوروبية بالتخطيط الدقيق للمدن وتشييد وإقامة شبكات الطرق. كما أصبحت اللغة اللاتينية أساسًا قامت عليه اللغات المتداولة في أوروبا اليوم. كما أصبح كثير من الأسس القانونية التي وضعها الرومان جزءًا من الأنظمة القانونية في أوروبا ولاحقًا جزءًا من الأنظمة القانونية في أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية. وبدأت المسيحية في فلسطين وقد كانت جزءًا من الإمبراطورية الرومانية. وسرعان ما انتشرت في الجزء الأوروبي من الإمبراطورية، وقد منح الإمبراطور "قسطنطين" الكبير النصرى حرية العقيدة، وفي أواخر القرن الرابع الميلادي، أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية. وحينما سقطت الإمبراطورية الرومانية وحلت محلها دويلات وممالك صغيرة. وأصبحت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، القوة الوحيدة صاحبة أوسع نفوذ في القارة، ليس في الأمور الدينية فحسب بل في ميادين السياسة والفنون والعلم أيضًا. وفي مطلع القرن الثامن الميلادي، أي بعد مرور حوالي قرن كامل من مجيء الإسلام كدين في الجزيرة العربية، تمكن المسلمون من نشر الإسلام في الشرق الأوسط ومعظم بلاد شمالي أفريقيا. وقد إمتدت غزوات المسلمين إلى أوروبا فشملت إسبانيا. واتسعت الدولة الإسلامية. وظل المسلمون يحتفظون بمركز القوى في إسبانيا حتى القرن الثالث عشر الميلادي لأن الشبكة الإجتماعية كانت كالبنيان المرصوص

¹-مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص 63

وفي القرن الحادي عشر الميلادي تمكن المسلمون الأتراك القادمون من أواسط آسيا من فتح آسيا الصغرى (تركيا الآن)، والشرق الأوسط. وفي بداية القرن الرابع عشر الميلادي جاءت مجموعة أخرى من المسلمين هم الأتراك العثمانيون فبسطت سيطرتها على هذه المناطق. وفي منتصف القرن السادس عشر الميلادي أصبحت الدولة العثمانية تشمل أجزاء كثيرة من الشرق الأوسط، وشمال أفريقيا وجنوب شرقي أوروبا. ولقد احتفظت الدولة العثمانية بتلك الأراضي حتى القرن التاسع عشر.¹ وقد ظهرت النهضة الأوروبية. في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، وأواخر العصور الوسطى، في إيطاليا، وانتشرت في معظم أنحاء أوروبا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. وكان لفكر عصر النهضة التأثير الأكبر على الحضارة الغربية منذ ذلك الحين. وأخذ أولئك الناس الذين عاشوا في عصر النهضة من الثقافتين الإغريقية والرومانية القديمتين نموذجًا يتحدى به لأنها ساهمت هذه الثقافات الى حد بعيد في ظهور مفهوم الديمقراطية، وتجديد الاهتمام بالتعليم والبحث العلمي وفيها برز حدث مهم وهو ظهور حركة الإصلاح الديني اللوثيري. التي هي حركة دينية مسيحية ظهرت في أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي. وبدأت كمحاولة لإحداث التغيير في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وكان من نتائجها مولد البروتستانتية. والتي تزعمها "مارتن لوثر" (الراهب الألماني وأستاذ علم اللاهوت) حركة الإصلاح ابتداءً من عام 1517م. ولقد أدت انتقادات مارتن لوثر وأتباعه الى ميلاد حركة إصلاح أخرى من الكنيسة الكاثوليكية التي عرفت بحركة الإصلاح المضاد. وبفضل الإصلاح الديني استطاعت أوروبا أن تفرض سيطرتها وتعزز نفوذها عبر العالم في عصر الاكتشافات الأوروبية العظمى الذي بدأ في القرن الخامس عشر الميلادي. فأحتل البحارة البرتغاليون وإسبان المرتبة الأولى من حيث الاكتشافات التي تمت في القرنين الخامس

¹: Dominique de Courcelles-LE POUVOIR DES LIVRES À LARENAISSANCE,Études et rencontres,Éditeur Publications de l'École nationale des chartes,Lieu d'édition : Paris,Année d'édition : 1998 ,P -79-36-28

عشر والسادس عشر الميلاديين. وكان "كريستوف كولمبوس" البحار الإيطالي الذي كان يعمل في خدمة الإسبان، قد وصل إلى أمريكا في رحلته من إسبانيا إلى جزر الهند الغربية عام 1492م. كما قام أيضًا المكتشف البرتغالي فاسكو داجاما بأول رحلة بحرية له من أوروبا إلى الهند حول أفريقيا في عامي 1497 و 1498م. وبعد عشرين عامًا قام بحار برتغالي "فرديناند ماجلان" بتنظيم أول بعثة اكتشافية حول العالم. في تلك الفترة أقامت القوى الأوروبية المستعمرات في أفريقيا وآسيا والأمريكيتين حيث أصبحت الدول الأوروبية أكثر ثراءً وقوة مما كانت عليه. من قبل.¹ ولييان مدي تماسك الشبكة الاجتماعية فيما بينها ودور الفكرة الدينية فيها وهو مثال في غاية الروعة حيث يرى عدد من المؤرخين وعلماء الاجتماع أن ظهور البروتستانتية كان لها أثر كبير في نشوء الثورة العلمية، وكأحد الأسباب التي أدت إلى الثورة العلمية خاصة في انكلترا وألمانيا، فقد وجدوا علاقة ايجابية بين ظهور حركة التقوى البروتستانتية والعلم التجريبي وإستنادًا إلى (Robert Merton. روبرت ميرتون).² فإن العلاقة بين الإنتماء الديني والإهتمام بالعلم هو نتيجة لتضافر كبير بين القيم البروتستانتية وتلك في العلوم الحديثة وقد شجعت القيم البروتستانتية على البحث العلمي من خلال السماح بالعلم لتحديد تأثير الله على العالم، وبالتالي يتم تقديم مبررات دينية لأغراض البحث العلمي ومنه ظهرت الديمقراطية والقومية كقوتين سياسيتين مؤثرتين في أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين.³ ولقد تمت الحركة الديمقراطية لدرجة كبيرة، بسبب عصر التنوير الذي أحدثه "مارتن لوثر" تحديات ذلك العصر للسلطة

¹ - نفس المرجع السابق ص 108

² -- عالم اجتماعي امريكي مواليد 31 تموز 1944 في نيويورك تخرج من كلية هارفرد للأعمال وحصل علي ماجستير الهندسة والرياضيات من جامعة كولومبيا عام (1966 حصل على درجة الماجستير الفخرية في الآداب من جامعة هارفارد، 1989 دكتوراه في القانون من جامعة شيكاغو، وفي عام 1991 أصبح أستاذًا فخريًا في الدراسات التجارية العليا من جامعة باريس، وفي 1995 وفي 1993 كأستاذ زائر للمالية ومؤسس مدرسة سلون للإدارة في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا 1980-1988 أستاذ مساعد المالية 1970-73، أستاذ 1973-74 وفي 1970 عمل باحثًا مساعدًا في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا

³ - انظر كذلك مالك بن نبي: شروط النهضة ص 61 -64

التقليدية. أما القومية فلقد انبثقت تباغاً من المشاعر القومية، التي وحدت أفراد كل شعب من شعوب أوروبا في نضالهم من أجل الحكم الديمقراطي. ومن الأمثلة الرائعة حول دور الإصلاح في تحرير العقول هي تلك الثورة التي قام الشعب الإنجليزي في القرن السابع عشر بأخطر تحد في القرون الوسطى ضد تسلط الملوك في أوروبا، حيث ألغى نظام الملكية في أعقاب حرب أهلية، فاختمت الملكية لمدة عشرة أعوام في منتصف القرن السابع عشر، وفي عام 1689م، أجاز البرلمان الإنجليزي وثيقة (بيان) الحقوق التي منحت له سلطات أوسع من سلطة الملوك، ومنحت للشعب ضمانات تكفل له حريته. كما تعد الثورة الفرنسية (1789-1799) من أكثر الثورات الديمقراطية أهمية في أوروبا في تلك الفترة. فلقد ثارت الطبقتان الدنيا والوسطى الناميتان ضد الملك لويس السادس عشر واستولتا على مقاليد الحكم. وتبنت الجمعية الوطنية الفرنسية وثيقة إعلان حقوق الإنسان وحقوق المواطن. وهي وثيقة تطرح مبادئ حرية الإنسان وحقوق الفرد من وجهة النظر الأوروبية. بعدما تحرر ودينيا وقد برز من بين صفوف الجيش الفرنسي "نابليون بونابرت" الذي تمكن من الاستيلاء على الحكم والتي كانت نهاية الثورة الفرنسية. وذلك عام 1799م، من خلال هذا التحليل نستنتج أن تاريخ أوروبا منذ الحضارة الرومانية إلى غاية قيام الثورة الفرنسية فانه مجتمع خاضع لشبكة إجتماعية متماسكة وإن هذا الانسجام نتيجة لنشاط مشترك لعالم واحد من الأشخاص والأفكار والأشياء معناه إنتاج مشترك لنشاط إجتماعي واحد يفكر في صف واحد، ومن خلال هذا التسلسل نلاحظ العلاقة المتينة بين وحدة التاريخ العضوي والفكرة الدينية فكل حدث منها يجد تفسيره في الاحداث السابقة عليه.

خلاصة القول أن كل ما ينتسب الى عالم الأشياء وعالم الأفكار أو عالم الأشخاص وإنما ينتسب بالضرورة الى تكوين الظاهرة الأوروبية الدينية اعني انه ناتج عن شبكة العلاقات التي انتجت الحروب الصليبية او ثورة 1848عام¹.

2-5 البعد الاقتصادي: إن البعد الاقتصادي للتربية يتمثل في توضيح أي عمل وحرفة يرغبها المرء وكيف بإمكانه كسب مهارة في هذا المجال الاقتصادي فعلى التربية أن تعلم الأفراد فن الحصول على الأموال، من ناحية و فن صرفها و المحافظة عليها من ناحية أخرى، وهو أمر مهم، في أن يتمكن الإنسان من التعرف على قوانين الاقتصاد الصحيح وعدم السماح لنفسه بارتكاب المخالفات والغش في الميزان.² أما بالنسبة للبعد الثقافي يتمثل في تعليم الافراد طريقة العيش الجيد و توعيتهم بظروف الحياة و مراحل فترة الرشد وتعريفهم بالبيئة التي يعيشون فيها و وضع تجارب الغير ونقل تراث الجيل الماضي تحت تصرفهم. ومن أبعدها أيضا نجدتها تدفع الفرد إلى تقييم التراث الثقافي وتعليمه طريقة إنضاج وإثراء الثقافة ودراسة القيم والآداب والعادات والأهداف وتوجيه ميوله وأمنيته في طريق سعادة الفرد و المجتمع.³

3-5 البعد السياسي: فنجد أن التربية هي تعليم أفراد المجتمع لتوعيتهم بالتيارات السياسية و اتخاذ المواقف الحسنة في تلك المجالات. و يجب أن تبني التربية الإنسان لائقا لامتلاك تبعية لجهة لائقة و إقامة علاقات متبادلة مع الهيئة الحاكمة و تعليمه العادات والتقاليد والتحزب والتنظيم، وتربيته مواليا للحق والعدل وطالبا للحرية والتحرر وتعليمه فنون وطرق الدفاع و الجهاد وجعله فردا متحركا وساعيا في خدمة الناس على المستوى الوطني، و بنائه إنسانا متحدا و متعاوننا مع سائر الناس، على المستوى الدولي وذلك بشرط الوحدة

¹-مالك بن نبي تاملات، ص 30 انظر كتاب لويس عوض: ثورة الفكر في عصر النهضة الأوروبية مركز الاهرام

للطباعة والنشر،مركز الاهرام للطباعة والنشر، ط 1، 1987، ص 68

²- مالك بن نبي:المسلم في عالم الاقتصاد، ص24-25 (انضر مقدمة ابن خلدون الفصل الثامن ص 365

والعقيدة. وتربيته محبا للخير ومعينا في طريق التعايش السلمي. وتوعيته بعالم السياسة وبالتيارات الموجودة في مجتمعنا والمجتمعات الأخرى. وصياغته عضوا مفيدا في المجتمع.¹

4-5- البعد الاجتماعي: إن المجتمع في نظر "مالك بن نبي" ليس مجرد عناصر بشرية متجمعة، يكون هم التجمع البشري فيها مجرد المحافظة على البقاء النوعي حاله حال القطيع من الحيوان البهيم، و إنما هو التجمع الذي يستهدف شكلا راقيا من أشكال الحياة الاجتماعية وترقية النوع بمختلف أبعاده الحضارية إلى مستويات التكريم والتفضيل ليضفي على وجوده الكوني دلالة تاريخية تجعل الحياة البشرية حياة هادفة متميزة.

وإنطلاقا من هذه الاعتبارات، تظهر تربية الفرد كحاجة إنسانية لا يمكن تصور الحياة البشرية بدونها، بل هي الخطوة الأساس والأولى على طريق بناء المجتمع المتحضر، فإنه يصبح غنيا عن التأكيد القول أن نقطة الانطلاق في عملية البناء هذه إنما هي تغيير الإنسان من كونه فردا ليصبح شخصا و من ثم إعداده لاحتلال مكانته الاجتماعية.

إن البعد الاجتماعي للتربية يوفر الأرضية لرفع الحاجات الأساسية للفرد وتعريفه بالبيئة و ما فيها، ودفع الإنسان إلى تعزيز وضعه ومكانته والأخذ بنظر الاعتبار الوجوه المشتركة للتواريخ والحضارات، وإبداء رأيه وعقيدته، مع إحترام افكار وعقائد الغير. حيث تجعل الحياة قائمة على أساس التعاون والتكافل والتضامن الاجتماعي وتعليم الإنسان كيفية بناء علاقاته مع الآخرين².

5- 5 البعد التربوي: يتضمن الحديث عن هذا البعد مناقشة مختلف خصائص الطبيعة البشرية التي تؤكد حاجة الإنسان إلى التربية. ويقف على رأس ذلك كله الطاقة الحيوية الخام التي تصبح في خدمة المجتمع فضلا عن الفرد ذاته، إلا إذا تم تحويلها إلى طاقة اجتماعية يمكن استخدامها من أجل ترقية الحياة البشرية وفقا لنظرية الحياة التي يؤمن

¹ مالك بن نبي : بين الرشاد والتيه ؛ص 100

² عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة ،الباب السادس من الكتاب الاول ص 400-402-

بها المجتمع. يؤكد "مالك بن نبي" أن التربية عامل حاسم في صياغة وتشكيل الشخصية البشرية.¹ والسبب في ذلك هو أن الإنسان قد خلق في حالة بدائية لم يتعرض بعد فيها إلى أي تكييف أو تعديل، فالطبيعة² قد زودته بمخزن خام ينطوي على طاقة حيوية تتمثل في تلك الاستعدادات والقدرات والمواهب المختلفة، والقابلة للتكييف التربوي حسب الوجهة الفلسفية التي يتبناها المجتمع وهو لا يعلم شيئاً عن مصالحه في الدنيا ولا في الآخرة، وإنما التربية هي التي تضطلع بمهمة تأهيله لذلك، اعتماداً على (المواد الخام التي زودته الإدارة الإلهية وذلك من أجل أن يتمكن من تبوأ موقعه الاجتماعي وأداء دوره الاجتماعي المنسجم مع مؤهلاته الفطرية و المكتسبة². إن هذه الحقيقة تتسجم مع ما قرره القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة النحل: "وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"³.

5-6 البعد الحضاري: يرى "مالك بن نبي" أن الحضارة ظاهرة إنسانية، فإن "مشكلات الإنسان هي في طبيعتها مشكلات حضارة، و لا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"⁴. ومعنى ذلك أن النظر في مشكلات الإنسان لا يمكن أن يتم خارج إطار المرحلة الحضارية للمجتمع باعتبار أن كل مجتمع من المجتمعات لا يخلو من كونه يشهد مرحلة من المراحل الحضارية الثلاث في ظرف من الظروف التاريخية خلال وجوده الكوني. "فإذا ما درسنا أوجه النشاط في بلد معين -يقول بن نبي-،وجب علينا لكي نفهمها أن نردها إلى إطار حضارة تستمد منها الحياة أشكالها، و يشكل فيها الفرد دائماً أفكاره و ضروب نشاطه على المنوال الذي صنعه القرون

¹ - مالك بن نبي :ميلاد مجتمع، ص : 65،، انظر كتاب مشكلة الافكار في العالم الاسلامي، ص : 42

² - مالك بن نبي : تاملات، ص 60

³ -سورة النحل، الآية : 78

⁴ -مالك بن نبي : شروط النهضة، ص 21-22

و الأجيال.¹ غير أن هذه المشكلات تمتد بجذورها في عمق المنظومة الثقافية للمجتمع. و السبب في ذلك - كما يرى مالك بن نبي - هو أن " أي إخفاق يسجله المجتمع في إحدى محاولاته - الحضارية - إنما هو التعبير الصادق عن درجة أزمته الثقافية، أي الأزمة التي تمر بها حضارته في تلك المرحلة من تاريخه. كما أن الحضارة لاتعدوأن تكون ثمرة لتجسيد القيم الثقافية للمجتمع في التاريخ و أن كل واقع اجتماعي إنما هو في أصله تجسيد لمنظومة من القيم الثقافية التي تشكل بمجموعها النموذج التربوي المنشود لكل من الفرد و المجتمع.²

وبناء على ما سبق، ومن وجهة نظر حضارية، فإن طبيعة الرؤية الكونية التي يتبناها الإنسان في حياته عن الحياة وعن وجوده الكوني في التاريخ تطبع مختلف مناحي حياته و نشاطه فيها. غير أن الأداة الحاسمة التي تضطلع بمهمة ترسيخ هذه الرؤية في ضمير الإنسان هي التربية باعتبارها مشروعاً لإعداد الإنسان المتكامل لأنها هي التي تضفي على حياته دلالة تاريخية جديدة وتفتح له آفاقاً أوسع في النظر والحركة لم تكن لتفتح له لو أنه اقتصر في النظر إلى وجوده الكوني على أنه مجرد السعي من أجل المحافظة على النوع. إن التربية الحضارية تقوم بمهمة إخراج إنسان الحضارة المؤهل لأداء وظيفة التغيير التاريخي لمسار الحياة البشرية على طريق بناء حضارة شعارها ترسيخ معاني التكريم و التقضيل الرباني للإنسان المعاصر.³

المبحث الثاني: التربية الاجتماعية عند مالك بن نبي قواعدها وشروطها .

1- مفهوم التربية الاجتماعية: تتغير المجتمعات وتتطور ويصعبها التجديد في النواحي المادية والاجتماعية خاصة في هذا العصرالذي نعيش فيه، ولما كانت التربية وسيلة أساسية لزيادة العناصر الثقافية الجديدة، ووسيلة المجتمع أيضاً للقضاء على المشكلات الاجتماعية

¹ - مالك بن نبي: وجهة العالم الاسلامي 37

² - مالك بن نبي : مشكلة الثقافة، ص 92

³ - مالك بن نبي،: ميلاد مجتمع ص 29.

فإن علاقة التربية بالتغير الاجتماعي علاقة متبادلة ونظرا لهذه العلاقة القائمة بين المجتمع والتربية اصبح من المتعذر الغاء هذه العلاقة والدليل أن تعريف التربية في المعجم الفلسفي نجدها مرتبطة أكثر بالجانب الاجتماعي من حيث: هي تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتي يصبح الفرد صالحا للحياة في بيئة معينة فالتربية ظاهرة اجتماعية تخضع لمتخضع له الظواهر من نمو وتطور¹

إن المقصود بالتربية الاجتماعية "عند مالك بن نبي" هو ذلك المنهج الذي يهدي سير مجتمع ما لان عجلة المجتمع تدور بفضل شبكة العلاقات الاجتماعية. وقد رأينا ان هناك انسجام بين شبكة العلاقات الاجتماعية في مجتمع ما وبين نظام رد الفعل لدي الفرد مما يوحي لنا بوجود علاقة ضرورية بين نطاق النفس الإنسانية من جهة ونطاق الزمن الاجتماعي من جهة اخري مما جعل جيزوا -المؤرخ الفرنسي يقول (إن مشكلة التاريخ يمكن أن تتصور بطريقتين فأما إن نحلها في نفس الفرد ذاته و أما أن نحلها في نطاق ما يحيط به.²

2- القواعد الأساسية للتربية الاجتماعية عند مالك بن نبي: ربط "مالك بن نبي"

قواعد التربية الاجتماعية بمراحل تطور الدولة الاسلامية حيث يؤكد أن التربية تتناسب تناسبا طرديا مع الحضارة الاسلامية يؤكد على أنه لبناء نظام تربوي واجتماعي، ينبغي أن تكون لدينا أفكار جد واضحة عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية على مستوى الفرد والمجتمع. فالتربية الاجتماعية السليمة، لا تستورد مفاهيمها وحلولها من مجتمعات أخرى، لأن المجال الاجتماعي ليس كمجال الميكانيكا. فمشكلات الإنسان ليست هي مشكلات المادة، وبالتالي فإن الأفكار والمفاهيم جزء من محيطها وقد تفقد قيمتها عند

¹-احمد الزغبى: المعجم الفلسفي ' دار الاثار ط1 سنة 1996،-ص 57

²-مالك بن نبي : ميلاد مجتمع ص 75

انفصالها عن ظرفها الاجتماعي.¹ ومع ذلك، يبقى الاقتباس ممكنا حسب اعتقاد (ابن نبي) إذا كان مناسباً ويرد الحل المستعار إلى أصول البلد المستعير. ويعني ذلك تهيئة المحيط اللازم لتطبيق ما نتصوره من حلول لمشكلاتنا التربوية والاجتماعية. وإذا كانت التربية هي إعداد الفرد وتشكيل مهاراته وقيمه واتجاهاته، بما ينسجم وحاجات البناء، فإنها أيضا تربية للمجتمع، تتأثر بالبناء القائم وتؤثر فيه في حالة إعادة بناءه. فتشخيص المرحلة التاريخية للمجتمع وما إذا كانت هذه المرحلة محكومة بعوامل الضعف أو القوة، تشكل أساسا لتحديد مسار التربية الاجتماعية. إذ أي تربية تغييرية-بنائية، لا تتحرك ضمن الإدراك التاريخي لدورة المجتمع، تفقد التشخيص السليم. وفي هذا الصدد يقول (ابن نبي) أن التربية الاجتماعية لا بد أن تنطلق من ضرورة تنظيم شبكة العلاقات الاجتماعية بما يتيح الانخراط في النشاط المشترك، كأساس يكسب المجتمع البشري صورته كمجتمع. فهو الذي يمنح التربية صفتها الاجتماعية. ودائما ضمن هذا السياق يعتقد (ابن نبي) أن الثقافة لا تكتسب أهميتها لم تخضع للتربية الاجتماعية، لأن الهدف هو تعليم الفرد الإنساني كيف يحيا، وكيف يتحضر في المجتمع الإنساني² ويوجد ارتباط عضوي بين الفرد وإطاره الاجتماعي. فمعطيات البيئة الاجتماعية سلبية كانت أم إيجابية، تنعكس فكريا ووجدانيا على تكوين الفرد وحياته من خلال تفاعله المستمر مع الآخرين. فالتربية الاجتماعية في نظر (ابن نبي) هي وسيلة فعالة لتغيير الإنسان الذي لم يتحضر بعد، أو الإبقاء على الإنسان المتحضر في مستوى وظيفته الاجتماعية وأهدافه الإنسانية. لأن الأفراد في المجتمع يتعلمون عن بعضهم البعض، إذ يتأثر الجميع بالأشياء المحيطة. كما أن تيار المؤثرات قد يززع فيهم قيما واتجاهات، لذا فإن تنظيم الطاقة الحيوية للفرد وتكييفها ضمن شبكة من العلاقات الاجتماعية والأنشطة المنبثقة عنها يعد أمرا لازما، لأن كل فكرة عن التربية الاجتماعية حسب (ابن نبي) يجب أن تتحدد في تكوين الفرد وعلاقاته الاجتماعية. بحيث

¹-مالك بن نبي: ميلاد المجتمع، ص 67

²- مالك بن نبي : ميلاد مجتمع،ص 77

يرى "بن نبي" أن القواعد العامة للتربية الاجتماعية يجب أن تستقيها من علم التاريخ وعلم الاجتماع وكذا علم النفس لان شبكة العلاقات الاجتماعية تنتظم بهذه العناصر المذكورة سالفاً أن هذه القواعد هي ثوابت التاريخ التي لا تتغير بتغير الأزمنة لان نهضة مجتمع ما (التربية - الدين - شبكة العلاقات الاجتماعية) تتم حينما تنتظم هذه العناصر، أن هذا القانون هو الذي عبر عنه الرسول ص حين قال (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها). حينما أشرنا سابقا الى أهمية الفكرة الدينية في تشكيل وحدة العلاقات الاجتماعية قد لمحنا فيها الى أهمية القيم النفسية وكذا المستوي الاجتماعي في تنظيم الأفعال المنعكسة في مجتمع ما. فكل مرحلة من المراحل الثلاثة يمكن أن نكتشف العلاقة بين المصطلحين، ولا شك في ان المرحلة الاولى من مراحل الحضارة الإسلامية التي بدأت من ليلة حراء¹ (الموافق لـ 10 أوت سنة 610 م) الى موقعة صفين² سنة 36 هـ الموافق لـ 03 نوفمبر 656 م) وهي المرحلة التي تكونت فيها العناصر الأساسية للحضارة الإسلامية وهي مرحلة تسودها الروح، لأن روح المؤمن هي العامل النفسي الرئيسي لكن بعد نهاية هذه المعركة قض المسلمون على روحهم وعلى هيبتهم وعن كارثة موقعة صفين يقول "مالك بن نبي" (لست أدري لماذا لم ينتبه الى هذه الموقعة التي حولت مجري التاريخ الإسلامي.. وأن مؤرخينا نضروا الى هذه الكارثة بصفة باطنية وهي نشأة التشيع في العالم الإسلامي).³

تعود أسباب حدوث هذه الفتنة الى مقتل عثمان بن عفان، وبعده بايع كبار الصحابة الإمام علي بن أبي طالب لخلافة المسلمين، وبعدها انتظر. بعض الصحابة أن يقتص الإمام من قتلة عثمان، لكنه أجل هذا الأمر. إنتهى القتال وقد

¹ -ليلة حراء ليلة شهر رمضان المبارك من اعظم شهور السنة الهجرية اما اليوم فهو يوم يوم الاثنين 21 من شهر رمضان الموافق لـ 10 اوت سنة 610م قبل الهجرة بـ 13 سنة

² -موقعة صفين او موقعة الجمل هي معركة وقعت في البصرة عام 36 هـ بين قوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والجيش الذي يقوده الصحابيان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوامبالإضافة إلى أم المؤمنين عائشة التي قيل أنها ذهبت مع علي ظهر جمل، وسميت المعركة بالجمل نسبة إلى ذلك الجمل

³ - مالك بن نبي :ميلاد مجتمع،ص 75-76.

قتل طلحة بن عبيد الله بعد أن أصابه سهم في ركبته، وقد حزن أمير المؤمنين علي كثيراً لمقتله فحين رآه مقتولاً جعل يمسح التراب على وجهه حيث بكى عليه هو وأصحابه. وعن الآثار التي خلفتها هذه الحرب على المسلمين يقول محمد جواد مغنية.¹ أن هذه الحرب حملت الكثير من النتائج السلبية على المسلمين وعن الآثار السلبية التي تترتبت على حرب الجمل نجد يقول كذلك:

ولو لم تكن هذه الحرب لما كانت حرب صفين والنهر وأن، ولا مذبحة كربلاء، ووقعة الحرّة، ولا رُميت الكعبة المكرّمة بالمنجنيق أكثر من مرّة، ولا كانت الحرب بين الزبيريين والأمويين، ولا بين الأمويين والعباسيين، ولما أفترق المسلمون إلى سنّة وشيعة، ولما وجد بينهم جواسيس وعملاء يعملون على التفريق والشتات، ولما صارت الخلافة الإسلامية ملكاً يتوارثها الصبيان، ويتلاعب بها الخدم والنسوان. لقد جمعت حرب الجمل جميع الرذائل والنقائص، لأنّها السبب لضعف المسلمين وإذلالهم، واستعبادهم وغصب بلادهم، فلقد كانت أوّل فتنة ألفت بأس المسلمين بينهم، يقتل بعضهم بعضاً، بعد أن كانوا قوّة على أعدائهم، كما فسحت المجال لما تلاها من الفتن والحروب الداخلية التي أودت بكيان المسلمين ووحدتهم، ومهدت لحكم الترك والصليبيين وغيرهم. وباختصار لولا فتنة الجمل لما اجتمع أهل الأرض على الإسلام.

وللتوضيح أكثر مدي مساهمة النفس في خلق الشروط الاجتماعية للتربية نجد في المرحلة الروحية التي سبق وأن أشرنا إليها يمكن أن نفسرها من جهتين. جهة علم الاجتماع حيث نشأة الحضارة الإسلامية يتفق مع شبكة العلاقات الاجتماعية حينما تكون متحدة

¹ شيخ محمد جواد بن محمود ب علي آل مُغْنِيَّة ا من أبرز علماء لبنان، ولد سنة 1322 هـ الموافق 1904 م، عين قاضياً شرعياً في بيروت ثم مستشاراً للمحكمة الشرعية العليا فرنيساً لها بالوكالة فكان يعالج في كتبه المشاكل والمسائل التي تورقهم وتثير قلقهم كمسائل العلم والأيمان، ومسائل الحضارة والدين، ومشاكل الحياة المادية والعصرية، وكان يقضي في مكتبته بين 14 إلى 18 ساعة من اليوم واللييلة، 1400 هـ، الموافق 1979 م ونقل جثمانه إلى النجف ودفن في إحدى غرف مقام الإمام علي¹. ترك رصيد ثقافي معتبر ومن اهم مولفاته نجد: ن زوايا الأدب . الوضع الحاضر في جبل عامل (وهو أول كتاب نشر للمؤلف). مع الشيعة الإمامية. . الفصول الشرعية.

ومتأسكة . وهو ما يطلق عليه بالبنيان المرصوص وهو ما ورد في القرآن الكريم (ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) كما يمكننا أن نفسر هذه المرحلة بلغة علم النفس لأن هذه المرحلة تتفق مع المرحلة التي كان فيها المسلم في أحسن طاقاته وظرف هو المقصود بالظروف هي تلك الطاقة الحيوية التي يستعملها الانسان من الناحية الإيجابية وهو ما يقابل العصر الذهبي لأي مجتمع كان، أما المرحلة الثانية فان المجتمع يتمتع بشبكة علاقاته الاجتماعية لكن ثمة شوائب طفت على وجهه وبعض النقائص وهي الحالة التي كان عليها المجتمع العباسي¹ ومعني هذا بلغة علم النفس ان نظام الأفعال المنعكسة في المجتمع الإسلامي الذي تعرض لنكسة صفيين لم يعد يملك الطاقة الحيوية لياشر وظيفته الاجتماعية. الاجتماعية.² ان الشيء الذي حدث في هذه الفترة ان جانبا من غرائزه لم يعد تحت رقابة نظام افعاله حتي وان المجتمع يسير وفقا للسيرورة التاريخية لكن قوى الدولة الإسلامية لم تكن تساير هذه الحركة فهناك جانبا من الطاقة قد مضى الى السكون وهو ما تمثله حركة المرجئة والخوارج³ قد ومضي الجانب الأخر إلى الهاوية كحركة القرامطة⁴ اصبح مجموع هذه الطاقات لم يعد يعمل والأخر يعمل في اتجاه مضاد، وفي المرحلة الثالثة تتفكك الغرائز كما تفككت الدولة الإسلامية وهذا بعد سقوط الدولة العباسية ودخول الفاطميون في صراع معهم من اجل السيطرة على الشام كما تنازعا في السيطرة على شمال افريقيا لتنتهي الدولة الفاطمية 912- 1269 ثم تظهر الدولة الموحدية

¹ -المجتمع العباسي .نسبة الى العصر العباسي هو فترة زمنية من حياة الدولة الإسلامية هي الخليفة الثالثة في الإسلام قامت سنة 750 ميلادي الموافق ل 132هج دامت قرابة 500 عام وكانت تظم 37 دولة ضهر هذا العصر بعد الضعف باركان الدولة الأموية "وقد كانت الدولة العباسية دولة قوية في ذلك العصر لكن ورغم ذلك فقد ماتت مجموعة من خلفاءها قتلا وكانت المرحلة الثانية من تاريخها مملوءة بالصراعات والفوضى وكان لانتقال السلطة يتم بالخلع او القتل وكان الحكم بالسيف لا غير والتنفيذ بالسوط ومن هنا ظهرت أسباب ضعف الدولة ومن ثمة انهيارها وكان ذلك (عام 656 هج) الموافق ل سنة 1517 على يد التتار وقد حكمها 37 خليفة

² -مالك بن نبي :شروط النهضة، ص 57

³ -الخوارج :طائفة مزقت صفوف المسلمين وقامت بتشتيت شمل الموحدين

⁴ -القرامطة :نسبة للدولة القرمطية التي انشقت عن الفاطميين شرق السعودية وقامت ثورة اجتماعية واخذت الطابع الديني المتشدد ضد الخلافة العباسية سنة 873 م والمعروف عند القرامطة انهم هاجمو الكعبة وبدوا بتكسير الجحر الاسود

1221-1269 لتزول كما زالت الدول السابقة فلمعضهم الأسباب تدور كلها حول حياة الزهو والترف والأموال والصراع حول الخلافة

ان ما وصلنا اليه من خلال هذا التحليل العميق، هو ان نفسية المسلم لم تعد تعمل بصفة منسجمة تمزق نفسيا كما تمزقت شبكة علاقاته الاجتماعية .وهو ما نطلق عليه بعصر الانحطاط خرج منها المجتمع الإسلامي منهار جسديا متشتت مذهبيا وهي الظروف التي هيأتها للاستعمار بعدما اوجدت نفسها للقبالية للاستعمار .اذن وبلا شك فإن تاريخ أي مجتمع ما هو الا انعكاس لتاريخ شبكة علاقاته الاجتماعية والنموذج رأينا من الدولة الأوروبية والأخر من الدولة الإسلامية¹.

ولذا لكي يتم بناء نظام تربوي اجتماعي ينبغي ان تكون لدينا أفكار جد واضحة عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية في مستوى الفرد وفي مستوى المجتمع وبهذا يمكننا ان نري هذا النشاط في حيويته حيث يمنح الفرد القدرة على التكيف ومن ثمة تنتقل هذه الحيوية الى المجتمع وهذا بفضل شبكة العلاقات الاجتماعية .وبهذه الطريقة نستطيع ان نشهد بدور الدين في حيوية النشاط التربوي وهو يحقق عمله الاجتماعي حيث يخلق الشبكة الروحية التي تربط النفس بالإيمان بالله وهو يخلق أيضا شبكة العلاقات الاجتماعية .والتاريخ شاهد على مدي فعالية أصحاب الدين (المسلمون) حينما ساور في هذا الطريق بداية من تغير سلوكهم وهذا بتغير النفس وبالتالي تغير المجتمع .اليس هذا وارد بوضوح في قوله تعالى **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** [الرعد: 11]

ان الفكرة الدينية تحدث تغييرها حتي في الصمت ولذلك يكون لمنهج التربية الاجتماعية اثره في تجميل ملامح الفرد أي ان مجموعة من الانعكاسات تؤدي الى خلق صورة جديدة كأنها وجه جديد فالتربية الاجتماعية تسوغ قواعدها من الناحية النفسية الروحية

¹-مالك بن نبي :شروط النهضة،ص 75 انظر كذلك كتاب مالك بن نبي: ميلاد مجتمع ص .68.

وكذا الاجتماعية¹ ولقد ادركنا مدى أهمية العنصر الروحي في تغيير الصفات النوعية الخاصة بالفرد الى صفات اجتماعية التي تحدد معالم الشخص والتي تغيير الطاقة الحيوية المنطلقة من الغرائز الى طاقة اجتماعية خاضعة لمراقبة نظام الانعكاسات المتكونة لدى الفرد وللعنصر الديني نصيب لأنه يعمل على تكوين نظام هذه الانعكاسات كما يعمل على تكوين شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع ان يؤدي نشاطه المشترك² فالعلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني. لنفرض ان عدد العلاقات التي تربط الفرد بمجتمع معين متكون من (ن) هو (ن - س) من العلاقات وبهذا نستطيع ان نقدر بصورة ما درجة الفاعلية الاجتماعية في العلاقة الدينية بان نقر نسبة حسابية بين عدد العلاقات الدينية في مجتمع معين وعدد العلاقات التي تكون شبكة العلاقات الاجتماعية ففاعلية هذه العلاقة في المجتمع تتضح اذن في النسبة الاجمالية التالية ن(ن-س) - س سمعني هذا ان الدين يخلق نظاما اجتماعيا وكلما ضعفت العلاقة الدينية تناقصت العلاقات التي تربط الفرد بمجتمع معين وعلى العكس ذلك نجد انه عندما تقوي العلاقة الدينية وبقدر ماتقوي هذه العلاقة مما يوحي به قوله (المومن للمومن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا)³.

إن ما نستخلصه انه ولمدة أربعون سنة ان الحضارة الإسلامية خرجت من عمق النفوس كقوة دافعة الى سطح الأرض تنتشر افقيا من حدود الصين الى شاطئ المحيط الاطلنطي و في هذه الحقبة سطعت أسماء الأساتذة والمفكرين والفلاسفة أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد الى غاية ابن خلدون، أسماء انارت واطاعت الحضارة الإسلامية. ومن هنا نستطيع القول بان قواعد التربية الاجتماعية بما فيها ابعاد العلوم الإنسانية عبارة عن حلقات متصلة متشابكة سواء مع اصوار الحضارة الإسلامية اوالمسيحية بحيث بدأت بظهور الفكرة

¹مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 77

²- نفس المصدر السابق: ص 78

³-مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص 51

الدينية ثم دخلت في الانحطاط والانهيار بعد ان فقدت الروح ثم العقل، فمادامت نفسيته تتقبل توجيهات الروح والعقل الذي يودي الى الحضارة ونموها فلا شك ان يكون هناك نمو لان العوامل النفسية اختزنها في ساحة الشعور، اما حينما تبدأ نفسيته في الانكماش فهو إيذانا بأفول الروح والعقل¹ يضرب لنا مالك بن نبي مثال رائع حول دور الروح في تغيير النمط الاجتماعي وهو المثال الذي ضربه عن عمار بن ياسر حين كان يحمل حجرتين على كاهله في بناء مسجد المدينة في حين طاقته تستوعب حجرا واحدا، هذا ان دل فانه يدل على قوة الايمان الذي مهد الطريق للحضارة الاسلامية. وما يقال عن هذه الحضارة يقال كذلك عن الحضارة المسيحية التي سبقتها من الناحية الزمانية، حيث ميلاد الحضارة بميلاد الفكرة الدينية ثم تسجيل هذه الفكرة في الانفس وبعدها دخولها في أحداث التاريخ بعدما وجدت الشروط الاجتماعية اللازمة، واذا كانت الحضارة الإسلامية قد جمعت بين المولدين في ان واحد نضرا للفراغ الذي وجدته الفكرة الإسلامية في شبه الجزيرة العربية العذراء، عكس الحضارة المسيحية التي نشأت في جو مختلط من الديانات والثقافات العبرية والرومانية واليونانية فلم تتيح لها ان تعمل عملها نضرا للزحام الفكري الذي وجدته في الانفس . ولم يكتب لها ان تتوغل في النفوس ألا حينما وجدتها شاغرة . وهذا في وسط البداوة الجرمانية التي اندفعت لتكون حلقتها في سلسلة التاريخ . ولبيان أهمية العامل النفسي كعامل اجتماعيا يقول احد المفكرين في كتابه البحث التحليلي لأوروبا (ولست اعني بالروح ذلك الشيء الذال على منطق او عقل أو مباديمجردة . وانما هو بصفة عامة ذلك الشعور القوي في الإنسان الذي تصدر عنه مخترعاته وتصوراته وتبلغه لرسالته . وقدرته الخفية على ادراك الأشياء)² فحتي الحكومات مهما كانت فإنها تتغير طبقا للوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه، فاذا كان الوسط نظيفا تستطيع الحكومة ان تواجه الرهانات اخذ كان الوسط متمسكا بالقابلية للاستعمار فلا بد ان تكون حكومة استعمارية. فبالرغم من نيلها لاستقلالها المزعوم، لأنه لا يمكن لأي شعب

¹ -مالك بن نبي :شروط النهضة:58

² مالك بن نبي : شروط النهضة، ص 63

ان ينجو من الاستعمار لا اذا نجت نفسه من اذيال الاستعمار التي تخلصه من القابلية له، فلا يمكن لأي شيء ان يذهب (الشدة فوق الياء) الاستعمار حيث لا تتفع الخطابات الرنانة الا بالتربية التي تصلح النفوس ثم يصبح الفرد شيئاً فشيئاً قادر ان يؤدي وظيفته الاجتماعية وكأنه بتغير نفسه يكون قد وضع حكومته امام الامر الواقع¹ وهو ما حدث في الجزائر عقب حراك 22 فيفري 2018 وهذه دلالة على ان كل تغيير في النفس يصاحبه تغيير اجتماعي نضرا للعلاقات المتينة بينهما وفي هذا المعنى نستطيع القول الدولة التي لا تملك الوسائل للمسايرة التغييرات الاجتماعية لا تستطيع ان تجدد نفسها ولا نستطيع فهم الملاحظات الاجتماعية الا اذ فهمنا الآية القرآنية التي اتخذها العلماء شعارا للإصلاح التربوي (ان الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم) وعلى خطي هذه الآية بدأ الإصلاح الجزائري من النفس هادفا في جوهره الى تغيير الانسان وكان الانطلاق رائعا للضمير الشعبي سنة 1936 سبق وان اشرت اليه وهو ملحمة الفكرة الإصلاحية التي توجهها المؤتمر الإسلامي المنعقد في ذلك العام غير ان المؤتمر سرعان ما تشتت لان الاستعمار أراد ذلك فقلد انتقل الشعب من أحضان الوثنية والايمان بالأوثان والحروز الى مرحلة اقتناء الأصوات والمقاعد الانتخابية دون أي جهد لتغيير نفسه او مجتمعه² فلكي نحقق تربية اجتماعية ناجحة لا بد ان نخضعها (في نظر مالك بن نبي) لمجموعة من المعايير لان التربية (في نظره) لا تبدأ بالمدرسة وتنتهي بها وإنما تبدأ ببداية الحياة في أسرة وتنتهي بنهايتها في المجتمع وما المدرسة أو التعليم المدرسي بكافة مراحلها ابتدائية وثانوية وعالية وبجميع أنواعه عام نظري وفني عملي وتكنولوجي إلا حلقة من الحلقات التي يتم فيها جزء من التربية وعلى ذلك أيضا فإن التربية عملية مستمرة تنشأ مع وجود الإنسان في الحياة وتستمر معه في هذه الحياة ويخضع لها في الأسرة وفي المدرسة وفي جميع التشكيلات الأخرى. فعملية

¹ نفس المصدر السابق، ص 32_33

² علي القرشي: التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1409 هـ - 1989م، ص 246

التربية كما تتصف بالاستمرار والتكامل المشار إليهما تتصف أيضا بأنها قسمة مشتركة بين التعليم المدرسي وغير المدرسي فهي تتم في أماكن عديدة منها المنزل والمدرسة وجماعة الأقران في الشارع والملعب وفي دور العبادة، وتحت تأثير الصحافة والإذاعة والثقافة الوطنية كما أنها تتم في أزمنة مختلفة وتحت تأثير قويمتعددة يكون في بعضها الأب معلما وفي بعضها الآخر يكون المدرس معلما والثالث يكون رجل الدين معلما والرابع يكون القريب معلما. وهي تتم حيثما وجدت عناصرها من معلم ومنتعلم وموقف تعليمي وتفاعل مع هذا الموقف واكتساب للحلول التي مورست في مواجهة المشكلات المختلفة في هذا الموقف. هذه المؤسسات تعرف " بمؤسسات التنشئة الاجتماعية " أو " وكالات التنشئة الاجتماعية " باعتبار أنها موكلة من قبل المجتمع بالقيام بعملية التنشئة ويطلق عليها البعض " وسائط التنشئة الاجتماعية " باعتبارها وسيطا بين المجتمع والأفراد وتعد الأسرة والمدرسة وجماعة الرفاق أو الأقران ووسائل الإعلام من أهم هذه المؤسسات في التنشئة الاجتماعية¹ وعن أهم العوامل الأساسية التي تساعد على نجاح التربية الاجتماعية نجد:

1-2 الأسرة: تعتبر الأسرة الأصل الذي نشأ عنه جميع المؤسسات الاجتماعية الأخرى فهي أسبق المؤسسات ظهورا بل إنها أسبق من المجتمع نفسه وكانت الأسرة قديما تقوم بكل الوظائف الاجتماعية وتطوير الحياة في المجتمعات وتعهدها أنشئت مؤسسات اجتماعية أخرى وبدأت تنتقل بعض وظائف الأسرة إلي هذه المؤسسات لتقوم بها. فالأسرة بطبيعتها اتحاد تلقائي تؤدي إليه الاستعدادات والقدرات الكامنة في الطبيعة البشرية التي تتجه بفطرتها إلي التواجد والعيش مع الآخرين من بني الإنسان ولا يطيق الفرد منا أن يعيش منفردا إلا لفترة قصيرة . والأسرة بأوضاعها ومراسيمها عبارة عن نظام اجتماعي تربوي ينبعث عن ظروف الحياة والطبيعة التلقائية للنظم والأوضاع الاجتماعية وهي ضرورة حتمية لبقاء الجنس البشري ودوام الوجود الاجتماعي وقد أودع الله سبحانه وتعالى في الإنسان هذه

¹ -حسان عبد الله حسان : التربية الحضارية عند مالك بن نبي وتطبيقاتها التربوية ضمن سلسلة علماء وافكار، ص 209

الضرورة بصفة فطرية ويتحقق ذلك بفضل اجتماع كائنين لا غني لأحد هما عن الآخر وهما الرجلان والمرأة قال عز وجل : ” ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ¹ والاتحاد الدائم المستقر بين هذين الكائنين بصورة يقرها المجتمع هو الأسرة ويرى البعض من العلماء أن الحصول علي ثمرات لهذا الاتحاد (أي الأبناء) شرط ضروري لاستكمال الأسرة مقوماتها الذاتية غير أن هذا الاعتبار خاطئ إذ نلاحظ أن عددا كبيرا من الأسرة عقيم ولا تقل هذه الظواهر من اعتبارها خلايا ومؤسسات اجتماعية² تحمل الأسرة مسئولية خطيرة تجاه المجتمع باعتبارها أول مجال تربوي يتواجد فيه الطفل ويتفاعل معه ففيها ينال الفرد مقومات نموه العقلي والجسمي والصحي ومنها ستقي عاداته وتقاليده وقيمه ويتعلم التعاون والتضحية والوفاء والصدق والعطف علي الآخرين واحترامهم وتحمل المسئولية وإشباع حاجاته الأساسية كما تبدأ منها أول خطوات الطفل للاتصال بالعالم المحيط به وتكوين الخبرات التي تعينه علي التفاعل مع بيئته المادية والاجتماعية ومن ثم فالطفل يذهب إلي المدرسة ومعه البيت بخبراته ومؤثراته بوجه عام وتشكل الأسرة بوضعها الراهن إحدى المنظمات الاجتماعية التي يوكل إليها القيام بالتربية غير المقصودة للطفل منذ لحظة ميلاده وذلك يرجع إلي وظائف عديدة للأسرة تحقق للطفل من خلالها إطارا مرجعيا يستعين به في تفاعلاته الاجتماعية وعلاقاته الشخصية داخل وخارج الأسرة.

2-2 المدرسة: تعتبر المدرسة جزء لا يتجزأ من النظام الاجتماعي السائد، ولهذا فقد اهتم المربون اهتماما كبيرا بمشكلة تكامل المدرسة مع الحياة الاجتماعية. واختلفت آراء المربين حول مسئولية المدرسة في فترة التغير الاجتماعي، لأنه تتأثر ولا شك بما يسود المجتمع من تغيرات اجتماعية (انضر وقع المجتمع الجزائري بين الامس واليوم). وهذا معناه أن التربية لا تنفصل عن المجتمع ولعلنا إذا نظرنا للمجتمعات الجديدة لوجدنا أن

¹ - سورة الروم الآية 21

² - محمد لبيب النجحي: دور التربية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية للدول النامية ط2 دار النهضة العربية بيروت، ص

التربية أسهمت إسهاما فعالا في بنائها، فبناء تركيا الجديدة مثلا على يد كمال أتاتورك لم يكن ليتم وليصل إلى نتائجه لو لم تكن التربية وسيلته الفعالة كما ان تهديم المنظومة التربوية يعتبر تهديم للمجتمع بحد ذاته والتربية على هذا الأساس عليها أن تختار القوى العلمية والتكنولوجية والثقافية الجديدة التي تحدث التغير في النظام القديم وتبحثها وتقدرها وتقوم بأدوارها ونتائجها وأن تجعل من المدرسة الحليفة الأولى للوصول إلى هذه النتيجة. ومعنى هذا أن التربية عامل هام من عوامل التغيير الاجتماعي والتربية عندما تعكس التطور الاجتماعي في المجتمع إنما تساعد عملية انتشار المخترعات الجديدة على أداء وظيفتها، فإذا كانت التغيرات التكنولوجية قد دخلت المجتمع الحديث فإن انتشارها يحتاج إلى أن نعد للمصانع مثلا العمال والمهندسين اللازمين للقيادة، ثم نعد الأسرة للتغيرات الاجتماعية المصاحبة والناجمة عنها.¹ والتربية تقوم بهذه المهمة عن طريق المدرسة التي هي المؤسسة التربوية المقصودة. ولكن المدرسة من ناحية أخرى تستطيع أن تتعدى هذا الدور، فتبشر بالتغيير الاجتماعي، وتعمل على توجيه الأنظار إليه وإعداد العقول له وهي بذلك تعد الأفراد لكي يقوموا بدورهم في إحداث التغير، إذ إنهم يخرجون من المدرسة وقد اكتسبوا اتجاهات عقلية معينة يواجهون بها مجتمعهم، فيعملون على القيام بمسؤولياتهم في تغييره وعلى هذا تستطيع المدرسة أن تسهم في بناء مجتمع جديد. وعلى التربية أن تقوم بمسؤولية أخرى لا تقل أهمية في المحافظة على عقل الفرد واتزانه، هذه المسؤولية هي أن يفهم الفرد ما يجري حوله في العالم الذي يعيش فيه. فعندما يكون الفرد على معرفة بما يجري حوله فإنه يستطيع أن يشخص من الناحية الاجتماعية الظروف والمشكلات التي تواجهه. أما إذا لم يكن على معرفة بها فإنه يصبح ولا شك ضحية الواقع الذي يواجهه. بدلا من أن يسيطر عليه: قد يتساءل الكثير من المدرسين عن الفائدة من دراسة الأسس الاجتماعية للتربية. أليست هذه الدراسة من ميادين التخصص لأولئك العلماء الذين يقومون بتدريسها في الجامعة؟ لا يكفي

¹-سليمان الخطيب فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي دراسة اسلامية في ضوء الواقع المعاصر سنة 1993 ص 103

أن أعرف المادة التي أدرسها وأن أدفع عجلة المدرسة كل يوم وكل شهر حتى ينتهي العام الدراسي ليبدأ عام آخر؟ إن المدرس مواطن وإنسان وكذلك التلميذ. وهاتان الصفتان الأخيرتان تقومان على أبعاد اجتماعية وفلسفية لا بد للمدرس أن يبحث عنها دارسا وفاهما ومحللا حتى لا ينزل عن المجتمع وعن أحداثه، وعن الإنسانية ومفاهيمها الأساسية. إن التغيرات الجذرية السريعة التي تحدث في مجتمعنا العربي تستدعي من المدرسين مناقشة التنظيمات المدرسية في حدود هذا الإطار الإيديولوجي الجديد، وتحليلا للإطار الاجتماعي الكبير الذي تعيش فيه المدرسة، ومناقشة لأنماط التربية السائدة، ومدى ملاءمتها لأنواع التعليم اللازمة للمواطن العربي الجديد¹. إن مناقشة التنظيمات المدرسية والتربية بصفة عامة في ظل التحديات والمطالب التي يفرضها المجتمع في تطوره وتغيره، من أهم ما يميز المدرس الناجح. فالعملية التربوية لا تقتصر على نقل المعلومات والمعارف للتلميذ، وإن كان الهدف جزءا هاما منها ولكن العملية التربوية مادتها فرد في مجتمع بكل ما يتضمنه مفهوم الفرد و مفهوم المجتمع و بكل أبعادهما إن التغيير المادي الذي يحدث في المجتمع لا بد له لكي يحقق نتائجه تغير في القيم والعادات والسلوك وهذا التغير لا يتأتى إلا عن طريق التربية، فهي التي تكسب السلوك وتعده وتنمطه، وهي التي تشكل الشخصية الإنسانية التي تتفق مع القيم والاتجاهات الجديدة. لذلك كله تفرض التغيرات الاجتماعية مطالبها على المدرسة في صوره وأكثر هذه الصور تتجلي فيما يلي:

أولا : قد يكون التغير في النظام المدرسي أو في السياسة التعليمية بصفة عامة لمقابلة حاجة اجتماعية أو حلا لمشكلة اجتماعية، أحس بها القائمون على هذا المجتمع وشعروا بأن البرنامج المدرسي يستطيع أن يسهم في حلها. مثال ذلك الحاجة إلى عمال على قدر من الثقافة العامة إلى جانب المهارات المهنية اللازمة، وحلا لهذه المشكلة استطاعت مراكز التدريب المهني ومدارسه أن تخرج الأعداد اللازمة للقطاعات المختلفة في حدود ما خصص

¹-على القايمي اسس التربية دار النبلاء ترجمة عبد الكاظم لوبادي ط1 سنة 1995 ص 204

لها في الميزانية. فإذا استطاع المدرس أن يحسن تقويم المطالب الاجتماعية التي تستدعي تغييرا في المدرسة ونظامها وبرامجها كان عليه أن يدرس الميادين الرئيسية للمشكلات الاجتماعية في مجتمعاتنا المعاصرة¹.

ثانياً: قد يكون التغير التربوي نتيجة الإحساس بأن هناك قيما في المجتمع يجب المحافظة عليها، وأن هناك قيما أخرى جديدة لم تتحقق بعد، وأن هناك قيما تعمل المدرسة على تحقيقها وتتعارض في أسسها مع ما يرنو المجتمع الجديد إلى تحقيقه من قيم و اتجاهات جديدة مثال ذلك أننا نحس في مجتمعنا العربي في هذه الفترة الحاسمة من تغيره أن القيم الدينية يجب أن نحافظ عليها، وأن نعمل على الإبقاء عليها وتنميتها، ونحس أيضا أن هناك قيما اشتراكية لم نستطع أن نحققها بعد في سلوك الأفراد، فما زالت البيروقراطية مثلا مسيطرة على دواوين الحكومة ومصالحها المختلفة، وما زال النقد الذاتي بعيدين عن مستوى التطبيق العملي في بعض المجالات. ولكي يستطيع المدرس إدراك هذا التغير كان عليه أن يدرس المجتمع العربي في أبعاده الاجتماعية والاقتصادية والإيديولوجية ودور العملية التربوية في هذا السبيل.

ثالثاً : قد يحدث التغير التربوي نتيجة لظهور معارف جديدة لم تدخل إلى الميدان التطبيقي في المدرسة بعد، وقد تسهم في حل كثير من المشكلات التي تعترض سبيل المدرسة والمجتمع، أو لظهور مهارات جديدة يحتاجها المواطن في المجتمع الجديد ولا شك أن هذه الصورة الأخيرة تتطلب تخصصا في شؤون التربية والتعليم أعلى من مستوى المدرس العادي، وإن كان إحساسه بها له أكبر الأثر في مساعدة التخصص على. ومعالجتها و تحقيقها وعلى هذا الأساس كان على المدرس أن يفهم المطالب الاجتماعية التي تفرض تحدياتها على المدرسة، وأن يناقشها ويقومها، وهو في سبيل تحقيق ذلك

2-نورة خالد السعد: التغير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي: دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، ط1، الدار السعودية للنشر والتوزيع. ص 254

يحتاج إلى ثلاثة أنواع من المعرفة والحساسية. **أولها:** علم بالمعارف التربوية السائدة، وبالمعارف الاجتماعية التربوية الجديدة التي لم تطبق بعد في الميدان التربوي المهني في المدرسة، والتي يحتاجها هذا الميدان وهو في سبيل تطويره وتغييره، مع إحساس بهذه المعارف. **وثانيها** معرفة ووعي وحساسية بالمشكلات الاجتماعية الأساسية في المجتمع العربي المعاصر، والتي تفرض تحديثها على المدرسة **وثالثها:** معرفة وحساسية وتقدير للقيم الأساسية في المجتمع، وخاصة القيم الاشتراكية الديمقراطية التي تحتاج إلى المدرسة وإلى العملية التربوية في سبيل تحقيقها وتدعيمها.¹

3 الشروط الأولية للتربية الاجتماعية.

3-1 الشروط النفسية .

3-1-1 إعادة بناء الانسان يرى مالك بن نبي انه من بين الشروط الأساسية لتأسيس التربية الاجتماعية ونجاحها هو إعادة بناء الانسان الطبيعي الذي هو في حالة خمول تام في الوقت الذي خطت فيه الحضارة المسيحية خطوة العماليق .ففي الوقت الذي تحتاج فيه بعض المجتمعات الى مؤسسات من اجل إعادة بناء منظومتها التربوية .تجد انفسنا في الجزائر بحاجة الى رجال .فالمشكلة هي انه يجب أولا ان نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين (التراب - الوقت) والمواهب في بناء أهدافهم لان المشكلة التي نوجهها هي مشكلة رجل المدينة الذي يزعم التحضر لكن نفسيته متعفنة متخلفة فهو رجل الذي يرضى بالقليل من الأشياء .يحمل في نفسه روح الهزيمة والاستسلام عاش حياته في المدينة لكنه ليس متحضر اذ هو في منتصف الطريق دائما سواء في فكره فهو لايعرف ان يصل الى الهدف افتح القوس هنا فان معظم المربون لا يسيطرون هدف لثناء التدريس وانما هدفهم مادي اكثر مما هو معنوي، لذا فقد اصبح من الضروري بل ومن المستعجل ان نأخذ بعين الاعتبار بناء الانسان لأنه العنصر الفعال في بناء الأسس الصحيحة للتربية كما له دور

¹-حسان عبد الله حسان التربية الحضارية عند مالك بن نبي وتطبيقاتها التربوية ص 211

فعال في تركيب الحادثة التاريخية. ولكي يتم بناء الفرد يجب التركيز على نواحي ثلاثة وهي , فكرة التوجيه أولا ومن ثمة توجيه الثقافة -توجيه العمل -توجيه رأس المال لأنه باستقامة هذه النواحي يستقم الفرد فعملية البناء لا تتم في لحظة ما او فترة زمنية معينة بل تستدعي وقتا لذا نجده قد ركز على أهمية الوقت وضرورة استغلاله وهذا ما يلخصه لنا في فكرة التوجيه .

3-1-2 فكرة التوجيه بصفة عامة هو تجنب الاسراف في الجهد وفي الوقت

فهناك الملاين من السواعد .

العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية لم تستغل احسن استغلال فكم من طاقة وقوي ذهبت عبثا ولم تستخدم في اطارها المميز

3-1-3 التوجيه الثقافي : انطلق مالك بن نبي من فكرة انتقاده لمفهوم الثقافة التي

يربطها البعض بسعة الاطلاع وهو مفهوم خاطي في نظره لان المفهوم الحقيقي للثقافة نظرية في السلوك اكثر من ان تكون نظرية في المعرفة فالثقافة اذن يمكن ان نعرفها (على انها مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه والثقافة على هذا هي النمط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته) نستنتج من هذا التعريف أن الثقافة تظم في مفهومها فلسفة الانسان وفلسفة الجماعة معناه معطيات الانسان ومعطيات المجتمع مع الاخذ بعين الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد .فالثقافة هي تلك الكتلة التي تتضمن عادات متجانسة وتقاليدها متكاملة واذواق متناسبة,واذا أردنا أن نحدد الثقافة في إطارها التربوي فيجب أن نوضح هدفها وما تتطلبه من وسائل التطبيق,لان الثقافة ليست علما خاصا لطبقة معينة من الشعب بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة,فهي ذلك الجسرالذي يعبر به الانسان ليصل الى الرقي,او ذلك الحاجز الذي يحفظ بعضهم الاخر من السقوط من اعلى الجسر,فهي تشمل في معناه العام بين كل أطياف طبقة المجتمع بما فيه العالم وراعي الغنم وهي تهتم في معناها بكل طبقة من طبقات المجتمع بما يناسبها من وظيفة تقوم بها ,ولهذا فان الثقافة تتدخل في شؤون

الفرد وفي بناء المجتمع ولتوضيح الفكرة اكثر حول وظيفة الثقافة في المجتمع يضرب لنا مالك بن نبي مثال حول وظيفة الدم فهو يتركب من الكريات الحمراء والبيضاء وكلاهما يسبح في سائل البلازما ليغذي الجسم كذلك بالنسبة للثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع يغذي حضارته كل هذه الأفكار تسبح في سائل واحد من الاستعدادات والاتجاهات الموحدة والاذواق المناسبة¹.

3-1-4 التوجيه الأخلاقي : سبق وان شرحنا في العنصر السابقة معنى التوجيه الأخلاقي من زاوية البناء الحضاري, اما من الجانب التربوي فنحن نبين كيف ان الاخلاق تساهم في تكوين الصلات الاجتماعية وهذا عن طريق خلق قوة التماسك الضرورية للأفراد في المجتمع وهذه القوة مرتبطة فيما بينها بالغريزة لكن بعد تهذيبها وتوظيفها بروح خلقية سامية² وهي الفكرة التي أشار إليها الفيلسوف عبدالرحمن ابن خلدون (في كتابه المقدمة حيث اطلق عليه اسم العصبية في الفصل الثالث عشر حيث بين ان الناس معادن والمعادن تختلف باختلاف الانساب التي تتأسس على العصبية ففي نضر ابن خلدون وبقدر ما تكون العصبية قوية يكون الحسب والشرف لانهم الاصلين في اهل العصبية وهم ثمرة النسب وتفاوت البيوت يكون بتفاوت العصبية لأنها سرها, أما عن الامصار فبيوتهم على المجاز³ ان هذه الوح الخلقية منحه من السماء الى الأرضة اتي مع نزول الأديان عندما تتولد الحصادات والهدف منها هو الربط بين أعضاء المجتمع الواحد كما سبق الإشارة اليه في نظرية ابن خلدون وحتى باللغة الفرنسية نجد لفظ la religion في اصلها تعني الربط والجمع, يضرب لنا مالك بن نبي مثال عن دور الاخلاق والتربية في تماسك المجتمع حيث يقدم لنا مثال حول جمعية رعاية الأطفال في فرنسا حيث كانت لأول مرة عبارة عن مبادرة قام بها فانسان دي

¹-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 78

²- مالك بن نبي شروط النهضة ص 85

³-عبد الرحمن ابن خلدون : المقدمة الامام عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ,درويش الجويدي المكتبة العصرية صيدا-

بيروت الفصل الثالث - ص 126

بول (¹الذي انشا مشروع الأطفال المتشردين ثم تولت الى جمعية لرعاية الأطفال لكن اصلها الحقيقي كانت فكرة دينية ذات اصل مسيحي، ما يقال عن هذه الجمعية يقال عن جانب اخر حيث لولا وجود الصلات الاجتماعية واستعدادات نفسية لما يكون هناك انتاج مثال اخر حول تضافر الجهود الفنية والعلمية المختلفة تعطي لنا في الأخير ثمرة من الإنتاج فلو اخذنا على سبيل المثال جهاز الراديو الذي هو تضافر مجهود بين (هرتز الألماني وماراكوني الإيطالي) وان هذه العلاقات في اصلها ماهي الا علاقات مبنية على أساس الرابطة المسيحية ،حتي روح الإسلام خلقت من عناصر متفرقة كالأنصار والمهاجرين واستت لأول مجتمع إسلامي وحينما نتكلم عن الإسلام نتكلم عن الإسلام المتحرك في عقولنا وليس في مظاهرنا والمنبعث في صورة اسلام اجتماعي حيث قوة التماسك هذه هي البتي ولدت حضارة على ارض قاحلة وسط البدو مع رجال الفطرة².

3-1-5 التوجيه الجمالي: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من

كبرقالالرجل: يجب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة.

قال: إن الله جميل يحب الجمال³. وحينما بُعث الرسول (ص) أكد على هذا الجانب وأولاه اهتماما كبيرا وأصر عليه حيث كان دائما يرتدي اللباس الحسن والنعل الحسن وأعتبر أن الذوق الرفيع من العناصر الإيجابية في الثقافة، فالتناسب والتناسق في الأشكال والأشياء يعطي للإنسان راحة نفسية كما كان دائما يشجع الناس على النظافة والاهتمام بالمظهر الحسن وخاصة في المساجد وأيام العيد⁴. فالجمال الذي يتجسد في الألوان والأصوات والروائح والأشكال يوحي للإنسان بالأفكار ويطبعتها بطابعه الخاص من الذوق الجميل، فبه (الذوق الجميل) يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل لأن المجتمع الذي

¹ - سبق وان عرفناها في المحور السابق

² - مالك بن نبي : شروط النهضة، ص، 96

³ -رواه مسلم /الحديث 147

⁴ -مالك بن نبي: شروط النهضة ص 98/94.

ينطوي على صور قبيحة، نجد انعكاساتها تظهر في افكاره وأعماله ومساعيه ولنحتكم بأبسط مثال لتحديد معنى الجمال ومدى تأثيره على تكوين شخصية الفرد، ولننظر إلى هيئة الطفل عندنا الذي يرتدي الثياب القذرة التي إن شئنا وصفها لقلنا إنها ثياب حيكت من القاذورات والجراثيم، التي تقتله ماديا ومعنويا لان هذه الاوساخ تعتبر سجنا لنفس الطفل كما أنها تضيف للمجتمع كل صور وأشكال التعاسة والقبح لأن هذا المظهر لا يعبر عن حالة الفقر بقدر ما يعبر عن مظهر من مظاهر التفريط في الحياة، أما في المجتمعات المتقدمة فإننا نرى الجمال نفسه سواء في الشوارع أوفى المحلات أو في طريقة الأكل واللباس ولعل هذا التنظيم لم يأت عن طريق الوحي أو الصدفة، بل كل شيء في هذه الدول مدروس بصفة مضبوطة ومحكمة، وخير دليل على ذلك تلك الأوامر والقرارات التي صدرتها بريطانيا تلزم سكانها بضرورة مراعاة نظافة مدنهم وشوارعهم ومن يخالف ذلك فهو مهدد بدفع غرامة مالية وقد طبقت القانون نفسه روسيا حيث فرضت غرامة مالية على كل شخص يبصق في الأرض أو يلقي بأعقاب السيجارة على الرصيف أو يعلق ملابسه في الشباك المطل على الشارع أو يلصق الإعلانات على الجدران وأيضا الغرامة تشمل كل من يركب السيارات العامة بملابس العمل المستحقة. فهي إجراءات تبدوا بسيطة إلا أنها تحمل الكثير من المعاني والعبر لأننا بفضل هذا الفعل نكون قد حققنا في المجتمع نظاما، وصحة، وجمال المدينة لأن الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة، فينبغي أن نطبقه على نفوسنا وأن نجسده في شوارعنا وبيوتنا ومقاهينا، إن الجمال هو وجه الوطن في العالم، فلنحافظ على وجهنا لكي نحفظ كرامتنا ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالاحترام¹.

3-1-6 التوجيه الصناعي: تشمل الصناعة في نظر مالك بن نبي كل الفنون والمهن والقدرات ذات القيمة الاجتماعية التي تعود بالنفع على الفرد وعلى المجتمع. حيث تعتبر

¹-مالك بن نبي: شروط النهضة ص 98/94.

الصناعة بالنسبة للفرد وسيلة لكسب عيشه أو لبناء مجده وحتى تحقق الصناعة أهدافها فهي بحاجة إلى العلم والممارسة اليدوية حتى تصبح راسخة مع مرور الزمن، والدليل على ذلك أن هذه الصناعة لا تكون إلا في مجتمع متحضر فوجود الصناعة يدل على درجة التحضر والعلم ولهذا فقد دعا العلامة "عبد الرحمن ابن خلدون" المسلمين إلى ضرورة إتقان الصنائع والإبداع فيها مما يتناسب مع الإسلام والحضارة الإسلامية وقد قسم ابن خلدون الصنائع إلى قسمين: منها البسيطة ومنها المركبة فالبسيطة منها تختص بالضروريات، والمركبة هي التي تكوّن الكماليات، كما قسم الصنائع كذلك إلى ما يختص بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير ضروري كالجزارة والنجارة والحدادة، وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم، والصنائع والسياسة، كما أن الصنائع تكتمل بكمال العمران الحضري وكثرته، فعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصانع فيها، حيث تتوفر دواعي الترف والثروة، وفي هذا السياق يقول العلامة ابن خلدون "وإذا زخر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملتها التائق في الصنائع واستجاداتها فكملت بجميع متماماتها وتزايدت صنائع أخرى معها. كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الأثقال وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب، لأننا لم نبلغ عمران مصر والقاهرة" أما العمران البدوي أو القليل فهو الذي لا يحتاج من الصنائع إلا البسيط منها كالنجارة أو الحدادة أو الخياطة أو الحياكة وبذلك فإن رسوخ الصنائع فيه يتم برسوخ الحضارة وهذا كحال الأندلس قديماً حيث كانت تزخر بالصنائع والرسوم وأحوالها مستحكمة راسخة سواء في المباني والطبخ وأصناف الغناء واللّهو من الآلات والأوتار والرقص وإقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر كما استحكمت فيها الصنائع وكتملط فيها جميع اصنافها من جودة وتنميق وبقية صبغتها ثابتة في ذلك العمران غير أنه سرعان ما إنهار

عمرانها وصنائعها بسبب ما عانته من رسوخ الحضارة فيها برسوخ الدولة الاموية وما بعدها من دولة الطوائف¹ فالصنائع تتطور على حساب حاجات الانسان فان كانت الصناعة مطلوبة فان الناس تجتهد في تعلمها. واذ لم يوجد قصد من تعلمها فان تلك الصناعة تكون عرضة للإهمال والترك لأن صاحبها فر إلى غيرها او مات ولا يترك خلفا له فيذهب رسم تلك الصنائع، كما يذهب الكتاب والنساخ وأمثالهم من الصناع لحاجات الترفويقي العرب أبعد الناس عن الصنائع والسبب في ذلك أنهم أبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها فحتى الإبل التي أعانت العرب في التغلب على الفقر فقد أصبحت مفقودة لديهم بالجملة، ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الاسلام قليل الصنائع بالجملة، فالصنائع بالمغرب مثلا قليلة وغير مستحكمة إلا ما كان من صناعة الصوف في نسجه والجلد في خزره. أما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه حضارة الفرس واليونان والروم أحقابا متطاولة فرسخت فيهم أحوال الحضارة و استحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت فبقيت مستجدة حتى الان²

3-2 الشروط الاجتماعية تتغير المجتمعات وتتطور ويصيبها التجديد في النواحي

المادية والاجتماعية خاصة في هذا العصر الذي نعيش فيه، ولما كانت التربية وسيلة أساسية لزيادة العناصر الثقافية الجديدة، ووسيلة المجتمع أيضا للقضاء على المشكلات الاجتماعية فإن علاقة التربية بالتغير الاجتماعي علاقة متبادلة لا نستطيع الاستغناء عنها. حيث يرى مالك بن نبي انه لايمكن تطبيق نفس شروط التربية الاجتماعية في مجتمعات مختلفة ومتنوعة ولايمكن بناء منظومة تربوية تستقي براهينها من الخارج لأن هذه

¹ عبد الرحمان ابن خلدون :مقدمة ابن خلدون،تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية صيدا بيروت،الطبعة الاولى،1995،ص،370/372' (الفصل الثامن عشر)

² عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي (مسار نحو البناء الجديد) الجزء الثاني، دار الفكر دمشق، ط1 ص

الإصلاحات التي تحدث غالباً في البلاد الإسلامية والتي تعتمد على حلول مستعارة من بلدان متحضرة فإنها لاتحدث عندنا نفس التأثير لأنها تفقد نشاطها وحيوتها في الطريق وهذا طبقاً لمجموعة من المعطيات التي تتعلق بطبيعة وانماط المجتمعات، لان عناصر الإصلاح تمثل جزء من المجتمع او المحيط الاجتماعي وهي أفكار يفرضها الواقع والوسط الذي نعيش فيه وللمزيد من التوضيح اكثر لدينا الصيغة الكيميائية للماء والتي نعرفها جميعاً وهي $2\text{H}_2 + \text{O}_2$ معناه الهيدروجين +2 ووكسجين الناتج هو الماء، لنفرض ان أحدا قام باقتباسها كما هي ليطبقها في صناعة الماء فانه لا يصل الى شيء لأنه اثناء التطبيق ينقصه عنصر جوهري وهو المركب الذي لم تعبر عنه الصيغة والمقصود هنا بالمركب هو الطاقة التي يجب ان تتحد بين الجزئيات التي يتشكل منها الاكسجين فالمعادلة صحيحة من ناحية التركيب ولكنها غير قابلة للتطبيق¹.

أن جميع أنواع الحلول ذات الصيغة الاجتماعية التي نستوردها من بلدان أخرى تثبت فعاليتها تشبه الصيغة الكيميائية التي أشارنا إليها هي صحيحة من ناحية التركيب ولكنها تقتضي عند التطبيق عناصر مكملة لها وهي الطاقة التي لا يمكن أن تأتي مع هذه المعادلة بل نقتبسها من المحيط الاجتماعي حيث لا يمكن لنا فصلها عن ما هو روعي لكن هذا لا يعني نفياً لكل اقتباس او رفض تجارب الآخرين ولكن بشرط ان نرجع الحلول المستعارة الى أصول البلد المستعيرة معناه يجب أن نهى في بلادنا الجو الملائم والمحيط المناسب لتطبيق ما نتصور من حلول لمشكلاتنا الاجتماعية.

3-3 دور الطاقة الحيوية في بناء التربية الاجتماعية

أولاً تحديد المفاهيم :

معنى كلمة الطاقة لغوياً: هي القوى المحركة أو القدرة على الفعل، أما علمياً: في الخلية البشرية عند إستثارة الإلكترونات تنتج طاقة عالية وعبر تفاعلها مع الفوسفات تعطي

¹ - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 102، 103/104/105

المادة الأساسية للطاقة الحيوية وهي ثلاثي الفوسفات، حيث أن هذه المادة وعبر إحتراقها تنتج طاقة عالية تعطي الخلية القدرة على إتمام العمليات الحيوية في أعضاء الإنسان، فهي المادة الفعالة التي تسمى الطاقة الحيوية في الجسم البشري والذي من خلال إنتاجها بالكميات السليمة يبقى الإنسان في صحة وعافية ونشاط وحيوية وإنسجام عضوي ونفسي، لأنه أي اختلال في إنتاجها يؤدي إلى زيادة السموم وتراكمها ومنعها للخلايا عن أداء وظائفها وهو ما نسميه المرض.

أما عن وحدة قياس الطاقة الحيوية في الجسم البشري هو الكالوري (سعر/مول) ويراد بالطاقة الحيوية BIONERGIE كل اشكال الطاقة المخزنة في الكتلة الحيوية مثل الخشب الذي يحتوي على الطاقة الخشبية التي هي نوع من الطاقة للوقود الحيوي، والطاقة الحيوية هي طاقة متجددة مشتقة من الكتلة الحيوية ومن الممكن أن تكون وقودا أو نارا كل شيء في هذه الحياة له طاقة وله تأثير على جسم الإنسان، هذا ما أكد عليه (أحمد شعبان) إستشاري العلاج بالطاقة الحيوية بحيث أوضح في حديثه أن جسم الإنسان ليس جسما ماديا فقط بل يحيطه مجال كهرومغناطيسي، حيث تحدث العديد من التفاعلات في جسم الانسان، ويوجد العديد من المعادن في أجسامنا والمعدن له القدرة على أن يتمغنط، والكهرباء الموجودة داخل أي جسم كائن حي بسبب وجود الأعصاب، كل هذا يولد مجالا كهربائيا ومجالا مغناطيسيا¹.

وأشار إلى أنه إذا كانت هناك طاقة سلبية في منطقة ما في الجسم، ولتكن منطقة الحلق أو الرقبة، هذا المركز إذا احتوى على طاقات سلبية والتي نرسم لها بالألوان القائمة، تسبب اكتئاب للإنسان، وحزن، ومع الوقت هذه المناطق تضعف، فهذا النوع من الطاقات نسيمه بالطاقات المدمرة تجعل الخلايا تموت بشكل أسرع، فيظهر لدى هذا الشخص

¹: الموقع الإلكتروني لمركز "كارما" للجراند ماستر أحمد شعبان : البريد الإلكتروني: medical@dworlfd.com

مشاكل وقصور في الغدة الدرقية، هذا على العكس إذا كانت لديه طاقة اللون الأحمر مرتفعة يكون لديه نشاط في الغدة عالي، وزيادة في إفراز هرمون الغدة الدرقية. وأكد جراند ماستر أحمد شعبان أن الطاقة الحيوية هنا هو استبدال هذه الطاقات السلبية المدمرة بغيرها من الطاقات الإيجابية النافعة حيث يتم عمل نشاط لكامل الجسم وإحياء للخلايا التي ماتت وتدمرت، وتجديدها، فكل الأشياء التي لديها قدرة على الحياة حتى ولو بسيطة يمكن تجديدها من خلال الطاقة الحيوية، إلا في حالة وفاتها.¹ وقد اسقط "مالك بن نبي" فكرته على الفرد الذي يملك هذه الطاقة المخزنة فيه التي عادة ما تكون طاقة خامة إذ لم يدمجها الفرد في الحياة الاجتماعية الذي يفرض في الواقع قواعد وضوابط وقوانين وتقاليد ومن هنا تأخذ الطاقة الحيوية طابع الاطراد مع الحياة الاجتماعية ولتوضيح دور الطاقة في المجتمع نطلق من ماهو بسيط لنفترض أننا الغينا على سبيل المثال احد اشكال الطاقة الحيوية كالتى تتعلق بالدافع الغذائي أو الدافع التناسلي أو دافع التملك، فان جميع الإمكانيات البيولوجية للحياة الاجتماعية سوف تلغي دفعة واحدة. وإذا افترضنا أن حدث العكس وهو تحرير هذه الطاقة من كل قيد فان النظام الاجتماعي سيختل أيضا ففي هذه الحالة فان الفرد يجد نفسه أمام قانون الانتخاب الطبيعي ما نستنتجه هو: عندما نلغي الطاقة الحيوية فأننا هدمنا المجتمع، وعندما نحررها تحريرا كاملا فإننا نهدم المجتمع كذلك، لذا يجب على الطاقة الحيوية أن تعمل بالضرورة طبقا لهذين الحدين، وإذ بحثنا عن السلطة التي تخضع لها الطاقة الحيوية التي تضمن هذه الحدود نجد أنها مرتبطة إرتباطا جوهريا بالعوامل التي لها دور في وجود الحضارة ومرتبطة بالدور الأساسي الذي يلعبه في تحويل مجتمع بدائي قبل التحضر إلى مجتمع متحضر ففي الحالة الأولى (قبل التحضر) الطاقة الحيوية خامة خالية من مبادئ الالتزام الاجتماعيين، حينما تحول المجتمع البدائي الى المجتمع الحضاري فكان ذلك بفضل الفكرة الدينية التي طوعت وأظهرت الطاقة الحيوية

¹ - ابراهيم الفقي : الطاقة البشرية والطريق الى القمة، دار الراجحة للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية، ص 40-111

للمجتمع الجاهلي لضرورات مجتمع متحضر، والواقع أنه في أصل جميع الحضارات فالإطراد يلزم الحضارة والطاقة الحيوية، لكن القدرة على التكامل والانسجام ليست نفسها بالضرورة تكون متشابهة لبعضها البعض وهي مختلفة باختلاف مراحل الدورة الحضارية بالعكس فان ظروف هذا الانسجام لا تراعي بالطريقة نفسها في جميع الحضارات ومن أجل تفحص حالة من تكييف الطاقة الحيوية نأخذ عينة من مجتمعين مختلفين من جهة ومن جهة مجتمع واحد ولكن في عصرين مختلفين. فلقد طرح المجتمع الإسلامي مشكلة الخمر وهذا عن طريق نص التحريم الوارد في الشرع وفي المقابل نجد صورة مشابهة لها تقريبا في الولايات المتحدة حيث أدخلت الولايات سنة 1919م تحريم الخمر في الدستور الأمريكي، غير أن ما نلاحظه من رد فعل المسلمين إزاء تحريم الخمر تختلف تماما مع ردة فعل المجتمع الأمريكي، فبالرغم من مرور أربعة عشر قرنا على التحريم فهو لم يثير أية صدمة عنيفة أو قوية، بينما في الولايات أثرت موجة من الغضب والاحتجاجات وتحطيم الممتلكات كما تبعتها التجارة الممنوعة وتكوين مجموعة من اللصوص والأشرار وقد إستمر الحال على نفسه الى غاية الغاء قانون التحريم بموجب قانون التعديل رقم 21 المصادق عليه في ديسمبر 1933 (مثال عن تباين المجتمعات) أما عن المجتمع الواحد فهو مانلاحظه اليوم في المجتمع الإسلامي حيث تراجع فكرة التمسك بالدين وكذا بشرب الخمر حيث نرى اليوم في مجتمعاتنا أنه بين خمارة وخمارة اخري يوجد خمارة ثالثة فالمسلم لم يطرد فطرة الخمر من عالم الأفكار بل تم طردها من عالم الأشياء وهو الشيء الخطير جدا والدليل إحتفاظ هذه الفكرة بقدرتها على التكيف، ومن خلال هذا التحليل يمكن ان نستنتج فكرتين أساسيتين وهما: أن قدرة أية فكرة على التكيف ليست متساوية في مجتمعين مختلفين من حيث الثقافة (العادات والتقاليد)¹. وفي المجتمع الإسلامي نفسه فان القدرة على التكيف تتغير من مرحلة الى أخرى الى غاية أن تصل تتحرر الغرائز وتتوقف قدرة التكيف

¹ - مالك بن نبي :-ميلاد مجتمع،ص 105/106/112

ويختزل العالم الثقافي الى مجرد عالم الأشياء هنا تقوم الطاقة الحيوية بالتشتيت المجتمع وهذا بإلغاء شبكة روابطه الاجتماعية وهي النظرية التي تكلم عنها "كارل ماركس" حول صراع الطبقات، أن الدليل القاطع على أن المسلم اليوم يعيش فراع داخلي وتتعدم فيه الطاقة الحيوية هي تلك الحالة التي يعيشها بعض المسلمون أثناء وبعد صلاة الجمعة حيث يستمع المسلمون لهذه الخطبة وكلمات الأمام تزلزل كيان المستمعين وغالبا ما نرى أحد المصلين غارقا في دموعه، بل الامام بذاته قد خنقته شهقاته وانفعالاته ولكن وبمجرد أن يتخطى عتبة المسجد ينتقل من حالة الى أخرى ومن هنا نلاحظ ونستنتج أن المسلم اليوم يعاني من إنفصال بين العنصر الروحي والعنصر الاجتماعي، هذا الانفصال الذي مزق شخصيته الى شطرين شطر ينظم سلوكه داخل المسجد وتراويح رمضان وشطر ينظمه في الشارع⁽¹⁾ نفس الفكرة تنطبق تماما على بعض الإسلاميون المتشددون في سنوات التسعينات بالجزائر حيث أثارت خطب زعيم الجبهة الإسلامية للإنقاذ أثارت خطبه هيستريا واسعة في مناضلي الحزب بما فيها البكاء والعواء وكذا الشجب والندب و حتى الاغماءات الإغماءات وهذا بمجرد سماعهم لأبسط خطبة في كل جمعة وفي المقابل تقريبا نفس العناصر كلها بمجرد ان التحقوا بمعامل الجبال لم يرحموا ولا فئة من المجتمع بما فيهم الطفل والشيخ والشباب واغتصاب للنساء.

نستخلص من هذا التحليل أن المسلم لم يحتفظ باستقلاله الأخلاقي منذ خروجه من المسجد بل ان الوسط الخارجي هو الذي أثر عليه، وهو ما ينطبق تماما على "الشيخ العقبي" الذي يبذل جهده في اقناع الشعب للانضمام الى الحركة الإصلاحية ليفد استقلاله الأخلاقي بعد استقلال الجزائر حينما اصبح حليفا للاستعمار.¹ أن المسلم اليوم الفاقد لطاقته الحيوية يتعرض لأشد الحالات النفسية إنتكاسا وتعارضاً حيث يسمع في المسجد لأحد الدروس حول أهمية الجار وهو ما يزرع فيه الدفء في قلبه ووجدانه ولكن وبمجرد أن يضع

¹ - مالك بن نبي : شروط النهضة ص 87، انظر ميلاد المجتمع، ص، 108

قدمه في الشارع ينتابه البرد الذي التقى بجاره الذي لم يتكلم معه لمدة 20 سنة أو تفوق يشبه الى حد كبير (الدوش الاسكتلندي).¹ فالمسلم اليوم إذ أراد أن يبني نفسه بنفسه فما عليه إلا أن يستعير ويستمد من غرائزه طاقة الحيوية اللازمة لأداء نشاطه في التاريخ، وبالمقابل يمكن لنفس هذه الطاقة الحيوية أن تهدم المجتمع ما لم يتم تكييفها بصفة إيجابية (معناه إضافة شيء جديد إيجابي والمراد بها عند "مالك بن نبي" هو تنظيم هذه الطاقة وإعادة توجيهها فتتحول من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة هدفها حفظ النوع والبقاء الى وظائف اجتماعية يؤديها الانسان حيث يساهم في النشاط الاجتماعي المشترك، يرى "مالك بن نبي" أن فكرة الطاقة الحيوية كانت لدي إنسان الفطرة لذا كان له إستعداد لدخول الحضارة وهو الانسان المسلم البدوي الذي جعلت منه هذه الطاقة إنسانا متحضرا ومحضرا حيث اظهرت الفكرة فاعليتها ودورها في إعادة تنظيم وتوجيه حياة المسلمين.² أن الدليل القاطع على أهمية الطاقة الحيوية ودورها الفعال في بناء المجتمع وتربيته هو تلك الحالة التي كان يعيشوها المسلمون في وقت الرسول (ص) إذ بمجرد أن يرى الصحابة أن نبي الله مشغولا في مواجهة الحروب، كانوا الصحابة يتبرعون له عن طيب خاطر وبمحضي إرادتهم جزءا من اموالهم الخاصة وهو شيء جميل، والأجمل هي تلك الكلمات الطيبة المعبرة التي كان يقولها سعد بن عباد.³ يا رسول الله خذ من أموالنا ما شئت وما أخذته منها أحب الينا مما تركت) نفهم من هذا المثال كيف أن الطاقة الحيوية كانت في صورة غريزة تملك الأموال لتتحول الى طاقة محكومة. ولو بحثنا عن سبب نجاح هذا الطاقة الحيوية وفي هذه الفترة بالذات نجد ان الفضل يعود الى الفكرة الدينية التي تشكل عامل مؤثر في نفوس المسلمين

¹ هذا التعبير يطلق على تقاليد الاسكتلنديين في استخدام الش لانهم يصبون منه الماء ساخنا ثم يتبعونه بماء بارد

² مالك بن نبي :مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 42-44

³ سعد بن عباد :صحابي اسلم مبكرا وعاش الى جانب الرسول ومات سنة 635 في بلاد الشام ويذكر المؤرخون ان الجن قتله

المقصود بالروح : هي تلك الغرائز المروضة المعدلة بفضل الفكرة الدينية

وليس مجرد نصوص نلقنها وآيات نحفظها دون أية فائدة، وإذا أردنا ان نفهم كيف يتم تكيف الفكرة الدينية للطاقة الحيوية (المقصود رب التكيف هو إخضاع هذه الطاقة لنظام الفكرة الدينية) حيث أن العلاقة بينهما هي علاقة طردية بحيث كلما كانت الفكرة الدينية قوية وراسخة نابعة من القلب والايمان الصافي، حينها تنتظم الطاقة الحيوية. ولتوضيح الفكرة اكثر نلجأ الى علم النفس "الفرويدي" حيث تكون الطاقة في البداية على شكل طاقة كامنة في صورة الغريزة وهو ما يسميه "فرويد" بالكبت ثم يقوم الفرد باستخراج مكبوتات عن طريق مانسميه أدلة وجود اللاشعور التي تتمثل مثلا في زلات اللسان وفتلات القلم فالحيوية الحيوانية المتمثلة في غريزة الاكل التي لا نشبعها في كل وقت لأن هذه الغريزة أحتضت لقواعد نظام المجتمع نفس الشيء ينطبق على الطاقة الحيوية التي تنظمها الفكرة الدينية ففي هذه الحالة يتحرر الفرد من قانون الطبيعة المفطور عليه وفقا للمقتضيات التي اوجدتها الفكرة الدينية، وإلا فكيف لبلال بن رباح (الملقب ب: بلال الحبشي) أن يصبر ويقاوم سياط العذاب الشديد وهو يردد (أحد أحد) فصيحة بلال هي صيحة الروح التي تحررت من الغرائز بعدما سيطرت عليها غريزة العقيدة بصفة نهائية (قوة ايمانه بوحداية الله وأن محمد رسول الله، هذه هي الطاقة الحيوية التي جعلت بلال لا يتحدث بلغة اللحم وإنما بلغة الروح (الطاقة الروحية) وهي فترة شهدت فيها الحضارة الإسلامية ترويض للغرائز والروح كذلك هي التي تركت الزانية تذهب الى رسول الله وتطالبه بإقامة الحد عليها معلنة عن خطيئتها وهذا بفضل تغلبها على غريزتها فهذه الوقائع جميعها تخرج عن معايير الطبيعة، وتدل على أن الغريزة قد كبتت غير انها ظلت محتقظة بنزوعها الى التحرير، وفي حالة تراجع الروح نكسة صفيين فان المنعطف هو منعطف العقل لأنه تراجعت فكرته الدينية ففي هذه الحالة تتحرر الغرائز من قيودها بالتدرج وهي الصورة التي عرفناها عن "بني أمية" ومن البيهي أن لا تنطلق الغرائز دفعة واحدة وإنما تتحرر بقدر ما تضعف سلطة الروح وبقدر ما تتحرر هذه الغرائز تنكمش سلطة الروح وبعبارة اخري نلاحظ نقصا في الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية منذ أن دخلت الحضارة منعطف العقل وفي حالة إذا ما بلغ التحرر تمامه عادت الغرائز الى

سيطرتها على مصير الانسان وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية وتعود الأشياء كما كانت من قبل وبذلك تتم دورة الحضارة.¹ إن هذه الدورة أضاعت لنا جميع المراحل التي تمر بها الطاقة الحيوية في ظل سيطرة الفكرة الدينية وهذه النظرة جد أساسية في أي مشروع يستهدف إعادة تنظيم الطاقة الحيوية من أجل إعادة بناء تشكيل شبكة العلاقات الاجتماعية، فالمشكلة التي تواجه المسلم اليوم هي المشكلة التي عبر عنها الرسول ص في قوله (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)، المسلم اليوم إذا أراد أن يدخل التاريخ فما عليه إلا ان يعيد تنظيم طاقته الحيوية وتوجيهها وهذا يبدأ بتنظيم تعليم القران تنظيمًا روحيا نفسيا وليس شكليا اجتماعيا، وثاني شيء هو تحديد رسالة المسلم ووجهته وهو ما أشار اليه في كتابه وجهة العالم الإسلامي فعلى المسلم أن يحتفظ بأخلاقه، حتى وان عاش في مجتمع لا يتفق مع مبادئه وتربيته، كما أنه يستطيع أن يواجه على الرغم من فقره وثرأه مسؤولياته مهما كانت ظروفه الأخلاقية والاجتماعية وبهذه الطريقة يستطيع أن ينشئ وسطه الخاص به حيث يؤثر على الظروف الخارجية كما كانوا بعض الرجال اللذين عاشوا مع النبي أيام الإسلام الاولي ومن اجل إعطاءنا لهذه الطاقة قيمتها العملية يجب أن نعرضها لاختبار الحياة في صورة إجراءات تربية فعلية ومن أجل نجاح هذه الفكرة يجب اخضاعها للممارسة العملية.

الإستنتاج :

لكي تكون ناجحة يجب أن يتولاها رجال متخصصين النزهاء الخالين من العقد والبيروقراطية التي تنتاب الموظف وأن ذلك السياسي المغرور الذي ينتمي الى أحد الأحزاب التي تمثل الكل (تسير شؤون الدولة بما فيها التدخل في جميع الصلاحيات) يجب إذن أن نحفظ لكل مشكلة استقلالها بالنسبة الى غيرها، وإلا سوف يغرق المسلمون في مستنقع الحروب الناتجة من تفكك علاقاتنا الاجتماعية ببعضها البعض فمن مشكلة واحدة تتولد

¹ مالك بن نبي : شروط النهضة ص 84

عندنا مشكلات وما القضية الفلسطينية خير برهان على ذلك من التواطئي العربي بل يجب على الحكومات الإسلامية أن تعتمد مشروع بعث نفوس المسلمين ما يقوي شبكتهم الاجتماعية وهذا دون أن ننسى التعايش بين الثقافات مع ضرورة الإعتماد على نظام التقشف الذي يسوي بين الأغنياء والفقراء وفقا لمقولة (الفرد للمجموع - والمجموع للفرد) ومهما يكن من الأمر فانهلا يمكن لأي مجتمع أن يدخل التاريخ بعقول خاوية أو محشو بأفكار مميتة وضمائر حائرة وشبكة من العلاقات المتمزقة للأسف هذا هو حال المجتمع الإسلامي وحال إنسان ما بعد الموحدين¹.

¹ - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي : ص 65

الفصل الخامس : افاق البناء الحضاري

المبحث الاول: التربية الحضارية ودورها في اعداد وتكوين انسان
الحضارة

المبحث الثاني: مدي فعالية المعادلة الحضارية والنظرية التربوية لمالك
بن نبي في القرن الحادي والعشرون

المبحث الاول : التربية الحضارية ودورها في إعداد وتكوين إنسان الحضارة:

يرى "مالك بن نبي" أن أزمة العالم الإسلامي هي أزمة وعي بالأساس التي تتمثل في أزمة إدراك الإنسان المسلم للمشاكل والقضايا التي يعاني منها العالم الإسلامي، لذا يدعو الإنسان المسلم إلى "إدراك العالم من حوله الذي أصبح يعتمد على العلم والتخطيط في رسم حاضره ومستقبله وأن يستبطن هذه المعطيات حتى يسترد وعيه وينتبه لمدى تخلفه ويعتقد أن التربية طريقاً لمعالجة الأزمة الحضارية التي يعاني منها المجتمع المسلم مثل مشكلة الثقافة ومشكلة الأفكار، لا تحل إلا عن طريق التربية، وفيما يتعلق بالثقافة يرى أن التساؤل الأساس في هذه المشكلة هو أنه كيف ينبغي أن ندرج الثقافة في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الإنسان، بحيث يساهم في تشكيل تصورات جديدة نحو مجتمع الحضارة، وأنه لكي يتحقق ذلك "ينبغي أن نطرح الثقافة كبرنامج تربوي قابل للتحقيق ومن هنا فإن الحضارة عنده هي جملة الشروط النفسية والاجتماعية والتربوية التي يجب أن تتوفر في المجتمع حتى ينتقل إلى حالة التحضر. "فالحضارة من الناحية الوظيفية مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، وفي كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة. ويتعلق مفهوم "التربية الحضارية" عند بن نبي - أيضاً - بمفهوم "الحضور الإسلامي"، والذي يستبطنه في "حجة الوداع"، وتحديداً في ختام خطبته "...ألا ليلغ الشاهد منكم الغائب" وهذه الشهادة كما يقول "رسالة خاصة الى كل مسلم (حاضر) بإزاء الغائبين، والمسلم الحاضر حينئذ، لا يمثل شخصه وجيله فحسب، ولكنه يمثل الأجيال التي تأتي من بعده كذلك، لان ذلك يتعين على المسلم أن يقوم بالدور الملقى على عاتقه، فهو مجبر على الاتصال بأكبر عدد من الذوات البشرية ومشاكلها. ومن ثم يتعين على (حضوره) أن يعانق أقصى حد ممكن من الناس وإن حضوره في هذه الحالة يؤثر على الأشياء، وعلى أعمال الآخرين" ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ {البقرة:143}. و"التربية الحضارية" - في أحد جوانبها-

"منهج فعال" يقصد تغيير الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يُكوّن معهم مجموعة القوى التي تغير "شروط الوجود" نحو الأحسن دائماً وكيف يُكوّن معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ، أي تكوين بناء حضاري أو الانتقال لمرحلة التحضر.¹

1- التربية الحضارية: تعني بالتربية الحضارية في فكر "مالك بن نبي"، جملة الجهود الفكرية والعملية التي نستثمرها في بناء الإنسان وهذا من خلال إعداد الفرد المسلم وتهيئته لهذه الحالة، ففعل النهضة هو "ما يُبذل من جهد في الميدان النفسي والذي يتوافق مع مقوماته المعرفية (الأصيلة)، ومرجعياته الحضارية، وهذا لن يتأتى إلا بتكوين "الإنسان الجديد" الذي يستطيع أن يحمل رسالته في التاريخ.² فالتربية الحضارية تتم في ذلك المكون الذي يجمع بين المرجعية الذاتية (الأصالة) وبين لانفتاح (المعاصرة) على التطورات الحديثة التي أنتجها العقل في حضارات أخرى، فلا مجال لتربية حضارية تنغلق عن واقعها ولا معنى لتربية حضارية التي تتسلخ من ذاتيتها ومرجعيتها الأساسية الأصيلة. والواجب الحضاري في هذا النهج التربوي "للتربية الحضارية" يعني مراجعة السلبيات وعوامل الضعف التي إكتسبتها الشخصية المسلمة عبر قرون الضعف، والأفول الحضاري، وتهيئة مناخ تربوي جديد للعوامل الإيجابية التي تساعد على البناء التربوي الإيجابي الحضاري، وهذا يتطلب تصفية عاداتنا وتقاليدينا، وهذه التصفية لا تتأتى إلا بفكر جديد، يحطم تلك النظرية الموروثة عن فترة تدهور مجتمع أصبح يبحث عن مسكنات بدل إيجاد دواء لهذا السرطان الذي ينخر جسد الامة الإسلامية "بناء على ما تقدم فإن "التربية الحضارية" تقوم على مجموعة من المبادئ والمنطلقات الفكرية وهي:- فكرة "التغيير الذاتي" لتوليد المجتمع الجديد الذي يحمل

¹-الخطيب، سليمان. فلسفة الحضارة عند مالك ابن نبي..دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، المعهد العالمي للفكر

الاسلامي بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1 1993.ص 212-216

1-مالك بن نبي، مالك. مشكلة الأفكار، ترجمة: بسام بركة، أحمد شعيبو، دمشق، دار الفكر، ط11، 2014، ص 77.

2- مالك ن نبي، مالك. مشكلة الأفكار،ص، 108

قيم الحضارة والفاعلية والشروط الأخلاقية والمادية ذات الرسالة العمرانية. وكذا تصفية الوراثة السلبية التي كانت سبباً في الأفول الحضاري، فيما يتعلق بالأخلاق والقيم والسلوك، وفيما يتعلق أيضاً بالعوامل التربوية مثل التخلص من آثار الاستعمار الثقافية والقيمية.

وكذلك تجديد كيان الإنسان طبقاً للتعاليم الإسلامية، ومناهج العلم الحديث بحيث لا ينفصل عن أصالته (ذاته) وواقعه ومستجداته العلمية وكذا التأكيد على محورية "الوعي": الوعي بالذات، والوعي بالماضي والوعي بالحاضر والمستقبل. كما نجد ضرورة إعداد الإنسان المسلم ليقوم بدوره في أداء الرسالة وتحقيق الشهادة، وهو ما يتطلب إعادة تنظيم طاقته الحيوية، من ناحية وتجديد علاقته بالرسالة (الوحي) من ناحية أخرى. والعمل على تحقيق التفاعل والتوازن بين العوالم الثلاثة المشكلة للحضارة: عالم الأشخاص، عالم الأفكار، عالم الأشياء بما يبلغنا مجتمع التحضر ومجتمع الحضارة. وكلك تحديد النماذج العليا والأفكار المثالية في العالم الثقافي الذي يستمد مرجعيته من الأفكار المطبوعة (الوحي) والسيرة التاريخية الأولى له، بما يساهم في بناء الإنسان الجديد الذي يتوافق سلوكه في المسجد مع سلوكه في الشارع، أي يتوافق ما يعتقده من قيم مع ما يسلكه في واقعه. وأخيراً بناء مفاهيم تربوية جديدة تتسم بالحيوية والأصالة، بديلة للمفاهيم الجامدة التي سيطرت على إنسان ما بعد الحضارة، أو المفاهيم التي ورثها عن الاستعمار أو الغزو الثقافي والحضاري.¹

2- أهداف التربية الحضارية: نظراً لمركزية الإنسان في تصور "مالك بن نبي" للأزمة الحضارية التي تعيشها المجتمعات الإسلامية، ومفهوم التربية الحضارية ومضامينها

1- ابن أحمد الأهدل، هاشم. أصول التربية الحضارية في الإسلام، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2007، ص 128

ملاحظة: أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة الدكتوراه في التربية الإسلامية من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - كلية العلوم الاجتماعية

المعرفية والفكرية والقيمية، يمكن تحديد أهم أهداف التربية الحضارية في تصوره الفكري ومشروعه التربوي الحضاري على النحو التالي:

2-1: **بناء الإنسان**: يعتبر "مالك بن نبي" الإنسان غاية التربية الحضارية عنده، لأن رجل الفطرة هو أحد المكونات الثلاثة لبناء الحضارة في معادلتها المالكية (حضارة = إنسان + تراب + وقت)، والإنسان هو الذي يعطي القيمة لكل من: التراب والوقت، وهو الشرط الأساس في البناء الحضاري ويتداخل عوامل التربية الحضارية على رجل الفطرة المذكور، فإنه ينتج لنا ما أسماه مالك بـ"الإنسان الجديد أي الإنسان صاحب الرسالة حاملها ومبلغها. لأن معظم القضايا الكبرى التي يعاني منها المجتمع سواءً كانت في إطار اقتصادي أو إطار اجتماعي أو إطار سياسي تتصل في جوهرها بالإنسان؛ فالقضية ليست قضية أدوات ولا وإمكانيات فالقضية هي قضية إنسان فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، لذلك جعل هدف النموذج عنده هو "بناء رجالٍ يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى¹ أما علاقة الإنسان بحركة التاريخ فيصفها مالك بأنها علاقة إطرادية " فالتاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائماً بين جهده ومثله الأعلى وحاجاته الأساسية، والذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة، بوصفه ممثلاً وشاهدًا، لأن الانسان عندما يعجز عن أداء رسالته الكونية والاجتماعية فإن ذلك إيذان بنهاية التاريخ وتفكك الحضارة وسكون المجتمع فلم يعد يقدم لوجوده أساساً روحياً أو أساساً مادياً. لأنه في حالة "الأفول الحضاري" للأمة يتحلل أولاً الفرد قبل تحلل المجتمع وإنحلاله؛ لأن الفرد هو حامل "الرسالة" و"القيم" و"الروح" ومحرك "الوسائل" ومستخدم "الإمكانيات" فالشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع، وإنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة. وهذا الكائن هو في ذاته نتاج حضارة. إذ هو يدين لها بكل ما يملك من أفكار وأشياء" حيث يدعونا "مالك بن نبي" إلى تجديد أفكار بناء النظام التربوي في المجتمع، لكي يتمكن من

¹ -عواطف الصقري:الفعالية في فكر مالك بن نبي وعلاقتها بالثقافة والحضارة"، المجلة التربوية الكويت، ص 110
(انظر كتاب شروط النهضة ص 85)

بناء "الإنسان" الجديد ذي الرسالة والوظيفة، من خلال "النموذج" المستمد من "التكليف" الإلهي، والذي يتضمن تحويل الإنسان من كائن بيولوجي إلى كائن رسالي، وهذه إحدى جوانب التربية الحضارية عند "مالك" وتتمثل في بناء نظام تربوي إجتماعي يتضمن أفكارًا واضحة عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية في مستوى الفرد وفي مستوى المجتمع، بما يؤهل الفرد والمجتمع للقيام بالواجب الحضاري في ضوء نظام تربوي قادر على اكتشاف القدرات الكامنة والظاهرة في الإنسان وتوظيفها لصالح البناء الحضاري المنشود.¹ والفكرة الدينية تعمل في هذا النظام التربوي الجديد على تكوين نظام الانعكاسات لدى الفرد المكيف المشروط، كما تعمل على تكوين شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك. فبقدر ما تكون هنالك فكرة واضحة تمام الوضوح عن دور هذا العنصر (الدين) في (ميلاد مجتمع) يمكن أن تكون هنالك فكرة دقيقة تمام الدقة عن دورها الذي يمكن أن تؤديه في (نهضة) هذا المجتمع. وبهذا ندرك القول "إنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، بمفهومه الاجتماعي الدقيق ويناقد "مالك بن نبي" قضية أخرى تتعلق ببناء الإنسان كمهمة أساسية للتربية الحضارية وهي: الفردية والاجتماعية، والحدود بينهما والعلاقة والأدوار، فإذا كان النموذج الغربي الرأسمالي يعطي من "الفردية درجة والنموذج الغربي "الشيوعي" يعطي من "الجماعية فإن "النموذج التوحيدي" القائم على "التوازن" لا يلغي أيًا منهما، بل يساهم في تحديد الأدوار والعلاقات بينهما بما يحقق هذا "التوازن". ويحلل مالك حالة الاتصال بين الفرد والمجتمع في حاجة كلٍ منهما إلى الآخر، فالفرد الذي يولد مزودًا بـ"الطاقة الحيوية" تتطلب إطارًا اجتماعيًا لتنظيم نشاطها في المجتمع، وهو ما يتطلب من الفرد "الاستجابة لنسق من أصول وقواعد في الحياة الاجتماعية. لأنه إذا ما ركن الفرد لقدرته وحدها وإرادته وحدها دون المجتمع، فإنه يصبح مجرد قشة ضعيفة... ولو ألغينا على سبيل الافتراض واحدًا من أشكال الطاقة الحيوية (كالدافع الغذائي أو دافع

2-مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 89 (انظر كتاب ميلاد المجتمع ص، 67)

التملك أو الدافع الجنسي) فإن جميع الإمكانيات البيولوجية لحياة اجتماعية ما سوف تُلغى دفعة واحدة، وإذا افترضنا أننا فعلنا العكس وحررنا الطاقة الحيوية من كل قيد، فإن النظام الاجتماعي سيجد نفسه وقد أخلى موقعه لنظام طبيعي خالص¹ والقاعدة التي تحكم العلاقة بين الفرد والمجتمع وفقاً لخاصية التوازن هي قاعدة "العمل المشترك" وبالرغم من كل هذا فإن التربية الحضارية تصطدم ببعض العوائق تقف حائلاً أمامها، وهي عوائق تجذرت في ثقافة الإنسان المسلم المعاصر، التي طرأت عليه بعد أفول الحضارة الإسلامية. ومن هذه العوائق نجد عامل التخلف الذي حال دون أداء الرسالة الإسلامية على أحسن وجه وقد تمزقت اشخصية المسلم إلى شطرين: شطر ينظم سلوكه في المسجد، وشرط ينظم سلوكه في الشارع² وفي جانب المقارنة بين المنظور الغربي والمنظور الإسلامي للإنسان ينتقد مالك بن نبي المنظور الغربي للإنسان و المتمثل في التمييز بين النوع الإنساني انطلاقاً من الشعور بسامية الإنسان الأبيض في مقابل باقي أفراد النوع الإنساني "فكل ما ليس بأوروبي فهو أهلي ومتوحش، والإنسان الأبيض هو الرشيد المتحضر، والإنسان الملون هو الهمجي والمتخلف. وتعود جذور هذا التحيز الغربي لمفهوم الإنسان إلى تأثير الفلسفة الرومانية والإغريقية التي كانت تصنف الناس وتميز بينهم دون معايير موضوعية (الحر والعبد) (السادة والعبيد)، هذه الفلسفة التي أدمجت في البرنامج التربوي للأسرة الغربية، "إذ أن الفرد الأوروبي يحمل جراثيم هذه الكبرياء دائماً لأنه يتلقاها من البيئة الأسرية التي ينشأ فيها منذ الطفولة، ويتكون فيها تصوره للعالم وللإنسانية، فهو يعتقد على وجه الخصوص، أن التاريخ والحضارة يبتدآن من أثينا، ويمران على روما، ثم يختفيان فجأة من الوجود لمدة ألف عام ثم يظهران من جديد بباريس في حركة النهضة. أما قبل أثينا فليس شيء يذكر في ذهن هذا الفرد المشحون بالكبرياء الذي لا يرى بين أرسطو وديكارت إلا الفراغ... إن هذه النظرة الخاصة للغربيين هي التي تشوه منذ اللحظة الأولى فلسفة الإنسان عندهم، وتشوه بالتالي

¹-مالك بن نبي، مشكلة الافكار في العالم الاسلامي، ص، 83

²- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 87

السياسة الغربية في العالم".¹ هذا التأسيس المنهجي للتحيز الغربي في رؤيته للإنسان والكون والعالم وُجد له امتداد في الفكر الإسلامي المعاصر، حيث يرى عبدالوهاب المسيري (1938-2008) أن المنظومة الغربية وضعت الإنسان في مركز الكون (نظرياً). ولكن هذا الإنسان لا تحده حدود ولا تقيده قيود ولا يرتبط بأي قيم (باستثناء سلم القيم والمعايير الذي يقرره هو) وبدلاً من أن يصبح العالم في خدمة الجنس البشري، أصبح العالم ومعه الجنس البشري في خدمة الجنس الأبيض (صاحب القوة). وبدلاً من أن يقف الإنسان في مركز الكون وقف الإنسان الأبيض فيه ومارس عليها ضغطاً وكرهاً وما لسياسة تزامب اتجاه العالم لخير دليل على ذلك. وهذا التشويه أشار إليه عبد الوهاب المسيري.² بشيء من التنظير والتوسع في نقده للنموذج المعرفي الغربي "الذي يضم نزعات عدمية معادية للإنسان، فهو مشروع يصفي ظاهرة الإنسان كظاهرة متميزة في الكون... فالمشروع المعرفي الغربي كافر بالمعنى العميق للكلمة، فهو ليس كافراً بالإله وحسب، وإنما هو كافر بالإنسان فالإنسان ظاهرة مركبة ومعقدة لا يمكن أن نقارنه بالمادة الجامدة أو المادة البسيطة فالمادة الجامدة يمكن أن نفهمها في شكل نظريات وقوانين رياضية (قوانين الفيزياء والكيمياء والعلوم المختلفة). أما الإنسان فلا يمكن أن يُفهم في إطار هذه المعادلات والقوانين المادية. لأنه نظام مركب وغاية في التعقيد مما يعني أن الإنسان حين ينفصل عن الكل وعن الطبيعة وعن الخالق يصبح كائناً حراً مستقلاً.³ وفي المقابل يقارن "مالك بن نبي" هذا المنظور الغربي للإنسان بالمنظور الإسلامي الذي يقوم على أساس التكريم للإنسان كل الإنسان، "وهذا التكريم ليس خاصاً لكل أنواع البشر ذرية آدم أو ما يصطلح عليه ب "ذي اليمين"

¹ -مالك بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ص54.

² -مفكر وعالم اجتماع مصري مسلم، وهو مؤلف موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية أحد أكبر الأعمال الموسوعية العربية في القرن العشرينو الذي استطاع من خلالها إعطاء نظرة جديدة موسوعية موضوعية علمية للظاهرة اليهودية بشكل خاص، وتجربة الحداثة الغربية بشكل عام، مستخدماً ما طوره أثناء حياته الأكاديمية،

³ - فوزية بربون: مالك بن نبي، عصره وحياته ونظريته في الحضارة، تصدير، ابو القاسم سعد الله، دار الفكر

دمشق، الطبعة 1، الفصل السادس، شروط الإقلاع الحضاري) ص 198

فالإنسان في نظر المسلم ليس "الكم"؛ بل الصفة التي قرنها الله بالتكريم في سلالة آدم، فالمسلم يُكْرَم هذه الصفة بصورة مطلقة، ولهذا التكريم في الإسلام آثاره المحسوسة في الحياة: في التشريع، وفي الآداب، وفي العادات... ويضرب مثلاً لتقدير المسلم لكل نوع الإنسان وأفراده فيما أنتجه من أدب وفكر لاسيما أدب الرحلات مثل رحلات "ابن بطوطة" والمسعودي "حيث... لا نرى في إتصالهم بالشعوب والقبائل البدائية المكتشفة أي تشويه لإنسانية هذه الشعوب، أو أي آثار للكبرياء في علاقات الإنسان المتحضر العربي إزاء الإنسان البدائي، ولا نجد فيما كُتِب في أدب هذه الرحلات عبارات سخرية أو احتقار مثل العبارات التي أوجدها لغة الاستعمار للتعبير عن الإنسان المستعمر.¹ إن المشروع التربوي عند مالك بن نبي يقوم على إعداد الإنسان الذي يمتلك "ثقافة صالحة" قادرة على استدعاء حيوية "الأفكار" وفعاليتها، فالثقافة هي الطاقة الحيوية لعقل الإنسان المتحضر، "وتقوم الثقافة بوظيفة الدم، فهو يتركب من الكريات الحمراء والبيضاء، وكلاهما يسبح في سائل واحد من "البلازما" ليغذي الجسد. والثقافة هي ذلك الدم في جسد المجتمع يغذي حضارته، ويحمل أفكار الصفة، كما يحمل أفكار العامة وكل من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة، والاتجاهات الموحدة، والأذواق المتناسبة.² الثقافة في ضوء هذه المعاني تشمل دوائر ثلاث: دائرة الفرد، ودائرة المجتمع، ودائرة الحضارة، وقد عني "مالك بن نبي" بهذا المفهوم الذي هيمن على مشروعه الفكري وإنتاجه المعرفي. والثقافة هي التي تحدد طرائق التفكير في مجتمع ما ومنهجيته، وتحدد المقاييس الذاتية التي يحكم بها الفرد على الأشياء والأفكار والطبيعة، فضلاً عن توجيه السلوك الاجتماعي للفرد نحو المواقف والقضايا المختلفة، وإجمالاً "إن الثقافة تحدد في الواقع الأصول التربوية الشخصية في الفرد، كما تحدد الأصول التربوية الاجتماعية، أو أسلوب الحياة وطرائقها للمجتمع.

¹-مالك بن نبي: مشكلة الأفكار، مرجع سابق، ص160.

²- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 84-88

2- تحويل المبدأ الثقافي إلى برنامج تربوي: ركز "مالك بن نبي" في بحثه لمفهوم الثقافة الى إيجاد آليات وأدوات قصد تحويل الثقافة إلى مشروع للمعالجة والنهضة الحضارية المتمثلة في تغيير الإنسان الذي هو نواة وغاية التربية الحضارية، وهذا ما حدده عند درس مفهوم الثقافة، بقوله ينبغي علينا أن نتصور تعريفاً للثقافة، لا من زاوية نظرية فحسب؛ بل لابد أن يضاف إليها وجهة النظر العملية والتربوية. ويشير إلى الثقافة بمعناها التربوي باعتبارها ليست علماً خاصاً لطبقة من الشعب دون أخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من دروب التفكير والتنوع الاجتماعي. كم سعى "مالك" - أيضاً - إلى ربط الثقافة وتحققها بترجمتها إلى برنامج تربوي قابل للتحقق الحضاري، ويبدو ذلك واضحاً حين حاول الربط بين مفهوم الثقافة والحضارة، وفي ضوء هذا الربط تصبح الثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة.¹ إن مشكلة الثقافة هي كيفية تحققها في العمل التربوي أو "كبرنامج تربوي"، ومنهجية هذا التحقيق تبدو خطواتها في "اكتشاف التركيب الذي يتم في عالم الأشخاص والفكرة الأساسية في هذا البرنامج التربوي للثقافة هي "التوجيه"، وتحديدًا "توجيه الأفكار" في التفعيل التربوي والاجتماعي للثقافة بما يضمن "قوة في الأساس، وتوافقاً في السير، ووحدة في الهدف... وتجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت لملايين السواعد العاملة، والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية حتى تعمل في أحسن الظروف الزمنية والإنتاجية".² بحيث يهدف مالك من خلال معالجته لمفهوم الثقافة إلى إعادة تأهيل "الإنسان الحضاري" وهو ما يتطلب جهداً بارزاً في ميدان ثقافته والتي تشمل كل ما يحيط به من أفكار، وأنماط سلوك، وأخلاق. ومن ثم فإن منهج إعداد هذا الإنسان الحضاري يتطلب قواعد عامة أو نموذجاً قادراً على التشغيل في برنامج تربوي يُضبط بـ"توجيه أفكاره" لتصب في نهر الحضارة، وهذا المنهج أيضاً ينبغي أن يراعي طاقة الإنسان الحيوية من ناحية تلك التي تحدد نشاطه، وحاجاته الأساسية من ناحية أخرى، والتوافق بين هذين

¹-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص:105

²- نفس المصدر ص:186

الجانبين يحقق الإنسان المتكامل الذي يبدأ به التاريخ "إن التاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية، والذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة بوصفه ممثلاً وشاهدًا.¹ يرى "مالك بن نبي" أن المشكلة التربوية التي نواجهها، هي "أن كل واقع إجتماعي هو في أصله قيمة ثقافية خرجت إلى حيز التنفيذ، فجوهر الأول هو جوهر الأخرى بالضرورة. ولو أننا حللنا واقعًا اجتماعيًا، أعني نشاطًا اجتماعيًا محسًا، فسنجد في وضعه الراهن، أو في اطراد تطوره عناصر أساسية أربعة هي: المنهج الأخلاقي، والذوق الجمالي، والصناعة، والمنطق العملي، وقد ربط الثقافة والتربية بـ"المحيط الحضاري" الذي تلتقي فيه القيم الثقافية بعالم الأشخاص "فالثقافة تنقل أفكار الجمهور الشعبية، وأفكار القادة الفنية، وهذان العنصران هما اللذان يغذيان عبقرية الحضارة² ويحدد "مالك بن نبي" عناصر أساسية للبرنامج التربوي للثقافة وهي تمثل في جوهرها الأسس الفلسفية للنموذج التربوي المشيد، تمتد ما بين بُعد أخلاقي، إلى بُعد جمالي، إلى أسس عملية تصب جميعها في إعادة صياغة الإنسان المسلم المهيأ للفعل الحضاري، وقادر على حمل الرسالة وأدائها، وهذه العناصر الأربعة تستمد منها فلسفة التربية - في النموذج المشيد- مقاصدها (القريبة والبعيدة) وقيمها (المعنوية والمادية) وأنشطتها (الذهنية والعملية)، وتعالج هذه العناصر الأربعة-أيضًا- الاختلالات القيمية والسلوكية لإنسان ما بعد الحضارة، أو الإنسان القابل للاستعمار. أما العناصر الأربعة المشكلة لفلسفة التربية الحضارية في النموذج المشيد فهي:

أ- الأخلاق: وتعني الاتجاه نحو تحديد المثل الأعلى.

ب- الجمال: القيمة الجمالية تساهم في خلق نموذج إنشائي متميز يهب الحياة نسقًا

معينًا، واتجاهًا ثابتًا في التاريخ، بفضل الأذواق والتناسب الجمالي.

¹- الخطيب سليمان. فلسفة الحضارة عند مالك ابن نبي. دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993. ص

²- الخطيب، سليمان. فلسفة الحضارة عند مالك ابن نبي www.youtube.com/watch?v=oFrYgeZYW-A

لقاء حول كتاب فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي الدكتور سليمان الخطيب قناة المجد الفضائية 2009

ج- الصناعة/ العمل الصناعي: ويظهر في تلاقي احتياج الدولة إلى فنيين ورغبة الأفراد في أن يؤديوا وظائف معينة في مجال الفن الصناعي ويتلاقيان في هذه الضرورة العضوية.

د- المنطق العملي: الذي يتقرر كحاجة عاجلة لثقافة "نهضة" تريد أن تحدث تغييراً في "المحيط" حيث تتشكل عبقرية الحضارة وحيث يتطور الإنسان، فالمنطق العملي يكيف صورة النشاط وأسلوبه ونسقه وجميع أشكاله الديناميكية¹

2-3 بناء الوعي التربوي الحضاري: تهدف التربية الحضارية الى إدراك مفهوم "الحضارة" عند مالك بن نبي والذي يبدو على مستويين الأول: المستوى المعرفي معناه ان الحضارة نتاج فكرة جوهرية تطبع على مستوى مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر فهناك الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية والحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ولكل منها طابع مميز لها أعطاهها هذه الصفة (صفة الحضارة) و الثاني: المستوى الوظيفي فالحضارة من الناحية الوظيفية هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفرادها في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه فالحضارة إذن تحدث عند توافق مجموعة من الشروط الأساسية والتي تتمثل في الطاقة الحيوية للفرد وهي الفكرة الجوهرية التي تحدث التحولات التاريخية للمجتمع بالإضافة الى الفكرة الدينية التي تضبط وتوجه الطاقة الحيوية للفرد في اتجاه العمل والنشاط الحضاري للمجتمع وتساهم في تأسيس شبكة العلاقات التي هي ميزان مستوى الحضارة. كما نجد كذلك ان الوعي يساعد إدراك جوهر البناء الحضاري وهنا ينبغي التمييز بين مفهومين هما: البناء والتكديس فالبناء هو الطريق الناجع الذي يؤدي إلى الحضارة أما التكديس فيؤدي إلى الالفاعلية والبناء أحد عوامل نجاح

¹ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 84 وانظر كتاب شروط النهضة ص 105

المجتمعات الغربية أما التكديس فهو دليل العجز للفرد والمجتمع فالحضارة ليست كومة من الأشياء والأفكار ولكنها بناء يعكس عبقرية البلد.¹

إن هذا التمييز بين البناء والتكديس هو انعكاس لحالة المجتمع الإسلامي التي بدأت في حقبة السبعينيات حقبة ظهور البترول والذي اهتم وانشغل فيها عقله باستيراد منتجات الحضارة الغربية ظناً أنه بذلك يقترب من التحضر ويحل لمشكلته إلا أن الحقيقة كانت صادمة لهذا الإنسان الذي افرغ عقله وملاء جيوبه لأن "الحضارة هي التي تصنع منتجاتها وليست المنتجات هي التي تصنعها وعلينا أن نُكوّن حضارة أي أن نبني لا أن نكدس".²

3- شروط التربية الحضارية: من بين الشروط الأساسية التي تهدف إليها التربية الحضارية نجد :

3-1 - إصلاح نظام الأفكار ومناهج التفكير: انطلق "مالك بن نبي" من عالم الأفكار والفكرة كمؤهل للتربية الحضارية ويرد إليهما كل حركة المجتمع وحالته في مستوى الحضارة أو درجاتها لذلك فهو يعول على إصلاح عالم الأفكار كعامل أساسي للبناء الحضاري. إن تنظيم المجتمع وحياته وحركته بل فوضاه وركوده وخموده كل هذه الأمور ذات علاقة وظيفية بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع فإذا ما تغير هذا النظام بطريقة أو بأخرى فإن جميع الخصائص الاجتماعية الأخرى تتغير في الاتجاه نفسه. إن الأفكار تمثل في مجموعها جزءاً مهماً من أدوات التطور في مجتمع معين كما أن مختلف مراحل

¹ -نورة خالد السعد :التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي منظور تربيوي لقضايا الاغبيير في المجتمع المسلم المعاصر ط1

المملكة العربية السعودية الدار السعودية للنشر والتوزيع 1998 ص

² - فوزية بريون: مالك بن نبي، عصره وحياته ونظريته في الحضارة، تصدير، ابو القاسم سعد الله، دار الفكر دمشق، الطبعة

1، الفصل السادس، شروط الإقلاع الحضاري) ص 201-204

تطوره هي في الحقيقة شكل من أشكال تطور حركة الفكر.¹ والأفكار بأنواعها يمكن أن تكون عامل من عوامل النهوض أو عامل النكوص لأن عالم الأشياء داخل المجتمع يستند في تطوره إلى عالم الأفكار. وهذا الذي جعل مالك بن نبي يؤكد أن "الرأسمال الفكري لبلد ما جوهرى وأساسى بالنسبة له بقدر أو أكثر مما هو جوهرى رأسماله بالدينار أو رأسماله بالدولار أو البترول ويؤسس "مالك بن نبي" لمفهوم تربوي مهم هو الرأسمال المعرفى الذى يقوم على تقديم أولوية الأفكار والمعرفة على باقى عناصر النهضة فى المجتمع باعتبارها مقياس لحياة المجتمع وأنها العمود الفقري لباقى العناصر وأنها تمثل معيار صلاحية البرنامج التربوي والنهضوي للمجتمع، كما أن الرأسمال الفكري هو معيار الإبداع فى مؤسسات المجتمع التعليمية والتربوية وغيرها.²

3-2 تأسيس شبكة اجتماعية متماسكة: يرى "مالك بن نبي" ان تأسيس شبكة اجتماعية متماسكة هو الشرط الثانى ضرورى للبناء الحضارى لأنه يتصل بفاعلية الأفكار التى تخضع لشبكة العلاقات الاجتماعية أى أننا لا يمكن أن نتصور عملاً متجانساً من الأشخاص والأفكار والأشياء دون هذه العلاقات الضرورية. وكلما كانت شبكة العلاقات أوثق، كان العمل فعالاً ومؤثراً. ويعتبر "مالك بن نبي" شبكة العلاقات الاجتماعية والثقافية مؤشراً لنمو المجتمع. كما يُعد العامل الدينى من أهم مكونات بناء شبكة العلاقات الثقافية والاجتماعية حيث "تنشأ شبكة العلاقات بفضل العلاقة الروحية بين الإنسان والله، والتي تربط بدورها بين الإنسان وأخيه الإنسان، وميلاد هذه العلاقة يظهر فى صورة القيمة الأخلاقية. وعلى هذا يمكننا أن ننظر من الوجهة التاريخية على أنها حدث، ومن الوجهة الكونية على أنها عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد.³

¹ بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة فى فكر مالك بن نبي، منشورات المجلس - الجزائر 2005 (دراسة حازت على جائزة

اللغة العربية 2004) ص 102

2- نفس المرجع، ص 108

³ -مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، (شبكة العلاقات الاجتماعية) ص 38_39 بالتصريف

3-3 إصلاح مناهج التربية والتعليم: الإصلاح التربوي عند "مالك بن نبي" يتمثل في تهيئة المحيط اللازم أي تهيئة البيئة المناسبة لتربية الإنسان في ضوء مفهوم التربية الاجتماعية الذي يقوم على "تغيير الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شروط الوجود نحو الأحسن دائماً، وكيف يكون شبكة العلاقات التي تتيح أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ. بحيث يرى أن تجديد درس التربوي المعرفي وبعثه في كل جيل وفي كل عصر من الضرورات الحضارية التي لا مفر منها أمام حركة التجديد والبناء، والذي يقوم بهذا الدور الإحيائي والتجديدي هو ما أسماه "مالك" مراكز استقطاب التفكير، والتي تضطلع بدور الإشعاع الفكري والثقافي بما يساهم في تحديد إطار عام وكلي للعقل المسلم في هذا العصر أو ذلك، ينطلق من الرؤية الكلية المستمدة من الوحي والفكر الإسلامي الراشد أي ان لكل جيل مراكز تفكير معينة، تحدد لها ضرورات الحياة وروح العصر، أي الفلسفة العامة التي تسيطر على الأفكار، لا في مستوى النخب المثقفة فحسب؛ بل في مستوى الجماهير فتتكون هكذا نقاط التقاء وتقاطع للتيارات الفكرية التي تعبر عن روح العصر.¹ ولأن المجتمع المسلم اليوم يحتاج و من أي وقت مضى إلى مراكز تربوية فكرية وثقافية تقوم بتشكيل الوعي العام والربط بين نتاجات العقل النخبوي الإصلاحية وبين حركة الأمة المعيشية، وهذا لن يكون إلا بتكوين قاعدة "وعي" تنتشر أفقياً بين جماهير الأمة، وهي ما يمكن أن نسميه بـ"قنوات تشكيل الوعي الحضاري". ويكشف لنا التقرير العربي الثالث للتنمية الثقافية الحالة التوعوية للمواطن العربي في ضوء ثورة الإنترنت والاتصالات "ففي مجال تحميل محتويات رقمية على شبكة الإنترنت قام العرب في العام 2009 بتحميل نحو 43 مليون فيلم وأغنية بينما قاموا بتحميل ربع مليون كتاب فقط احتلت منها كتب الطبخ مركز الصدارة بنسبة 23%. أما في المراكز الأخيرة نجد الأبحاث المتعلقة ب كما بلغت عملية البحث التي قام بها العرب في العام نفسه على شبكة الإنترنت حيث

¹-عاطف، محمد. معوقات النهضة ومقوماتها في فكر مالك ابن نبي، الجزائر، دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2009(عبارة عن مقال)

وجد النسبة المرتفعة من نصيب الفنانين والممثلين بينما تختل أبحاث "نزار قباني" و "زكي نجيب محفوظ" و"محمود درويش" و"مالك بن نبي" أو "محمد عبده" أو الأفغاني "اذيال" الترتيب.¹

3-4- تأصيل العلوم الاجتماعية: يهيمن الدرس المعرفي الغربي في مجال العلوم الاجتماعية على البرنامج التربوي والتعليمي في الجامعات ومؤسسات التعليم في عالمنا الإسلامي في إطار نزعة القابلية للاستعمار التي تكرست لدى النخب الفكرية والثقافية التي آثرت "الأفكار المستوردة" عن "الأفكار الأصلية" وتبدو خطورة هذه الهيمنة للدرس المعرفي الغربي في العلوم الاجتماعية في أنها تتوجه مباشرة إلى قيم الإنسان المسلم وما يتصل بطرق تفكيره ونظامه المعرفي في تجاهل تام للأبعاد القيمية والمعرفية الإسلامية سواء على مستوى المردود الاجتماعي أو المردود العلمي الأكاديمي. لذا انتبه مالك إلى خطورة العلوم الاجتماعية وتأثيرها الممتد على صياغة وتنشئة الإنسان المسلم، ودعى إلى ضرورة اعتبارها محورًا مهمًا في صناعة "الإنسان" الذي هو أهم من صناعة الآلات "إن العناية بالعلوم الأخلاقية والنفسية والاجتماعية تُعدُّ اليوم أكبر ضرورة من العلوم المادية لأنها تعد خطرًا في مجتمع ما زال الناس يجهلون فيه حقيقة أنفسهم ومعرفة إنسان الحضارة وإعداده أشق كثيرًا من صنع محرك"² وقد التفت عدد من أبناء الفكرة الإسلامية إلى خطورة تغريب العلوم الاجتماعية وتأثيرها على بناء الإنسان المسلم وتربيته، فأسسوا في الغرب تيارًا فكريًا يحمل مشروعًا أطلقوا عليه "إسلامية المعرفة" والتي تُعنى في أحد جوانبها ببناء الإطار القيمي والحضاري للفرد والمجتمع، يختص بالفكر والتصور والمحتوى الإنساني القيمي والفلسفي وكيفية بنائه وتركيبه وعلاقاته في العقل والنفس والضمير. وقد حاول هذا المشروع معالجة أمرين منهجيين فيما يتصل بعلوم الإنسان أو العلوم الاجتماعية، الأول: مواجهة الازدواجية

¹ - نفس المرجع السابق

² - د- محمد العبدية : مالك بن نبي: مفكر إجتماعي ورائد إصلاح، منتديات سور الأزيكية، دار القلم الطبيعة 1، دار القلم

دمشق سوريا ص 92

المعرفية في النظام التربوي والعلمي الإسلامي والثاني: إعادة صياغة المفاهيم الخاصة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية من خلال تأسيس نموذج تربوي وعلمي يعتمد على النموذج المعرفي التوحيدي ويستمد منه قيمه وفلسفته¹.

4- مقومات التربية الحضارية عند مالك بن نبي: يحتاج نظامنا إلى بناء فلسفة

تربوية حضارية تركز على مجموعة من المقومات المعرفية أهمها:

1- إعادة النظر (أو تجديده) فيما يتعلق بطبيعة التربية ووظيفتها، على أساس أنها - أي التربية - عملية تستهدف "بناء إنسان الحضارة" أو تهيئ الإنسان لبناء المجتمع الحضاري، باعتباره العنوان الرئيس الذي يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، "فالتربية مشروع يستهدف بناء مجتمع تاريخي من خلال إعداد الإنسان المتحضر الذي يكون نواة هذا المجتمع الذي ينتظر منه أن يسجل حضوره في التاريخ، بما يساهم في ترسيخ معاني التكريم الرباني للجنس البشري وبما يضيفه إلى الحياة البشرية من أبعاد عقديّة وخلقية ترقى هذه الحياة وتركيها وتباركها، ومن ثم تؤهلها للإنجاز الناجح للوظيفة التاريخية التي كلف بها الإنسان من قبل الإرادة الإلهية وبهذا تكون التربية المرجوة تربية حضارية تسعى إلى إنشاء مجتمع الحضارة التاريخي وليس مجرد القيام على تلبية احتياجات الإنسان الضرورية اليومية أو الحياتية الضيقة².

2- مركزية الدين أو الفكرة الدينية في الفلسفة التربوية الحضارية التي تسعى لـ"بناء إنسان الحضارة"، وهذا يعني أن فلسفة التربية ينبغي أن تجمع بين عالمين (الشهود والغيب) في تكامل بينهما، ولا تنجح إلى أحدهما على حساب الآخر وهو ما يؤدي إلى اعتبار الدين (عقيدة ومفاهيم وتصورات ومنهج تفكير) الأساس في تركيب العناصر الجديدة للعملية

¹ - عمرنقيب : مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك ابن نبي التربوي، ص 283

² - على القرشي: التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر ط 1

التربوية وفي مدخلاتها. فالدين هو الفكرة الدافعة الرئيسة لبناء مجتمع الحضارة، وهو صاحب الدفعة في تحقيق العالمية الإسلامية الأولى. ومن ثم فإن مركزيته تستدعي حيوية للفرد والمجتمع، وكان لهذه الفكرة الدينية رصيد تجربة تاريخية ناجحة.¹

3- تكامل المعرفة في مصادرها ووسائلها، فلسفة التربية الحضارية -أيضاً- تركز على فكرة "تكامل المعرفة" في النظر إلى مصادرها أو وسائلها بإدماج الوحي كمصدر رئيس لها مع باقي المصادر النظرية الأخرى. أي أن المعرفة في تصور التربية الحضارية تقوم على الجمع بين المصدر الإلهي (الوحي)، والاجتهادات البشرية (العقل، الحس) وما نتج عنهما من نظريات وعلوم ومعارف مختلفة، مع مراعاة تباين درجات المعرفة، ومعايير النظر إلى كلٍ منهما.²

4- الإنسان محوراً للتربية الحضارية؛ ينبغي أن يكون الإنسان هو المحور الأساس للتربية الحضارية؛ لأنه هو الذي يحرك التاريخ والمجتمع، فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ وإذا سكن المجتمع والتاريخ. وهذا يتطلب شمولية النظرة للإنسان بأن تدور تربيته حول ثلاث دوائر: التزكية والتعليم والحكمة. وذلك "بوصف الإنسان خليفة الله في الأرض والكائن الحي المكلف، صاحب الملكات والموهب والذي سخر الله الكون له، والمؤمن برسالات السماء صاحب الدور الحضاري الخلاق باعتبار أن الهدف الأساسي هو تمكين الإنسان من أن يكون صالحاً، فاضلاً طبقاً لما جاء به الإسلام".³

5- **الرأسمال الفكري** : وهومن إبداعات التربية الحضارية عند "مالك بن نبي" وهو من المقومات الأساسية لفلسفة التربية الحضارية، ويقوم هذا المرتكز على اعتبار أن "الفكرة"

¹ - محمد بغداد باي: التربية والحضارة في منصور مالك بن نبي، مؤسسة عالم الافكار للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر 2007 " ط1 ص 146

² - نفس المرجع السابق ص 153

³ - د الجيلالي بن التهامي مفتاح، فلسفة الانسان عند ابن خلدون، الجامعة العالمية الاسلامية بماليزيا للنشر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ص 187-121

أهم ثروة في المجتمع يمكن أن يتحصل عليها وهذا يعني أن تدعم هذه الفلسفة "قيمة الفكرة" في البناء التربوي للإنسان بما لها من دور في تحقيق الإشعاع الحضاري وهذا يتطلب - أيضًا - تنقية "عالم أفكار" النظام التربوي من كل ما علق به من اختراقات معرفية وثقافية تأصلت فيه، وأن يتم اكتشاف الأفكار الصالحة في تراثنا ومصادرنا الفكرية لتكون سبيلًا للتأهيل التربوي الحضاري.¹

6- الأصالة والذاتية الحضارية، يقوم هذا المرتكز في الفلسفة التربوية الحضارية على معالجة أمرين: أولهما، التخلص من الأفكار المستوردة في النظام التعليمي والتربوي العربي والمسلم، حيث أن هذه الأفكار التي تم استيرادها من النموذج المعرفي الغربي ومحاولة إنباتها في واقعنا منذ عصر التعليم الحديث لم تنتج حضارة، ولم تساهم في حل أزمت المجتمع المسلم الحضارية، وهو ما يعني عدم صلاحية الأفكار المستوردة في فلسفة وبرامج التربية التي تنقل من مجتمع لآخر؛ لأن التربية وأفكارها "بنت بيئتها التي نشأت فيها". وفي نفس الوقت فإن فلسفتنا التربوية في حاجة إلى التخلص من الأفكار القاتلة التي ورثناها من عصور التراجع الحضاري، وهذا يعني العمل على تنقية التراث التربوي مما علق به من شوائب؛ وإبداع "منهجية جديدة للتعامل مع تراثنا التربوي يكون عنوانها "منهجية الاستفادة"، وأن تكون تلك المنهجية قائمة على توظيف التراث بالفكر الواقعي واللازم لحل مشاكلنا التربوية.²

7- **الفعالية:** يأتي هذا المرتكز لمعالجة ما يعاني منه نظامنا التربوي من غلبة "اللفظية" عليه، والتي أصبحت حرفة للعقل العربي، منعتة عن تحقيق واقعًا أفضل له وقادرًا على تحقيق طموحاته، وهذا ما جعل "الحفظ والاستظهار" جوهر العملية التربوية في عالمنا العربي والإسلامي؛ فغابت معها الفعالية، ولهذا يجب أن تتحلي فلسفة التربية الحضارية بمبدأ

¹ - عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، (نحو مسار البناء الجديد) الجزء الثاني، دار الفكر - دمشق، ط الأولى، ص 1141'

² - المرجع السابق نفسه، ص 1261

"الفعالية"، حيث يربط المتعلم بين ما يتعلمه وبين واقعه أي أن يكون للتعليم مردودًا اجتماعيًا وقيميًا وحضاريًا وأن تكون أهدافه تعالج مشكلاته الحضارية الحقيقية لا مشكلات حضارة أخرى، وأن تراعى إمكاناته واحتياجاته وأهدافه هو، لا إمكانات واحتياجات وأهداف حضارة أخرى.¹

8- التغيير الذاتي: المبدأ التغييرى للتربية الحضارية هو "التغيير الذاتي" إستنادًا إلى النهج القرآني ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ {الرعد:11} ذلك لأن العامل النفسي هو الأساس في "التغيير" الذى هو هدف التربية والتعلم بالأساس، وأن العامل النفسي هو الأساس-أيضًا- في الانتقال إلى مجتمع متحضر أو مجتمع الحضارة. وهذا يتطلب من النظام التعليمي تهيئة المناخ المعنوي والمادي من أجل تحقيق هذا النمط من التغيير الذي يعد الخطوة الأولى نحو أي إصلاح مطلوب سواء على المستوى الفردي أو الجماعي أو الحضاري.²

5- دور المجتمع المتحضر في بناء وارساء المنظومة التربوية:

في هذا السياق، يؤكد "مالك بن نبي" أنه "لكي يمكن بناء نظام تربوي اجتماعي ينبغي أن تكون لدينا فكرة جد واضحة عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية في مستوى الفرد و في مستوى المجتمع"³ وهذه الفكرة ينبغي أن تشرح بجلاء و وضوح طبيعة المنهج التربوي الذي سوف يستخدم لإعداد الإنسان والآليات المستخدمة لبلوغ أهداف هذا المشروع وهكذا يتبين لنا أن "مالك بن نبي" يرى لزاما على أية محاولة للبناء أو إعادة بناء مجتمع ما بعد الاستقلال، أن تنطلق من هذه النقطة بالذات أي أن بناء المجتمع التاريخي ينطلق من صياغة فلسفة تربوية واضحة يتجلى من خلالها خصائص النموذج

¹ -الفعالية في فكر مالك بن نبي وعلاقتها بالثقافة والحضارة"، عواطف الصقري، (2014)، المجلة التربوية الكويت، مج 28، ص 110

² -بشير قلاتي، هكذا تكلم مالك بن نبي، ص 174

1- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، 65،

التربوي المنشود لكل من الفرد و المجتمع. و من هنا يبرز بقوة موقع التربية في منظور "مالك بن نبي" لتناول مشكلات الإنسان و المجتمع و الحضارة في العالم الإسلامي.¹ أما بالنسبة إلى أمثلة النماذج التربوية المعاصرة المعتمدة في بعض الأنظمة التربوية العالمية فيمكن الإشارة إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر. نشير إلى أن الهدف من استعراضها التأكيد على أهمية وضوح الرؤية المتعلقة بالنموذج التربوي المنشود، و أثر ذلك على الأداء التربوي للقائمين على إنجاز المشروع التربوي من أجل تحقيق أهدافه التربوية الكبرى² فالولايات المتحدة الأمريكية مثلاً في عام 1991 و في عهد بوش الأب نشر مشروع "أمريكا عام 2000- إستراتيجية للتعليم" تضمن الأهداف الأساسية التي يسعى إلى تحقيقها نظام التعليم الأمريكي و منها "أن يحتل الطالب الأمريكي المرتبة الأولى عالمياً في مادتي العلوم و الرياضيات"، كما تضمنت أن لا يكون هناك طفل واحد أو مواطن عادي خارج نظام التعليم الأمريكي أدركت الولايات المتحدة أن صناعة الإنسان الأكبر للفوز بالريادة العالمية و أنها قد لا تستطيع الاحتفاظ بتلك الريادة ما لم ترتق بنظامها التعليمي ليتفوق، و أرسلت واشنطن خبراءها التربويين ليدرسوا كل التجارب المتقدمة التي حققت نجاحاً استثنائياً و خصوصاً في اليابان و كوريا الجنوبية، وأما فنلندا، فباعتبارها مجتمعاً متحضراً، فإن فنلندا بلاد مبنية على أسس المعرفة و الإبداع و القيم. والهدف الذي نسعى إليه هو بناء حضارة أين يمكن لكل فرد أن يتمتع فيها بحقه في النمو المتكامل وفقاً لمؤهلاته و استعداداته باعتباره شخصاً، و يساهم من ثم في تنمية المجتمع باعتباره مواطناً، و ترقية كفاءاته المهنية استجابة للتغيير المستمر. و أما ماليزيا فإنها تلخص النموذج التربوي المنشود في تحدي "إقامة مجتمع قائم على العلم و التقدم، مجتمع مبدع يتمتع فيه الإنسان الماليزي ببعد النظر بشكل لا يجعله مجرد مستهلك لمنتجات حضارة التكنولوجيا بقدر ما يؤهله للمساهمة في

¹-تقيييم، مشروع التقويم التربوي و إشكالية النموذج التربوي المنشود، الملتقى الدولي حول إسهامات أعمال التقييم في تطوير المنظومة التربوية . المعهد الوطني للبحث في التربية، وزارة التربية الوطنية، العاشور، الجزائر 2012، ص "325

²-نفس المرجع السابق ص "329

بنائها¹ كما نجد الأمر مناسباً في هذا المقام للتذكير بالعواقب الخطيرة التي تمخض عنها غياب الوضوح في سياسة بناء مجتمع ما بعد الاستقلال في الجزائر، و بشكل خاص السياسة التربوية المتعلقة بصياغة النموذج التربوي المنشود لكل من الفرد و المجتمع بناء على الخصوصيات الثقافية للمجتمع الجزائري. ولعل من أفضل من يقربنا من الفهم الصحيح لهذه القضية أحمد عروة² رحمه الله و هو يشرح لنا في كتابه المرسوم " الإسلام في مفترق الطرق" الذي ترجم إلى أكثر من اثنين وعشرين لغة كيف تمت الانطلاقة بعد الاستقلال فقد ركز على أهمية المرجعية و وضوحها في ضمان البناء السليم لمجتمع ما بعد الاستقلال و أن غيابها كان من أهم أسباب الفشل في محاولات البناء. ومن بين ما جاء في كتابه قوله تعليقا عما جرى في مؤتمر جبهة التحرير الوطني الذي توج بما عرف في ذلك الوقت بميثاق الجزائر سنة 1964 م أنه "إذا كان من اللازم لنا أن نستخلص من جو هذا المؤتمر دروسا يتحتم علينا أولا أن نتذكر افتقاره إلى فلسفة أساسية تعبر عن نوعية ميولنا الثورية توضح لما ما يسمى "بالاشتراكية" في اتجاهها السياسي و معناها و بنيانها و حدودها و دون التصدي لتعريفها إطلاقا غير أن اللبس مصدر للاختلاف والفراغ يهيح إمبرياليات من كل نوع وتحاول إيديولوجيات من كل صوب أن تتسلل إلى مستقبلنا مستغلة وجود النقص لدينا، و هكذا يظهر من خلال هذه الشهادة أن الأزمة كانت مطروحة منذ الأيام الأولى للاستقلال على مستويين على أما المستوى الأول فمشكلة الاختيار الإيديولوجي الذي من المفروض أن تتم على أساسه صياغة الفلسفة التربوية العامة لمجتمع جزائري مسلم خرج لتوه من عهد استعمار استيطاني دام أكثر من قرن من الزمان و استخدم أبشع مخططات التدمير و الهدم فالاختبار الإيديولوجي الذي تم تبنيه في ذلك الوقت لم يكن بفعل قناعة مبدئية تمت دراستها

¹-المرجع نفسه ص 268-245

²-الدكتور أحمد عروة(1926 - 1992) ، هو طبيب، كاتب، باحث، وشاعر، ناضل قبل الثورة وأثناءها في عدة منظمات وطنية، وبعد استرجاع السيادة الوطنية تقلد عدة مناصب، كان آخرها تعيينه عميدا على رأس جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية سنة 1989م، حتى وافته المنية يوم الخميس 27 فيفري 1992. [1]

من أجل تحقيق طموحات شعب منهك من حرب مدمرة بما فيها قضية اللغة و الهوية والتاريخ.¹ و انطلاقا من غياب منظومة إيديولوجية محددة المعالم في مجال تربية الإنسان الجزائري و إعداده للمساهمة في إعادة بناء مجتمع ما بعد الاستقلال، كان من الطبيعي جدا أن تتم صياغة منظومة تربوية لم تكن نعلم -نحن أجيال الاستقلال أيام أن كنا أطفالا- أننا سوف نحصد آثارها السلبية بعد أكثر من أربعة عقود من الزمان، أزمة متعددة الأبعاد وطاقات معطلة إن لم تكن مهدورة و ثروات طائلة لنصبح بعد ذلك من أكثر بلدان العالم تخلفا على الرغم من تخصيص وزارة بأكملها تسمى بوزارة الشباب والرياضة، التي من المفروض تهتم ببناء الشباب و مستقبل البلاد .والغريب في الامر ان الأغلبية العظمى -في مؤتمر جبهة التحرير الوطني سنة 1964- كانت واعية بالفراغ الإيديولوجي،وعلى الرغم من مرور أكثر من عقد من الزمان على الانطلاقة، فإن إهمال العنصر البشري بقي كما كان عليه، إذ نجد مثلا أن وثيقة النشرة الرسمية للتربية الوطنية الصادرة في سنة 1976 قد جاء فيها التركيز على التنمية الاقتصادية من خلال ضمان القاعدة المادية على حساب بناء العنصر البشري الذي هو الأصل الذي ينبغي أن تندرج حوله كل المشاريع لكونه الهدف والأداة في آن واحد . فقد جاء فيها ما نصه: " و لكن الظروف قد اقتضت أن تكون الأولوية لاستكمال التحرير الوطني بتأمين قاعدة مادية قوية للبلاد.

لم يكن جهاز التربية و التكوين بمعزل عن هذه الحركة التحويلية الكبرى، إذ شرع في تكييفه تدريجيا حسب حاجات المجتمع و متطلبات التنمية الاقتصادية و الأهداف المحددة لها و التي تتمثل في الديمقراطية والتعريب و الاتجاه نحو العلوم والتكنولوجيا وإلا فكيف يمكن لمجتمع أن ينطلق في بناء نفسه و قد خرج من عهد احتلال استيطاني همه طمس الوجود التاريخي للشخصية الجزائرية من خلال الإخضاع القسري للإنسان الجزائري لثلاثية الموت الحضاري الشهيرة : التجهيل و الفرنسة و التنصير،فهل يكون من الطبيعي

¹-مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد،34

البدا بالاهتمام بالقاعدة المادية للبلاد وحدها، على الرغم من أهمية هذه القاعدة في البناء الوطني، دون تأهيل الإنسان الذي سوف يضطلع بمهمة البناء ذاته و من ثم المحافظة عليه.¹ غير أن الأصل هو أن يكون الاهتمام المركزي بالعامل البشري الذي يتكفل بضمان البناء السليم لهذه القاعدة و المؤهل للمحافظة عللا منجزاتها، و إلا فإن التجربة في بلادنا قد بينت لنا بما لا يدع مجالا للشك أن أس مشروع لبناء مجتمع يطمح غلى المساهمة في صناعة التاريخ ليس له إلا أن يبدأ بتأهيل الإنسان باعتباره الأصل الذي ينطلق منه المشروع و إليه يرجع في النهاية.² ولعل الالتفات التي وصلت إليه الأوضاع الاقتصادية، و غيرها، في بلادنا يساعدنا على فهم هذه الحقيقة التاريخية المطردة باعتبار أن مراعاة العامل البشري في مجال البناء الحضاري لأمة من الأمم إنما هو سنة كونية لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاوزها أو المرور عليها دون إعطائها الاهتمام الذي تستحقه. وإلا فلم بدأت تظهر عيوب وعورات المشروع الاقتصادي في أواسط الثمانينات من القرن الماضي بمجرد ظهور ما عرف بأزمة أسعار البترول هذا، إن كان يدل على شيء فإنما يدل على ضعف البناء الاقتصادي للبلاد و من قبله عدم إعداد الإنسان الجزائري تربويا ليكون مؤهلا للاستغناء عن عائدات البترول بابتكار بدائل أخرى يمكن أن نلجأ إليها في أيام الأزمات، بدائل تعتمد على التوظيف الإيجابي لكل من العقل و اليد و القلب في إطار مشروع نهضوي شامل، هذه البدائل يفترض أنها ترسخ في نفسية الإنسان الجزائري خلق الاعتماد على النفس و الانتقال من عقلية التسول إلى عقلية الاسترزاق من عمل اليد، ومن الانتظار إلى المبادرة، و من لغة الأخذ إلى أدب العطاء. و بعبارة أخرى غياب مشروع متكامل لبناء مجتمع ما بعد الاستقلال و أساسه في كل ذلك صياغة منظومة تربوية متكاملة تجمع بين ترسيخ الانتماء العقائدي والامتداد التاريخي للمجتمع الجزائري و ضمان التواصل التاريخي بين أجياله المتعاقبة

¹- الطاهر سعود: التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، دار الهدى، الطبعة 1، 2006، ص 239-

²- المرجع نفسه: ص 226 - 238

وغرس الوعي البصير بالوظيفة التاريخية لهذه الأمة في ضمائر تلك الأجيال مع التفتح نحو التجارب البشرية في التاريخ القديمة منها و الحديثة . لان بدون الشروط السابقة فاننا لانحقق اي نتيجة، فمن خلال استقراءنا للواقع المعيش نلاحظ أنه على الرغم من العدد الهائل من المتخرجين من الجامعات والمعاهد وغيرها من مؤسسات التعليم والتكوين العالين المختلفة فإن التسرب والرسوب والأمية والبطالة والتسكع والهجرة بنوعيتها والجنوح والانحراف والمخدرات بأنواعها، والانتحار والجرائم الفردية والمنظمة أصبحت هي الغذاء اليومي للشباب الجزائري¹ ومن هنا، فإن الغموض الذي ساد الانطلاقة الكبرى لإعادة بناء مجتمع ما بعد الاستقلال قد تمخض عن هذا النوع من الأزمات المتداخلة و التي لم تستثن أحدا و من هنا، يمكن للملاحظ أن يشكل رؤية واضحة عن آثار غياب الإطار المرجعي الذي يبين للمجتمع وظيفته في التاريخ، بل غياب وضوح هذا الإطار إن وجد، و أن أي مشروع لابد له من ضمانات النجاح المتمثلة في التناغم بين كل من مقتضيات الانتماء العقائدي للمجتمع ومطالب الواقع المتغير. إذا خلا هذا المشروع من إطار مرجعي يوضح للإنسان الرؤية ويحدد له الأفق و يضع له نقطة البداية لينطلق منها ونقطة النهاية التي يصوب جهود نحوها ليشعره بوجوده و بقيمة وجوده، فمعنى ذلك أن مشروع يحمل بذور فشله في ذاته. أليس واقعنا المتأزم الذي أوصلنا إلى طريق مسدود خير مؤشر على ذلك²؟

المبحث الثاني: مدى فعالية المعادلة الحضارية والنظرية التربوية لمالك بن نبي

في القرن الحادي والعشرون:

يقترن عصر العولمة بتحديات كبيرة على مستوى إقرار التعددية والاختلاف وتدبير التنوع الثقافي، بخاصة مع عودة الثقافي إلى ساحة الفعل السياسي في سياق صارت فيه للسياسة مكانة مركزية في عالم ما بعد الحرب الباردة، إذ جنحت العولمة إلى تعميم كثير

²-مالك بن نبي : المسلم في عالم الاقتصاد، ص 47-42

من القيم والممارسات والتعبيرات الثقافية، فكان الاحتماء بالخصوصية الثقافية و"الهوية الحضارية" من معالم ردّ الفعل في كثير من البلدان العربية والغربية وغيرها. هكذا أثرت العولمة في الثقافة و في رسم الكثير من السياسات الوطنية والإقليمية والدولية وأصبح التنوع والتعددية من أهم سمات المجتمعات المعاصرة الأمر الذي استوجب إعادة صياغة تشريعات وسياسات ثقافية تربوية تراعي التنوع الحضاري وتسعى إلى إقرار حقوق الأقليات الدينية والثقافية . غير أن هذا المسار لا يخلو من تعقيدات وإنكاسات إذ تشير بعض الدراسات إلى أن صراعاً من أصل كل ثلاثة صراعات يشهدها عالم اليوم يعود إلى مسببات "حضارية تربوية" أو "دينية".

1- نظرية مالك بن نبي في التربية الحضارية ورهانات العصر المعاصر

Pierre Bourdieu كـنموذج في النقد التربوي:

لقد احتلت أعمال Pierre Bourdieu مكانة متميزة في علم الاجتماع، حيث أخذ موقفه من الصراع العام بمقارنته للنظام التعليمي، كـمجال مرتبط بالنظام الاجتماعي ككل. و هكذا يمكن اعتبار كتاب " معاودة الإنتاج " كـمحاولة لإقامة و تأسيس نظرية للنظام التعليمي بالرغم من أنه ليس برجل تربوية، ولكن يتخذ الميدان التربوي كموضوع لدراسته، واهتمامه يتمحور أساساً على دراسة العلاقات المتبادلة بين العمليات التربوية الجارية في المجتمع و بين النظام التعليمي المرتبط بتشكيلة اجتماعية معينة، ضمن بحوث ميدانية و تطبيقية من خلال تحليله لبعض الجامعات و المدارس العليا التي تسير العصر المعاصر¹. اهتم بيير بورديو على الخصوص بدراسة النظام التعليمي من الداخل عن طريق التركيز على دراسة المسارات التي تجري داخل النظام التعليمي والأولويات البيداغوجية الانتقائية من خلال تصورات ومفاهيم حول الأبتوس وأطروحاته حول إعادة الإنتاج. ويمكن تعريف الأبتوس على

¹-- Pierre Bourdieu et Jean Claude Passeron, la reproduction, éléments pour une théorie du système d'enseignement, édition de minuit, 1980, p 25

أنه نسق من الاستعدادات المكتسبة التي تحدد سلوك الفرد ونظرته إلى نفسه وإلى العالم الذي يكتنفه، وهو أشبه ما يكون بطبع الفرد أو بالعقلية التي تسود في الجماعة لتشكل منطق رؤيتها للكون والعالم. ويتوسط الأبتوس العلاقات الموضوعية والسلوكيات الفردية باعتباره مجموعة من الاستعدادات المكتسبة « بين نسق الضوابط الموضوعية ونسق التصرفات القابلة للملاحظة المباشرة يتدخل دائما طرف آخر كوسيط، ألا وهو الأبتوس مركز الالتقاء الهندسي للحثيات وتحديد الاحتمالات والخطوط المعيشة، للمستقبل الموضوعي والمشروع الذاتي الطابع ¹».

فمفهوم الأبتوس يفسر لنا كيف أن عمليات التعلم الاجتماعي تكون وتقل نماذج الإدراك والسلوك عند العملاء الاجتماعيين، ويساهم في ذلك وبشكل جلي الأنساق التربوية. فالأشخاص إذا ما وجدوا في ظروف اجتماعية مختلفة فإنهم سوف يكتسبون تبعا لذلك استعدادات مختلفة، و ذلك حسب وضعهم التاريخي و موقعهم في نسق اجتماعي معين، حيث يؤكد بورديو في هذا السياق أن أبتوسات أفراد ينتمون لنفس الطبقة تبقى أكثر تشابها من أفراد طبقة أخرى، لأن ممارسات الأفراد تؤطرها مجموعة من الشروط الموضوعية خارجة عن إرادتهم ووعيهم. وإستعمال مفهوم الأبتوس هو دعوة إلى التقريب بين الحتمية الاجتماعية من جهة و بين الفردانية من جهة أخرى، إذ يجمع بين البنيات الموضوعية و الذاتية، و يسعى إلى كشف ما هو خارجي فيما هو داخلي، باعتبار البنيات الداخلية والبنيات الاجتماعية الخارجية صورتان لحقيقة واحدة لتاريخ مشترك ذلك التاريخ المنقوش في الذات و في الأشياء. و مقولة الأبتوس تضمنت أيضا عنصرا جديدا من أشكال إعادة الإنتاج الاجتماعي. حيث عمل بيير بورديو من خلال تحليله السوسيولوجي إلى الوصول إلى مبدأ أساسي هو التفاوت في النجاح الدراسي للأطفال المنحدرين من طبقات اجتماعية مختلفة، فالأصل الاجتماعي يعتبر المميز الأساسي الذي يتحكم في النجاح المدرسي. فبخصوص

¹ - نفس المرجع السابق، ص 27

الرأسمال اللساني مثلا نلاحظ عدم تكافؤ بين أفراد الطبقات العليا والدنيا مما يزيد من حظوظ أفراد الطبقات العليا في النجاح الدراسي وهنا يقول بورديو أن: (التوزيع اللامتكافئ للرأسمال اللساني ذو المردودية النسبية بين مختلف الطبقات الاجتماعية يشكل إحدى التوسطات الخفية والتي تتأسس خلالها العلاقة بين الأصل الاجتماعي والنجاح المدرسي).¹ فالمدرسة حسب بورديو يجب أن تهميش لغة الطبقات الشعبية التي لا تتوافق مع لغة المدرسة، ووحده الانتقاء الذي يأخذ بعين الاعتبار الفروقات الفردية في اللغة وفق الأصل الاجتماعي يمكن من توضيح المتغيرات المرتبطة بالقدرات اللسانية بدلالة الطبقة الاجتماعية الأصلية وخصوصا العلاقة بين الرأسمال الثقافي الموروث و درجة النجاح. و يضيف بورديو إلى هذا شيئا أساسيا ينبغي أخذه بعين الاعتبار هو أن الأصل الاجتماعي لا يتحكم بكيفية آلية في النجاح المدرسي، لأن اللغة الملقنة تأخذ معناها الكامل من الوضعية البيداغوجية مع فضاءها الاجتماعي و العاداتي و الزماني.² من خلال هذا المثال حول الرأسمال الثقافي تتضح لنا آراء بورديو حول النظام التربوي والسلطة الرمزية التي يفرضها هذا الأخير، وتتحدد السلطة الرمزية بوصفها سلطة لبناء الواقع، ووجودها يتحدد كبنية رمزية ذات وظيفة معرفية هي فرض السيادة و إعطاؤها صفة المشروعية لضمان هيمنة الطبقة المسيطرة في المجتمع، و العنف الرمزي لا يمارس داخل الهيكل السياسي فحسب، بل يصيب البنية الاجتماعية بشتى مجالاتها و حقولها، فعند تشريع نظام معين فإنه يمثل ممارسة موضوعية للعنف الرمزي، فالنظام التربوي يجب أن يحافظ على النفوذ الثقافي للطبقة المهيمنة حيث يقصي الطبقة الاجتماعية الدنيا ويضفي المشروعية على الثقافة المسيطرة. فالتربية المدرسية تعتبر بمثابة عنف رمزي لأنها تفرض ثقافة الطبقات المهيمنة وترسخ شرعيتها لإعادة إنتاج النظام القائم فالتربية لا تنتج عن المجتمع ككل والثقافة ليست واحدة و موحدة بل هناك ثقافات متعددة و

¹ – Pierre Bourdieu et Jean Claude Passeron, la reproduction, éléments pour une théorie du système d'enseignement, p 144.

² – نفس المرجع السابق ص 128

متصارعة بتعدد القوى الاجتماعية الموجودة في المجتمع لأن المجتمعات الحديثة مجتمعات طبقية، فإذا كانت النظريات التقليدية، تفصل الإنتاج الثقافي من وظيفته التي تتجلى في إعادة الإنتاج الاجتماعي كما نجده عند "دوركايم" الذي يرى أن الثقافة موحدة في المجتمع إذ يماثل بين وضع الثقافة في المجتمعات التقليدية والمجتمعات الحديثة، فالرأسمال الثقافي عادة في المجتمعات التقليدية يكون غير منقسم إذ يمثل ملكية مشتركة بين أعضاء القبيلة وفي المجتمعات الحديثة نجد انقسامًا ثقافيًا باعتبارها مجتمعات طبقية بحيث نجد داخل المجتمع الواحد ثقافات متعددة وبعدها تقوم المدرسة بعملية انتقاء ثقافة بنية اجتماعية معينة، وغالبًا ما تكون ثقافة الطبقة المهيمنة لتكرس الاستغلال و السلطة التعسفية لهذه الطبقة داخل الحقل التربوي، وتصبح الثقافة المدرسية بذلك أقرب إلى ثقافة النخبة ليتمكن أبناء الطبقات البرجوازية من الاستفادة من المواد المقررة لأن رأسمالهم الثقافي يجعلهم متفوقين داخل المدرسة على أبناء الطبقات الدنيا. وفي هذا المعنى يقول (التلاميذ المنحدرون من أصول بورجوازية يدرسون الآداب القديمة ولغاتها منذ المرحلة الثانوية بالإضافة إلى أن وسطهم العائلي يمكنهم من إتقان اللغة وامتلاك استعدادات و عادات ثقافية و مهارات فكرية و شخصية مشروطة اجتماعيًا تجعلهم أكثر استعدادًا للتفوق المدرسي إضافة إلى الدور الذي تلعبه شروط الحياة الداخلية كالمسكن والملبس ووسائل الترفيه والإمكانات المادية من الرفع من مستوى التفوق)¹. أما المتعلمون المنحدرون من الطبقات الدنيا فإنهم يبحثون عن دراسات مختلفة خارج نطاق البرامج الدراسية لأن أطفال البرجوازية الصغيرة فهم مولعون بالقيم المدرسية في حين يتميز أعضاء الطبقات الوسطى عن الطبقات الدنيا بمعرفتهم الواسعة بالثقافة كل هذه الأشياء تتركس عنفا رمزيًا أما وظيفة التربية بالنسبة إليه فقد .تتجلى وظيفة المدرسة في ترسيخ ثقافة فئات الطبقة المهيمنة على شكل أبتوس مستنسخ يجسد التعسف القانوني و يضمن إعادة إنتاجه و لا يتوقف "بورديو" عند هذا الحد حيث يرى أن

¹ - بيار بورديو وجون كلود باسرون، إعادة الإنتاج، في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ترجمة، الدكتور ماهر تريمس، توزيع : مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ص 190

نجاح أي تربية مدرسية و بصورة عامة نجاح كل عمل بيداغوجي ثانوي يتوقف أساسا على التربية الأولية التي تسبقه و خاصة حينما ترفض المدرسة هذه الأولية في إيديولوجيتها وممارستها وذلك بجعل التاريخ المدرسي تاريخا بدون تاريخ قبلي فالنظام المدرسي لا يمكنه النجاح إلا إذا كان هناك تعسف ثقافي في الأسرة كذلك أي في الجماعة الأولية للفرد حيث أنه كلما وجد توافق بين العمل البيداغوجي داخل الفصل والعمل البيداغوجي داخل الأسرة كلما كانت عملية إعادة إنتاج نفس النسق سهلة. إن قوة التعسف الذي تمارسه الطبقات السائدة اليوم تضطر الطبقات المسحوقة إلى الاستسلام لما فرض عليها، و بالتالي شرعية التعسف الثقافي، و كنتيجة لذلك اعتبار أن ثقافتهم غير شرعية لذا يجب عدم التفكير فيها و التمسك بما هو أرقى وأضمن ألا وهو الثقافة السائدة. و بهذا يمكن أن نفهم محاولة الفئات المسحوقة في أن تنجح في السلم التعليمي و أن تعيد تربية ذاتها طبقا لثقافة الاستبداد و بالتالي أن تكس ما أمكن من " الرأسمال الثقافي " المشروع.

ويعتبر هذا منطقيًا في الوقت الذي ترتبط أنواع الثقافة بقوانين السوق فالثقافة الناتجة عن الأعمال التربوية وعبرها عن التعسف الثقافي تعتبر رأسمالًا ثقافيًا معترفًا به وتعطى له قيمة اقتصادية و رمزية أعلى خصوصًا في سوق العمل هكذا يمكن أن نقول أنه لا بد أن نعترف أن هناك ضغطًا بمنتهى القوة يدفع باتجاه معاودة إنتاج " التعسف الثقافي " الذي يتمتع بأعلى قيمة بصفته رأسمالًا ثقافيًا وهكذا تحافظ هذه المعاودة على نظام معين و تصونه هو النظام الذي تجد فيه الصفوة أن من أسهل الأمور عليها إعطاء نفسها صفة الديمومة¹، وإمام تحديات الإنسان لرهانات العصر المعاصر وما أفرزته من تطورات في شتى مجالات الحياة بما فيها التربية التي هي بمثابة العمود الفقري لأي مجتمع، فإنه تتضح لنا روية أن هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها والتي تتمثل في وجود عنفا تمارسه المؤسسة المدرسية من خلال ترسيخها للتعسف الثقافي و فرضتها التكنولوجيا والمعاصرة المطابقة لترتيب الطبقات

¹ -- بيار بورديو وجون كلود باسرون، إعادة الإنتاج، في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ص 186

الاجتماعية و بالتالي اعادة إنتاج التنظيم الاجتماعي القائم. ويلعب الرأسمال الثقافي دورا حاسما في عمليتي تحديد و إعادة إنتاج الواقع و الأدوار الاجتماعية. ففي التربية المعاصرة فان الأصل الاجتماعي أهم عامل في التمييز، إذ أن العوامل الثقافية أكثر فاعلية من أي عامل آخر، و عموما يرى فلاسفة العصر المعاصر أن الأهداف الضمنية للمدرسة تخدم التكامل بينها و بين الطبقة المسيطرة مما يجعل أبناء هذه الأخيرة أطفالا ناجحين دراسيا أما أبناء الطبقة الدنيا فيكون مصيرهم هو الفشل وذلك بسبب انعدام التكامل بين النظام المدرسي و الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها.¹ فمن الجانب التربوي الى زاوية الجانب الحضاري الحضاري حيث يمكننا ان نستخلص كذلك ان معادلة مالك بن نبي الحضارية يصعب علينا تطبيقها في العصر المعاصر بالخصوص مع التحولات الكبرى التي شهدتها العالم اليوم بالخصوص مع ظهور العولمة حيث برز للعلن حب السيطرة وفرض الهيمنة الذي يمكن لنا ادراجه ضمن مشروع صدام الحضارات الذي أخرجه صموئيل هنتنغتون (1927- 2008) إلى العفن بعد نهاية الحرب الباردة ورفض العالم للأيديولوجية الشيوعية وبروز الولايات المتحدة كقوة وحيدة كان من نتائج ذلك انتفاء الأسباب الأيديولوجية في تعاون الدول وتحالفها في الصراعات المقبلة وعليه فإن الصراع في عصر ما بعد الأيديولوجية سيستدعي الثقافة (التي هي من الركائز الأساسية التي تقوم او تبني عليها الحضارة) والدين (الذي يعتبر من بين القواعد الأساسية التي تقوم عليها التربية) كمنطلق لإقامة التحالفات، ومبرر للنزاعات، بحيث ستكون المجابهة المقبلة، في العالم هي مجابهة حضارية وليست استعمارية

¹ - نفس المرجع السابق، ص 271

و"يرسامويل هنتجتون" في¹ Samuel Phillips Huntington كتابه (صراع الحضارات) أنّ الصّراعات التي نشأت بعد الحرب الباردة عبارة عن صراعاتٍ حضاريّة ذات أسباب ثقافيّة ودينيّة وليست صراعاتٍ قوميّة ذات عواملٍ سياسيّة أو أيديولوجية أو حتى اقتصاديّة مثلما اشار اليها الفلاسفة من قبل ومن أهمّ القضايا التي تحدّث عنها هنتجتون تغيّر السياسة الدوليّة لتصبح ذات أقطابٍ وحضاراتٍ متعدّدة فالحدّثة على حدّ قوله ليست المنتج للحضارة العالميّة (بالفرنسيّة) (Civilisation Universelle) كما كان يعتقد أصحاب نظريّة الحدّثة؛ فهو يرى أنّ الحضارات الآسيويّة أصبحت ذات قوّة أكبر في مختلف المجالات الاقتصاديّة والسياسيّة وكذلك العسكريّة وقد قدّم هنتجتون مجموعة من الإحصاءات التي تُظهر تناقُص الأوروبيّين بالنسبة للعدد الإجماليّ لسكّان العالم وفي المقابل تزايد عدد الآسيويّين والمسلمين وبحسب رأي هنتجتون فإنّ العالم سوف يقسم إلى خمس حضارات بعدما كان يقسم على اساس القارات بحيث نجد حضارة الغرب: تضمّ هذه الحضارة أمريكا الشماليّة وأوروبا الغربيّة وقد تشكّلت من امتداد المسيحيّة واعتمدت على العلمانيّة بشكلٍ أساسيّ الحضارة الأرثوذكسية تضمّ هذه الحضارة العالم الروسيّ وأوروبا الشرقيّة وقد ظهرت في هذه الحضارة سيطرة الكنيسة الأرثوذكسيّة. الحضارة الهندوسيّة وتضمّ هذه الحضارة الهند وبعض الدّول القريبة منها. الحضارة البوذيّة الكونفوشيوسيّة: تضمّ هذه الحضارة الصّين ومن يعيشون في الشّتات منهم الحضارة الإسلاميّة: وتضمّ هذه الحضارة جميع البلاد التي يدين أفرادها بدين الإسلام.² وأما هذا الاجتياح المذهل للعولمة التي عصفت بكل الميادين والمجالات ونظرا لخطورتها وانعكاساتها على الشعوب والأمم وبالخصوص الضعيفة منها نجد الفيلسوف الفرنسي "روجي غارودي" قد كرس مشروعه

¹ - سامويل فيليبس هنتجتون (Samuel Phillips Huntington): 1927-2008_ هو عالم وسياسي أميركي، وبروفسور في جامعة هارفارد عمل في عدة مجالات فرعية منبثقة من العلوم السياسية والأعمال، تصفه جامعة هارفارد بمعلم جيل من العلماء في مجالات متباينة على نطاق واسع، وأحد أكثر علماء السياسة تأثيراً في النصف الثاني من القرن العشرين.

² - سامويل هنتجتون، صدام الحضارات (إعادة صنع النظام العالمي) ترجمة طلعت الثابت، الطبعة الثانية، سنة 1999 (الميزان المتغير للحضارات) ص 145

مشروعه الفكري في التغيير الحضاري لان الامر اصبح مطلبا حتميا استعجاليا لوقف الانحلال و التفسخ الحضاري ونادي بضرورة التغيير الحضاري الذي يقصد به حولة استبدال نموذج حضاري معين بنموذج حضاري آخر يمثل بديلا له،معناه محاولة القيام بانقلاب حضاري يسمى الأسس البنيوية لحضارة ما أو لنموذج حضاري مثلما هو الحال لدي الحضارات العربية التي فشلت وسائل تحضرها فلم تعد تسير العصر.¹ لان المعادلة الحضارية لتي رسمها لنا "مالك بن نبي" التي هي :

الانسان والتراب و الوقت فقدت فعاليتها مع مطلع القرن الحادي والعشرين ولا يمكن لنا اسقاطها على أرض الواقع أمام تحديات العصر الحديث لان المنتج الحضاري الحالي يفرض علينا تطبيق معادلة اخرى وهي المنتج الحضاري =إنسان+ الوقت +التراب + خضوع اسياذ المال. والسلطة للمثقف فالتغير لابد أن يكون جوهري راديكالي تزامنا مع التطورات التي افرزها تطورات العصر المعاصر لان معظم المشكلات التي يتخبط فيها المجتمع أو الدولة ترتبط اساسا بالنموذج الحضاري التقليدي الذي لم يكن في طبيعة التطورات الحديثة فلا تزال المجتمعات العربية الاسلامية تصر على تطبيق الشريعة في السياسية في حين ان تركيا نجحت في سياستها عندما سايرت رهانات العصر ونادت بضرورة فصل الدين عن السياسة ويعد" غارودي "من أبرز المفكرين المعاصرين الداعين إلى التغيير الحضاري،واقترح نموذج حضاري بديل . أن الحضارة المعاصرة تمر بأزمة خطيرة مصدرها الأنموذج الحضاري الغربي، باعتبار أن الحضارة الغربية أصبحت اليوم تهيمن على جميع الحضارات وتفرض أنموذجها على العالم كله من خلال مشروع العولمة، فبفضل هذه العولمة أصبحت مشكلات الحضارة الغربية وأزماتها مشكلات عالمية، ذلك أن الغرب لم يصدر فقط منتجات حضارتها لمادية إلى مختلف بلدان العالم الثالث، بل وصدر معها مشكلاتها وأزماتها التي تظهر تداعياتها في مختلف أنحاء العالم، لان العولمة جعلت من

¹ - روجي غارودي،الانقلابالكبير،ترجمة .سلمانحرفوش،داركنعان،ط2ص 9

العالم قرية كونية صغيرة، وجعلت من حضارات العالم حضارة.¹ لقد وقف غارودي على اسباب ومظاهر التآزم في الحضارات - بما فيه المعادلة الحضارية التي اراد ان يجسدها مالك بن نبي في الواقع - و من ثمة محاولة تقديم حلول لتجاوز هذه الأزمة، حيث يهدف إلى البحث عن التغيير الحضاري، حيث يراه مطلباً ملحا ومستعجلاً من أجل إنقاذ كوكبنا من الانتحار في ظل الأزمة التي تتخبط فيها حضارتنا المعاصرة سواء أكانت الازمة اقتصادية أو سياسية أو دينية.² حيث اكد أن العالم في طريقه إلى التفسخ والموت (الانتحار)، وكأنه يريد أن يجيب عن السؤال الذي طرحه "إدغار موران" و³ جعله عنواناً أحد مؤلفاته ألا وهو : هل نسير إلى الهاوية؟ و هو سؤال فلسفي يعالج مستقبل و مصير الحضارة المعاصرة، و لاشك أن سؤالاً بهذه الخطورة والأهمية يؤكد فعلاً خطورة الأزمة التي تتخبط فيها الحضارات السابقة فغارودي بهذا الجواب يؤكد أننا نسير فعلاً إلى الهاوية، ولكنه، مع ذلك لا يجب ان نستسلم بسهولة، حيث المطلوب منا الان إنقاذ العالم من هذا السقوط، يتطلب أكثر من برنامج اقتصادي أو قرار سياسي أو خطاب ديني، إنه " يتطلب تغيير نوعي جوهري يكون في مستوى هذه الأزمة وخطورتها"⁴ لان ما يميز هذا المشروع الفكري الحضاري اليوم لدي هؤلاء الفلاسفة المعاصر ينهوا أنه مشروع إنساني يهدف إلى تنمية الإنسان تنمية شاملة

¹ - نفس الرجوع السابق ، ص 12

² - روجي غارودي، البديل، ترجمة : جورج طرابيشي، دار الاداب بيروت، ط1، ص21

³ - إدغار موران) بالفرنسية (Edgar Morin: فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي معاصر. ولد في باريس في 8 يوليو 1921. كتب موران العديد من الكتب والمؤلفات التي تناولت قضايا فكرية مختلفة، وترجمت للعديد من اللغات، أول هذه الكتب نشر 1950 وحمل اسم "عام ألمانيا صفر"، و"النقد الذاتي" عام 1959 وتطرق فيه لقطيعته مع الشيوعية. وفي عام 1977 نشر الجزء الأول من مؤلفه "المنهج" الذي طرح فيه مفهوم فكره المركب، ثم في 1989 نشر كتاب "فيدال وعائلته"، ثم "التجوال" عام 2006، و"طريقتي" عام 2008. كما أصدر كتاباً في مجال السينما بعنوان "السينما أو الإنسان المتخيل".

وأصدر عام 2005 كتاب "الثقافة والبربرية الأوروبية"، و"أين يسير العالم" عام 2007. وفي أبريل/نيسان 2013 صدرت للمفكر الفرنسي مذكرات تحت عنوان "يوميات"، تتألف من مجلدين، وكان قد بدأ في كتابتها عام 1962.

ونال المفكر والفيلسوف الفرنسي طوال حياته جوائز عديدة وكثر مرات عدة

⁴ - Edgar Morin, *Culture et barbarie européennes*, Éditions Bayard, Paris, 2005.p 110

ومتكاملة، دون اختزال لأبعاده، ودون المفاضلة بينها على نحو ما نجد هفي النموذج الحضاري الغربي حيث يتم التركيز على البعد المادي مع إهمال للأبعاد الأخرى، وبخلاف ذلك، فإن غارودي يرى أن كل نمو لا يؤدي إلى تنمية الإنسان تنمية شاملة تأخذ بعين الاعتبار الرؤية التركيبية للإنسان، بما منشأه أن يحقق التكامل و التوازن بين جوانب شخصيته وأبعاده المادية والمعنوية، فانه لا يعد تنمية حقيقية ولا تقدما حقيقيا و في هذا النموذج من النمو يكون الإنسان غاية لا وسيلة، بما منشأه أن يحرر هذا الإنسان من الاستيلاء، و يحفظ له كرامته ومكانته في الوجود، وبهذا فان دعاة الحداثة والتوير من أنصار النموذج الحضاري بصفة عامة ،فما يراه دعاة التحضر انه تقدما يعتبره غارودي انحطاطا وإفلاسا وأزمة طالما لان هذه النماذج حسب التي لطالما تغنت بها الحضارة الغربية مثلا أنه لم يؤد إلى تحقيق إنسانية الإنسان وسعادته بقدر ما أدى إلى انحطاطه وتعاسته وشقائه.¹

فمن الواضح هنا أن التغيير الحضاري الذي يناضل غارودي فكريا وسياسيا من أجل تحقيقه هو تغيير يستهدف استعادة إنسانية الإنسان المهذورة، أو " الإنسان الإنساني"، كما يسميها لذي يقوم على اساس الإسلام لأن (الاسلام) في نضره ليس مجرد عقيدة يؤمن بها الإنسان، تحدد له علاقته بربه، كما هو الحال بالنسبة للعقائد الأخرى وخصوصا المسيحية التي كان قد تعرف عليها واعتنقها في سنمبكرة، بلإن الإسلام بشموليته وبأبعاده الثورية يمثل مشروعا حضاريا متكاملما بما يحمله من رؤية إنسانية توحيدية وهذا ما جعل غارودي يشرح هلكي يكون بديلا للنموذج الحضاري العالمي أو بالأحرى المنقذ للحضارة وهو ما عبر عنه في كتابه " الإسلام دين المستقبل" مع الإشارة إلى أن الإسلام الذي يقصده غارودي إنما هو الإسلام الكوني،الذي يمثل الوحدة المتعالية للأديان تلك التي تجد تجلياتها في مختلف الأديان السماوية وفي خضم المعني يقول غارودي " :لقد أفلس الغرب بعد خمسة قرون من

¹Garudy, Le projet espérance, éd. ROBERT LAFFONT, PARIS, 1976, p205

الهيمنة المطلقة وها هو يقودنا إلى الهلاك . وسيستعيد الإسلام حظوظه في الانتشار العالمي كسالف عهده أيام إزدهاره يوم يدرك الغربيون في غالبيتهم هذا الفشل التاريخي الذي منيبه نموذجهم في النمو وفي الثقافة على غرار مايفعله بعضهما لأن¹ . حيث أراد غارودي في كتابه «حوار الحضارات» أن يبني مشروعاً متكاملًا للحوار بين الحضارات من أجل انقاذ العالم من الانتحار الكوني وفي المقابل لم يهمل الثقافات الإنسانية العابرة إذ منحها كما يبدو المكانة التي تستحقها ودعاها إلى المشاركة في الحوار لأنها في واقع الأمر تملك رصيماً إنسانياً ثرياً وعميقاً قد يساهم في منح الحوار معاني غائبة في الحضارة الغربية أو غيرها وبالتالي ابتكار مستقبل حقيقي يشارك فيه الجميع من أجل الجميع يقوم هذا المشروع على ثلاثة مرتكزات أساسية منها التي تتعلق بضرورة دراسة الحضارات الاغريقية في مجال الدراسات بحيث إن منزلتها تعادل على الأقل منزلة الثقافة الغربية من حيث الأهمية.²

وفي نظر غارودي فإن الحوار بين الحضارات هو السبيل الوحيد الذي يمكن من خلاله «أن يولد مشروع كوني يتسق مع اختراع المستقبل الذي يشترك فيه الجميع بدون إقصاء أو تهميش وعليه فقد غدا حوار الحضارات ضرورة ملحة ومهمة بل قضية حياة أو موت يتحدد بموجبه بقاء البشرية خاصة في هذا العصر عصر بلغ فيه الخطر حداً عظيماً نتيجة سياسات الغرب التي قادت البشرية إلى الانتحار والموت المهم أن يدرك الغرب بأنه يملك مشروعاً جماعياً يتعلق بمستقبل الإنسان لكن مهما بلغ هذا التفوق ذروته غير ان الغرب يبقي بحاجة إلى الآخرين مهما بلغ من قوة اقتصادية أو عسكرية هناك طريق آخر لا يقل أهمية يرسمه غارودي للحوار بين الإسلام والغرب من خلال النتيجة التي يصل إليها في تحليله الأخير بالقول «إن كل نهضة في الغرب تبدأ برفض وحدانية السوق احتكار السوق وان كل نهضة للإسلام تبدأ بقراءة جديدة للقرآن الكريم أي أن مراجعة الذات هي المنطلق الحقيقي لحوار بناء بين الغرب والإسلام لكن ذلك يتطلب جرأة وشجاعة من الطرفين

²Garaudy Roger, Promesses de l'islam, éd. Seuil, Paris, 1981, p (22- 23)

-2- نفس المصدر السابق، ص، 28

إذ يجب على الغرب أن يتواضع للعرب ويتخلى عن غروره وغطرسته وعن حلمه في الهيمنة يبدأ ذلك بإلغاء حرية السوق و برفض عقيدة وحدانية السوق التي هي اسباب مختلف الازمات التي تصيب الانسانية بحيث غدت القيم الإنسانية بموجبها قيماً تجارية وكذا التخلص من النوايا السيئة من الطرفين ويتنازل كل طرف عما يعكّر صفو الحوار وعندما يكون الهمّ الأول والأخير منه هو إنقاذ البشرية من الموت والانتحار ويكون القاسم المشترك فيه هو احترام حياة الإنسان وقداسته يصبح التفاهم سهلاً والتعايش ممكناً. بالموازاة مع ذلك لا بد عليه أي الغرب أن يعمل بإخلاص في إعادة بناء عالم متكافل ومتضامن في المقابل على المسلمين مراجعة تراثهم عن طريق قراءة جديدة لنصوص القرآن قراءة جديدة من شأنها إعادة «الإسلام الحي» إلى واقع الناس وعالمهم عن طريق إحياء الفكر النقدي وقد يبدو إيمان غارودي القوي بأن الإسلام هو دين المستقبل بعد أن أثبتت جل النماذج الحضارية فشلها بما فيها النموذج الغربي و الاسلامي في النمو ولكن الاسلام الذي يقصده غارودي ليس ذلك الاسلام الذي شوهوه المسلمون في مرحلة انحطاطهم، و هي مرحلة ما بعد الموحدين التي تمثل مرحلة ما بعد الحضارة بحسب تعبير مالك بن نبي في فلسفته للحضارة الإسلامية.¹ إن غارودي راهن إذن، على الإسلام من أجل إنقاذ مستقبل الحضارة والإنسان فالمشروع إذن موجود و لكنه ينتظر من يفعله و يطبقه ومن الواضح هنا نؤكد على الرسالة الإنسانية الكونية للإسلام فالإسلام لم يأت لأمة بعينها بل جاء النبي محمد صلى الله عليه و سلم رحمة للعالمين و بالتالي فالإسلام هو الديانة المؤهلة بفضل هذه الروح التوحيدية الوحدوية لإنقاذ الحضارة وإنقاذاً إنسانية وهذا النداء من غارودي ذكرنا بموقف مالك بن نبي الذي عبر عنه في رسالته الموسومة ب " دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين".² كملاحظة فانه يتقاطع غارودي كثيرا مع مالك بن نبي فيتصوره الدور الإسلام في التغيير الحضاري ينظر: مالك بن نبي، دور المسلم و رسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين.

¹ -روجي غارودي: الاسلام،تر وجيه اسعد، الناشر دار عطية للنشر الطبعة 2، ص- 75 59

² - روجي غارودي، حوار الحضارات، تر. عادل العوا، منشورات تعويدات، بيروت لبنان،. ط 1982، 2، ص 175

ومن جهته دعا كلود لوفي ستروس Claude Lévi-Strauss¹: على الدوام إلى الانفتاح الثقافي والحضاري على الآخر وافترض المساواة بين الحضارات حتي وان كانت الحضارات في أصلها مختلفة عن بعضها البعض وقد اوضح في كتابه « الانتروبولوجية البنيوية »، على وجود بنية عقلية كامنة تشترك فيها جميع الحضارات في صناعتها للأسطورة و باستخدام هذه البنية، يمكننا تفسير وتفكيك المركبات الأسطورية للثقافات المختلفة².

يرى كلود لوفي ستروس أن الإنسان هو كائن بيوثقافي يقف في مركز وسط بين العقل والغريزة . ومن خلال الدراسات الأنثروبولوجية التي قام بها لاحظ وجود الكم الهائل من قواعد الزواج في مختلف أنحاء العالم للوهلة الأولى يبدو الأمر وكأنه عبثي ولا معنى خلفه، لكن أنماط التشابه المثيرة التي تتكرر وسط هذه القواعد الكثيرة تدل على أن هناك معنىً كامناً خلف هذا التعدد المثير. لذا فقد حاول اكتشاف النظام خلف هذه الفوضى الظاهرة فكان عمله الأول (البنيات الأولية للقرابة) وهي إحدى النتائج الأساسية التي خلص إليها ستروس وهي أن العقل البدائي (وإن كان لا يفضل استخدام كلمة بدائي، ويفضل مكانها استخدام مفهوم المجتمعات الغير كتابية التي لم تمارس الكتابة) الذي استخدم الأسطورة والمجاز في تشكيل ظواهره الثقافية لا يختلف عن العقل المتحضر. بمعنى أنه، وإن كانت الاتجاهات التي سلكها كل من العقلين مختلفة، إلا أنهما يطرحان نفس الأسئلة ويسعيان إلى نفس الهدف بعكس ما كان سائداً من أن الإنسان البدائي لم يكن يسعى إلا إلى تلبية رغباته الملحة فقط. وقد زعم كلود لوفي ستروس أن الإنسان الأسطوري كان أكثر طموحاً في استخدامه لملاكاته العقلية، أي ساد عنده الظن أن بإمكانه تفسير كل شيء في العالم ابتداء من الكون إلى تحقيق غرائزه ورغباته الأصلية، على عكس الإنسان الحديث الذي ومنذ نيوتن وديكارت قام بتجزئة المشكلة ليتمكن من حلها جزءاً تلو الآخر. باختصار،

1- كلود ليفي ستروس (1908-2009) : علم اجتماع وأنثروبولوجي فرنسي¹

²- كلود ليفي ستروس، الانتروبولوجية البنيوية، تر مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، ص -235 217

يخلص لوفي ستروس إلى أنه رغم اختلاف الثقافات إلا أن العقل الإنساني في كل زمان ومكان واحد ومتشابه ويمتلك نفس القدرات والإمكانيات.¹

¹-نفس المصدر السابق، ص 246

الاستنتاج:

وعلى ضوء التحديات التي يعيشها عالم اليوم من قبيل هيمنة العولمة والكونية المزعومة لبعض القيم والأنماط الثقافية والرؤية الحدية للحدثة بدل الترويج لتعددية الحداثات وفي ظل انتصار منطق السوق وتنميط المعايير الثقافية وهيمنة تكنولوجيا المعلومات برزت ظواهر جديدة يختلط فيها الدفاع عن الهوية والمسارات الوطنية باحتجاجات الحركات الاجتماعية الجديدة وإشكاليات تدبير الظواهر التي أفرزتها الهجرة، ومنها انتشار ثقافة الخوف والكرهية وتزايد التمايزات على أسس ثقافية أو دينية، بالإضافة إلى المطالبة بالحقوق الثقافية والاجتماعية وتحرير مفهوم الوطن من أي دلالات تشير إلى النقاء العرقي أو التميز الثقافي. وفي هذا السياق تضافرت مجموعة عوامل لتخلق تمايزات لم تتأخر عواقبها في الظهور وذلك من قبيل التحديات التي تفرضها المطالب العرقية والقومية على الدولة الوطنية والتي تخلق في كثير من الأحيان أجواء عدم الثقة بين الأغلبية والأقلية في ظل الحاجة إلى إسهام جميع مكونات المجتمع في صناعة مستقبله وبناء ثقافته المشتركة وهويته الجامعة المؤطرة بقيم الاعتراف والحق والعدل والمساواة والمواطنة الكاملة. وهذا يعني أن إدارة التنوع الثقافي تعدّ تحدياً في جميع المجتمعات كما تعتبر في الوقت نفسه مكوناً أساسياً في تركيبها الاجتماعية إذ تتطابق الدول والأمم في تنوع نسيجها الثقافي وتتمايز في طرائق إدارة هذا التنوع وتدبيره وهو ما يجعل الاستفادة من التجارب الناجحة في هذا الإطار ضرورة ملحة.

من أجل ذلك وعملا على الإسهام في رفع هذه التحديات من خلال دراسة نماذج إدارة التنوع الثقافي في البلدان المختلفة بهدف تبادل التجارب والخبرات وإضافة عناصر جديدة للنقاش الدائر حول تحديات التنوع الثقافي ووعياً بضرورة بلورة هندسة اجتماعية للتنوع الثقافي في المجتمعات العربية والأوروبية تعتبر التنوع مصدر غنى وجزءاً من الحل بدلا عن التمثل الخاطئ الذي يعتبره أصل المشكلة، واضطلاحاً بدوره في تقوية أواصر التعاون العلمي بين

الباحثين في العالمين العربي والغربي، ينظم " أسس دراسات الحضارة الإسلامية وتجديد الفكر الديني.

خاتمة

خاتمة:

إن كل أعمال "مالك بن نبي" الفكرية سعت لحل مشكلة الحضارة التي يعاني منها العالم الإسلامي بصياغة رؤية منهجية تستمد معالمها من الخصوصية الثقافية للمجتمع الإسلامي، والتي من شأنها تفعيل دور المسلم في التاريخ البشري الحضاري من خلال جمعه بين قوة إيمانه ونصاعة فكره، باعتباره الدافع المحرك الذي به تحقق الأمة الإسلامية حضورها في التاريخ البشري. وما نستخلصه من دراساته التي جمعها تحت عنوان "مشكلات الحضارة" أنه ركّز على العامل الإنساني من حيث أنه سبب المشكلة الحضارية التي نشهدها. ومن أجل هذا حاول "مالك بن نبي" إيجاد تلك الآليات التي من شأنها أن توظف العالم الإسلامي من سباته الذي دام قرونا من الزمن بالتركيز على تفعيل دور الإنسان من خلال ما أسماه بـ "الاستثمار الاجتماعي" وليس المالي، فلقد ركز "مالك بن نبي" على الإنسان كعامل مركزي لمشكلات الحضارة في العالم الإسلامي لأنه بدرجة رقي الإنسان أو تخلّفه يكون رقي المجتمع أو انحطاطه. وهذا فعلا واقع المجتمع العربي الإسلامي الذي أكمل دورته الحضارية، حسب "مالك بن نبي"، بعدما عاش أوج الحضارة في عهد الرسول محمد ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم و من جاء بعدهم، أين مثلّ رسولنا الكريم النموذج المنشود فكان قدوة لصحابته الكرام. فأصبح مجتمعا نموذجيا.

بفضل الدافع الديني والمتمثل في تعاليم القرآن الكريم وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه و سلم، كما قام الإسلام بإخضاعه لعملية تكييف شرطية لطاقاته الحيوية وفق ما يتفق و معالم الدين الإسلامياً أصبح التفكير في سبل الخروج من وضعية التفسخ الحضاري أمرا لا مناص منه، وأنّ الخروج من هذا الوضع المتأزم والمتخلف الذي شمل جميع مناحي الحياة في العالم الإسلامي ضرورة قصوى، إذ لا بد من استرجاع ذلك النموذج المنشود والاستفادة من ماضي الأمة الإسلامية؛ وأنّ الإطار المرجعي للنهوض بهذه الأمة هو الرجوع إلى التجربة التاريخية الإسلامية والاستفادة منها؛ إذ أنه وكما قال الإمام مالك بن أنس:

(لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) وعليه، ولاسترجاع ذلك النموذج المنشود الذي فقدته الأمة الإسلامية لعدة سنين لا بدّ من إتباع منهج محدد في التربية، باعتبار أنّ التربية هي ذلك النقل المقصود للقيم والمعتقدات والمعرفة والمهارات إلى الأجيال القادمة. كما أنّها تمكّن الأجيال القادمة من استيعاب وتمثل المنظومة الثقافية التي يتمتع بها المجتمع أو نظرية الحياة التي يؤمن بها المجتمع ومن هنا نستنتج ان "مالك بن نبي" قد ربط ربطاً عضويًا بين التربية و الحضارة. فالتربية كما أوضحنا سابقاً هي ذلك النقل المقصود لكل ما تتضمنه المنظومة الثقافية؛ فكل مجتمع من المجتمعات نظريته عن الحياة التي تستغرق كل ما يتمتع به من ثقافة، ولكي تتواصل الأجيال يجب المحافظة على المنظومة الثقافية، والتربية هي الأداة التي تقوم بهذه المهمة. لان كل ثقافة أي مجتمع فإنها تحتوي على تلك المعايير التي تؤسس النموذج المنشود لكل من الفرد و المجتمع، فتأتي بالمناهج التربوية لتحقيق هذا النموذج والمحافظة عليه. وهذا ما أسماه "مالك بن نبي" بعملية استيعاب وتمثل القيم الثقافية. ففي هذه الحالة، هناك ارتباط وثيق بين التربية كأداة، والثقافة كمحتوى تربوي، والحضارة كمنتج تربوي؛ إذ يصبح الفرد النموذج الذي يمثّل التجسيد الفعلي لثقافة ذلك المجتمع في سلوكه اليومي.

ومن منظور آخر، فإنّ التربية هي عملية إدماج الفرد في المجتمع وتأهيله لأداء دوره الاجتماعي المتلائم مع استعداداته الفطرية ومهاراته الخاصة، أي أداء وظيفته التاريخية والدخول في شبكة العلاقات الاجتماعية. ويتم هذا بزرع الاستعداد النفسي والتربوي فالتربية تعدّ الإنسان النموذجي الذي يحرك التاريخ. ولهذا، فهي مشروع بناء الحضارة وهذا ما يتضح جلياً من قول "مالك بن نبي": "أن نعلّم كلّ فرد معنى الحياة، أي أن نعلّمه كيف يتحصّر". وهذا من خلال تركيزه على الفكرة الدينية. لان للجانب الديني أهمية كبيرة في تركيب الفرد والمجتمع. هذا بالنظر إلى الدور الذي تقوم به في تكييف الفرد؛ إذ تنظّم طاقاته الحيوية الغريزية تماشياً مع خصوصية ذلك المجتمع الذي ينتمي إليه. فالدين مقوم أساسي لكل

مجتمع؛ إذ يبين تلك الخصوصية لهذا المجتمع عن غيره من المجتمعات، كما يساهم في بناء الحضارات. أمّا من جانب آخر، فإنّ الإنسان حيوان ديني بطبعه لا يستطيع الحياة من دون جانب روحي يغذيه. ومن هنا، يتبين لنا أنّ الدين لا ينفكّ عن التربية، من حيث هو أحد المركبات الأساسية لتكوين شخصية الإنسان. فالتربية تحافظ على هذا المركب من خلال غرس تلك الثقافة الدينية في كل أفراد المجتمع، ومهمتها هي تجسيد هذه المقومات بالرجوع إلى مجتمعنا العربي الإسلامي، فقد حاول "مالك بن نبي" ضبط وتحديد تلك الآليات التي من شأنها أن تمكّن العالم الإسلامي من إعادة بناء الذات واستئناف دورة حضارية جديدة.

فمن خلال هذا البحث، يتبين أنّ "مالك بن نبي" استقرأ التاريخ الإسلامي بهدف استيضاح تلك الظروف التي مكنت العالم الإسلامي من الرقي الحضاري ثم تلك الأسباب التي أحرّته. في إعادة بناء الحضارة الإسلامية لابد من الاستفادة من التجربة الماضية التي عاشتها الحضارة الإسلامية إذن: ومن أجل النهوض بالحضارة الإسلامية من جديد، يجب أن تكون التربية أداة لهذا النهوض. فحسب "مالك بن نبي"، فإنّ الأزمة التي تمر بها الأمة الإسلامية، وإن كانت حضارية في طبيعتها، فإنها تربوية في جوهرها. كما ينبغي أن تركز المشاريع النهضوية على الإنسان بصفته العامل المركزي في أي حدث اجتماعي وحضاري فمركزية العامل الإنساني تستدعي إخضاعه لعملية تربوية لصياغة شخصيته المنتمية إلى أمة إسلامية لها خصوصيتها، ومنه يجب صياغة النموذج المنشود لأداء وظيفته التاريخية كما حددها الوحي الإلهي. فالتربية في مجتمعاتنا العربية الإسلامية يجب أن تستغرق الرؤية الإسلامية للإنسان، من أجل استرجاع التربية لحيويتها وزرع ثقافة الإبداع والابتكار في أوساط المسلمين، ومن ثمة التخلص من ذلك التخلف الذي عمّ كل مجالات الحياة باعتباره نتاج المناهج التربوية لعصور الانحطاط. كما أنّ من أهم الأهداف التي يجب أن تجعلها النظم التربوية من بين أولوياتها هي أنّ الإنسان المسلم المتكامل هو النموذج التربوي المنشود.، لأنه حسب "مالك بن نبي" فإن غموض النموذج التربوي المنشود هي

سبب الاضطرابات التي نشاهدها في المنظومة التربوية وهو الذي أدى إلى تلك الأزمات التي تعاني منها الأمة الإسلامية.

فضرورة صياغة النموذج المنشود تزيد إلحاحا لضمان الحضور في تاريخ الحضارات و صنع التاريخ، إذ يقول مفكرنا "مالك بن نبي": "يبدأ التاريخ بالفرد المتكامل" فكل مجتمع يسعى لتقديم نموذجه على أنه الأفضل.

ومن هنا، يؤكد لنا "مالك بن نبي" على ضرورة الرؤية الواضحة لطبيعة النموذج المنشود الذي نسعى إليه، وعن طبيعة العملية التربوية التي تتكفل بإنجاز هذا المشروع وتحقيقه على أرض الواقع. فالانطلاقة لبناء مجتمع تاريخي تتحدد بصياغة فلسفة تربوية تحدد خصائص النموذج التربوي المنشود لكل من الفرد والمجتمع بناءً على الخصوصية الثقافية، وهذا للإسهام الفعلي في مشروع إعادة البناء الذي يحقق طموحات أفراد ذلك المجتمع. وهذه الرؤية الواضحة لمعالم النموذج المنشود هي إحدى الضمانات الرئيسية لنجاح المشروع الحضاري، إضافة إلى تحقيق الانسجام بين الانتماء العقائدي للمجتمع ومطالب الواقع المتغير. فإذا خلا أي مشروع من هذه الرؤية الواضحة للنموذج فإنّ هذا المشروع سوف يفشل. وهذا فعلا ما عاشته الدول العربية الإسلامية في مرحلة ما بعد الاستقلال، ومن بينها الجزائر التي غابت عنها وضوح السياسة التربوية لبناء النموذج المنشود لكل من الفرد والمجتمع، ولهذا فتربية هذا المجتمع تربية تكيف تسعى لتجسيد النموذج المنشود المسلم لأداء وظيفته التاريخية المنوطة به تبعا للخصوصية الثقافية للمجتمع الإسلامي. فدور التربية وكما أشارنا إليه يتلخص في تحضير المسلم لأداء دوره الاجتماعي وليصبح فعالا في مجتمعه يدفعه ويسير به قدما في المسار الحضاري، ينتزع مركب القابلية للاستعمار الذي أصبح أكبر خاصية يتصف بها المجتمع العربي الإسلامي؛ وهذا لكي يصبح الفرد المسلم قادرا على الابتكار والإبداع والمساهمة وبشكل كبير في بناء حضارة المجتمع الإسلامي.

وهكذا تتجلى لدينا حقيقة جوهرية في فلسفة "مالك بن نبي" التربوية قوامها الفرد والمجتمع معاً، ومؤكداً في نفس الوقت على أسبقية الجانب الاجتماعي لأن الظروف التاريخية للمجتمع الإسلامي تفرض ذلك، كشرط ضروري للخروج من مرحلة ما بعد الحضارة، والدخول في مرحلة الحضارة، والتي إذا ما تحققت استفاد الفرد من قيمها وضماناتها، وبالتالي استطاع أن يعبر عن ذاته وكانت لقدراته أصداء تحتضنها في مجتمعه، وقدرة الفرد وإرادته لن تتحققا إلا في ظل تحقق قدرة وإرادة المجتمع، وتحقيق قدرة المجتمع وإرادته تتجليان في صورة قيام حضارة وقد عرج مالك بن نبي على الاقتصاد في كتابه (المسلم في عالم الاقتصاد) وغنى المجتمع لا يقاس بكمية ما يملك من أشياء، بل بمقدار ما فيه من أفكار "مالك بن نبي". إن الحديث عن رهانات الارتقاء الحضاري والتطور الاقتصادي والاجتماعي وركائزه ومقارباته في ظل مجتمعات المعرفة الحديثة، يدفعنا بكل إلحاح لطرح إشكال محوري في أي عملية تنموية وهو: من أين ينطلق المعراج الحضاري والبناء التنموي في عصر مجتمعات المعرفة؟ وبالنظر للتجارب الإصلاحية والتنموية لبعض الدول الرائدة قديماً وحديثاً كاليابان وألمانيا وسنغافورة وتركيا وماليزيا وباقي دول العالم المتقدم، نجد أن بينهم قاسماً مشتركاً في منطلقاتهم المنهجية نحو الإقلاع الحضاري والاقتصادي، يتمثل في أولوية بناء الإنسان قبل العمران، إذ أن رسم السياسات الإصلاحية والتأسيس لمشروع مجتمع جدير بتحقيق القفزة التنموية والمعراج الحضاري، يتطلب تأهيل الإنسان إلى مَصَفِّ الوعي والفعل الحضاري الذي يجعله في مستوى التطلعات التنموية أداءً وثقافةً .

وتفكيراً إن جل المشاريع الإصلاحية في بلادنا العربية لم تنطلق من المقدمة الصحيحة، فلم تجعل الإنسان محور تنميتها ومنطلقها نحو الارتقاء في مدارج التطور والبناء، بتنمية التعليم وتطوير مقارباته والاستثمار في مخرجاته، فجل مشاريعنا تستند إلى الأرقام، دون وجود أدنى استراتيجية لتنمية رأس المال الفكري والبشري الذي يمثل الروح التي تبعث

الحياة والفاعلية "إن القيمة الأولى في نجاح أي مشروع إقتصادي هي الإنسان، فالاقتصاد ليس قضية إنشاء بنك وتشديد مصنع بل هو قبل ذلك تشييد إنسان وتعبئة الطاقات الاجتماعية في مشروع تحركه إرادة حضارية" والملاحظ في مشاريعنا التنموية هو رهانها على الموارد المادية والمالية وجعلها معيارا مرجعيا لقوة الاستثمار والنمو الاقتصادي، وللأسف أصبح هذا روتيننا رسميا ثابتا، فننقخر بإنشاء كذا مؤسسات تربية وجامعات ومستشفيات وشركات ومراكز تجارية، دون أن نتساءل عن مردودها الاقتصادي والتعليمي والاجتماعي والثقافي والتنموي يقول "مالك بن نبي" مستلهما من التجربة الصينية: "إن الصين تقدمت اقتصاديا بسرعة مرموقة لأنها طبقت منذ اللحظة الأولى في خطط تنميتها مبدأ الإتكال على الذات، أي بالتعبير الاقتصادي مبدأ الاستثمار الاجتماعي من الإنسان الصيني، التراب الصيني، والزمن المتوفر في كل أرض.. فالصين وضعت تبعيات التنمية على كاهل الشعب، فعوضت بطاقاته الحيوية الموجودة بقدر الإمكان الطاقات الميكانيكية المفقودة.. مما جعلها تحصل على خبرة فريدة في مجال توظيف الإنسان والتراب والزمان. كما يشير إلى التجربة الألمانية قائلا: "إن ألمانيا بعدما تعطلت تماما سفينتها في نهاية الحرب العالمية الثانية أقلعت بمقدار خمسة وأربعين ماركا فقط، لكن الاستثمار الحقيقي كان في رأس كل مواطن ألماني وفي عضلاته، وبصورة أشمل وأدق كان في تصميم الشعب الألماني وفي التراب الألماني على الرغم من فقره .

هذا هو أبلغ مثال على عصر اقتصاد المعرفة الذي تلا عصر الصناعة، والذي يتطلب استثمارا مكثفا في البشر، سواء في تعليمهم وتدريبهم وحفزهم على الإبتكار، ليصبحوا قادرين على المنافسة في عصر تسوده المنافسة بالمعرفة وليس بالمادة الخام أو بمجرد توافر الآلات والتجهيزات. ولهذا نجد دوما المفكر "مالك بن نبي" رحمه الله يشيد منذ أمد بعيد بمكانة الأفكار الفعالة في دفع عجلة التنمية واعتبارها أساس الإقلاع الاقتصادي، بل أكد بما حيث يقول رحمه الله: "وبملاحظتنا لبعض النشاطات النموذجية في الجزائر، تمكنت في

دراسة ظهرت لي منذ بضعة سنين من الإشارة بالأرقام إلى تبديد مُفْرِطٍ لطاقتنا الاجتماعية وتبذير مسرف وغير محسوس في وسائلنا، وهذا مظهر من مظاهر اللافعالية التي تعزى إلى العجز في أفكارنا". فوفرة الإمكانيات المادية والطاقات البشرية الخام لا يمكن أن يؤتي ثماره ويحقق انتقالاً حضارياً في ظل غياب سياسات لا تُقدِّرُ منزلة المورد البشري والفكري وقدراته الفعّالة، بل تتمادى في تهميش الطاقات والكفاءات وعدم الاستثمار في التعليم، يقول بن نبي: "ونلاحظ هنا أن القضية لا تتصل بفقر في الوسائل لأن العمل هو الذي يخلقها ولكن بفقر في الأفكار". فالفقر الحقيقي ليس في قلة الموارد التي يزخر بها علمنا العربي، وإنما في فقر الأفكار وضعف أدوات الإبداع وحاضناته وانعدام البيئة التحفيزية الملائمة والرؤية التنموية الرشيدة، فثمة تكمن معضلتنا الحضارية. ومن الجانب التربوي يرى "مالك بن نبي" انه ، كان لزاما . بداهة . أن يكون هذا الإنسان هو موضوع هذا التغيير، بحيث تعمل التربيّة بدءا على تغيير نظرتة إلى نفسه وإلى التاريخ، والسكوني. فعن طريق التربيّة إذن يرتقي الإنسان من حالة "الفرد" المرتبط بالنوع الإنسانيّ إلى حالة "الشخص" الذي يرتبط بالجماعة وبالإنسانيّة برُمّتها ليساهم من ثمة في تطويرها وتحضّرها. ولكي يتم الفهم الحقيقي للتربية وممارستها على اكمل وجه دعانا "مالك بن نبي" اولا وقبل كل شيء الى ضرورة أن نتحرّر من تلك الفكرة المستقرّة في أذهاننا، والتي تربط التربيّة بالطفل وبالمؤسسة التعليميّة وما لحق بها من برامج وطرق ووسائل، وما إلى ذلك. إنّ التربيّة المستهدفة هنا تخرج عن هذه الأطر المعهودة، وإن كانت المدرسة والتّعليم جزءا منها. إنّها تربيّة نوعيّة تتعلّق بالإنسان، "إنسان ما بعد الحضارة"،

ان هدف ربط "مالك بن نبي" التربية بالتغيير نظرا لاشتراك هذين المفهومين في الموضوع. (الانسان) ف"مالك بن نبي" قد جعل من الإنسان مادّته الأساسيّة التي تتّجه إليها كلّ مجهوداته في التغيير، باعتبار أنّ الإنسان هو المنشئ للحضارة. وهذه المادّة التي يتمحور حولها التغيير هي الأصل الذي يقوم عليه موضوع التربيّة، بحيث يُستحال غياب

التربية عن الإنسان، ولا يمكن أن نعمل شيئاً بدونها . وإلى جانب اشتراك كل من التغيير والتربية في الموضوع، فإنهما يشتركان كذلك في الهدف الذي هو تربية الإنسان وتحقيق التغيير، أي تربية الإنسان بما يحقق التغيير. ولما كانت العمليتان التربوية والتغيرية مقصودتين . إذ يتعلّق الأمر عند صاحب "شروط النهضة" بذلك الاختيار الإرادي كشرط للتغيير العام، فأينما وجد التغيير وجدت التربية، وأينما وجدت التربية وجد التغيير. ومن هنا كانت العلاقة التي تجمعهما هي علاقة تلازم، وتداخل، وتكامل لأن ما دون ذلك هو "التغيير" الذي يفرض علينا من الخارج فرضاً، كما هو حاصل اليوم، وعليه، يمكن اعتبار العملية التربوية تغييرية، لأنها تتخذ من التغيير موضوعاً وهدفاً لها، وتتخذ التغيير من التربية وسيلة ومنهاجاً. فالتغيير يبرز كموضوع وكهدف للتربية من خلال تركيزها على الإنسان كمادة للتغيير، واهتمامها بمختلف أبعاده، النفسية والأخلاقية، والاجتماعية والجمالية، والعقلية والعلمية والعملية، وممارسة التأثير (الفعل) عليها بما يحقق التغيير المرغوب منه الذي هو هدف التربية المنشود. وتبرز التربية كوسيلة وكمناهج للتغيير من خلال الممارسة التربوية التي تتطلب انتقاء الأهداف وترتيبها واختيار الوسائل الأكثر نجاعة وانتهاج أفضل الطرق لإحداث الأثر (التغيير) المرتقب، وهذا في إطار الاستغلال الأمثل للمتوفر من الإمكانيات. ومن هنا يتضح، بأنه لما كان التغيير الذي ينشده مالك بن نبي ينطوي على مفهوم عام واسع يشمل الإطار الثقافي برمته، كان مفهوم التربية الملازم له هو الآخر أيضاً مفهوماً عاماً واسعاً، يتجاوز حدود التربية الشكلية (المدرسة) وكل ما لحق بها من مقررات ووسائل وطرق تعليم وما إلى ذلك، ليرتبط بنفس هذا الوسط الثقافي والاجتماعي في سيرورته التاريخية وعبر جميع مراحل مشروع إعادة البناء الحضاري.

هذا ما تؤكده عبارته: «المدرسة لا تحلّ وحدها مشكلة الثقافة، لأنّ حلّها يبدو متأثراً عن شروط أكثر عموماً» ويتم ذلك في ظلّ التّصوّر الحضاريّ العامّ لبن نبي وأهدافه الموجهة العامة والمرحلية الخاصة. فالتربية انهي عملية إسقاط مستقبلي (أو استثمار حسب

مصطلح التّموين)، وبحكم طبيعتها الديناميكية، لا تعمل في فراغ، بل تحتاج إلى أهداف منتقاة تبرّر وظيفتها. وهذه الأهداف هي التي تحدّد للتّربية المواطن أو المراكز التي يجب أن يقع عليها تأثيرها، بمعنى يوجّه نحوها الفعل التّربويّ، أما عن الغايات القصوي للتّربية فهي تكمن. كما مرّ معنا، في إعادة تشييد البناء الحضاريّ المنهار، وتكريس آليات حركته عبر الأجيال المتلاحقة، والارتقاء به إلى مستوى آمال وتطلّعات الإنسانيّة، وهذا عن طريق إعادة تشكيل "الإنسان المستقبليّ" الرّساليّ، روحيًا، وسلوكيًا، وعقليًا، وعمليًا. ومفاد ذلك أنّ مجهودات "مالك بن نبي" في التّغيير التّربوي يرمي إلى تقديم بديل ثقافيّ واجتماعيّ لما هو موجود. هذا البديل يتمثّل في خلق واقع اجتماعيّ لم يوجد بعد أيّ مجتمع تتجسّد فيه سمات التّحضّر، يجد فيه كلّ فرد من أفراد الضّمانات الضّرويّة، الماديّة والمعنويّة، لنموّه في كلّ طور من أطوار حياته، هذه الضّمانات التي تمكّن كلّ الفعاليّات في المجتمع من التّعبير عن قدراتها وإراداتها. ان فكرة التّغيير التّربوي التي دعا إليها "مالك بن نبي" ناتجة عن تقييمه للوضع العامّ المتردّي الذي أصبح يميّز الواقع المائل للمجتمع المسلم في مرحلته التّاريخيّة الحاليّة ومنذ سقوط دولة الموحّدين. كما ركّز "مالك بن نبي" في عمليّة إعادة البناء هذه على الخصوصيّة الثّقافيّة للمجتمع، ويوجّهها نحو غاية ساميّة تتجسّد في تبليغ "رسالة عالميّة" أصيلة، تكون محمّلة بمعاني وقيم الإسلام الخالدة، من سلام، وإخاء، وعدل، ومساواة، وتعاون، وتعايش، ... إلى الإنسانيّة قاطبة، وهي المعاني والقيم التي افتقدتها وتفتقدها حضارة هذا العصر. وهذه الرّسالة الحضاريّة التي تحمل في العمق معنى الأمل، للمسلمين ولغيرهم من البشر، هي في الأصل تعبير عن ذاتيّة هذه الحضارة التي عُرفت وتميّزت بها، لأنّها تتأسّس على للفكرة الدّينيّة التي يؤمن بها المسلمون وتطبيقاتها. ولا يتوقّف هدف بن نبي عند تحقيق التّغيير الذي ينتهي بإقامة حضارة وبدورها الرّسالي، بل يتجاوزها إلى البحث عن الآليات التي تحفظ هذا التّغيير من التّراجع والمجتمع من النكوص. لهذا كان هدفه أيضًا هو التّركيز على التّجديد. أو بالأحرى التّجدد الذي ينبعث من الدّاخل. المستمر للحوافز والمبرّرات للإبقاء على الحالة الحضاريّة، لأنّ استمرار الحضارة يدلّ على وجود

حركة دائبة تخضع في عملها لقانون فيزيائيّ قوامه " الديناميكية والحركة.ومن أجل تحقيق هذه الغاية لابد من ارادة قوية لشحذها، والصّمير الحي لإيقاظه، والعقل لإعماله، والعضلات لتحريكها. وهذه هي الشّروط الصّروية التي يراها صاحب "شروط النّهضة" كفيلة بخلق شروط الفعاليّة لدى إنسان ما بعد الموحدين. وهي الشّروط التي تمكّنه من التّخلص من مورّثات الماضي السّلبية ورواسبه، كما تمكّنه في ذات الوقت من إيجاد ظروف مادّيّة ومعنويّة جديدة تصله بعجلة التّاريخ وجدليّة حركتها الصّاعدة.

من خلال قرأتنا وتحليلنا لفكر "مالك بن نبي"، فاءننا نتحسّر على الأمة الإسلاميّة التي فقدت دورها القيادي مع أنها تملك دواء دائها الحضاري والمتمثل في كتاب الله وسنة نبيه الكريم ﷺ والعبقريّة البنابية التي حملت الحل لأزمة العالم الإسلامي، والمؤسف في الأمر أنّ الدول العربيّة لم تستند في وضع سياستها التتموية على أفكار علمائها الكبار من أمثال "مالك بن نبي" وغيره. لذا، أخذ الفشل يعتري أغلب السياسات العربيّة. وبالمقابل، أثبتت أفكار "مالك بن نبي" فعاليتها في تلك الدول التي جعلت الأفكار البنابية قاعدتها الأساسيّة مثل ماليزيا بقيادة د. مهاتير محمد. فما بقي على الدول العربيّة سوى الاستفادة من التجربة الماليزية لاسترجاع دورها الحضاري سيظل مشروع مالك بن نبي التربويّ -الحضاريّ رهانا مستمرا للمجتمع وللأجيال المنتمية إليه والذي يراهن على الإنسان وفعاليّته فجعله حجر اساسي في معادلته الحضارية، كونه هو المنشئ للحضارة وعليه تتوقف شروط الثّقافة لانه بالنسبة لصاحب "شروط النّهضة" لايمكن بأي حال من الأحوال أن تنبعث حضارة من رحم هذا الواقع الموجود الا اذ تمكنا من اعداد و صنع انسان يمشي في التاريخ، لهذا كان لابد أن يعادت أهيل هذا الإنسان المسلم الذي يجب ان يدخل حلبة التاريخ من جديد وما دام الأمر يتعلّق بالتأهيل، الإنسان نفسيا واجتماعيا، فإن ذلك لا يمكن أن يكون بمنأى (بمعزل) عن التّربيّة التي تعمل على إيجاد هذا " الإنسان المتكامل "الذي يبدأ بها لتاريخ ويُستأنف

ويتواصل، فتعمل على تشخصن هو تغيير معادلاته الاجتماعية التي يتسنى بفضلها تغيير شروط وجوده

وسيطل الهدف المنشود من وراء هذه التربية هو تحقيق شكلا لمجتمع المتحضر من خلال تحقيق لآمته الداخلية عن طريق العمل الجاد المخطط له، الذي تباشر هو توطره النخبة الواعية الملتزمة، لإحداث ذلك التركيب الثقافي المفقود عبر ما اسماه "مالك بن نبي" بالتربية الثقافية التي بفضلها يحدث التواصل مع الذات ومع الاخرين، حين يتم التعرف على ذاتها، فيتشكّل عالم الأشخاص وتتوطد شبكة علاقاتهم.

كما يحدث التواصل مع الغير المختلف ثقافيا والتعايش معه في ظل فكرة السلام العالمي إنه التواصل الذي يعبر هو التعايش بين مختلف الثقافات في العالم.

ملحق البحث

مؤلفاته :

تحلّى مالك ابن نبيّ بثقافة منهجيّة، استطاع بواسطتها أن يضع يده على أهم قضايا العالم المتخلف، فألف سلسلة كتب تحت عنوان " مشكلات الحضارة "بدأها بباريس ثم تتابعت حلقاتها في مصر فالجزائر، وهي (مرتبة ترتيباً هجائياً):

- 1- بين الرشاد والتهيه 1972 دار الفكر دمشق 1978
- 2- تأملات 1961 دار الفكر دمشق 1981.
- 3- دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين 1972 دار الفكر دمشق 1978.
- 4- شروط النهضة 1948. دار الفكر دمشق 1979
- 5- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة 1959 دار الفكر دمشق 2009.
- 6- الظاهرة القرآنية 1946 دار الفكر دمشق 2009.
- 7- الفكرة الإفريقية الآسيوية 1956 دار الفكر 1979.
- 8- في مهبّ المعركة 1962 دار الفكر دمشق 1981
- 9- مذكرات شاهد للقرن - الطفل 1965 دار الفكر الجزائر 1964.
- 10- مذكرات شاهد للقرن- الطالب 1970. دار الفكر بيروت 1970
- 11- المسلم في عالم الاقتصاد - 1972. دار الفكر دمشق 1979
- 12- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي - 1970. دار الفكر دمشق 2009
- 13- مشكلة الثقافة - 1958. دار الفكر دمشق 2009
- 14- من أجل التغيير- دار الوعي للنشر والتوزيع الجزائر 2013 .
- 15- ميلاد مجتمع. دار الفكر دمشق 1979
- 16- وجهة العالم الإسلامي - 1954 دار الفكر دمشق 2009.
- 17- آفاق جزائرية - 1964 مكتبة النهضة الجزائرية بدون تاريخ .

- 18- النجدة... الشعب الجزائري يباد - 1957 المطبعة العالمية القاهرة سنة 1975..
- 19- إنتاج المستشرقين - 1968 مكتبة عمار للطباعة والنشر القاهرة 1970.

قائمة المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع:

القران الكرىم

أ-المصادر باللغة العربية:

1. افاق جزائرية (مشكلات الحضارة) بإشراف ندوة "مالك بن نبى" .ت عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق سوريا ط9.سنة 2009
2. بين الرشاد و التيه (مشكلات الحضارة) ت : عبد الصبور شاهين ط 1. دار الفكر دمشق سوريا سنة .1978
3. تأملات بإشراف ندوة "مالك بن نبى" ت:عمر مسقاوى : دار الفكر دمشق سوريا ط.9.سنة 2009:
4. شروط النهضة: بإشراف ندوة "مالك بن نبى" .ت عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوى دارالفكر دمشق سوريا ط9.سنة 2009
5. الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة. بإشراف ندوة "مالك بن نبى" .ت عمر مسقاوى دار. الفكر دمشق سوريا ط9. .سنة 2009
6. الظاهرة القرآنية: بإشراف ندوة "مالك بن نبى" .ت عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوى دار. الفكر دمشق سوريا ط9.سنة 2009
7. فكرة الافرو أسيوية: : بإشراف ندوة "مالك بن نبى". ت عبد الصبور شاهين.دار الفكر الجزائر ..ط3. سنة 1992 الموافق ل 1413 هج
8. فى مهب المعركة (ارهاصات الثورة) ت عمر مسقاوى . دار الفكر -دمشق-الطبعة 3.سنة 1981.
9. القضايا الكبرى(إشراف ندوة "مالك بن نبى") ط1 دار الفكر -دمشق سوريا - ط1. سنة 1991
10. مذكرات شاهد القرن(الطالب) ترجمة بقلم المؤلف دار الفكر بيروت ط1 سنة 1970

11. مذكرات شاهد القرن(الطفل) ترجمة بقلم المؤلف دار الفكر الجزائر ط 2 سنة 1964
12. المسلم في عالم الاقتصاد (مشكلات الحضارة) : (بإشراف ندوة "مالك بن نبي") ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر سوريا ط:9.سنة 2009 .
13. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. (مشكلات الحضارة) : (بإشراف ندوة "مالك بن نبي") ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر سوريا ط:9.سنة 2009 .
14. مشكلة الثقافة - (مشكلات الحضارة) : (بإشراف ندوة "مالك بن نبي") ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر سوريا ط:9.سنة 2009 .
15. من أجل التغيير دار الوعي للنشر والتوزيع رويبة الجزائر.(منشورة اصلا من قبل دار الفكر المعاصر بيروت و دار الفكر سوريا ط1 سنة 2013 الموافق ل 1434هـج .
16. ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الإجتماعية ج1 (مشكلات الحضارة) ت عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق ط:9 سنة 2009 .
17. وجهة العالم الإسلامي (مشكلات الحضارة) : (بإشراف ندوة "مالك بن نبي") ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر سوريا ط:9.سنة 2009 .
- ب -المصادر باللغة الفرنسية:

18. Malek BEN NABI:LAFRO-ASIATISME .

ج- المراجع باللغة العربية:

19. إبراهيم العاصي : (جلسة مفتوحة مع "مالك بن نبي") ط 1 دار القلم دمشق
20. ابراهيم العبادي:جدليات الفكر الاسلامي المعاصر ط1 ،دار الهادي بيروت ،2001.ص 89.
21. ابن أحمد الأهدل، هاشم. أصول التربية الحضارية في الإسلام، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2007،

22. أبو الأعلى المودودي: موجز تاريخ تجديد الدين، ترجمه إلى العربية محمد كاظم سباق، دار الفكر، 1387 هـ . 1968م
23. أبو القاسم سعد الله .الحركة الوطنية الجزائرية . دار البصائر . الجزء الاول ط 8
24. أبو القاسم سعد الله ابحات اراء في تاريخ الجزائر دار البصائر الجزائر ط8
25. أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي، ج 10. دار البصائر الجزائر احمد توفيق المدني .كتاب الجزائر ط2 الجزائر سنة 1963
26. أسعد السحمراني: "مالك بن نبي" مفكرا إصلاحيا، ص148، 149 دار النفائس، بيروت عام 1984م.
27. برهان غليون :إغتيال (العقل محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية) الجزائر سلسلة موفم / 1990
28. برهان غليون سمير أمين:ثقافة العولمة و عولمة الثقافة: سلسلة حوارات القرن الجديد. ط2 . دار الفكر دمشق 2002 .
29. بشير ضيف الله ،فلسفة الحضارة في فكر "مالك بن نبي" ،منشورات المجلس - الجزائر 2005 (دراسة حازت على جائزة اللغة العربية 2004)
30. البشير قلاتي. هكذا تكلم "مالك بن نبي". منشورات دار إقرأ قسنطينة الجزائر 2005
31. بيار بورديو وجون كلود باسرون، إعادة الانتاج، في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم،ترجمة، الدكتور ماهر تريمس،توزيع : مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت، لبنان،
32. جمال الدين ابن منظور:معجم لسان العرب في اللغة ، الطبعة ، 1 دار صادر للنشر بيروت 2005
33. جورج سارتون : تاريخ العلم تقديم إبراهيم مذكور،ترجمة :مجموعة من المترجمين، الجزء الثاني ، ط 1 دار المعارف، تاريخ النشر 1991.

34. جوستاف لوبون Gustave Le Bon : حضارة الغرب ، la civilisation des Arabes:ترجمة وتحقيق:عادل زعيتر، الناشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1/مجلد1.
35. الجليلي بن التهامي مفتاح ، فلسفة الانسان عند ابن خلدون ، الجامعة العالمية الاسلامية بماليزيا للنشر ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان
36. جيلالي بوبكر: الاصلاح والتجديد الحضاري لدي محمد إقبال و"مالك بن نبي" (بين النظرة الصوفية والتفسير العلمي)، دار الامل، تيزي وزو الجزائر، ط1. سنة 2011.
37. حسان عبد الله حسان التربية الحضارية عند "مالك بن نبي" وتطبيقاتها التربوية
38. حسن حنفي: التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 2002، ط5.
39. حسن حنفي: هموم الفكر والوطن، الجزء الثاني، دار قباء للطباعة، القاهرة، مصر، 1998، ط3
40. خالد السعد نورة: التغيير الاجتماعي في فكر "مالك بن نبي"، تاريخ النشر 1997، الدار السعودية للنشر والتوزيع ط:1 مجلد 1 ص 273/286.
41. الخطيب، سليمان. فلسفة الحضارة عند مالك ابن نبي..دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر، المعهد العالمي للفكر الاسلامي بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1 1993.
42. رالف لينتون: شجرة الحضارة، الجزء الأول الفصل الخامس التطور الحضاري ،تقديم محمد سويدي .موفم للنشر 1990
43. راندلجون هرمان Herman Randall، تكوين العقل الحديث، ت : جورج طعمة 12، دار الثقافة بيروت، الحلقة الثانية،
44. روجي غارودي: الاسلام، تر وجيه اسعد ، الناشر دار عطية للنشر الطبعة 2 ، ص- 75 59

45. روجي غارودي، حوار الحضارات، تر. عادل العوا، منشورات عويدات، بيروت لبنان،. "ط 2، 1982 ص 175
46. روسو جون جالك اميل ترجمة عادل زعيتر دار المعارف مصر 1956 ص 193.
47. زكي نجيب محمود : هذا العصر وثقافته ط2. دار الشروق القاهرة 1972
48. سلامة موسى: ماهي النهضة؟ تقديم الاستاذ مصطفى ماضى ،سلسلة موفم للنشر 1990
49. سليمان الخطيب ، فلسفة الحضارة عند "مالك بن نبي": دراسة إسلامية في ضوء الواقع المعاصر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ، ط1، (1993)،
50. صابر محي الدين :قضايا التنمية في المجتمع العربي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر بتونس. الطبعة 2. 1987.
51. الطاهر سعود :التخلف والتنمية في فكر "مالك بن نبي"،دار الهدى،الطبعة 1 ، 2006
52. عاطف، محمد. معوقات النهضة ومقوماتها في فكر مالك ابن نبي، الجزائر، دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2009 ،عبارة عن مقال .
53. عبادة عبد اللطيف ، صفحات مشرقة من فكر "مالك بن نبي" ، ط1، دار الشهاب -الجزائر ص 127
54. عبد الرحمان ابن خلدون. مقدمة: تحقيق الاستاذ درويش الجويدي : المكتبة العصرية صيدا بيروت ط الاولى 1995 ج 15
55. عبد الرحمن بدوي،اشبنجلر،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة،1941.
56. عبد اللطيف عبادة .صفحات مشرقة من فكر بن نبي .دار الشهاب باتنة .سنة 1984 ط 1

57. عبد اللطيف عبادة. فقه التغيير في فكر بن نبي (عالم الأفكار) ط 2. 2007.
58. عبد الله الزبير عبد الرحمان: مفهوم التجديد وتجديد الدين، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية 2004. ج 1. ص 63/64.
59. على القايمي اسس التربية دار النبلاء ترجمة عبد الكاظم لوبادي ط 1 سنة 1995
60. علي القرشي: التغيير الاجتماعي عند "مالك بن نبي" منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1409 هـ - 1989م
61. علي القرشي: التغيير الاجتماعي عند "مالك بن نبي" منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1409 هـ - 1989م
62. عمر نقيب :، مقومات بناء انسان الحضارة في فكر "مالك بن نبي"، شركة الاصاله للنشر والتوزيع ،ص 215 -216-217، 213
63. عواطف الصقري: الفعالية في فكر "مالك بن نبي" وعلاقتها بالثقافة والحضارة"، المجلة التربوية الكويت.
64. فوزية بريون: "مالك بن نبي" ،عصره وحياته ونظريته في الحضارة، تصدير ،ابو القاسم سعد الله، دار الفكر دمشق، الطبعة 1، الفصل السادس، شروط الإقلاع (الحضاري)
65. فوزية بريون: "مالك بن نبي" ،عصره وحياته ونظريته في الحضارة، تصدير ،ابو القاسم سعد الله، دار الفكر دمشق، الطبعة 1، الفصل السادس، شروط الإقلاع (الحضاري)
66. كلود ليفي ستروس، الانثربولوجية البنيوية، تر مصطفى صالح ،منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي،
67. الكوثرانوجيه :لماذا العودة إلى "مالك بن نبي" عندما نطرح منهج التغيير، ندوة الكويت، ط 1. سنة 1995

68. لحرش موسى : "مالك بن نبي":حياته ونتاجه الفكري (مجلة "مالك بن نبي")
جامعة الامير عبد القادر ،قسنطينة،الجزائر جويلية 2006.
69. لويس عوض: ثورة الفكر في عصر النهضة الاوروبية مركز الاهرام للطباعة
والنشر ،مركز الاهرام للطباعة والنشر ،ط 1، 1987،
70. محمد احمد عبد الهادي رمضان ،أسس التربية الحضارية في الإسلام مقال يوم
السبت - يوم 2014/06/07 الساعة 01:59
71. محمد اقبال :تجديد التفكير الديني في الاسلام: تعريب عباس محمود . سلسلة معالم
الحدثة، دار الجنوب للنشر بيروت 1996.
72. محمد العبدية : "مالك بن نبي": مفكر إجتماعي ورائد إصلاح، منتديات سور
الأزبكية، دار القلم الطبعة 1، دار القلم دمشق سوريا.
73. محمد عبد السلام الحفائري. مشكلة الحضارة عند "مالك بن نبي" .الدار العربية
للكتاب. ليبيا 1984.
74. محمد لبيب النجيجي: دور التربية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية للدول النامية ط2
دار النهضة العربية بيروت،
75. منير شفيق، الفكر الاسلامي المعاصر والتحديات، دار القلم، الكويت، ط2، 1993
76. النجيجي محمد لبيب : دور التربية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية للدول النامية
ط2 دار النهضة العربية بيروت 1981. -محمد محمود سفر: دراسة في البناء
الحضاري (محنة المسلم مع حضارة عصره) الطبعة الاولى 1409 هجري.
77. نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي عند "مالك بن نبي" منظور تربوي لقضايا
الاغبير في المجتمع المسلم المعاصر ط1 المملكة العربية السعودية الدار السعودية
للنشر والتوزيع 1998

78.نورة خالد السعد :التغيير الاجتماعي عند "مالك بن نبي" منظور تربوي لقضايا الاغبير في المجتمع المسلم المعاصر ط1 المملكة العربية السعودية الدار السعودية للنشر والتوزيع 1998

79.نورة خالد السعد:التغير الاجتماعي في فكر "مالك بن نبي":دراسة في بناءالنظرية الاجتماعية,ط1: الدار السعودية للنشر والتوزيع. ص 284

80.نيفين جمعة: فلسفة التاريخ عند أرلوند تومبي،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،1991

81.ويل ديورانت:قصة الحضارة: الجزء الرابع، ت زكي نجيب محمود ومحمد بدران، المجلد الأول،الجزء الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة مكتبة الأسرة – القاهرة -مصر

د - المراجع باللغة الفرنسية

- 82.Alexandru Tanase:Culture Civilisation Humanisme .Trad Du Roumain .Micaela Slavescu .Edition Meridiane .Bucarest 1974
- 83.Alexis De Tocqueville: De La Démocratie En Amérique , Première Partie Paris, coll. Bouquins, Éditions Robert Laffont, 1986.
- 84.Docteur Alexis Carrel :L'homme cet inconnu، Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France ce volume a été depose a la bibloiteque natioale 1937
- 85.Dominique de Courcelles -LE POUVOIR DES LIVRES À LA RENAISSANCE ،Études et rencontres،Éditeur Publications de l'École nationale des chartes،Lieu d'édition : Paris،Année d'édition : 1998
- 86.Edgar Morin،:Culture et barbarie européennes، Éditions Bayard، Paris، 2005.-
- 87.Ferhat Abbas. Guerre Et Révolution D'alger. T1(La Nuit Coloniale- Paris Julliard (1962)
- 88.Friedrich Nietzsche. Ainsi Parlait Zarathoustra:T.HenriAlbert.Edition Numerique
- 89.Garudy Roger، Promesses de l'islam، éd. Seuil، Paris، 1981-
- 90.Garudy،Roger Le projet espérance، éd. ROBERT LAFFONT، PARIS5

هـ-الدوريات والمجالات

91. أحمد سعيد مولاي ، إشكالية الحضارة عند "مالك بن نبي"، مجلة الموافقات، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، العدد الثالث، جوان 1994،
92. عائشة المناعي مظاهر التجديد في فكر "مالك بن نبي":مجلة المسلم المعاصر بقلم عبد الحميد الادريسي العدد 101 سبتمبر 2001
93. عبد السلام الهراس.ذكرياتي مع بن نبي.:مجلة الفيصل السعودية.العدد146
94. عبدالحليم عويس: الوظيفة الحضارية لأفكار "مالك بن نبي"، مجلة الفيصل، العدد 96،دار الفيصل الثقافية، الرياض شوال 1413هـ - ابريل (نيسان) 1993م،
95. عواطف الصقري: الفعالية في فكر "مالك بن نبي" وعلاقتها بالثقافة والحضارة"، المجلة التربوية الكويت

و- فهرس المصطلحات الأساسية عند "مالك بن نبي"

- Le Colonialisme: الاستعمار
- La Sensibilite A Coloniser : القابلية للاستعمار
- Idees De La Morte : الأفكار الميتة
- Idees Murtrieres : الافكار المميته -القاتلة
- Idees De Vengeance (Almakhdhlah) : الأفكار المخذولة
- Le Probleme Des Idees : مشكلة الافكار
- Le Monde Des Idées: عالم الافكار
- Le Monde Des Personnes : عالم الأشخاص
- Le Monde Des Choses : عالم الأشياء
- Civilisation : الحضارة
- société prés-civilisee : مجتمع ما قبل التحضر
- société civilisee : مجتمع التحضر
- société âpres civilisere : مجتمع ما بعد التحضر
- La Phase (Le Cycle) De Linstint (De La Chute : مرحلة الغريزة
- La Phase (Le Cycle) De Lame : مرحلة الروح
- La Phase (Le Cycle) D Esprit : مرحلة العقل
- Le Produit d une civilisation : المنتج الحضاري
- La poussiere : التراب
- Lhomme: الإنسان
- le temp : الوقت
- L Idee De Religieux: الفكرة الدينية

- شبكة العلاقات الاجتماعية: Reseau Derelations Sociales
- الكومنويلث الإسلامي: Comnwealth Islamique
- الأفرو-أسيوية: Afro-Asiatique

الفهرس:

/ كلمة شكر
/ الإهداء
أ مقدمة
16 الفصل الاول : "مالك بن نبي": النشأة والتكوين وبوادر التغيير
16 المبحث الاول: النشأة والتكوين
28 المبحث الثاني: بوادر التغيير
42 الفصل الثاني: حتمية التغيير
42 المبحث الاول: مفهوم التغيير ووسائله التغيير وأهدافه
45 المبحث الثاني الحضارة عند "مالك بن نبي"
127 الفصل الثالث ::البعد التربوي عند "مالك بن نبي"
127 المبحث الأول: التجديد الحضاري عند "مالك بن نبي"
157 المبحث الثاني: : معاني ودلالات التربية عند "مالك بن نبي"
183 الفصل الرابع : التربية والحضارة عند "مالك بن نبي"
185 المبحث الأول: أسس ووظائف واهداف نظرية "مالك بن نبي" التربوية
222 المبحث الثاني:التربية الاجتماعية عند "مالك بن نبي" قواعدها وشروطها
254 الفصل الخامس افاق البناء الحضاري
254 المبحث الاول: التربية الحضارية ودورها في اعداد وتكوين إنسان الحضارة
277 المبحث الثاني: مدى فعالية المعادلة الحضارية والنظرية التربوية ل"مالك بن نبي" في القرن الحادي والعشرون
295 خاتمة البحث

/ ملاحق البحث
307 مؤلفاته
310 قائمة المصادر والمراجع
319 فهرس المصطلحات الأساسية